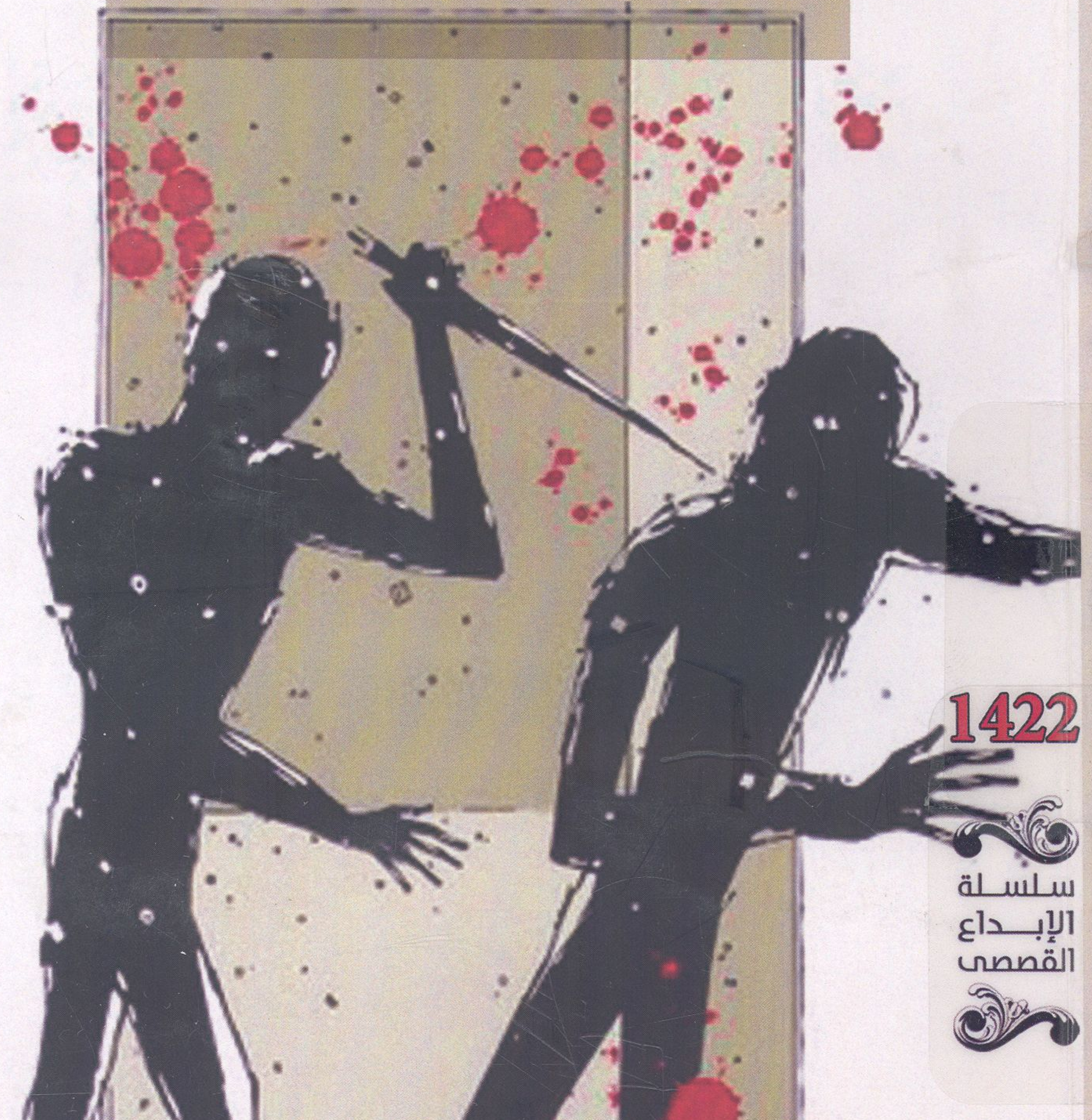
المركز القومى للترجمة

شافى آدم شافى

الخائن

ترجمة: محمد إبراهيم محمد أبو عجل
عبد الله معاوية



المشروع القومى للترجمة
1422
سلسلة الإبداع القصصى

الخائن

(رواية)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على سلسلة : خيرى دومة

- العدد: 1422
- الخائن
- شافى آدم شافى
- محمد إبراهيم محمد
- عبد الله معاوية
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية :
Haini
By Adam shafi

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House، El Gezira، Cairo
E mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الخائن

تــألـــيــف : شافى آدم شافى

تـــرجـــمـــة : محمد إبراهيم محمد أبوعجل

عبد الله معاوية



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شافى، شافى آدم

الخائن (رواية) تأليف: شافى آدم شافى؛ ترجمة: محمد إبراهيم محمد أبوعجل، عبد الله معاوية

ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠

٦٠٤ ص ، ٢٠ سم

١ - القصص الإنجليزية

(أ) أبوعجل، محمد إبراهيم محمد (مترجم)

(ب) معاوية، عبد الله (مترجم شارك)

(جـ) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٥١٦٧ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N 978 - 977- 479 - 944- 6

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

أهدى هذا الكتاب

لأمي

رزق مبايي موندوحا

مقدمة المترجم

تمهيد

تقع جزيرة زنجبار بالمحيط الهندى فى شرق إفريقيا، ويتكون شعبها من عدة أعراق رئيسية: أفارقة وعرب وهنود. وإلى جانب هذه الأعراق الرئيسية هناك بعض القمريين، والصوماليين، والمنحدرين من أصل برتغالى، وقلة من النوبيين.

وفى أبريل ١٩٦٤ تفاوض الزعيم كارومى رئيس زنجبار مع رئيس تنجانيقا جوليوس نيريرى على اتحاد فيما بينهما وقد كان. وبمقتضاه أصبح جوليوس نيريرى هو الرئيس وكارومى هو النائب الأول للرئيس. واحتفظت كل من تنجانيقا وزنجبار لنفسيهما بالمسئولية المستقلة فيما يخص الشئون الداخلية لكل منهما. وأصبح كارومى بذلك أول نائب لرئيس الجمهورية المتحدة (زنجبار + تنجانيقا) والتى سميت فى أكتوبر من نفس العام باسم تنزانيا.

موضوع الرواية:

تتناول الرواية موضوع اغتيال رئيس دولة زنجبار عام ١٩٧٢، وأن الذى اغتاله رميا بالرصاص هو الملازم حمدون الذى كان على وشك الترقية لرتبة نقيب، وهو صديق حميم للصحفى الشاب/ حمزة. وهذا الصحفى هو بطل الرواية التى بين أيدينا. وكان حمزة مع حمدون حتى ظهر أمس اليوم الذى تم فيه الاغتيال. وتمت مطاردة حمدون ومن معه فى الحال وتم قتلهم.

الأمر الذى تطلب القيام بعملية اعتقال واسعة لكل من يمكن أن تكون عنده معلومة تساعد على معرفة أبعاد هذه المؤامرة التى أدت إلى اغتيال الرئيس الذى أشير إليه فى الرواية بكلمة " الزعيم " وذلك فى محاولة لمعرفة كل من يمكن أن يكون متورطا فى هذه المؤامرة سواء أكان ذلك من دائرة المقربين إلى الزعيم أم من أفراد الشعب العاديين.

أهم الشخصيات:

وقبل التعريف بأهم شخصيات الرواية من المعتقلين المتهمين بالاشتراك فى هذا الاغتيال وإسقاط الحكومة يجدر بنا أن نعرّف أولا بشخصية الزعيم المغتال:

١ – الزعيم

هو شيخ عبيد أمانى كارومى ولد عـــام ١٩٠٥ وقتـــل عـــام ١٩٧٢. إنه زعيم سياسى زنجبارى وأصبح نائب الرئيس فى زنجبار لجمهورية تنزانيا . وكان أحد الزعماء الأفارقة.

وترجع أصول والدته فيما يبدو إلى منطقة رواند بورونـــدى. وانتقلت به والدته عندما كان طفلا إلى زنجبار. ونصيبه من التعلـــيم الأساسى متواضع.

وفى عام ١٩٢٠ أصبح بحارا يعمل على مراكب شحن خارج جزيرة زنجبار. وأصبح عضو اتحاد البحارة البريطانيين فيما بعـــد، وفى عام ١٩٣٨ رشح رئيسا لنقابة المراكب البخاريـــة التـــى تنقـــل الركاب بين موانئ السفن.

كان أول دخول له فى العمل السياسى فى عام ١٩٥٤ عنـــدما عين عضوا فى مجلس المدينة ، وبعد ذلك أصـــبح رئيـــسا لمنظمـــة اجتماعية للعمال المهاجرين الزنوج وتدعى جمعية زنجبار الإفريقية. فى عام ١٩٥٧ اتحدت هذه المنظمة مع الجمعية الـــشيرازية لتكـــوّن الحزب الأفروشيرازى الموالى لبريطانيا = ASP ويرأسه كارومى.

فى عام ١٩٥٧ أجريت على المستوى السياسى انتخابات فى زنجبار وكان أهم المتنافسين فيها حزب زنجبار الوطنى (ZNP) الذى يؤيده السلطان والمواطنون ذوو الأصول العربية، وحزب أفروشيرازى(ASP) .

وقد فاز حزب أفروشيرازى فى هذه الانتخابات وبعدها تدهورت العلاقات بين المواطنين ذوى الأصول العربية ونظرائهم ذوى الأصول الإفريقية.

وفى نوفمبر ١٩٥٩ تم تأليف حزب شعب زنجبار وبمبا (ZPPP) على أساس العضوية المفتوحة لكل الطوائف والأجناس، وعلى أساس عدم التورط فى تيار العداء العنصرى بين الحزبين (الوطنى وأفروشيرازى).

وفى يناير ١٩٦١ أجريت انتخابات تشريعية، ولكن لم ينجح فيها بالأغلبية أى حزب، فأعيدت الانتخابات فى يونيو من نفس العام.

وفاز حزب زنجبار الوطنى بعشرة مقاعد، وفاز حزب أفروشيرازى بعشرة مقاعد ، وفاز حزب الشعب بثلاثة مقاعد ، وتم بين الحزب الوطنى وحزب الشعب ائتلاف لتأليف الوزارة. وهنا ثار حزب أفروشيرازى ثورة عارمة أعقبتها أعمال عنف وتخريب واسعة النطاق امتدت إلى قرى زنجبار، واستمرت الحرائق والمذابح عدة أيام .

وقدرت الحكومة عدد القتلى بثمانية وستين قتيلا منهم أربعة وستون من أصول عربية، ووصل عدد الجرحى إلى أربعمائة.

ولم تهدأ الأحوال إلا بوصول القوات البريطانية وإعلان الأحكام العرفية فى البلاد. وعلى الرغم من ذلك فقد استمر تحالف الحزب الوطنى وحزب الشعب فى حكم البلاد حتى أعلنت بريطانيا منح زنجبار الحكم الذاتى فى بداية عام ١٩٦٣ على أن تجرى الانتخابات فى منتصف عام ١٩٦٣، وبعد إعلان نتائج الانتخابات يتقرر الاستقلال. ففاز الائتلاف الحاكم بحصوله على ثمانية عشر مقعدا. وفى التاسع من ديسمبر عام ١٩٦٣ تم إعلان استقلال زنجبار.

وبعد شهر واحد من إعلان الاستقلال فى ١٢ يناير عام ١٩٦٤، قامت ثورة دموية فى زنجبار أدت إلى إنهاء الحكم العربى، وكان زعيم الثوار أوغندى – يعمل فى زنجبار – يدعى "جون أو كيلو" كان قد قدم إلى زنجبار عام ١٩٥٦ وانخرط بعد ذلك فى صفوف حزب أفروشيرازى. وقد راح ضحية هذه الثورة ما يقرب من ثلاثة عشر ألف قتيل من العرب.

وفى أعقاب الثورة تم الإعلان عن قيام جمهورية زنجبار الشعبية وتولى رئاستها زعيم حزب أفروشيرازى / شيخ عبيد أمانى كارومى، وتم حظر حزب زنجبار الوطنى وحزب شعب زنجبار وبمبا .وقد كانت تنجانيقا قد حصلت على استقلالها فى التاسع من ديسمبر عام ١٩٦١.

وفى أبريل ١٩٦٤، أى بعد ثورة زنجبار الدموية مباشرة ، اتحدت كل من زنجبار وتنجانيقا لتكوين جمهورية تنزانيا المتحدة فى نوع من الفدرالية يسمح باحتفاظ كل طرف من الطرفين بنظام تشريعى وقضائى مستقل وكذلك الشئون الداخلية لكل طرف .أما الشئون الخارجية والدفاع فهى من شأن الحكومة المركزية.

وتولى جوليوس نيريرى رئاسة الدولة الجديدة وأصبح شيخ عبيد كارومي أول نائب للرئيس، وعمل فى دولة الاتحاد على تمجيد الثورة والقدح فى الحكم العربى وإلغاء إنجازاته.

وبعد أن تم الاتحاد تعرض اقتصاد زنجبار لركود شديد على الرغم من المساعدات الضخمة من دول الكتلة الشرقية آنذاك،وما ذلك إلا بسبب احتفاظ كل من تنجانيقا وزنجبار بعدم اتحادهما فى شئونهما الداخلية طبقا لخبراء الاقتصاد والعلوم السياسية .

وفى ٧ أبريل ١٩٧٢ تم اغتيال كارومى فــى مقــر حــزب أفروشيرازى فى تمام السادسة مساءً بزنجبار، ودفن فى قبر خــاص به أمام مبنى الحزب .

ويقال أن الذى اغتاله هو أحد المقربين إليه للغاية بإيعاز مــن الحكومة المركزية فى دار السلام.

ومن المفيد للقارىء أن توضع أمامه قائمة برؤســاء زنجبــار بعد الثورة وحتى الآن.

وعلى الرغم من أن زنجبار جزء من تنزانيا فــإن الجزيــرة تنتخب رئيسها الخاص بها والذى يترأس حكومة شئونها الداخلية.

الاسم	في الرئاسة	خارج الرئاسة
شيخ عبيد أماني كارومي	١٢ يناير ١٩٦٤	٧ أبريل ١٩٧٢
شيخ موريني عبود جومبي	١١ أبريل ١٩٧٢	٣٠ يناير ١٩٨٤
علي حسن موريني	٣٠ يناير ١٩٨٤	٢٤ أكتوبر ١٩٨٥
إدريس عبد الوكيل	٢٤ أكتوبر ١٩٨٥	٢٥ أكتوبر ١٩٩٠
سالمين آمور	٢٥ أكتوبر ١٩٩٠	٨ نوفمبر ٢٠٠٠
أماني عبيد كارومي	٨ نوفمبر ٢٠٠٠	حتى الآن

٢-حمزة

إنه الصحفى الشاب والصديق الحميم لحمدون الذى اغتال الزعيم. فكان من المتهمين الرئيسيين الذين تم اعتقالهم بعد الاغتيال مباشرة . وكان ذلك فى الصباح الباكر أثناء تواجده فى بيت والدى زوجته خديجة التى كانت مع والديها بعد أن رزقت منه بمولودة.

تم اقتياد حمزة إلى السجن، ومن هنا بدأت رحلة عذابه فى السجن ، ورحلة معاناة زوجته خديجة فى بيت أبيها مفتاح وأمها فاراشو، على مدار سنتين فى سجن كومبا كومبا. ذاق حمزة المر فى هذا السجن وذاق الأمرين عندما نقلوه إلى معتقل التعذيب المعروف باسم Ba mkwe لاستجوابه من قبل ضباط الجيش ومسئولى الأمن. فقد تعرض لعمليات تعذيب وحشية تفوق الوصف تسوقها الرواية بالتفصيل لمجرد أنه استمسك بمصداقيته فى عدم تورطه فى عملية الاغتيال هذه، فألقوا به بعد عمليات التعذيب فى زنزانة فيها موتى وقتلى من عمليات التعذيب هذه.

ولما يئسوا من إجباره على الاعتراف بالتورط، حاولوا إغواءه بكل الوسائل كى يكون شاهد زور معهم ضد من لفقوا لهم تهم التورط فى الاغتيال وقلب نظام الحكم.

ولكن حمزة قاوم كذلك هذا الإغواء الذى وصل إلـــى حـــد أن وعدوه بالإفراج عنه بعد الامتثال أمام المحكمة لتقديم شهادة الـــزور هذه مباشرة ، فكان جزاؤه منهم أن ألقوا به عريانا فى زنزانة ظلماء، ملتهبة الحرارة، مليئة بمزارع الباعوض المفترس، ولم يعيدوه إلـــى زنزانته فى كومبا كومبا إلا قبيل تحوله إلى جثه هامدة .

كان حمزة خبيرًا فى مواساة نفسه ومواســاة الآخــرين مـــن المتهمين معه فى نفس الزنزانه، وفى تـسليتهم بألعـــاب يقـــوم هـــو باختراعها لهم لقتل وقتهم الثقيل البطىء. فمارسوا فيما بيـــنهم لعبـــة الدومينو والكوتشينة، وما إلى ذلك.

علاوة على هذا فإنه كان كثيرا ما يكرر مقولته "ســنخرج لا محالة" لا لشىء إلا ليزرع الأمل فى نفسه وفى نفوس زملائه معـــه. وكان يتعاطف كثيرًا وهو فى زنزانته مع صبى اسمه عيد فى مرحلة التعليم الثانوى ، وقبض عليه وتم اعتقاله هو وجميع أفراد أســـرته لا لشىء إلا لمجرد أنهم جيران حمدون فى السكن. فلما ذهبوا إلى سكن حمدون لاعتقال كل من فيه لم يجدوا أحدًا فيه ، فتحولوا إلـــى بيـــت الجيران واعتقلوا كل من وجدوه فيه، فكان من بين من وجدوه عيـــد هذا.

ولما جاء وقت الامتثال أمام المحكمة وحاول محامى الادعـاء وهو تشوبرا أن يلفق له تهمة التورط فى الجريمة ، تمكن حمزة مـن تفنيد كل نقاط الادعاء والاتهامات المنسوبه إليه.

وعليه تم الإفراج عنه بعد تبرأة ساحته من التورط فى عمليـة الاغتيال هذه.

ولحسن الحظ فإن مؤلف هذه الرواية وهو آدم شافى أفصح فى الآونه الأخيرة، وفى لحظة انسجام مع أصدقاء له يعملون بالـصحافة بإنجلترا وهولندا وبلغة الإشارة والتلميح الواضح بأنه هو حمـزة. أى أن بطل الرواية حمزة كان هو آدم شافى على أرض الواقع والحقيقة داخل السجن. مما يجعل للرواية مذاقا خاصا يجمع وبحق بين ما فيها من الخيال الأدبى والواقعية.

٣- خديجة

هى زوجة حمزة. وبدأت حياتها الزوجية معه صـابرة علـى مغامراته النسائية قبل الدخول بها، بنيَّة أنها ستصلح من حاله بعـد أن تدخل عليه. وفعلا نجحت بعد دخول حمزة بها فى تقـويم سـلوكياته الجنسية حتى جعلته زوجا مستقيما أنجبت منه طفلتها الوحيدة صابرة.

بدأت معاناة خديجة بعد إلقاء القبض على زوجها. وكان أول هذه المعاناه طردها من منزلها المؤجر بعد أن عجزت عن دفع الإيجار، فاضطرت إلى الانتقال إلى منزل أسرتها لتعيش مع والديها وأختها زالحاتا. وأخذت تكافح وتناضل لكسب لقمة العيش لنفسها ولرضيعتها عن طريق مساهمتها فى الأعمال المنزلية وقضاء مصالح منزل والديها. وفى إحدى مرات قضاء هذه المصالح المتمثلة فى الذهاب لإحضار حصة التموين الخاصة بأسرتها رآها عزيز الذى يعرفها ويعرف زوجها.

إنه المدير العام لشركة تصدير الأسماك ويعرف الكثيرين من مسؤولى الحكومة . إنه شخصية انتهازية ماليا وعاطفيا .فما أن رآها -- وهو يعلم بحياة حمزة داخل السجن – حتى حاول معها بكل الطرق أن يستميلها عاطفيا عن طريق العزف على وتر حبها لزوجها حمزة، قائلا لها أنه يحمل رسالة إليها، فى سياق يدل على أن الرسالة قادمة لها من حمزة ، ومدعيا أنه بإمكانه العمل على الإفراج عن حمزة، وذلك بقيامه بالوساطة له عند كبار مسئولى الحكومة للإفراج عنه.

فدعاها إلى منزله ليعطيها الرسالة، ولكنها ألحت عليه فى مكانها أن يعطيها إياها فى التو واللحظة. ولكنه رفض متحججا بأن الرسالة تحتاج لخلوة. ورفضت هى الأخرى عرضه عليها بتوصيلها

بسيارته للمنزل. وبعد عدة مرات من قيامه بمثل هذه الملاحقات ورفضه فى كل مرة أن يعطيها الرسالة إلا فى مكان خال من المارة، استجابت خديجة للذهاب معه إلى حيث يريد.

ولما وصلا إلى منزل مهجور قام بعمل المستحيل لإثارتها عاطفيا، ولما فشل فى مراودته لها عن نفسها دفعها بقوته حتى أرقدها على سريره محاولا اغتصابها. ولكنها بمقاومة مثيرة فصّلها المؤلف تفصيلا استطاعت أن تضربه بركبتيها فى خصيتيه مما جعله عاجزًا عن الدفاع عن نفسه فنهضت مهرولة إلى بيتها دون أن يتمكن منها.

فهى مع معاناتها وفقرها وإرهاقها وحرمانها من المعاشرة الزوجية لمدة عامين صبرت وحافظت على عرضها وعرض زوجها وصيانة فرجها من الآثام والأوجاع.

٤- السيد / مفتاح وزوجته

والد خديجة. رجل سواحيلى نمطى متدين ينتمى إلى طبقة عامة الشعب. فهو المحافظ على أداء الصلوات الخمس فى المسجد، متوكلا على الله، متحليا بالصبر، مشجعا ابنته خديجة على الصبر، داعيا الله لها ولزوجها أن يفرّج كربهما. وكذلك كانت زوجته فاراشو.

وكعامة المسلمين السواحيليين الذين لديهم شيء من القرآن الكريم وشيء من التراث الإسلامي المحفوظ كان يستقبل بسطاء القوم من الأميين، ليرفع عنهم أثر الحسد أو المس من الشيطان وما إلى ذلك، بواسطة قراءة بعض الآيات القرآنية أو بعض الأدعية المأثورة نظير قليل من الشلنات. تلك الشلنات التي كان ينفق منها على أهل بيته، ومنهم خديجة وابنتها صابرة. ومع شظف العيش وفقر الحال كان حب الزوجين واحترامهما لبعضهما البعض هو المخيم على الأسرة معطيا إياها الهدوء والمودة والرحمة، مثلها في ذلك مثل آلاف الأسر السواحيلية في شرق إفريقيا.

٥- سرور

إنه أحد المتهمين بالتورط في عملية اغتيال الزعيم وإسقاط الحكومة، مثله في ذلك مثل حمزة. وعلى الرغم من أن المتهمين الذين ورد ذكرهم في الرواية يتجاوز عددهم الخمسين فإنه سيتم الاكتفاء بأشهرهم وهو سرور، نظرا لأنه الوحيد منهم الذي وضع خطة للهروب من السجن، ونجحت خطته في الهروب منه، لكنه سرعان ما تم القبض عليه ثانية والزج به في غياهب السجون لفشله في عملية التخفي والتنكر بعد الهروب.

كان سرور يعمل حمالا فى الميناء البحرى لزنجبار، كان قوى البنية ، مقداما فى الدفاع عن حقوق جميع الحمالين فى الميناء، جريئا فى رفع الظلم عن المظلومين من زملائه. هذه الصفات جعلته يشتبك مع الشرطة حين ألقت القبض عليه واقتادتـــه إلـــى الـــسجن متهمـــا بالتورط فى عملية الاغتيال، وألقت به فى السجن مع حمـــزة. قـــام بوضع خطة للهروب من السجن رغم أنه يعلم أن أى خطأ فى التنفيذ يمكن أن يودى بحياته، وحاول إقناع زملائه بالاشـــتراك معـــه فـــى الهروب ولكن أحدا منهم لم يقتنع.

فقام بمفرده بالتنفيذ، ونجح فعلا فى الهرب بعد أن أوشك على الموت بطلقات رصاص الحارس التى مرت بمحازاة رأســـه. ولكـــن نظرًا لقيام الحكومة بحملة تفتيش واسعة النطاق فإنها تمكنـــت مـــن القبض عليه وإعادته إلى زنزانته بعد أن أذاقوه العذاب ألوانا. ولكـــن فكرة الهروب لم تغب عنه أبدا على الرغم من كل ذلك. ومثله مثـــل حمزة رفض التوقيع على اعترافات لفقوها له، وتحمل من جراء ذلك الضرب المبرح.

هذا من ناحية شخصيات المتهمين فى القـــضية وأحـــوالهم. تتبقى مجموعتان من شخصيات الرواية يجب التعريـــف بـــأهم كـــل منهما: مجموعة السجانين و مجموعة القضاة ومحامى الادعاء.

أهم شخصيات السجانين بالرواية والذين يمثلون الشخصيات المحورية فيها هما العقيد بونجو والحارس كيفوبى

٦- العقيد بونجو

إنه كبير مستشارى الزعيم ، وكان له الدور الرئيسى فى كل القرارات التى اتخذها الزعيم. كان محل ثقة الزعيم التامة، فكان يستشيره فى كل أمور الدولة صغيرها وكبيرها، ويرافقه فى حله وترحاله، حيثما ذهب الزعيم تجده معه.

وكان الزعيم لا يشبع من وجبة إلا إذا رآه، ولا يمكنه النوم إلا إذا جلس معه حتى منتصف الليل يسمع منه ما يجرى فى الدولة ويستمع إلى مشورته فى كل أمر ، علاوة على كونه أمين سره.

كل ذلك ولّد عند العقيد بونجو شعورا بأنه هو الرئيس الفعلى للبلاد، مما جعله يطمع فى اعتلاء كرسى الرئاسة عند وفاة الزعيم أو إصابته بأى مكروه؛ مما ولد عند المقربين منه شعورًا بأنه ليس بمستبعد عليه أن يكون هو المخطط لعملية اغتيال الزعيم ليستولى على كرسى الرئاسة؛ ودليلهم فى ذلك أن عملية الاغتيال سبقتها عملية سطو وسرقة لمخزن السلاح والذخيرة ولم يهتم العقيد بونجو

بملاحقة الجناة إلا بعد الاغتيال. وبعد أن فوجىء العقيد بونجو بأن شخصا آخر هو الذى اعتلى كرسى الرئاسة، عندئذ قاد بنفسه عملية المطاردة والملاحقة للمتورطين. وقاد عملية تلفيق التهم بالطريقة التى تباعد بينه وبين تورطه، مستغلا فى ذلك قوة نفوذه فى كل أركان الدولة. وقاد كذلك عمليات التعذيب لكل من يمتنع ويرفض تنفيذ ما يخطط له، ومنها تعذيب المتهمين الأبرياء لإجبارهم على الاعتراف بأنهم هم المسئولون عن الاغتيال أو على أن يكونوا شهود زور ضد زملاءٍ لهم.

هكذا تجرد العقيد بونجو من كل المشاعر الإنسانية، وعامل المتهمين الأبرياء بكل قسوة وغلظة لا تخطر لأحد على بال، وسوف يتعرف عليها كل قارىء للرواية.

٧- كيفوبى

إنه النائب لرئيس معتقل التعذيب. شأنه شأن العقيد بونجو. لعب دورا رئيسيا فى التعامل مع تعذيب المتهمين.

أطلق عليه مؤلف الرواية اسم كيفوبى نيوندو، وهذا باللغة السواحيلية يعنى "المطرقة القصيرة" إشارة منه إلى قصر قامته وغلظة قلبه وصلابته.

وللقارىء أن يعلم أن قسوة هذا الرجل القصير شاعت وسمع عنها جميع أهل زنجبار لدرجة أنهم يحكون قصة حقيقية عنه تقول أنه قبل موته أصيب بمرض مجهول ليس له علاج، جعل جسده يتحلل ويتساقط قطعة قطعة تنبعث منه رائحة كريهة للغاية إلى أن مات.

هذا ما يحكيه على أرض الواقع أهل زنجبار، قائلين أن جزاء ظلمه قد لحقه فى الدنيا قبل أن يلحقه فى الآخرة.

أما محامى الادعاء وفريق القضاة الذى حكم فى القضية يتمثلون فى الشخصيات التالية:

٨- تشوبرا

إنه محام من أصل هندى، بارع فى إدارة مرافعاته أمام المحكمة ، ذاع صيته فى جميع أرجاء زنجبار بسبب ما يتمتع به من كفاءة وقدرة عالية فى دحض مرافعات خصمه عن طريق الالتفاف حوله بكمٍّ من الأسئلة المربكة له حتى يجد نفسه فى موقف صعب.

ما كان يتمتع بإخلاص للبلاد وإنما كان إخلاصه لنفسه، ثم لشخص الحاكم حتى وإن كان الحاكم أجنبيا.

فأثناء الحكم البريطانى لزنجبار كان تشوبرا يحظى بثقة كاملة غير منقوصة من الحكام البريطانيين، وكان يضرب به المثل في الولاء لهؤلاء الحكام.

ولما جاء عهد السلاطين البوسعيديين وحكموا زنجبار حظى معهم بنفس الثقة حتى جعلوه كبير المستشارين لهم في الشؤون القانونية .

ولما قامت الثورة في زنجبار وأطاحت بحكم السلاطين وقام الزعيم بتولى الرئاسة تزلف إليه تشوبرا، وأظهر له إخلاصه وموهبته وكفاءته فجعله المدعى العام لحكومته، وكلفه بسن القوانين الذى يراها. وهنا أصبح تشوبرا المدافع القوى للثورة وسياستها.

وبدهائه السياسى والقانونى تمكن من إدخال معظم المتهمين موارد الهلاك من خلال الشهادة الزور وإعداد الأسئلة المربكة والمحرجة التى توقع بالخصم.

فكم من مذنب تمكن تشوبرا من تبرىء ساحته، وكم من برىء تمكن من إدانته !! هكذا كان تشوبرا.

أما فريق القضاة وطاقم المستشارين فيها فكانت الحكومة الثورية قد اختارتهم من غير أهل التخصص. وكانوا من ثلاثة أعضاء على النحو التالى:

٩- مصدق

وهو رئيس هيئة المحلفين، وهــو أصـــلا مـــدرس للـشريعة الإسلامية والتفسير فى المعاهد الإسلامية نهــارًا، وواعظًـــا لــرواد المساجد ليلاً.

١٠- باندو

وهو مساعد رئيس هيئة المحلفين، وهو أمى لم يدخل مدرســة ولم يدرس قانونا، وإنما كان ســماكًا يتـــاجر فـــى الـــسمك بــسوق الأسماك!!

١١- جونجو

وهو المساعد الثانى لرئيس هيئة المحلفين بالمحكمة . ولم يتلق تعليمًا شرعيًا ولا مدنيًا، ولم يلتحق حتى بفصول محو الأمية، وإنمـــا كان لبانًا يبيع اللبن فى الشوارع والأزقة على دراجته مناديًـــا علـــى زبائنه!!

وكانت حكومة الثورة قد اختارت هؤلاء بعد أن قامت بإلغاء المحاكم التى كان يديرها متخصصون فى الشئون القانونية بذريعة أن هؤلاء الخبراء المتخصصين بإمكانهم أن يجعلوا من الكذب صدقًا ومن الصدق كذبًا ببراعتهم ومهارتهم فى معرفة الثغرات القانونية!! فأنشأت الحكومة الثورية ما يعرف بالمحاكم الشعبية والتى يديرها أمثال هؤلاء الثلاثة الذين لا خبرة لهم بالإجراءات القانونية التى يجب اتباعها ولا بماهية القوانين أصلا!! مما سمح بانتهاكات صارخة لحقوق الإنسان وحقوق المساجين بأوامر من السلطات التنفيذية كما توضح الرواية.

وفى النهاية لعل سائلاً يسأل عن خلفية البيئة الثقافية كما تفهم من الرواية نفسها ؟

إن القارىء لهذه الرواية يظهر له أن بيئتها الثقافية بيئة إسلامية إفريقية.

فالمساجين يصلون الصلوات الخمس فى زنزاناتهم، والشيخ ماندوندو فى زنزانته يدعو من معه لصلاة الجماعة، وللتوجه إلى الله الواحد الأحد بالدعاء لتفريج كربهم وإخراجهم من ضيقهم فى السجن،

كما أنهم صاموا رمضان فى سجنهم، وحتى إدارة السجن غيرت مواعيد صرف الوجبات الغذائية لهم لتتفق مع مواعيد الإفطار والسحور. وهذا فى جانب العبادات.

أما فى جانب المعاملات الإنسانية فإن إدارة السجن ارتكبت انتهاكات يجرمها الإسلام وتجرمها كل الأديان، بل وكل قوانين البشر الوضعية. والرواية تعتبر من هذا الجانب صرخة حق فى ضمير البشرية بأن يعملوا على احترام حقوق الإنسان الذى كرمه خالقه بغض النظر عن عرقه ودينه وتاريخه وجغرافيته وعاداته وتقاليده وثقافته.

أما فى جانب العادات والتقاليد الإفريقية فإن الرواية لم تخل من التعويل على السحر والشعوذة وقراءة الغيب لتحقيق الآمال وإبعاد الآلام، وإن كان ذلك ضد تعاليم الإسلام. فالزنزانات لم تخل ممن يشيع أنه قارىء للكف، وخديجة نفسها ذهبت إلى المشعوذين من وراء أسرتها فى محاولة لمعرفة مصير حمزة وكيف تساعده، وإن لم تواصل مشوارها فى هذا، ورأت من ضمن ما رأت عند المشعوذ تلك المرأة التى تعالج من مس الشيطان !!

هذه القصة خيالية فقط . وإذا حدث بأى حال من الأحـــوال أن تطابقت شخصية من شخصيات هذه الرواية مـــع فــرد مــن أفــراد المجتمع حيًا كان أم ميتًا فإن ذلك لم يك إلا مجرد صدفة.

شكر

أود أن أقدم خالص شكرى إلى كل من ساعدنى وقت كتابة هذه الرواية. فأشكر الصندوق الثقافى التنزانى الذى قام بالتمويل كى أتمكن من إتمام كتابة مسودة هذا الكتاب.

كما أقدم شكرى إلى الأستاذ الدكتور حرب عثمان Haroub Othman الذى قام بمراجعة هذه الرواية أولاً بأول مع تقديمه النصح والتشجيع لى على المواصلة حتى النهاية.

أشكر كذلك الأستاذ الدكتور مولوكوزى M.Mulokozi الذى قام أيضًا بمراجعة مسودة هذا الكتاب مراجعة دقيقة وأسدى إلى النصح الأمين حتى تأتى الرواية فى أفضل صورة.

وأخيرًا وليس آخرًا أشكر زوجتى فاطمة معلم Fatma Maalim التى لازمتنى طوال وقت كتابتى لهذه الرواية.

لهؤلاء جميعًا أقول أشكركم شكرًا جزيلاً.

الفصل الأول

كان في أول زواجه من خطيبته التى أطال معها فترة الخطوبة، والتى صبرت على كل أفعاله المشينة التى أهانتها قبل الدخول بها. فقد حدث أن ضبطته متلبسًا مع امرأة فى الغرفة. وقد حدث أن أهينت من عاهراته. وحدث أن رأته وجهًا لوجه فى الشارع يحتضن صبية وهو سكران حتى الثمالة.

إن حمزة Hamza لم يترك فعلاً مشينًا يحرج خديجة Khadija إلا وارتكبه. ولكن خديجة ألهمها الله الصبر. فتحملت كل ذلك. وتجاهلت هذا وذاك. وأغمضت عينيها، وسدت أذنيها، فأصبحت لا ترى ما يفعل فى حقها أمام عينيها ولا تسمع ما يقال لها من الفتانين المحيطين بها.

وها هى الآن قد تزوجت وتعيش حياتها الزوجية. فأحكمت سيطرتها على حمزة. ولا فرار له منها. حتى عمله الصحفى لم يعد هو شغله الشاغل كما كان من قبل عندما كان يتجول فى جميع أرجاء مدينة زنجبار باحثًا ومستطلعًا كل ما يسمع حتى يرسله سريعًا للجريدة كى يقرأه الناس فى اليوم التالى .

واليوم، تشير الساعة إلى السادسة مساءً، حيث يجلس حمزة مع أصدقائه فى غرفة المعيشة منتظرين نشرة الأخبار من إذاعة صوت زنجبار. وقد طاب بينهم الحديث. ولتدخينهم بشراهة انتشر الدخان فى كل أركان الغرفة. والغرفة نفسها جميلة المنظر تسر الناظرين. ففيها السجاد العجمى المزركش بالورود الجميلة فى وسطه والمفروش فى كل الأركان. وهناك على الحائط صورة كبيرة لحمزة وخديجة متعانقين. وفى الحجرة ستة مقاعد من الأبينوس عالى الجودة وعليها وسائدها المغطاة بالحرير الأحمر موزعة فى كل أركان الحجرة. وفى كل ركن هناك منضدة صغيرة بجوار المقعد عليها طفاية سجائر. وفى وسط السجاد هناك منضدة كبيرة عليها زهرية كبيرة مليئة بالأزهار البلاستيكية.

وكان حمزة يجلس على كرسى واضعًا رجله اليمنى على اليسرى، محركًا إياها فى حركة تناغمية مع صوت موسيقى هادئ من المذياع. سحب سيجارة يدخنها وأخرج دخانها على شكل سحب متقطعة تتواصل ببطء وتجد طريق خروجها من النافذة. وكل من قاسم، وفاضل، وپانجو فى حالة صمت منتظرين نشرة أخبار الساعة السادسة. وتأتى الساعة السادسة ولكن دون نشرة على الإطلاق.

"هل المذيعون نائمون" سأل حمزة مازحًا. وحتى قبل أن يرد عليه أحد جاء صوت يدوى تو– تو – تو. "أليس لدى هؤلاء الهندوس علم بأن فرقعة البمب محظورة هذه الأيام؟" سأل فاضل.

"بمب؟" سأل حمزة.

"أجل! أليس فى احتفالات ديوالى Diwali ما يحتم على الهندوس أن يفرقعوا البمب ويطلقوا الألعاب النارية؟" أضاف فاضل.

"هذا ليس باليمب ولا بالألعاب النارية. وإنما هى طلقات، ثم إنها طلقات رشاش" شرح پانجو، الجندى المخضرم الذى بدأ العمل فى الجيش مجندًا حتى وصل الآن إلى رتبة الرقيب.

"طلقات؟" فاضل سأل مندهشًا. "هل مازال الجنود مستمرين فى صيد الغربان؟"

"إن الغربان لا تصطاد بالرشاش. وإنما تصطاد ببنادق الصيد، ولكن ذلك الصوت هو لطلقات رشاش" شرح پانجو ذلك متباهيًا بخبرته فى استخدام الأسلحة.

وقف حمزة يختلس النظرات من نافذة غرفة معيشة شقته التى فى الطابق الأول فى منزل صغير مكون من طابقين. والبيت نفسه وسط منازل أخرى متلاصقة مما جعل الحى كله أزقة ضيقة، وهذه سمة لمدينة زنجبار.

كان يهذب شاربه الكثيف تحت أنفه المفلطح. كان متوسط القامة وفى موقفه عند النافذة بدا وكأنه أصيب بالدهشة.

" كيف؟" پانجو سأل.

"أرى الناس يجرون!" رد عليه حمزة. "فلنخرج" أمر پانجو. إنه رقيب قديم، تعود على إصدار الأوامر والعمل على تنفيذها فورًا. فخرجوا جميعًا، متتابعين كالعساكر، يلاحق كل منهم الآخر فى النزول على السلم مهرولين. تركوا المنزل فارغًا؛ خديجة ما كانت هناك إذ إنها ذهبت إلى مسقط رأسها للولادة وما عاد حمزة يركز فى البحث عن الأخبار بقدر تركيزه فى زوجته وولادتها. وقد وضعت خديجة مولودة منذ أسبوعين فى مسقط رأسها كيسيماماچونجو Kisima majongoo. كان المغرب على وشك الانتهاء وبدأ ظلام خافت يحل. ومازالت السماء مزينة باللون الأزرق المختلط بالبنى، وفيها تداخل وتبعثر. ثم تجمعت وتراصت فى مجموعات زعفرانية اللون ومجموعات ذات دخان كثيف. حمزة وجد نفسه وحيدًا يمر فى أزقة ضيقة فى حى مالیندی Malindi حتى طلع على شارع الجسر الرئيسى. وهو لم يعرف أين افترق هو وأصحابه.

وحى الجسر Darajani المعروف بحيويته فى مثل تلك الساعة كان مشلولاً، فالناس فى مثل هذا الوقت، وبعد صلاة المغرب، عادة

ما ينتشرون فى المجالس هنا وهناك، ويتجاذب بعضهم أطراف الحديث وهم جالسون على مقاعد أصحاب المقاهى يحتسون القهوة السادة التى تم غليانها على أكمل وجه.

حمزة وجد نفسه وحيدًا. لم يجد ولو شخصًا واحدًا على الأقل ليسأله "ما حدث؟" مدَّ بصره على طول شارع الجسر فأبصر سيارة بعد أخرى قادمة من كيسيوا ندوئى Kisiwandui متجهة إلى منازى مموجا Mnazi Mmoja وعندما وصل إلى كيموتو Kimoto قابل فى الاتجاه المعاكس صبيًا يجرى فجرى خلفه يسأله، "ما حدث؟" " آه...آه...آه عساكر!"

"ماذا فعلوا ؟"

ذلك الصبى لم يكترث حتى بما يسأل عنه بل زاد فى سرعة الجرى حتى اختفى فى أزقة مكونازينى Mkunazini. أسرع حمزة فى سيره، وسلك شارع ميتشينزانى Michenzani. فجأة تقابل مع شخص مسرعًا ينظر هنا وهناك كالمجنون. "ماذا حدث ؟" سأل حمزة.

" يا أخى مر أشخاص هناك فى الجسر وأطلقوا نارًا عشوائيًا ثم لاذوا بالفرار داخل سيارتهم!" ذلك الشخص عبر شارع ميتشينزانى، ودخل فى ويليس Weles واختفى نهائيًا داخل أزقة كيكواجونى Kikwajuni . أزاد حمزة من سرعة السير، وهو وحده فى الشارع،

ينظر إليه الفضوليون الذين أطلوا برؤوسهم من غرف معيشة منازل ميتشينزانى. وهم أيضًا أصابتهم الفضولية لمعرفة ما حدث .

وقبل أن يتجاوز مدرسة كيسيوا ندوئى قابله جندى من وحدة مكافحة الشغب FFU وفى يده بندقية وفى وضع الاستعداد لإطلاق النار فى أية لحظة.

"من أنت ؟" سأله الجندى بحدة وشدة.

"أنا حمزة!" أجاب وقلبه يخفق رعبًا وخوفًا، ورأى أن أجله قد حان اليوم.

" أين تذهب ؟"

" إلى المنزل!"

" هيا أسرع"

ترك شارع ميتشينزانى الرئيسى ودخل طريق مسيكيتى نامبارى Msikiti Nambari وجرى بسرعة حتى كيسيماماچونجو ولما وصل إلى أهل خديجة دفع الباب كاللص الذى أراد كسره. كان الباب مغلقًا. فطرقه بشدة حتى فتحته له أخت خديجة الصغيرة زالحاتا Zalhata.

"أين أختك ؟"

" فى الحجرة" أجابته زالحاتا وصورتها تقول بوضوح إنها لا تفهم شيئًا. دخل مباشرة إلى الحجرة ووجد خديجة جالسة على السرير وفى حضنها مولودتها يمتلئ فمها بثدى أمها تمصه مصًا دون علم بمجريات الأمور. لا تعرف شيء عن هذه الدنيا على الإطلاق، فدنياها هو ذلك الثدى الذى هو راحتها ولذتها وحياتها.

جلس حمزة على السرير وقلبه يخفق ناظرًا إلى خديجة دون أن ينطق بشيء. ولما عادت ضربات القلب لمعدلها سأل خديجة " ما الأخبار؟" "لا تضحكنى يا حمزة! أتكون أنت الذى جئت من الخارج، ثم تسألنى وأنا التى بالداخل ما الأخبار، هل تحولت إلى سحلية مستترة؟"

"افتحى المذياع، على صوت زنجبار" طلب حمزة دون رغبة فى معرفته قصة السحلية المستترة.

خديجة لم تشأ أن تقطع متعة رضيعتها، متعة حلمة ثدى الأم. فنادت أختها: "زالحاتا!"

"لبيك!" صوت طفولى مرتفع جاء من المطبخ.

"هيا افتحى لنا على صوت زنجبار"

وسرعان ما امتلأ البيت بصوت زنجبار. استمع حمزة إلى المذياع بشغف متوقعًا أن يسمع أخبارًا ما مهمة، ولكن لم يتم إذاعة أي شيء. لا شيء سوى عزف للموسيقى العسكرية العزف تلو الآخر. الآن استرخى حمزة على الأريكة، ومدد نفسه لتخفيف القلق الذى انتابه. أخرج علبة السجائر وسحب منها سيجارة واحدة ولكن قبل أن يضعها بين شفتيه صرخت فيه خديجة: "آآآآ! لا تدخن فى وسطنا، ألا ترى أن هناك رضيعة، وكيف تدخن سجائرك هذه طوال الوقت ولا تتخلى عنها؟ "

نظر حمزة إلى خديجة وابتسم، وابتسمت خديجة كذلك، وهنا رأى حمزة نفسه فى عالم آخر، عالم ملىء بحبهما، حب اثنين تحابا وقد ازداد الآن هذا الحب بأن أنجبت له طفلة.

ترك الأريكة وتبع خديجة على السرير وجلس معها جنبًا بجنب. وبدأ يداعب الرضيعة من خديها: "تو – توووو، تشو تشووووو." وأراد حملها.

"انتظر حتى تنتهى من الرضاعة" قالت له خديجة.

استمر صوت زنجبار يعزف الموسيقى العسكرية، وشعرت خديجة أن الموسيقى بدأت تزعجها. حيث أنها كانت تود أن تستمع إلى موسيقى الطرب التى كانت ستثير نار الحب فى الغرفة هناك.

وهى مجرد غرفة صغيرة كل شيء فيها مرتب بعناية كى يستغل كل شبر فيها استغلالاً جيدًا.

وتحتوى تلك الغرفة على سرير مقاسه ثلاثة أقدام ونصف موضوع تحت النافذة، كرسيان على جانبى السرير. سجادة من ألياف جوز الهند مفروشة أمام السرير. منضدة صغيرة من خشب الساج موضوعة بشكل جيد فى ركن الحجرة بالقرب من الباب، فوقها حفاضات مطويات بشكل جيد. صابون أطفال، بودرة وزيوت أطفال. تحت تلك المنضدة إناء استحمام الأطفال، وتحت السرير قدر ملىء بأعشاب الچيمبو (*) Jimbo. وكل هذه المواد جعلت الحجرة تفوح منها رائحة الولادة مما يعطى أملاً فى حياة جديدة للرضيعة ووالديها.

بدت خديجة فى ريعان شبابها، الجسد الممتلئ الذى يشير إلى العناية الفائقة بها فى مسقط رأسها بعد الولادة، الخدان المنتفخان كالفطائر الحلوة جيدة التخمير. وجهها تعلوه فرحة التأكد من أنوثتها، الأنوثة التى فجرت فى زوجها الرغبة والأمل، أمله فى أن تلد له.

صدرها ممتلئ عن آخره بثدييها، وكيفما جلست ينكشفان فتلقى عليهما بالرداء الذى تتغطى به، مع استمرار رضيعتها فى مص الثدى دون توقف.

(*) وهى أعشاب طبية تستخدم خصيصًا عند استحمام الأطفال المولودين حديثًا، وتعطى كذلك للأم بعد الولادة على هيئة شوربة مطهرة.

كل هذا وصوت زنجبار مستمر فى عزف الموسيقى العسكرية دون إذاعة أى شىء، أو حتى على الأقل سماع صوت المذيع فى شىء. وقد دخل الليل، الليل ذو الهدوء الصامت حيث لا يوجد بالخارج ما يسمع من حركة ذهاب وإياب. ولا تسمع اليوم الأصوات الجميلة للأطفال الذين يلعبون بالليل وهم يغنون أغانيهم الخاصة بلعبة الحلقة Ukuti(*) أو لعبة النحلة المتطفلة أو "ابحث عن زوجتى"، مما أفقد الليلة طعمها فى منطقة الضفة التابعة لمدينة زنجبار.

ساد الهدوء والصمت. خديجة أخرجت ثديها من فم رضيعتها بحذر كى لا توقظها ووضعتها على الفراش. ونظرت إلى زوجها وكأنها تراه لأول مرة، فسألته: " احم! ما الأخبار؟"

وكانت قد ضفرت شعرها تضفيرًا رباعيًا، فى يومها أو أمسها. ويبدو أن المضفرة كانت بارعة فى عملها لأن الشعر كان مسترسلاً تمامًا على الرأس وكان حمزة يداعبه. وينظر إلى خديجة ويقبل خديها. "حتى أنا لا أعرف" أجابها.

" إذا كنت – وأنت المتخصص فى الأخبار– لا تعرف فمن الذى يعرف إذًا؟" سألته خديجة وهى تنظر إليه. " أقول لك إننى لا أعرف. كنا جالسين فى البيت وسمعنا أصوات طلقات نارية، ولكنى لا

(*) وهى لعبة يقوم الأطفال فيها بتشبيك أياديهم معًا ويلفون جريًا على شكل دائرة.

أعرف ما حدث؟" "حتى نحن سمعنا صوتًا يشبه صوت إطلاق النار! " تدخلت خديجة فى الكلام وسألت: "من؟ العساكر؟" وقبل أن يجيب عليها توقف المذياع عن عزف الموسيقى العسكرية. فانتبه حمزة وأخرج قلمًا من جيبه، وقال آمرًا: "هيا أحضرى لى قطعة من الورق."

ولما كان منكبًا مستعدًا لكتابة أى شىء سوف يذاع جاء صوت مفعم بالحماسة يذيع: "بأمر من الحكومة محظور على أى شخص الخروج بعد السادسة مساءً ومن يخالف هذا الأمر فسيتعرض لإجراءات قانونية صارمة!"

"يا ستار! ما الذى حدث ثانيةً؟ حتى لا يخرج الناس، إننى أرى شرًا فى هذا، إنه الشر بنفسه. لا أعرف أى بلاء هذا! اللهم استر" هكذا دعت خديجة.

التزم حمزة الصمت، إنه يفكر ويحاول تحليل الأحداث المتفرقة التى قابلته وهو خارج من حى مالين‌دى متجهًا إلى حى كيسيماماچونجو.

أخذ يرسم ويكتب حتى ملأ صفحة كاملة. ثم بدأ يربط بين ما كتبه وبين الأحداث التى قابلها. "صبى يجرى ولما سألته أجابنى بكلمة عسكر فقط، ولم يزد عليها. وسيارات تخرج من حى كيسيوا ندوئى متجهة إلى حى منازى مّموجا، ربما كانت تتجه إلى المستشفى: وذلك

الذى قال لى أن أناسًا أطلقوا النار عشوائيًا فى حى الجسر ولاذوا بالفرار في سيارتهم. وذلك الجندى من وحدة مكافحة الشغب وفى يده بندقية وقد امتلأ وجهه بالعبوس وتركنى أفر كالسارق. آه! ماذا عساه أن يكون؟" حاول حمزة حل هذا اللغز، فأخذ يكتب خبره. لقد حصل على "قصة" جيدة.

وبينما كان حمزة مستغرقًا فى أفكاره إذ جاءه صوت من خارج الحجرة يناديه: " حمزة يا بنى! هل نعد لك الشاى؟ "سألته والدة خديجة السيدة فاراشو Farashuu بصوت هادئ.

"ماذا! الشاى؟" انتبه حمزة وكأنه قد أفاق من كابوس مزعج وقال " سأشرب لاحقًا" قالها وهو يفكر فى كيفية إرسال ما كتبه إلى الجريدة. انسحبت السيدة فاراشو ببطء من على الباب، وعادت إلى المطبخ حيث كانت جالسة مع زالحاتا. أبو خديجة لم يهتم بشىء. أغلق على نفسه غرفته يقرأ ورده(*)، لأنه قد تعود على أنه بعد صلاة المغرب لا يتحدث مع أحد على الإطلاق حتى ينتهى تمامًا من ورده ومن صلاة العشاء. هذا هو ما كان عليه السيد مفتاح Mzee Maftah الرجل التقى الذى يضرب به المثل.

(*) الورد بكسر الواو هى تلك الحصة من القراءة للقرآن والأدعية والأذكار المأثورة والتى تقرأ فى أوقات معينة كل يوم. المترجم .

بينما كان حمزة غارقًا فى أفكاره لفك لغز حدث ذلك اليوم نصحته خديجة: " ستنام اليوم هنا"

"إلى أين أذهب وأنت تسمعين بحظر الخروج ؟! ولكن لو أتيحت لى فرصة الخروج فسأخرج لتوصيل هذا الخبر"

"تخرج إلى أين؟ لا تخرج. لا تجلب لنفسك المصائب" استمر حمزة وزوجته فى الحديث حتى منتصف الليل. وفى ساعة متأخرة ذهب حمزة إلى غرفة المعيشة حيث تم إعدادها إعدادًا جيدًا لنومه تلك الليلة. لكنه لم ير النوم البتة. كانت الأفكار تحاصره ولا يعرف ما ذلك الحدث الخطير الذى وقع فى البلد ونجم عنه حظر التجوال على الناس. طالت ليلته تلك. أخذ يعد الساعة تلو الأخرى حتى صاح الديك الأول وها هو الوقت الذى بدأ النوم يأتيه فيه رويدًا رويدًا حتى أغشاه النعاس فنام مستغرقًا إلى أن أزعجته جلبة الناس الشديدة وهم يقرعون الباب كقرع عصابات السطو المسلح.

فتح النافذة واختلس نظرة من خلال الفتحة الضيقة التي تركها فى تلك النافذة. ستة أفراد واقفون بالخارج. فقد عدهم خمسة فى الزى العسكرى وواحد فى زى مدنى. وكلٌ بيده بندقية.

اضطرب حمزة فلم يعرف ماذا يفعل، وسأل: "من بالباب؟" " نحن ! افتح بسرعة!" أجابت أصوات مليئة بالشر. أراد أن يذهب إلى

الحجرة عند خديجة، وإذا بخديجة هى الأخرى تذهب إلى غرفة المعيشة فيلتقيان فى منتصف الطريق فتسأله خديجة: "من ؟" فيجيبها حمزة: "أفراد من الجيش."

" ماذا يريدون؟"

" لا أعرف"

" افتحوا بسرعة و إلا فسنكسر الباب!" أمر أحدهم من الخارج. كان حمزة مرتديًا الإزار. فذهب وارتدى ملابسه. ارتدى فى عجلة من أمره ولما فتح الباب إذ بكل البنادق مصوبة إلى صدره مع توجيه الأمر إليه "ارفع يديك!" خديجة وزالحاتا والسيدة فاراشو والسيد مفتاح جميعهم عند الباب وقفوا مندهشين لما يحدث فى الفجر.

"هل أنت حمزة؟" سأل أحد الجنود، طويل القامة، شديد السواد، مفتول العضلات. كانت البندقية فى يديه تبدو وكأنها مجرد لعبة أطفال. عابس الوجه يعض شفتيه ليظهر وحشيته. قميصه يجسده تمامًا ويكشف بوضوح عرض صدره.

فوجئ حمزة بذلك الحادث وأراد أن يقول شيئًا، ولكن قبل أن ينطق بشيء جاءه السؤال ثانية: "هل أنت حمزة؟"

"نعم!" أجاب حمزة بسرعة وبخوف وقلق.

"هل أنت صحفى؟"

" أجل!"

" هل استمعت بالأمس إلى البى بى سى؟"

" لم أستمع!"

" هل تعرف حمدون Hamduni؟"

" أعرفه!"

" أين هو؟"

"لم أره منذ أن افترقنا ظهر أمس. وكان قد قال لى أنه ذاهب إلى موانيانيا Mwanyanya حيث هناك صفقة." أجاب حمزة عن أسئلتهم وهو رافع يديه وكله خوف.

" هيا بنا"

" أين؟" سأل حمزة.

" ما عليك إلا السير فقط. أيها الكلب الكبير، فلم تسأل؟"

تقدم حمزة رافعًا يديه شاعرًا بالشر المستطير يواجهه. ولم يعرف الجريمة التى ارتكبها حمدون. وتبعته المجموعة الكاملة من أولئك الجنود قابضين بأيديهم على بنادقهم.

انخرطت خديجة فى البكاء وصرخت مولولة "مسكين زوجى مسكين" لكن لم يكترث بها أحد، السيد مفتاح، والسيدة فاراشو فى ذهول ودهشة عند الباب.

كان الوقت وقت الشروق والجو مليء بشبورة الفجر. والرياح الهادئة تهب فى لطف للترحيب بموسم الشتاء. ومدينة زنجبار أصابها الشلل التام، فالجميع داخل بيته. وبعد أن اجتازوا حارتين من منزل السيد مفتاح طلعوا على الشارع وهناك وجدوا عربة عسكرية من طراز لاندروفر فى انتظارهم. فأمره أحد الجنود: "اركب!"

دخل حمزة العربة، وأجلسوه في الوسط، رافعًا يديه. وأحاط به جميع الجنود كلٌ ماسك بندقيته، وكل البنادق مصوبة نحوه. دار محرك العربة وبدأت الرحلة. الآن بدأ حمزة يفكر: "يا ترى ماذا فعل الملازم حمدون؟" إنه رفيقه لأيام عديدة وهو برتبة ملازم لفترة طويلة. وكانت هناك شائعات حديثة تقول إنه ستتم ترقيته إلى رتبة النقيب.

"والآن ماذا سيكون الحال ومطاردته تتم اليوم بالبنادق والمدافع ؟"

وبينما هو غارق فى التفكير بشأن حمدون وصلت العربة إلى الجسر Darajani متجهة إلى ماليندى. وفى لمح البصر وجدوا أنفسهم قد وصلوا إلى قسم شرطة ماليندى، وتم توجيه الأمر إليه " انزل" فنزل، وتم اقتياده إلى الداخل حيث استقبله مأمور القسم بصفعة قوية. تلك الصفعة التى دوخته فلم ير بعدها إلا وهجًا يتوهج. " شعاع، شعاع"

وأمر مأمور القسم جنوده: "احبسوه" ثم غادر أولئك الجنود ليتولى أمره رجال الشرطة فقط. والرجال وجوههم مسودة وكل منهم فظ حاد كالفلفل الحراق. وكانت هناك حركة دخول وخروج للجنود ومع كل منهم سلاحه. وهنا ازداد حمزة خوفًا، ورأى أن الأمور تتصاعد وتتعقد للغاية. حاول تهدئة قلبه كي لا يظهر عليه أي ذعر لكنه لم يستطع، لأنه رأى بداخل المكان الذى ألقوه فيه وخلف مائدة الاستقبال الكبيرة صديقه القديم بركات Barakati جالسًا القرفصاء متورم الوجه، مما يدل على أنه ضرب ضربًا مبرحًا، مجرّدًا من جميع ملابسه سوى ما يغطي العورة فقط، ويداه مقيدتان بالكلبشات. وبجانبه يوجد شخص راقد في بركة من الدماء مغشيًا عليه. وفي داخل زنزانات القسم تسمع أصوات أشخاص هامسة يملأها الخوف.

وهنا ناداه حمزة متعجبًا: "بركات!" سائلاً إياه "ما الخطب؟" فأجابه بركات وكله خوف: "لا يهمك يا حمزة!" "Don't worry Hamza" "لا يهمك فليس بيننا" "Don't worry not among us" "بيننا؟ من؟" سأله حمزة "Us? Nani?" فأجابه بركات ثانية مستخدمًا الإنجليزية فقط إذ إنه لم يعد يعرف اللغة السواحلية: "ليس بيننا" "Not among us"

حاول حمزة أن يرى ما في الزنزانات ولكنه لم ير شيء لأنها كانت مظلمة ظلامًا دامسًا غطى كل ما فيها. وكان لهذه الزنزانات أبواب حديدية متينة مغلقة بالأقفال والسلاسل. نظر ثانية إلى بركات

وكيف أنه جالس القرفصاء بلباس قذر يرتديه، مقيدًا بالأغلال تقييدًا محكمًا. وكان بركات قصيرًا بدينًا، وبجلسته القرفصاء وبروز عضلات صدره ويديه ظهر وكأنه رياضي يرفع الأثقال. وجهه المتورم أظهر عينيه صغيرتين، وشفتاه المنتفختان استحوذتا على وجهه العريض. جلس الآن حمزة على الأرض المليئة بالأوساخ، وسأل بركات بهدوء: "هيا اشرح لي يا بركات ما حدث؟"

وكانت العربات في الخارج تأتي وتغادر وكلما تأتى تحضر مزيدًا من الأفراد، وبعد مدة اكتظت الزنزانات بالناس، فانتشر البعض خارج هذه الزنزانات التى فيها حمزة وبركات.

انتابهم الذعر خائفين مما لا يفهمون.

ما كان عند بركات ما يرد به على حمزة. فأصبح ينظر كل منهما للآخر نظرة الديوك فى ساحة القتال وجاء – من على بعد – صوت ضخم ينادى نداء الأمر: "عسكرى " وأجيب عليه: "أفندم"

"أخرجهم!"

وفى الحال دخل العسكرى بسلسلة طويلة من المفاتيح المتداخلة تداخلاً عشوائيًا آمرًا إياهم: "هيا قفوا"

فوقف جميع من فى الحجز وتم إخراج من فى الزنزانات وتم توجيه الأمر للجميع: "نظموا أنفسكم فى صف واحد"

فنفذوا أمر الاصطفاف وكأنهم قادمون على تدريب عسكرى. وتم توجيه الأمر للعسكرى: "سجل أسماءهم فردًا فردًا". وهنا استفسر العسكرى وهو عند مائدة الاستقبال وعليها دفتر سجلات كبير موضوع أمامه: "هل أسجل أمام كل فرد ما جنايته؟" فعلق عسكرى آخر: "عجبًا !! ما جنايته؟!" "أليس هؤلاء هم المتهمون أنفسهم!"

وكانوا حشدًا كبيرًا من البشر. منهم الذكور والإناث ومنهم الشيوخ والشباب. لا أحد يتكلم مع الآخر فالكل خائف على حياته، فليس هناك ولو شخص واحد يمكنه التكهن بمصيره فى مثل هذا الوضع المخيف. فكل منهم يرى أمامه ظلامًا دامسًا، ظلامًا لا يعرف أحد معه إلى أين يتجه. فليس هناك من آمال عند أحدهم لأن كل الآمال تبخرت عندما تم اتهامهم جميعًا بتهمة لا يعرف أحد منهم ماهيتها اللهم إلا بركات لأنه بدا وكأنه يعرف شيء ما ولكنه لا يريد الإفصاح عنه.

وتم تسجيل الأسماء فردًا فردًا وبعد الانتهاء منها تم إدخال الجميع فى عربة كانت فى انتظارهم خارج قسم الشرطة. ويحيط بالعربة عدد كبير من العساكر فى يد كل منهم بندقيته، فضلاً عن آخرين داخل العربة نفسها وتم حشر المتهمين داخل العربة مثلهم فى ذلك مثل الأمتعة التى لا قيمة لها.

تم تشغيل العربة وأصدر مأمور القسم أمرًا: "الجميع يرفع يديه؛ من يخفضهما يطلق عليه الرصاص"

بعد ذلك الأمر لم يتجرأ أحد على خفض يديه ولا حتى على هرش نفسه، لأن الأمر قرب الحد الفاصل بين حياتهم وموتهم أكثر وأكثر.

بدأت العربة السير من مالیندى ومرت بفوروضانى Forodhani وهى تسير وسط الشارع الخالى من المارة. فكان البلد كله فى ذلك اليوم مشلولاً تمامًا عن الحركة. فالجميع داخل البيوت. وليس بالخارج إلا الجنود فقط. الجنود، أو الشرطة أو حرس السجون. انطلقت العربة وسط بيت رعاية الأيتام ومرت بالبنك، وبمكتب البريد حتى دار القضاء العالى. وقبل وصولها للقضاء العالى اتجهت شمالاً مرورًا بسينما ماچستيك Majestic وانعطفت فى طريق مدرسة بن بلا، وتحولت مباشرةً إلى ميڤينچينى Mivinjeni حتى وصلت كينوا ميجو Kinoamiguu حيث سجن زنجبار الرئيسى، وحيث انتهى السير. نزل الجنود بقوة منتظرين نزول المتهمين الذين نزلوا بحذر وما زالوا رافعين أيديهم خوفًا من إطلاق النار عليهم.

عندئذ انتهت مهمة الشرطة ليستقبلهم حرس السجون. تم فتح باب صغير مستقطع وسط البوابة الرئيسية للسجن. وقاموا باستقبال

هؤلاء المتهمين المارين عبر الباب الصغير بقسم الاستقبال. استقبلوهم بكل أشكال الغضب والتهديد. وبالاستقبال مائدة كبيرة من خشب الساج ممتدة بين ركنى المكان. ويقف خلفها حرس السجن ببنادقهم متجهمين.

وصدر لهم الأمر: "اخلعوا الملابس". والذى أصدر لهم الأمر يحمل على ذراعه ثلاثة شرائط، وظهر بشكل واضح أنه هو الكبير الذى يصدر الأوامر. عندما يقول كن فيكون فى الحال. وهنا اندهش حمزة، ونظر إلى زملائه. وفكر، كيف سيخلعون الملابس أمام جمع كهذا يحوى الرجال والنساء والشيوخ والشباب، اندهش الجميع.

وازدادت نبرة الأمر حدةً: "أقول اخلعوا الملابس". وفعلاً تم خلع الملابس. الرجال عراة وكذلك النساء تمامًا. لم يعد أحد يستحى من الآخر. والاحترام الذى كان فيما بينهم انتهى، والحياء الذى كان فيما بينهم زال هناك. والرجل العمانى الذى كان ضمن ذلك الجمع لم يتحمل وقال: "والله إنه كيوم الحشر".

فتم زجره كالطفل: "اسكت يا غبى".

وهنا تجرد كل فرد من إنسانيته، وتخلى عن عزته، وضاعت كرامته.

فانتهت هناك الإنسانية وبدأت الوحشية، إنها الوحشية بكامل صورتها.

وصدر لهم أمر آخر: "فتشوهم".

وتم تفتيشهم فى كل أجزائهم. تحت الإبط، داخل أفواههم، فى عوراتهم وفروجهم. حتى أنهم لم يعرفوا عن ماذا كانوا يبحثون.

كان الحرس فظيعًا ولا ينظر لأى فرد، ولو أن أحد الحراس يعرف أى فرد من ذلك الحشد فإنه يتظاهر بعدم معرفته. يا للسوء، ليس هناك تعارف. وبعد الانتهاء من التفتيش صدرت لهم الأوامر بارتداء الملابس.

وكانت نقودهم وأمتعتهم القيمة تم تركها فى الاستقبال، وتم اقتيادهم داخل السجن. تقدمهم عريف بسلسلته المكتظة بالمفاتيح. والمتهمون من ورائه ترافقهم قوة من الجنود.

ففتح البوابة الحديدية الأولى وإذا بهم فى فناء. وفتح البوابة الحديدية الثانية فإذا بهم فى قسم الحراسة حيث يستقر الحرس. وفتح البوابة الحديدية الثالثة فإذا بهم فى ساحة كبيرة لذلك السجن حيث يتم تجميع المساجين. وفتح البوابة الحديدية الرابعة ليجدوا قسم الزنزانات الخاصة بالمساجين. وهنالك تم إدخالهم فيها انتظارًا لمصيرهم.

وتم إدخال حمزة فى زنزانة انفرادية. وكانت زنزانة كبيرة إلى حد ما إذ تبلغ ٥م٢، وخالية من كل شىء إلا من دلو واحد فارغ متهالك. وللزنزانة نافذة واحدة مرتفعة ارتفاعًا لا يسمح بالوصول إليها

للنظر منها. وفى بابها ثقب صغير لاختلاس النظر. وأرضيتها عارية تمامًا حتى من قطعة حصير تسمح للإنسان أن يفرد نفسه عليها.

وقف حمزة وسط تلك الزنزانة يتفحصها، ولكن لم يكن فيها شيء يتفحصه. إنها مجرد أربعة حوائط تحيطه كالقبر إنه السجن. وتأسف: "آه." وتساءل: "ماذا فعلت أنا حتى استحق دخول السجن؟" ولكن من ذا الذى سيجيبه. إنه وحيد فى تلك الزنزانة. انزوى فى أحد أركان الزنزانة وجلس. عندئذ وجد فرصة للتفكير، فسأل نفسه: "يا هل ترى ما التهمة الموجهة إلينا نحن المتهمين بالتحديد؟!" وهناك تذكر زوجته. وأن زواجهما مازال فى طور التكوين، وأن رضيعته لم تفتح عينيها بعد. وتساءل: "من ذا الذى سيرعاهما الآن؟" أخذته سنة من النوم وإذا به يسمع الأبواب تفتح واحدا تلو الآخر. وتم فتح باب زنزانته. نظر حمزة إلى الحارس فوجده عابس الوجه.

وسأله الحارس: "كم هنا؟"

أجابه حمزة: "واحد"

فألقى إليه قطعة من الكاسافا المسلوقة فى طبق معدنى صغير، وأغلق ذلك الحارس الباب بقوة بينما حمزة من ورائه يصرخ: "ليس هناك ما يفترش للنوم!"

لم يستمع إليه، واستمر في توزيع الكاسافا. عاد حمزة إلى مكان جلوسه وألقى بنظرة على تلك القطعة من الكاسافا، التي لو رميتها لقطة ما قبلتها.

ولكن ماذا يفعل والجوع لا يحترم أحدًا عندما يمسك بالإنسان. دعك من قطعة الكاسافا هذه فإنها حتى لو تعفنت فسآكلها. أخذها ووضعها في فمه والتهمها. ولكنها لاتسمن ولا تغني من جوع.

الشمس بدأت في الغروب، تغرب رويدًا رويدًا وبدأ الظلام يحل بالزنزانة تدريجيًا. الآن بدأ حمزة يفكر في كيفية النوم على هذه الأرضية مع برودة ليل الشهر الرابع من العام. كلما انتهى النهار وحل الظلام تزداد حركة فتح أبواب الزنزانات، مما يشير إلى أن المزيد من الناس مازالوا يساقون إلى السجن. ومع كل هذه الجلبة من حركة فتح وغلق أبواب الزنزانات فإن زنزانة حمزة لم تفتح وبقي منفردًا.

كانت تلك الليلة بالنسبة له البلاء الخالص، فكلما انفتحت الأبواب وأغلقت كلما ازداد قلبه خفقانًا. فكان يخشى من أن يتم إخراج بعض المتهمين ليلاً واقتيادهم إلى مكان آخر مجهول ليتم تعذيبهم أو حتى إعدامهم. كل ظنون السوء وردت إلى تفكيره. ولما حاول النوم كانت الأرضية قد ازدادت برودتها تمامًا، فإن النوم عندما يأتي فإنه سلطان. أي لما يأتيك يأخذك أينما كنت. فنام فوق

تلك الأرضية ولكن كلما أخذته سنة من النوم استيقظ على حركة الفتح والغلق للأبواب وعلى أصوات البعوض ولدغات البق. أخذه النوم قليلاً فإذا بالأبواب تفتح ثانيةً. وديوك الفجر تصيح ويأتى صوت المؤذن من بعيد يدعو الناس لصلاة الفجر.

فتح باب زنزانته ولما نظر إلى الباب رأى حارسًا واقفًا عليه مثل عزرائيل جاء ليقبض روحه.

فأمره: "أخرج الدلو!"

نظر إليه حمزة بعينيه النائمتين مندهشًا.

"أقول لك أخرج الدلو! دلو البراز ذلك! أخرجه ونظفه!"

ما كان بالدلو شيء على الإطلاق. فمن أين له بالبراز وهو لم يأكل منذ أمس. لكنه وجدها فرصة للخروج من الزنزانة على الأقل. مر بدهليز على جانبيه زنزانات، فشعر أن الناس يختلسونه من ثقوب الأبواب. خرج إلى الساحة الكبيرة الموجودة داخل ذلك السجن. وعلى أحد جوانب الساحة مكان للاستحمام. وعلى الجانب الأقصى حوض مكشوف يلقى فيه ما تحتويه جرادل البراز. فتظاهر بأنه يلقى ببرازه داخل الحوض وبسرعة تمت إعادته إلى الزنزانة.

تم إحكام غلق الباب. لكن لم يستغرق وقتًا حتى فتح ثانيةً. كان نفس الحارس ولكن معه هذه المرة حارسًا آخر يحمل دلوًا لحمزة فيه فنجان من الشوربة وقطعة كاسافا مسلوقة.

بدأ حمزة يعد الأيام، اثنان، ثلاثة، أربعة، إنه أسبوع. وهو بالداخل وحده منفردًا. لا يغتسل، لا يستاك، لا يمشط شعره، رائحته كريهة كالقنفد. ثوبه الذى ارتداه أصبح ملطخًا بالوساخة كالجير. صعبت عليه وحدته لابتعاده عن كل الخلق. عندما كان ينظر هنا وهناك يرى عنكبوتًا قد علق نفسه فى السقف. وفجأة ينزل عبر خيطه نزولاً "سريعًا". حمزة لم يتمالك نفسه. فصاح فى العنكبوت: "ما الذى تبحث عنه وأنت داخل هذه الزنزانة، الزنزانة المليئة بالنحس الخالص؟"

وأكثر حمزة من النظر إليه وكيف يتدلى فى خيطه وقال: "اخرج! اخرج واذهب إلى حال سبيلك"

واقترب منه يريد المسك به. وبمجرد أن أراد لمسه فإذا به يصعد إلى أعلى ويصعد معه خيطه كالمطاط. ويصبح ذلك العنكبوت هو جليسه داخل الزنزانة يخاطبه ويحادثه ويضاحكه فإن العنكبوت منشغل عنه.

ومرت الأيام والروتين اليومى هو هو. الإلقاء بمحتويات الدلو فى الصباح الباكر يليه تناول الشوربة والكاسافا المسلوقة. وفى الظهيرة تناول الكاسافا المهروسة بأوراقها. ولا يقال لأوراقها أنها خضروات إلا إذا أتت مع المسلوقة، ناهيك عن أنه لا ملح فيها.

لكن هذا اليوم كان عجبًا. إنه عجب كبير لحمزة. ففى الظهيرة، وعلاوةً على ذلك الطبق من الكاسافا المهروسة بأوراقها، فإن حمزة أتاه صديق له فى الزنزانة. ففرح وشعر بشعور من شفى بعد صراع طويل مع المرض. لاسيما وأن صديقه هذا إنسان يعرفه جيدًا.

إنه عبده الذى كان قد أطلق سراحه من السجن حديثًا وقت صدور العفو العام.

ناداه حمزة وهو لا يصدق، لا يصدق على الإطلاق: "عبده!" وسأله: "رجعت ثانيةً إلى هنا؟"

"ألقوا بالقبض علىَّ ليلة أمس. استجوبونى طوال الليل والآن أحضرونى إلى هنا فى كومبا كومبا. وأنا كما ترانى مجهدًا فدعنى أنام قليلاً"

بدا عبده أنه ليس قلقًا، فلقد مكث فى كومبا كومبا أكثر من سنتين. فالسجن بالنسبة له مجرد مكان عادى.

سأله حمزة بشغف شديد بغية معرفة الحدث الذى جعله يتعذب فى الحبس حتى اليوم: "هيا اشرح لى ماذا حدث؟"

"تم اغتيال الزعيم"

سأله حمزة وكأنه لم يسمعه: "ماذا تقول؟"

"تم اغتيال الزعيم وتم القبض على عدد كبير من الناس. ونحن هم الخونة" وهكذا شرح عبده. فأضاف حمزة مستطلعًا: "من؟ أنا؟ هل أنا أصبحت اليوم خائنًا؟ ثم من ذا الذى اغتال الزعيم؟"

أجابه عبده: "حمدون"

ازداد ذهول حمزة وازداد جحوظ عينيه واستفسر: "حمدون؟"

فاستطرد عبده قائلاً: "أسمع أنه كان مع بركات"

فقال حمزة مندهشًا: "وأنا وبركات كنا معًا فى مالیندی. وقد تم القبض عليه"

"أسمع أنه كان مع بركات، ويقال أيضًا أنهما اتبعا الزعيم فى ناديه حيث يلعب الدومينو" نادى حمزة على عبده بصوت يائس: "عبده! لا خروج لى! لن أخرج من هذا الحبس"

فنظر عبده إلى حمزة بعيون جريئة وقال له:

"اسمعنى. هنا فى السجن لا يوجد قبر. فستخرج لا محالة. إذا لم تخرج حيًا فستخرج ميتًا. سنخرج حتمًا"

نظر حمزة إلى عبده وعانقه فجأة. نظر إليه ثانيةً وردد نفس كلماته: "سنخرج حتمًا".

الفصل الثانى

إن سجن كينواميجو Kinoamiguu كره خلوه من السجناء إثر صدور العفو العام الذى أعلنه الزعيم قبل شهور قليلة فقط من اغتياله.

فلقد أعلن الزعيم على الملأ: "كل السجناء أحرار وابتداءً من اللحظة ليس هناك من سجون!" فاحتفل الناس في بيوتهم فى ذلك اليوم. وأولئك الذين افترقوا لشهور أو لسنوات تلاقوا ثانيةً وفرحوا لدرجة أنهم تباكوا من شدة الفرحة. ومن لم ير من يخصه علم أنه لم يعد من أهل هذه الدنيا.

والآن اكتظ ذلك السجن بالبشر، سيقوا إليه زرافات ووحداناً.

وبوصول عبده زالت العزلة التى أحاطت بحمزة فى تلك الزنزانة، والآن بدلاً من محادثته العنكبوت ارتاح لوجود مخلوق معه من بنى جنسه يحادثه ويضاحكه، على الرغم من انعدام ما يضحك، ويتباكيان. وعبده هذا أصبح وكأنه الفاتح للزنزانة، فما أن دخلها حتى تبعه آخرون. ولم تمر فترة طويلة على وقت المغرب وانتهاء النهار وحلول الظلام الخفيف فى الزنزانة إلا وبدأت حشرات البق تخرج من مخابئها وحشرات البعوض تزن استعداداً لتناول وليمتها طوال الليل إلى أن تم فتح باب الزنزانة بقوة. وفى لمح البصر تم الزج بشخص آخر داخل زنزانتهما وأغلق الباب ثانيةً فى الحال.

وإذا به شاب أنيق، ليس بالقصير ولا بالطويل. يرتدى قميصًا نصف كم أبيض اللون نظيفًا وسروالاً طويلاً أصفر اللون من الجينز. ثيابه مكوية بشكل جيد ولا ينقصه لإتمام أناقته إلا الحذاء فقط الذى أخذ منه في الاستقبال عند التفتيش. ولما زج به فى الزنزانة أصبح وكأنه قام بتعطير تلك الزنزانة بعطور اللحية النفاذة فانتشرت منه الرائحة الذكية فى كل أركان الزنزانة.

تلك الرائحة الذكية طغت تمامًا على تلك الرائحة الخبيثة داخل الزنزانة والتى هى جزء من بيئة تلك الزنزانة ليل نهار. وقد وقف عند الباب مذهولاً كالطفل الذى ضل طريقه فلا يعرف من أين خرج ولا إلى أين ذهب. هندم نفسه وثيابه وأصلح ما أفسده الحارس فى ثيابه المكوى جيدًا عندما كان يجره لإدخاله الزنزانة.

وكان حمزة جالسًا فى أحد أركان الزنزانة وعبده فى ركن آخر، وكلاهما مستند إلى جدار الزنزانة وممددًا رجليه. وكان عبده مرتديًا الشورت فقط وبطنه مكشوفة، بينما حمزة يرتدى سروالاً طويلاً رمادى اللون لامعًا وقميصًا كحلى اللون، وهى نفس الملابس التى تم القبض عليه بها. فمنذ أن زج به فى السجن وهو لم يغتسل ولم يستتك. أشعث الشعر أغبر اللحية وبدأ شعر لحيته يلتقى بشاربه. قام عبده بالترحيب به قائلاً: "تفضل" وسأله: "إلى متى يا ترى ستظل واقفًا عندك؟"

فتحرك متثاقلاً إلى حيث كان يجلس عبده، وأخرج منديلاً أبيض من جيبه وأخذ فى إزالة ما على الأرض من غبار لينظف مكان جلوسه. وكلما حاول تنظيفه كلما ازداد منديله توسخًا، فأجهد نفسه. وبدلاً من أن يفترش الأرض جلس القرفصاء حتى لا يتوسخ سرواله. وامتنع أن يستند على الجدار حتى لا يَتسخ قميصه. فجلس القرفصاء وكأنه جالس على فوهة المرحاض رافضًا القعود كى لا يتسخ السروال، ورافضًا إسناد ظهره كي لا يتسخ القميص.

وهنا سأل سؤالاً جادًا دون مزاح ولا استهزاء: "متى سيحضرون المراتب؟"

فنظر إليه عبده يريد أن يقول له شيء فإن الكلمات تحشرجت فأصبح كأن عنده لعثمة. تنهد وكأنه يقول له ياللك من مسكين. ثم قال له بهدوء: "أترى هذه الأرضية التى لا تريد لمسها؟ إنها هى سريرك، وهى مرتبتك، وهى وسادتك، وهى غطاؤك"

فتنحنح مندهشًا: "إحم" "يعنى! يعنى!"

فتكفل عبده بإكمال جملته: "يعنى ستنام على هذه الأرضية التى لا تريد لمسها"

فنظر ذلك الشاب إلى عبده نظرة غضب وهو ما زال جالسًا القرفصاء، وناقمًا على وضع الزنزانة ككل. فالبيئة كلها قذرة. الزنزانة قذرة وكل من فيها قذر، والهواء فيها ملوث، وكل ما فيها قذر إلا هو فقط.

واستمر جالسًا القرفصاء حتى تعب وفقدت رجلاه الحس فقعد. وأخذ يشكو ولا يعرف لمن يشكو.

فسأله عبده: "كيف الحال والأخبار خارج السجن؟ أعطنا إياها!"

شعر وكأن عبده يستفزه فأجابه بحدة: "مالك وما يجرى فى الخارج؟ هلا عرفت ما يجرى هنا حيث أنت؟" قبل أن يبدأ الجدال جاء صوت المفاتيح المتضاربة يقترب من زنزانتهما، فأدركا إحضار ضيف جديد. انفتح الباب بقوة كالعادة. وتم دفع الضيف بالداخل، وتم غلق الباب وراح الحارس لحال سبيله.

وقف الضيف عند الباب مندهشًا، ورفع يديه إلى السماء حامدًا "الحمد لله !" وأخذ يتساءل: "ما ذنبى أنا؟"

كان يرتدى جلبابًا ناصع البياض ويلمع وشراشيب إزار جابر(*) تتدلى من تحت الجلباب. ويرتدى طاقية يدوية الصنع من خامة أوراق اللوبيا المتينة. طوى جلبابه وجلس على إزاره. وأسند ظهره على الجدار ونظر إلى أعلى وحمد الله ثانيةً قائلاً: "ها هو ما قدره الله لى!"

(*) ماركة مشهورة فى زنجبار من ماركات الملابس المحلية.

نظر إلى من حوله فى الزنزانة لكن أشكالهم بدأت تبهت مع حلول الظلام الذى أخذ يسود الزنزانة تدريجيًا. فقال: "حان وقت المغرب، هيا نصلى، أريد الوضوء" فرد عليه حمزة بهدوء: "ليس هنا من ماء"

"إذًا نتيمم"

فالتزموا الصمت واكتفوا بالنظر إليه. إنه يضرب بكفيه على الأرض ويمسح بهما وجهه ويديه، ثم قام، وسألهم: "ألا تصلون؟" فلم يجبه أحد. فدخل فى الصلاة وركع وسجد وانتهى من كل الركعات الثلاث لصلاة المغرب، وبقى فى مكانه يتلو أذكاره.

كان قصيرًا ممتلئ الجسم صغير الوجه صوته حاد رفيع. جلس ساكنًا بلا حراك يتمتم. بدا واضحًا أنه شيخ متدين.

الآن ساد الظلام وملأ الزنزانة تمامًا، فلا أحد يرى الآخر. وأبواب الزنزانات تفتح وتغلق باستمرار وسجن كومبا كومبا يدوى بأصوات المساجين الذين اكتظوا به، فبعضهم يدعون، وآخرون يتبرمون، وآخرون يبكون، وآخرون يلعنون، وآخرون يسبون. وكلما فتحت بوابة الدخول الرئيسية للسجن قاموا ينظرون من ثقوب الأبواب كالجوارى فى خدورهن لمعرفة القادم الجديد. وبالنسبة لكلمات ذلك الذى قال ذلك اليوم بأنه يشبه يوم الحساب فقد صدق. حقًا إنه كذلك،

لأن ذلك السجن كان عالمًا فريدًا من نوعه يختلف عن عالم الناس. إنه عالم اليوم الآخر حيث نفخ فى الصور وتم بعث الموتى وكل منهم يقول "ياربِ! ياربِ!" ولا أحد يعلم ذنبه، ولا أحد يعرف قضاءه، ولا أحد يعلم مصيره، فالجميع فى حالة مرور على الصراط.

الجميع اعتراهم الخوف والذعر، وما تبقى لهم إلا مواساة بعضهم البعض وبث روح الأمل فى أنفسهم ولكنهم جميعًا مذعورون من الخوف الذى يواجههم. لا يعرفون إلى أين هم ذاهبون، ولم يبق إلا التأميل القائل "سنخرج لا محالة"، وحمزة بدوره أعطى الأمل لنفسه، ويحادث نفسه وقلبه بذلك، ونام واضعًا رأسه على كفيه جاعلاً منهما وسادته.

أما ذلك السيد الأنيق فقد فارقته الأناقة فنام مستلقيًا على ظهره بعد أن تعب من الحفاظ على نظافة وكى ملابسه. وأخذ يصفع نفسه بكفيه لطرد البعوض الذى ملأ الزنزانة تمامًا وكأن البعوض صب فيها عن عمد. وكان البق بدوره قد خرج من مخابئه وانتشر فى الزنزانة. وكلما كان يصفع نفسه فى مكان طاردًا البعوض يكون قد لدغه فى مكان آخر، وكلما استدار يضرب نفسه فى مكان يكون البق قد قرصه فى رقبته. وكان هذا العمل فى حد ذاته كافيًا لمنعه من النوم.

أما عبده فقد كان ثابتًا، فنام فورًا وأخذ فى الشخير، أما الشيخ فلا حراك له وكان شغله الشاغل هو ذكر الله والتوجه إليه بالدعاء بأن ينصره على الشر والبلاء. ومر الليل وتجاوز منتصفه فصار السجن هادئًا. فالجميع نيام. منهم من نام خائفًا، ومنهم من نام قلقًا، ومنهم من نام متضايقًا من البق والبعوض. فكل هؤلاء غلبهم النوم فى النهاية. ومر الليل ثقيلاً وبدأ بزوغ الفجر. فتحت أبواب السجن، وحان وقت إخراج الجرادل. المساجين يخرجون مثنى مثنى. وكل اثنين يحملان جردلاً طافحًا بالبول والبراز. وعندئذ تعم الرائحة الكريهة كل أركان السجن.

ولكونهم يعايشون هذه الرائحة الكريهة فى الزنازين طوال الوقت آكلين شاربين ونائمين معها فاعتادت عليها أنوفهم وأصبحت هذه الروائح مجرد شيء عادى بالنسبة لهم. وبسبب عدم اغتسالهم واستياكهم لفترات طويلة فقد أصبحوا هم أنفسهم جزءًا من هذه الروائح الكريهة المنتشرة فى السجن كله، فامتلأ قرفًا واشمئزازًا وغثيانًا. لم يكن الأمر بالنسبة لهم قرفًا أو اشمئزازًا. فلم يعودوا يشمئزون من ذلك إلا أنهم كانوا يتضورون جوعًا ليلاً ونهارًا، إذ إنهم بعد ما يتلقون قليلاً من الكاسافا المسلوقة ظهرًا لا يذوقون شيء آخر حتى تشرق شمس اليوم التالى. والآن وقد قاموا بتفريغ الجرادل ينتظر كل منهم شوربة الصباح.

ومن بعيد سمعوا صوت المفاتيح المتضاربة تشخشخ، واقترب صوت شخشخة مفاتيح السجن. ولأن شخشخة تلك المفاتيح أصبحت إشارة لقدوم الحراس فإن قدومهم فى مثل ذلك الوقت يعنى أن الوجبة الغذائية أصبحت جاهزة. وبسماع صوت الجرادل بوضوح وهى توضع على سلالم مدخل السجن يفهم كل شخص أن الشوربة أصبحت جاهزة.

وأمام كل زنزانة يوضع طبق صغير معدنى قديم به شرائح من الكاسافا المسلوقة. ولما تفتح الأبواب تندلع حالة من الفوضى والتدافع والشجار، فكل فرد يسعى للحصول على أكبر الشرائح. ولكن ليس هناك من شريحة كبيرة فكلها متساوية، ولكنه الجوع الذى حولهم إلى ما يشبه الحيوانات المتصارعة على كسرة من الطعام دون احترام لآدميتهم. حقًا الجوع لا أدب له.

النهار بالنسبة لهم ممل، لوجودهم فى الزنزانات دون عمل. يقضون يومهم فى الروايات والقصص والأحداث. وكانت الأيام تمر وهم يصابون بالاكتئاب وسيطرت عليهم أحلام اليقظة. وقد اكتمل عددهم الآن العشرة. وهم هناك كالحيوانات. فالرءوس يغطيها تمامًا الشعر الأشعث. والوجوه تحيطها اللحى المبعثرة. والملابس الرثة تلاصقت بالأوساخ. وعشعش القمل فى رءوسهم وانتشر على ملابسهم.

وتفليتهم للقمل أصبح أحد المهام الكبرى للمسجونين داخل ذلك السجن. وتعلقت البكتريا برموشهم وحواجبهم.

وكان عبده عارى البطن مرتديًا "شورت". وكان كبير الرأس وفى شعره مطبات وانتشر فيه الشيب هنا وهناك. طويل القامة عريض الصدر له عضلات بدأت فى الارتخاء لقلة التغذية. صوته أجش فامتلأت الزنزانة عندئذ بصوته وهو يحكى قصصًا عن خبرته فى السجن. وكلما تحدث بصوته المرتفع كان مخيفًا بسبب شعره الأشعث الملىء بالمطبات فوق رأسه الكبير مع التقاء هذا الشعر بشعر لحيته غير النظيف الذى أحاط بوجهه العريض مع التقاء شاربه بشعر لحيته حول فمه الكبير. هدأ الجميع منصتين إليه: كان كذا... وأصبح كذا، وهذا وذاك، وذاك وذلك. وطاب الحديث.

وفجأة فتحت بوابة السجن بقوة غير عادية. وجاء صوت الحراس آمرين بأصوات وحشية: "تحرك! تحرك يا كلب!" والصوت الآخر يجيبهم بغضب: "وحشيون! قتلة!"

فقام الناس ينظرون من أثقاب الأبواب فشاهدوا كيف يركل ذلك المخلوق بالأقدام دون رحمة وكيف يجر بلا هوادة ويرفع إلى أعلى، وتفتح زنزانة حمزة ورفاقه، ويقذف فيها بقوة، ويغلق الباب بعنف وغضب، ويذهب الحراس إلى حال سبيلهم، وتختفى أصوات

وقع أقدامهم رويدًا رويدًا حتى خرجوا من السجن. سقط السجين وسط الزنزانة ووجهه مهتك ينزف دمًا. وثيابه الذى عليه ملطخ بالدماء تمامًا. رقد ممتدًا يتنفس الصعداء كأنه يحتضر. كان معطفه الذى عليه ممزقًا تمامًا وفانلته ملطخة بالدم. وكان الدم يسيل من رأسه وفمه.

هنالك انقطع حديث عبده وكان أول من اقترب من ذلك الرجل هو الشيخ ماندوندو، وأشار: "فلنقرأ له الفاتحة يا رجال" وقرأ الشيخ ماندوندو الفاتحة. وبدأ بالحمد لله وهم معه يقرأون.

تبين أن حمزة يعرف الرجل، إنه سرور. إنه ولزمن طويل يعمل حمالاً فى الميناء وإنه مدافع قوى للعمال فى نقاباتهم. فقاما بخلع معطفه الممزق، وقام عبده برفعه ووضع رأسه على ركبته. وقاما بخلع فانلته ولما نظرا لظهره وجداه ممزقًا والدم يسيل منه. أحاطه الآخرون وهم ينظرون إلى نوعية صعوبة تنفسه. وكانت مهمة الشيخ ماندوندو الوحيدة هى الدعاء قائلاً: "اللهم انصرنا على الوباء والبلاء" ويؤمن الآخرون بالقول: "آمين آمين" وأصبحت الزنزانة كأن كابوسًا حل بها وسادها السكون والصمت. والخوف الذى كان قد بدأ يتلاشى رويدًا رويدًا من قلوبهم عاد من جديد، يخنق أنفاسهم فأعادهم إلى حيث بدأوا، وكل الآمال التى عقدوها فى نفوسهم طارت هباءً منثورًا فخارت قواهم جميعًا وانهاروا.

كان الرجل فى بداية الخمسينات من عمره. وقد أحاط الشيب رأسه من كل جانب ما عدا جانب الناصية الذى حل به الصلع الوضاح. وكان وجهه خشنًا خشونة الصنفرة بسبب شعر اللحية النابت منذ ثلاثة أيام أو أربعة. كان يغط وفمه مفتوح فظهر واضحًا سقوط ثلاثة أسنان منذ وقت. من الواضح أنها سقطت من ضربة قاسية تلقاها وهنا طلب عبده: "فلنرفعه"

فحملوه وأرقدوه فى جانب من الزنزانة وأخذ حمزة يمسح الدم الذى سال على كل جسده.

وقال عبده: "والآن قد بدأ العمل عند الحم(*)Bamkwe". فاندهش الآخرون غير فاهمين لما قاله.

(*) وهذا اسم كودى يطلق ليشير إلى مركز للتعذيب فى السجن. وهو كود لا يعرفه إلا المحليون والمسجونون الذين ذاقوا الويل فيه. وسوف يطلق عليه من الآن فصاعدًا "مركز التعذيب أو معتقل التعذيب". المترجم.

الفصل الثالث

بعد يومين تعفن جسد سرور وانتفخ مفرزًا صديدًا ثقيلاً. تكونت على ظهره بقع من الدم والصديد فوق آثار الجروح الناجمة عن ضربات العصى الغليظة والسياط المنتشرة على شكل دائرى حول ظهره وجنبيه وبطنه وكأنها خطوط الحمار الوحشى.

فالنوم له كان مشكلة وكذلك القعود، فكلاهما يأتيان له بآلام الجروح الشديدة. كان وجهه متورمًا ومنتفخًا حتى عينيه وخديه وشفتيه. ومازال الدم ينزف من فجوات الأسنان المخلوعة. وكانت اللحية فى وجهه تنبت بسرعة وتلتصق بالدم المتجمد كالتصاق الجير.

أخلعوه كل ملابسه ولم يبقوا عليه سوى اللباس فقط. أرقدوه على ظهره فوق قطعة من إزار أدخلها عبده فى الزنزانة سرًا، وجعلوا معطفه وسادته. وأخذوا فى تنظيف تلك الجروح المنتشرة فى كل أنحاء جسده، وهو يئن ويصارع الآلام الشديدة التى به. فكان كل من فى الزنزانة ممرضين وعبده هو كبيرهم فى العصر والضغط لإخراج الصديد وتنظيف الجروح.

وعلق عبده: "ها هو ما يحدث فى مركز التعذيب، إنهم يضربون بلا رحمة، بالعصى، بالشوم، بالحديد، بأى شىء"

وأضاف سرور قائلاً وهو يئن من الألم: "إنها كانت هذه المرة من خيزران شجر الجوافة، وأعتقد أنهم قضوا على جميع أشجار الجوافة حيث هناك شحنة كاملة من خيزران هذا الشجر!" وأضاف متبرمًا: "يا للألم ! يا للألم ! يا للألم ! الرفق يا جماعة"

واستمر عبده فى قص الحكايات التى تقع عنده فى مركز التعذيب. إنه يفهمها، حيث إنه واجهها.

كانت هذه الحكايات بالنسبة لهم مثل الأحلام التى تصور حكايات جينينجى Giningi، عندما يقوم السحرة بممارسة أعمالهم السحرية ويرقصون رقصتهم ويأتون بسحرهم.

تلك الأحلام المصورة للخوف والرعب الذى يستحيل تصديقه. ولكن ليس هناك ما يجعلهم يتشككون فيما يحكيه عبده على الإطلاق.

حقًا، لا أحد من الموجودين يمكنه القول أنه سبق أن رأى ساحرًا أو ذهب إلى جينينجى. أما بالنسبة للحكايات الخاصة بمركز التعذيب فقط، فواقعها يحدث أمام أعينهم ويرونها جهارًا نهارًا. فهاهو سرور موجود – أمام الجميع – وقد تعفن وانتفخ انتفاخًا تفوح منه رائحة كريهة.

وبازدحام سجن كومبا كومبا(*) بالمسجونين فإنه فقد صفته حيث ما سمي بهذا الاسم إلا لأنه عرف بعدم الاكتظاظ بالمسجونين، فإنه ممتلئ هذه المرة عن آخره، فلا مكان لخرم إبرة فى الزنازين. انحشر الناس الواحد ملاصقًا للآخر. ناموا متلاصقين بجوار جرادل البول والبراز التى أزكمت أنوفهم حتى ماتت حاسة الشم عندهم فتكيفوا مع الرائحة ولم يعودوا يشمونها.

كانوا يعدون الأيام يومًا يومًا وحتى اكتمل الشهران وسجن كومبا كومبا هادئ. لم يكن هدوؤه لعدم وجود ضجيج وصراخ وتبرم وإنما لعدم وجود من يدخل ويخرج. فاقتصر فتح وغلق الأبواب على الروتين اليومى.

ففى الصباح إخراج الجرادل وتوزيع فنجان الشوربة وقطعة الكاسافا. وفى الظهيرة وجبة الغداء وهى نفس الوجبة اليومية أى الكاسافا المهروسة بأوراقها، ويطلق على هذه الوجبة "الوجبة الكاملة". والوجبة ذاتها قليلة جدًا، لا تسمن ولا تغنى من جوع، ما هى إلا لقمتين فحسب وتنتهى. فبدلاً من أن تغنيهم من جوع كانت تأتى لهم بالجوع إذ تذكرهم به فيتذمرون جوعًا ويصبح حديثهم كله فى الزنزانة عن الوجبة والأكل والطهى.

(*) كومبا كومبا Kumbakumba يعنى: الإخلاء.

فأصبح الأكل هو حديثهم والأكل هو حلمهم والطبخ هو فكرهم، ولكن من أين، فلقد انتشر الجوع وساد فى كل أركان السجن.

يبدو أن حارس الوردية لذلك اليوم استيقظ نكدًا، ففتح الأبواب بعنف وقوة فجرًا. وأخذ يطارد حاملى الجرادل، فهرولوا بجرادلهم المليئة بالبول والبراز. وكانت النوبة فى ذلك اليوم نوبة حمزة مدعيًا المهارة فى حمل الجردل بمفرده. وقد كان الجردل ثقيلاً أثقل كاهله فإنه كان قد انفرد به ولا مفر له. وكانت أرضية السجن تزحلق ومع زحام الدخول والخروج اندفع حمزة فسقط بدلوه على الأرض. فانسكب كل ما فى الدلو من نجاسات على الأرض، يا للهول، وانتشرت فى السجن وتلطخ جسد حمزة كله، وأصبح "كصائدى اللؤلؤ" الذين يغوصون ويغطسون فى الغائط عندما يتعاملون مع المجارى الطافحة.

فقال له الحارس بصوت فظ وهو يبحلق فى حمزة بحدة بعينيه الحمراوين حمرة الشطة: "قوِّ يديك أيها الغبى"

ومر الآخرون بجرادلهم مهرولين داخلين وخارجين وقام حمزة بالتقاط أنفاسه ونهض مذهولاً حائرًا مبحلقًا كالمسحور.

فجاءه صوت ذلك الحارس: "هيا بسرعة"

فرفع حمزة ذلك الجردل فارغًا كما هو، وخرج به إلى الخارج مسرعًا.

هذا السجن أصلاً هو منبع انتشار الروائح الكريهة، فلا حاجة لى بإخبار القارئ عما يكون عليه الحال وقد تلطخ حمزة بسخام البراز المختلط بالأبوال فزاد القرف قرفًا داخل ذلك المقر الملىء بالخزى والعار مما أفقد حمزة كرامته وآدميته. لقد فقد رجال من أمثال حمزة الشعور بآدميتهم وكرامتهم، وها هو حمزة هناك الآن تفوح منه رائحة البراز واقفًا عريانًا تحت بالوعة مياه الأمطار، والحشود من الناس ذاهبون آيبون أمام تلك البالوعة دون ستارة تستر على الإنسان كرامته. فالجميع هناك يستحمون معًا، فاقدين ستارة كرامتهم، ويعيشون حياة الخزى. فلا استحياء ولا احترام فيما بين الكبير والصغير ولا بين العجوز والشاب، وإنما هو التهريج والبلطجة. وها هى حياة السجن.

أخذ حمزة فى تنظيف نفسه وملابسه بالفرك والحك ولكن الحارس وجده يضيع له وقته، فصاح فيه: "أنت!" وهو واقف وسط بوابة دخول كومبا كومبا. وكان قد أغلق جميع الأبواب ودخل الخونة فى الزنزانات ولم يبق فى الخارج إلا أولئك المساجين الذين عجزوا عن العيش خارج السجن بعد العفو العام ففضلوا البقاء فى السجن عن الخروج منه. إنهم ينتظرون الشوربة الصباحية، فإذا ما تناولوها ذهب كل منهم إلى حال عقوبته حيث الشغل الشاق.

وجه الحارس أمره لحمزة: "ادخل!" أمره واضعًا يديه على خاصرته، مستعرضًا قوته وجبروته ضد حمزة.

عصر حمزة ثيابه ونفضه وارتداه كما هو ودخل مهرولاً إلى الزنزانة وأغلق بابها بقوة. وفي لمح البصر انتهى المساجين من تنظيف أرضية كومبا كومبا وتم إغلاق بوابة الدخول إلى كومبا كومبا. والموجودون بالداخل ينتظرون الفطور؛ فنجان الشوربة، وقطعة الكاسافا. بعد ذلك يبدأ اليوم ببرنامجه الثقيل والمرور البطيء. وسرعان ما ينهضم الطعام الذى لعقوه والأمعاء تصوصو من الجوع. عندئذ تبدأ عمليات الطهى والأكل يحلمون بها.

وأصبح الشاب الأنيق(شديد) Shadidi الذى أطلق عليه لقب السيد الأنيق خبيرًا فى الطهى يشرح لرفقائه متعة تناول البودنج(*) Pudding بعد الأكل. يواصل شرحه لهم وهم متزاحمون فى أركان الزنزانة قائلاً أن مادة البودنج نفسها يجب أن تكون من كريم الكاراميلا. وأخذ يسألهم فيما لو كانوا يعرفونه. فيجيبه عبده: "كيف نعرفه ونحن ريفيون!!"

(*) البودنج: حلوى تعد من دقيق أو أرز مع لبن وبيض وفاكهة وسكر. المترجم.

فاستطرد شديد يشرح لهم قائلاً: "دعونى أعلمكم كيفية إعداده" متباهيًا بخبرته فى معرفة الأكلات الفاخرة: "أولاً يتم تجهيز مقدار خمسة فناجين من اللبن وثلاث بيضات"

فيسأله عبده مستهزءًا: "وماذا بعد؟" "تقوم بوضع اللبن فى السلطانية وتضع عليه البيض وتضع خمس ملاعق كبيرة من السكر وتقوم بتقليب كل ذلك لمدة دقيقتين تقريبًا"

فيعلق عبده كالطفل الذى يستمع إلى حكايات إسوبو Esopo : "حسنًا"

بينما الآخرون صامتون يسيل لعابهم انتظارًا لكريم الكاراميلا ليكون جاهزًا أملاً فى تناوله.

وحمزة يضرب على ثيابه ليجف، فالثياب مبلل يفوح منه الرائحة النتنة وكأنها رائحة الجردل الثانى بالزنزانة.

هذا يجرى بينما سرور مستلق على ظهره يضمد جراحه إذ لا شأن له بكريم الكاراميلا، فجسده ممتلئ بالجروح وكلما تقلب على جنبيه كلما تجددت آلام جروحه.

أما الشيخ ماندوندو فإنه يعلق كل آماله على وجود الله، فكان يقرأ ورده وكفى. وكان قد أخذ فتيلاً من نسج جوال وعقده عقدًا صغيرة ثم ربط طرفيه ليجعله على هيئة مسبحة يستخدمها فى أذكاره داخل السجن متمتمًا وداعيًا: "اللهم أخرجنا من هذه الكارثة."

وكان هناك ماسانجا Masanja جالسًا فى الركن الأخير من الزنزانة بجوار الجردل، طويل الوجه ممتلئ بآثار الجروح الصغيرة كالإنسان الذى سبق أن أصابه مرض الجدرى، شعره طويل مجعد متفرق أصابه بعض الشيب هنا وهناك، وحاجبه خفيف كحاجب المرأة التى لا رموش لها فتكحلت لتبدو على الأقل وكأن لها رموشًا. عيناه صغيرتان حادتان مليئتان خبثًا وغلظة. أنفه مفلطح فوق وجهه تمامًا، منتفخ الشفتين كأنهما سلة متدلية تحت أنفه المفلطح.

لحيته نبتت فى منطقة الذقن فقط كما تنبت للتيس العجوز. هنالك جلس مكشوف البطن رابطًا خاصرته بقطعة من جوال، مسندًا ظهره على الحائط ممددًا رجليه حتى وصلت تحت الجردل. وله كفان عريضان، وذراعان مليئتان بالعضلات وعروق منتفخة وكأنها الثعابين تزحف فى شرايين الدم. وشديد السواد.

عندما كان شديد يواصل طهيه كانت عيون ماسانجا تحلق بسقف الزنزانة لا يعرف إلى ماذا ينظر من الدهشة. يسأل نفسه: "ما الذى أحضرنى إلى هنا؟ ماذا؟" إن ما أحضره هو الجوع. إنه الجوع الذى اعتصره فى بلد ليس فيها طعام، مما جعله يذهب إلى كومبينى Kombeni ليشترى دقيق الذرة المهرب. فاشترى كيسين. وما اشتراه كان هو سبب إلقاء القبض عليه لحيازته لهذا الدقيق المهرب، وكان ذلك عند نقطة شرطة ميجومبانى Migombani، فسيق مباشرة إلى التخشيبة.

والآن يواجه مجاعة السجن. إنه يجهل "كريم الكاراميلا" لا يعرفه، لم يسبق له أن رآه، ليس له من غذاء سوى العصيدة(*) Ugali.

وفى وسط الزنزانة وعلى الجانب الآخر يجلس كوندو Kondo وجهًا لوجه مع شديد، شارد الذهن كأنه مسحور، منصتًا لشديد وهو يشرح كيفية طهى "البودنج". والآن تم غليان السكر حتى تحول إلى سائل بنى اللون داخل الإناء الذى تم إدخاله فى إناء آخر به ماء فوق الموقد، والماء يغلى. وقد تم وضع أحجار ثقيلة فوق غطاء الإناءين لمنع خروج أى بخار على الإطلاق.

ويستطرد شديد فى شرحه: "وهنا تترك المياه تغلى تمامًا" و كوندو ينصت إليه، ولا يصرفه عن الإنصات إلا عندما يحك جلده من القمل الذى اتخذ من زيه العسكرى المتسخ بيتًا له.

لقد تم القبض عليه مرتديًا زيه العسكرى هذا فى منتصف الليل وهو فى مهمة الحراسة. فقاموا بتجريده من بندقيته ومن الدبابير الثلاثة التى على كتفيه والتى أورثته الكبر واحتقار الناس والافتخار فى الأحياء برتبة النقيب.

(*) إنها الوجبة الشعبية فى شرق إفريقيا، وهى خليط من دقيق الذرة يقلب فى مياه تغلى حتى يجف. (المترجم)

وقاموا بحمله بقوة وألقوا به بعنف داخل العربة وكأنه متاع متوجهين به إلى كينواميجو. فلقد انقلب عليه رفقاؤه العسكريون فجأة وكأنه ما كان يتحرك معهم هنا وهناك حالفين معًا بوجوب القبض على كل الخونة. وهو الآن قد أصبح خائنًا ومحبوسًا بالفعل داخل كومبا كومبا.

إن قميصه الصوفى ذا اللون الأخضر الداكن ملبوس بشكل عشوائى وخارج من البنطلون. والبنطلون ذاته أزراره عند الخاصرة مفككة ومربوطة بخيط من خيوط الأجولة بدأت تتهتك، ونسيجه عند الركبتين على وشك التمزق.

إنه شاب ما زال فى عنفوان الشباب، وجهه مستدير استدارة ثمرة جوز الهند المنحوتة جيدًا. عيناه كالبلية الزجاجية وكلها جرأة. أنفه مستقيم، وشفتاه معتدلتان يعلوهما خيط رفيع لشارب طفولى. وله هيبة زائدة لما فيه من طبيعة التبسم الدائم مظهرًا أسنانه الناصعة والمكتملة تمامًا، فلا فوارق فيها ولا تسويس.

شعره خليط بين المسترسل والمجعد ولا يمكنك الحكم على أى من الخليطين يسيطر على الآخر فى شعر كوندو. وهو نفسه يحب هذا النوع من الشعر، ودائمًا ما يمشطه بمشط صنعه هو بأعواد قش ربطها بمهارة فائقة مستخدمًا خيوط الأجولة. وعندما يمشطه يقوم بعمل فلقة ناحية الشمال ثم يمشطه إلى الأمام جاعلاً قصَة صغيرة على جنبيه.

ولطبيعة التبسم فيه تجده دائمًا مرحًا مما خلق حياة فى الزنزانة جعلتهم أحيانًا ينسون أنهم داخل الطامة الكبرى.

إنهم ليسوا فى الدنيا لنقول إنهم أحياء، وليسوا فى الآخرة لنقول إنهم أموات.

وفجأة قام كوندو بتوجيه لشديد وهو يبتسم استهزاءً: "هيا يا سيدى هيج النار ليستوى البودنج بسرعة حتى نأكل فإن الجوع يقرصنا."

نظر إليه شديد وهو يرمش بسرعة مجيبًا إياه: "حاضر يا أفندم" وكأنه يستهزئ به حيث أن رتبة النقيب التى كان يحملها انتهى بها المطاف إلى إصدار الأوامر إلى طاهٍ وهمى للبودنج.

وعلى نفس الصف الذى يجلس فيه شديد وفى المؤخرة وقريبًا من الباب يجلس سوجو Sugu، ملتفًا بالإزار على خاصرته مرتديًا فانلة بحمالات. جلس مسندًا ظهره على الباب واضعًا خده على كفه. إنه بعيد، بعيد جدًا عن موطنه. إن ما ورطه هو طمع الهوى، هوى النساء. فإنه ضبط أول أمس يجامع زوجة غيره. وكان قد صدر قانون فى جريدة زنجبارZanzibar Gazette ينص على أن من يضبط متلبسًا مع زوجة شخص آخر فإنه يسجن لخمس سنوات.

فها هى الخمس التى تتغص عليه حياته بالهم و الكرب. فأصبح لا ينام من التفكير فى الشدائد و المتاعب التى فى انتظاره. كان الشعر الذى حلقوه له حينما وصل السجن قد بدأ ينبت بمطباته القائمة ليدارى آثار الحلق. لقد أصبح نحيفًا شاحب الوجه و متهالكًا. ترى جمجمة وجهه بوضوح. رقبته كالعصاة، المنكبان بارزان، الأضلاع يمكن عدها ضلعًا ضلعا. إذا نظرت إليه فجأة فسوف تظن أنك تنظر إلى هيكل عظمى لشخص ميت، فإن سوجو فى مكانه ما كان بميت، إنه حى، لكن الحياة نفسها حياة هيكل عظمى.

هذا هو سوجو الضعيف، ما عاد هو سوجو القوى الشديد المثابر. إنه يراقب الشيخ ماندوندو بعين الندم. وكم يتمنى أن يطلب منه قراءة الفاتحة ويدعو له أن يخلصه الله من الشر والبلاء، و لكن كيف يقبل الشيخ ذلك لشخص ضبط متلبسًا بجريمة الزنا. ليس هذا فحسب بل إن الزنا كان مع زوجة رجل آخر!! فكلما فكر فى ذلك ينصرف عن تمنيه و يستمر فى الاستماع إلى شرح شديد وهو يواصل طهى البودنج.

ويستمر شديد فى شرحه متباهيًا شاعرًا بأنه ليس له من منافس فى الطهى: "فإذا ما غلى الماء تمامًا وقد استوى البودنج فاكشف عنه غطاء الإناء الأول الذى يحتوى على الماء الساخن ولِ وجهك بعيدًا

كى لا يواجه البخار وإلا ينشوى وجهك من البخار المتصاعد." و أخذ يحذر من هذا ويواصل شرحه: "ثم ترفع الإناء الذى به البودنج عن الموقد ثم تكشف غطاءه ناظرًا إلى البودنج لتتأكد من أنه قد أصبح متماسكًا تمامًا. فهل فهمت يا سيدى؟" إنه يسأل جاره الذى يجلس بجواره كتفا بكتف. عندئذ تنهد شديد بازدراء قائلا لجاره. "ولكن كيف تفهم و تعرف أكل البودنج و أنت من قبيلة الماكوندى Mmakondi (*) فسأله فيمبو Fimbo متباهيًا: "ولماذا تحتقرنى؟ ونحن لدينا فى موزمبيق نأكل البودى وما هو أكثر من البودى."

فعلق شديد و نظر ساخرًا: "لا تقل بودى يا هذا ولكن قل بودنج."

"أجل، إن (البودى) الذى نأكله هو نفسه البودنج."

فاعترض شديد على فيمبو قائلا: "دعك والتباهى يا هذا، فلا يمكن للماكوندى على الإطلاق أن يأكل البودنج. إن من يأكلونه هم البرتغاليون يا سيدى."

فنظر فيمبو إلى شديد عاجزًا عن إجابة يرد بها عليه فقال مبحلقًا غاضبًا: "إنك يا هذا غبى."

(*) قبيلة الماكوندى ينحدر أصلها من موزمبيق. (المترجم)

وتحول وجه فيمبو إلى وجه مخيف ملىء بتجاعيد كأنها منقوشة بشكل غائر، والأجزاء الغائرة من التجاعيد أفرزت حبوبًا خضراء وكأن سائل ثمرة الكاشو جف عليها.

وكانت هذه التجاعيد على شكل حرفى "vi" ومرتبة بشكل أسطوانى على جانبى الخدين. وكانت هذه التجاعيد "vi" متناسقة و متفاوتة فى الأحجام يبدأ أصغرها من أسفل فتحة الفم وتكبر تدريجيًا حتى تصل إلى أسفل شحمة الأذن وحتى الذقن. وكانت هناك ست تجاعيد على هذا الشكل وممتدة على هذا النحو فى كل جانب من جانبى الخدين. فكانت تشبه التجاعيد الكثيرة التى يصورها التفاف الثعابين الضخمة حول بعضها البعض عندما تزحف وتتشابك مع بعضها فتصنع عقدًا تارة وتنفك تارة أخرى فاتحةً أفواهها مخرجةً ألسنتها وكأنها تريد ابتلاع بعضها البعض.

هكذا ظل فيمبو فاتحًا فمه من الغضب وترى بوضوح أسنانه المفلوجة المرصوصة والحادة كالمنشار.

ولكن شديد اشتاط غيظًا وهب واقفًا قابضًا يديه قائلاً: "من هو الغبى؟ هل تسمينى أنا غبى يا هذا؟"

انتفض فيمبو هو الآخر: "أجل، غبى! واعلم أنك إذا ما أثرت جلبة فإننى سأشنقك هنا!"

فتدخل كوندو مبتسمًا ومازحًا: "كفوا عن الفوضى يا سادة حتى لا تسكبوا البودنج الخاص بنا على الأرض."

وقال الشيخ ماندوندو: "لاحول ولا قوة إلا بالله! لماذا هذا الشجار يا جماعة؟ نحن جميعًا فى البلاء وها أنتم تريدون مضاعفته. فلتجلسوا ولتلعنوا إبليس. وهيا اقرءوا الفاتحة." فقرأها الجميع معًا وأمَنوا جميعًا بصوت واحد: "آمين" ثم عقب الشيخ بالدعاء رافعًا يديه إلى السماء طالبًا من الله تعالى النصرة والحماية فهدأ الشجار بين فيمبو وشديد.

والتقط كوندو طرف الحديث فور انتهاء الدعاء: "أجل، هيا اغرف لنا البودنج الخاص بنا" قال كوندو ذلك وهو ماسك بخاصرته يقلب عراوى بنطلونه لينتزع منها القمل ويفعصه. ويواصل كوندو قوله: "هيا نكمل إعداد البودنج الخاص بنا حتى نأكله"

جلس شديد بعد أن انتهى الشجار بينه وبين فيمبو وقد تملكته الرغبة الشديدة فى إكمال طهيه فسأل: "إلى أين كنا وصلنا؟"

فأجابه كوندو: "كنا قد رفعنا الإناء الذى به البودنج عن الموقد".

وهنا واصل شديد: "حسنًا، ننتظر أولاً حتى يبرد، فإذا برد نأخذ طبقًا نغطى به ذلك الإناء المحتوى على البودنج، ثم يتم قلب الإناء جاعلاً إياه إلى أعلى والطبق إلى أسفل. ترفع الإناء بحذر إلى

أعلى حتى يستقر البودنج تمامًا داخل الطبق عائمًا على الماء الساخن المحلّى. ثم تضعه فى الثلاجة حتى يبرد ثم تخرجه ناضجًا تمامًا جاهزًا للأكل."

بعدما انتهى شديد من طهى البودنج، ما كان هناك بودنج ولا حتى ما يشبه البودنج. وإنما كان مجرد خيال طاف بعقولهم. فما كان هناك إلا الهواء، ويا ليته كان هواء نقيًا وإنما كان ذا رائحة كريهة منتنة. كان البودنج لهم كمثل المسافر فى الصحراء أوشك على الموت من الظمأ وإذا به كمن يرى بركة ماء يهرول إليها ليغترف منها بيده ليرتوى فإذا به يغترف الرمل، أى هى مجرد سراب يسحر العيون. هكذا كان الحال بالنسبة للبودنج الذى طهاه شديد فى الزنزانة. واستمروا يتألمون جوعًا.

"يعنى أنك الآن طهيت لنا البودنج ولكنك لم تقدم لنا وجبة؟" قالها العجوز سوبيت Subet الذى كان يجلس فى الزنزانة فى الزاوية الأخرى بالقرب من الباب فى مواجهة سوجو. كان محطمًا نفسيًا، مرتديًا جلبابًا ممزقًا، كان جلد وجهه العريض مترهلاً، واشتعل رأسه شيبًا. كان منهارًا لا يستطيع الوقوف على قدميه. وإذا وقف كان كالطفل الذى يتعلم المشى رافعًا رجليه واحدةً واحدة. وكان ذلك يظهر بوضوح عندما يتجه إلى الدلو لقضاء الحاجة. وعندما كان يقوم ترى جلده وكأنه سينسلخ من هيكله العظمى. إنه قليل الكلام،

ولكن تعليقه السابق أدهش كل من فى الزنزانة وقالوا: "إن العجوز سوبيت مسرور اليوم" فمنذ أن زج به داخل الزنزانة كانت السعادة منه هاربة تمامًا، بل تكتنفه الكآبة كلما فكر فى الخطأ الذى ارتكبه. إن خطأه الوحيد يتمثل فى قيامه بذبح ديك له، فتم اتهامه بأنه ذبح الديك ابتهاجًا بموت الزعيم. "الحمد لله رب العالمين سيحكم الله لى" قالها سوبيت رافعًا يديه إلى السماء. ثم عاد إلى نفس حالته من الضعف والوهن.

وهنا سأله عبده مستفزًا: "وماذا ستطهيه لنا الآن يا سيد سوبيت لنأكله مع البودنج؟"

فأجابه وهو يتنهد: "عجبًا! يا بنى! أنا ماذا أطهو أنا؟"

فقال جندى آخر يدعى بلال Bilali: "حسنًا، انتظروا لكى أطبخ لكم الكاسافا، كاسافا بالسمك المجفف." قال بلال هذا وهو فى زيه العسكرى الممزق، إحدى رجلى بنطلونه طويلة والأخرى قصيرة. والطويلة مليئة بآثار الدم المتجلط وقد جف كالجير. وإنه عندما يمشى يعرج. وطبقًا لأقواله فإن زملاءه أطلقوا عليه النار فأصابوه فى ركبته عندما كان يقاومهم عند قبضهم عليه.

وقال شديد لبلال رافضًا تمامًا أن يأكل البودنج الخاص به المتمثل فى الكاسافا: "من يريد الكاسافا يا هذا؟ إنها طعام العبيد وتريد أن نعطى إياها نحن المعتقلين!"

انتفض بلال غاضبًا بسبب تحقير شديد لطعام الكاسافا قائلاً له: "طعام العبيد؟ من ذا الذى قال أن الكاسافا هى طعام العبيد؟ أما تعلم أننى وأمثالى تربينا وترعرعنا على الكاسافا؟"

فأجابه شديد باحتقار وسخرية: "إذا كنت قد تربيت وترعرعت على الكاسافا فأنت إذًا عبد"

فرد بلال شارحًا: "من العبد؟ يا للعجب أما زلت رجعيًا إلى يومنا هذا؟ أمازلت وحتى يومنا هذا أسير دعاية العبودية والسيادة؟ ألا تعلم أننا قمنا بدفن مثل هذه الأفكار؟"

فكابر شديد قائلاً: " أنّى لكم دفنها؟ إن العبد هو العبد وإن السيد هو السيد لا محالة. فإنكم لم تدفنوا شىء على الإطلاق فلا تخادع نفسك عبثًا."

رفع بلال صوته صارخًا غاضبًا فامتلأت الزنزانة بالضوضاء المرتفعة التى دوت فى كل أركان كومبا كومبا قائلاً: "هؤلاء هم نفس الأشخاص! هم نفس الأفراد الذين تعودوا على الخضوع لأصحاب الجاه! حتى وإن لم يعودوا موجودين اليوم!

ولكن الحال هو أن من شب على شىء ....." وهنا جاء صوت العريف الذى دأب على إدارة الطوابير العسكرية صائحًا فى العساكر: "إلى الشمال در! إلى اليمين در!"

فتساءل شديد واقفًا قابضًا يديه:"من تعود على الحمار(*)؟ من الذى تهاجمه بطريقة غير مباشرة؟"

فنهض بلال واقفًا هو الآخر مقدمًا قدمًا ومؤخرًا الأخرى، وكلاهما قابض يديه مستعدًا لتبادل اللكمات.

وقف كوندو هو الآخر يسخن كلا منهما على المواجهة: "هيا اجعلوا تراب الأرض ساخنًا."

وكاد كل من شديد و بلال أن يشتبكا، فقفز حمزة من مكانه الذى كان يجلس فيه وتدخل بينهما لفض النزاع مستنكرًا: "ماذا دهاكما؟ وقال لهما بهدوء: "إذا كنتما قويين بهذه الدرجة فاذهبا وقاتلا من أدخلكما هنا."

فى نفس اللحظة سمع صوت الدلو يوضع على الأرض ويصطدم بدرج السلم المؤدى إلى مدخل كومبا كومبا.

فصاح كوندو منبهًا : "الوجبة الكاملة."

(*) المثل المذكور فى النص هو "إن من تعود على الحمار ...." والمقصود هو أن من تعود على الحمار لا يعرف إلا الحمار أى من شب على شىء شاب عليه. (المترجم)

فجلس كل فرد فى مكانه منتظرًا وجبة ذلك اليوم. الكاسافا وأوراقها. ولكنها ما كانت تلك التى كان يريد بلال طهيها والتى جلبت شرًا داخل الزنزانة. فما كان سيطهيها بلال كان سيضيف إليها التوابل واللحوم المختلفة فيستلذها الفم. لكن هذه لا طعم لها ولا لون ولا رائحة.

لقد اعتادت مسامعهم على صوت ذلك الدلو، فعندما يسمعونه يكونون كالدجاج عندما تسمع صوت الحبوب فى أقدارها.

فبمجرد سماعهم الصوت يدركون أن العريف أوسى Usi ملك الطعام داخل السجن قد وصل هو وفريقه، وجاهزون لتوزيع الأرزاق على الخلق المتواجدين بالزنزانة والذين أوشكت أرواحهم أن تزهق من الجوع.

وفريقه هذا هم من أولئك المساجين المحظوظين الذين اختارهم أوسى بنفسه ليطهوا الطعام لزملائهم المسجونين ويوزعونه بينهم. وفى الغالب يكونون أشداء تربوا وترعرعوا داخل السجن فتعودوا عليه بيتًا وجعلوه لهم سكنًا. فهؤلاء هم المهرجون، وهؤلاء هم الفتوات، فالسجن سجنهم وملكهم وبنى من أجلهم.

وعلى هذا النحو يدخلون كومبا كومبا مهرجين مبلطجين بقيادة أميرهم العريف أوسى حاملين الصوانى المليئة بأطباق الكاسافا وجرادل

شوربة أوراق الكاسافا. فإذا ما دخل أولئك البلطجية كومبا كومبا فإن كل سجين يبحث عن إنائه ويعده ليشرب منه شوربة أوراق الكاسافا التى يتخذها غموسًا للكاسافا نفسها. فيستيقظ النائمون، ويتوقف الذاكرون عن أذكارهم، والقصاصون عن قصصهم. فالجميع فى انتظار تقديم الوجبة. ويقوم العريف أوسى بفتح الزنزانات الواحدة تلو الأخرى سائلاً: "كم عددكم؟"

تلقى أطباق صغيرة من الكاسافا بالزنزانات فيتخاطفونها، إذ كل سجين يريد الطبق الممتلئ. ثم توضع أكوابهم ويصب فيها الشوربة. وهكذا دواليك حتى يتم توزيع رزق اليوم على الجميع.

فإذا ما انتهوا من الأكل سكن الجوع. وانتهت مع ذلك حكاياتهم عن الطهى، فلم تعد لديهم الرغبة فى الطهى. فكل منهم عندئذ لديه أفكار أخرى يفكر فيها.

وكان ناصر Nassor مطأطئًا رأسه غارقًا فى التفكير.

وفجأة انفجر باكيًا صارخًا: ووو ووو كالطفل الصغير بينما هو رجل كبير يتمتع بقواه العقلية وقد اشتعل رأسه شيبًا مع انتشار بعض الشيب على جانبى لحيته حول وجهه.

انتحب ناصر وزرف الدمع واحمر وجهه وهو يقول: "مسكينة أنت يا زوجتى! مسكين أنت يا ولدى! ووو ووو." وقد كان يجلس بالقرب من ماسانجا الذى أذهله وأدهشه أن يرى رجلاً كبيرًا يبكى كالطفل الصغير.

لقد حرقت ندبات ناصر سويداء قلب حمزة. فقد تذكر الزوجة والابنة. فهو نفسه مازال حديث الزواج بخديجة، وقد رزق منها بأول مولود منذ أيام. ولم يره إلا أسبوعًا، وما لحق أن يسميها قبل أن يقبض عليه. "سأسميها متاعب" خطر فى قلب حمزة هذا الاسم. ونظر إلى ناصر وهو يبكى بحرقة قائلاً له: "كلا إن تهدئة الطفل لا تتم بأغنية سيئة! فلو سميتها متاعب يمكن أن تأتى وتتعب فعلاً فى الحياة!" جال هذا فى خاطره.

ثم نظر ثانية إلى ناصر الذى رفع رأسه ونظر إليه والدموع تنهمر من عينيه حتى بللت صدره ولحيته تمامًا وقال له:

"هل تعتقد أنك الوحيد هنا بالداخل الذى لديه زوجة وولد؟ كلا! فكف عن استحضار المواجع لنا!"

هدأ بكاء ناصر ولكنه ظل ينتحب متألمًا من الأعماق.

وإن سوجو لما سمع ناصر يذكر الزوجة خفق قلبه سريعًا، وتذكر زوجة الرجل التى ضبط معها متلبسًا، وشعر أن السنوات الخمس التى حكم عليه بها لن تطاق إذ أصبحت كابوسًا لا يفارقه فى منامه، وعندما يأتيه يصيبه بالتشنجات.

انتهى ذلك اليوم بطيئًا، ومرت الظهيرة رتيبة، وجاء وقت الأصيل ومر ليفسح المجال للغروب، وها هو وقت إدخال المعتقلين إلى الداخل بعد معاناة النهار من الأشغال الشاقة. أما الخونة الذين يبقون بالداخل طوال النهار كالفتيات البالغات فى خدورهن فإنهم يفرحون كل الفرح بعودة هؤلاء المعتقلين إلى الزنزانات. كانت زنزانات المعتقلين قد تم فصلها عن زنزانات الخونة. وأصحاب القبعات السوداء من هؤلاء المعتقلين لا ينامون داخل الزنزانات وإنما خارجها حيث الدهليز المؤدى إلى مخرج كومبا كومبا، ويمكنهم التحدث مع أى سجين داخل الزنزانة من خلال ثقوب تم ثقبها فى الأبواب. أصحاب القبعات السوداء هؤلاء هم الذين يسعد لهم الخونة أكثر. فهم المساجين الأوفياء المؤتمنون على حراسة زملائهم المساجين. وإن وفاءهم لأمر عجيب. فهم أوفياء حينما يكونون داخل السجن فقط، أما خارجه فإنهم اللصوص المحترفون الخطرون.

إنهم هم الذين لديهم الجديد من الأخبار التى تخص المسجونين هناك. ماذا يقول من فى الخارج، ومن يسلم على من. فهم يأتون بالأخبار المختلفة منها ما يرفع من معنوياتهم ومنها ما يجلب اليأس إليهم.

وإنهم الفحول أيضًا فى الاستهزاء بالعساكر الذين يقومون بتفتيشهم قبل إدخالهم إلى الداخل، مستخدمين فى أنفسهم فتحة الشرج لإخفاء السجائر والتبغ نصف الخام والبانجو ويقومون بإدخال هذه المواد داخل كومبا كومبا ثم يدخلونها سرًا إلى زنزانات زملائهم المسجونين. فتكون هذه المواد سلعًا نادرة للغاية ويفوق ثمنها ثمن الذهب والفضة.

فإذا ما جن الليل وحل عليهم الظلام داخل زنزاناتهم فإن بعضهم يقوم عندئذ بإزالة وحشة غربته بإدمان هذه المواد التى تم إدخالها إليهم سرا عن طريق أصحاب القبعات السوداء. فمنهم من يحشش ومنهم من يبرشم بالبانجو حتى ينتشون ويسكرون لبعض الوقت سكرًا يبعدهم عما هم فيه من حياة المعاناة والآلام. عندئذ تمتلئ أركان كومبا كومبا بالدخان لدرجة يظن معها المرء أن هناك مريضًا يرقى ببخور أوراق البانجو الملفوفة.

أما بالنسبة للحشاشين فها هو الوقت الذى تنفصل فيه عقولهم عن أجسادهم وتخرج من السجن لتحلق هنا وهناك مستجيبة لأصناف تلك النشوة الناجمة من البانجو. وحيثما تحلق تبنى القصور والبيوت المعلقة فى الهواء ويقطنونها. هناك يخلقون لأنفسهم المتع وعظمة الملوك التى بها يرتدون الحرير والعباءات والعمائم وسط الحور العين والجاريات المطربات العازفات.

أما أولئك الذين لا يدخنون ولا يحششون ولا يبرشمون فإنهم يكونون فى رجوع إلى ربهم مصلين ذاكرين داعين الله أن يجنبهم الشر ويزيل عنهم البلاء ويخلصهم مما هم فيه من بلوى. وها هو الوقت الذى يرفع فيه الشيخ ماندوندو يديه إلى السماء باسطًا كفيه داعيًا الله بكل ما يحفظ من أدعية فى حياته ويؤمن معه الجميع آمين. ويختمون وينامون منتظرين فرج الله.

ويفاجأ الجميع من حشاشين وذاكرين بشروق شمس ساطعة ليوم جديد. فبالنسبة للحشاشين فقد تبخرت نشوتهم ولم يعودوا موجودين داخل القصور ولا البيوت ولم يعد هناك حور عين ولا جاريات بل، هو السجن داخل الزنزانات. ويمر اليوم الجديد ببطء شديد.

الفصل الرابع

كان شروق ذلك اليوم مثله مثل الأيام الأخرى فى روتين حياة ذلك السجن. فالخونة قابعون داخل زنزانتهم دائمًا ولا خروج على الإطلاق. الخروج الوحيد لهم إنما هو لتفريغ جرادل أبوالهم وبرازهم. وبعدها يتم توزيع كوب الشوربة وقطعة الكاسافا وبعدها يجلسون وينظر كل منهم للآخر.

أما بالنسبة للطهاة فها هو وقتهم لإظهار براعتهم فى فن الطهى، فيطهون ويغرفون ويأكلون فى عالم الخيال. وكذلك هو وقت أصحاب النوادر والطرائف ليروحوا بها عن أنفسهم. وأيضًا للقصاصين ليحكوا قصصهم " كان يا ما كان".

كان ناصر قصاصًا ماهرًا فى أدائه وبالأخص عندما يغرق فى التفكير فى زوجته وطفلته. فكان يحفظ جيدًا قصص ألف ليلة وليلة وأبى نواس.

وكان يعرف قصصًا مثيرة عن الغيلان والعفاريت فيجلس الجميع مستمعين مشتاقين عندما يحكى قصص ميمونة والكشكش، أو مغامرات البحار سندباد، وعلاء الدين مع المصباح العجيب، أو على بابا والأربعين حرامى.

فكان عندما يحكى هذه الحكايات لا تظنه أنه ناصر الذى يبكى بسهولة وتنهمر دموعه من أجل زوجته وطفلته.

وما إن يتعب ناصر حتى يواصل الشيخ ماندوندو فيحكى قصص الأنبياء والرسل كنوح وسفينته، وموسى وقومه، وسليمان وتسخير الجن له، وعيسى ومعجزاته، ويونس والحوت، ويتخلل كل ذلك أدعية كثيرة راجيًا من الله النصرة والقبول.

ولكن فى صباح ذلك اليوم ما كان هذا ولا ذاك، ما كانت هناك قصص، وما كان هناك طهى، والجميع مستلق على الأرض بين قاعص للقمل وباحث عنه وبين طارد للبق وداهس له، وإذا بصوت المفاتيح يقترب منهم فعلموا أن هناك قادمًا جديدًا سيتم الفتح له. وكان سرور عندئذ نائمًا فاستيقظ فجأة ونهض جالسًا يشتكى آلامه ومتابعًا صوت المفاتيح. ونهض عبده إلى ثقب الباب لينظر خائفًا قائلاً: "لابد أن هناك شخصًا ما قد حضر".

أخذ يبذل قصارى جهده ليختلس النظرة بعد الأخرى من ثقب الباب لعله يرى المدخل الرئيسى لكومبا كومبا ولكنه لم يتمكن جيدًا لبعد الزنزانة عنه. وعندئذ سمع عبده صوت الباب يفتح بجلبة. عاد وجلس فى مكانه بينما الجميع ينتابه القلق.

نظر حمزة إلى عبده، ونظر عبده إلى سرور متأملاً فى جسده وفى تحلله من الجروح. ونظر شديد إلى فيمبو مستنفرًا إياه : "إنهم قادمون ليأخذوك"

فرد عليه فيمبو بغلظة : "أنا؟ كلا بل أنت، سيأخذونك أنت أيها الخائن"

فتحت أبواب الزنزانات الواحدة تلو الأخرى، وعمت جلبة الخارجين من الزنزانات جميع أركان السجن. أتى العريف فتاك Fataki وفتح زنزانتهم فحملق الجميع إليه منتظرين المصيبة التى أتى بها إليهم فى هذا الصباح قائلين: " يا فتاح يا رزاق"

ووقف فتاك عند الباب مختالاً فخورًا ممسكًا بالمفاتيح المدلاة فى سلسلة طويلة وقال: "الاغتسال"

إنه رجل طويل القامة فاتح اللون، طويل الوجه، نظارته لون السلحفاة، له شارب رفيع ممتد تحت أنفه وواصل إلى فتحتى الفم، يرتدى قبعة من الكاكى وتكاد تتلامس مع نظارته على جبينه، زيه العسكرى نظيف للغاية، ومكواه منشاه، وتتدلى نجمتان على كتفه الأيسر، حذاؤه الأسود النظيف يلمع، فى وسطه حزام عريض من قماش الخيام بأزرار نحاسية لامعة.

لم تبد على وجه فتاك أية علامة كباقى زملائه من العسكر الذين عادة ما يأتون بوجوه فظة عابسة حتى أن بعضهم كان ينطق بالحكم قائلاً: "الإعدام لكم رميًا بالرصاص".

فكان وجه فتاك يبدو وكأنه شخص لا يعرف ما يجرى من حوله فنظروا إليه مندهشين غير مصدقين لما يقوله لهم.

فكرر لهم: " أقول لكم الاستحمام"، وأخافهم بضرب قدمه على الأرض ليتحركوا وهو يتبسم.

فخرجوا من الزنزانات كالمجانين تعلوهم القذارة وتفوح منهم الرائحة الكريهة. واختلطوا بالمعتقلين الآخرين من الزنزانات الأخرى، فعمت الفوضى فى كومبا كومبا. ثم انتقلت هذه الفوضى تدريجيًا إلى ساحة فناء السجن حيث الحمامات. وهناك رأى المعتقلون بوضوح ذلك السور الذى يحيط بالسجن وفوقه الأسلاك الشائكة وهو قائم هناك على مر السنين والأزمان تهطل فوقه الأمطار ويعلوه الغبار وتضربه أشعة الشمس حتى نبتت عليه الطحالب فأقامت عازلاً بين من فى داخله من المعتقلين ومن فى الخارج من المواطنين الأحرار.

كان الحشد مثيرًا واللقاء غريبًا لأنه اللقاء الأول من نوعه لكل المعتقلين، فأخذ يسأل كل منهم الآخر مندهشين: "ماذا عنك؟ ماذا حدث لك؟ ماذا و ماذا؟"

وكانت ملامحهم الآدمية قد أخذت تتلاشى وأصبحوا كالحيوانات. فشعرهم أشعث أغبر يشبه خيوط الأجولة. ووجوههم تكسوها اللحى العشوائية الكثيفة الملتصقة بالشوارب فتناثرت على شفاههم شعيرات كالطفيليات.

كانت عيونهم محملقة وكأن الحول أصابها لأنهم لم يعودوا يروا ضوء الشمس منذ فترة طويلة للغاية. وكانت ملابسهم ممزقة متسخة بشكل مقزز.

ساد ذلك الحشد القلق والفضول فأخذوا يتساءلون: "متى كان القبض عليك؟ متى الإفراج عنك؟" ولكن لم يوجد فرد واحد لديه الأمل فلم يك هناك إلا مجرد فوضى لأناس يائسين.

وهناك اندهش حمزة حينما رأى من على بعد عسكريًا معتقلاً كان يأمر زملاءه بإطلاق النار على كل فرد ينزل يديه عندما كانوا داخل العربة التي ساقتهم إلى السجن في ذلك اليوم الذي تم اعتقالهم فيه وتساءل مندهشًا: "هل هو أيضًا معتقل معنا؟ خائن؟"

وعجز أن يصبر فتوجه إلى العسكرى ليلومه ويحرجه.

حاول العسكرى من جانبه أن يتفادى هذا الموقف. لكن حمزة ربت على كتفيه قائلاً له: "لا عليك"

فرد عليه بخجل: "أهلاً أخى" أصبح حمزة اليوم أخًا له، ولم يعد هو العسكرى الذى كان سيطلق عليه النار فى ذلك اليوم الذى كان يتبختر فيه ويهين الناس معتبرًا إياهم مجرد مخلوقات لا قيمة لها.

واستطرد العسكرى مدافعًا عن نفسه دون أن يطلب منه أحد ذلك: "لا تلومنى يا أخى! فقد كنت أؤدى الواجب!" قالها العسكرى مدافعًا عن نفسه فى هذا الموقف الحرج الذى أوقعه فيه غروره فى ذلك اليوم. والآن هو معتقل مع نفس الأشخاص الذين أهانهم.

عندما وصل الهرج والمرج الذروة رأى المعتقلون العريف فتاك قادمًا. ظنوا أنه قادم لإعادتهم إلى زنزاناتهم وهم ما يزالون يرغبون فى البقاء حتى ينعموا أكثر بالشمس ويتجاذبوا أطراف الحديث فى موضوعات كثيرة تهمهم. وكان منهم من يغتسل ومنهم من ينظف ملابسه ومنهم من يفعص القمل والبق. وقف فتاك فالتف الجميع حوله وكأنهم أسرى وجدوا من يحررهم. أدخل يده فى جيبه وأخرج مقصًا وأمواسًا وأعطاها لأحدهم قائلاً: "سيقص بعضكم لبعض" ثم نظر إليهم وقال: "لا تنزعجوا فسوف يفرج عنكم جميعًا"

ثم ذهب وحال سبيله وتركهم فرحين بذلك اليوم المشمس الملىء بالآمال الكبيرة. فكم من الأيام مضت وهم لم يخرجوا؟ ليس خروج من يمكنه أن يذهب ويعود كما يشاء، ولكنه مجرد التواجد خارج الزنزانة لبعض الوقت للتمتع بالشمس ورؤيتها فقط.

ففى ذلك اليوم اغتسلوا وتنظفوا جيدًا. وحلق كل منهم للآخر بالطريقة التى يحبها، ومعظمهم حلق شعره تمامًا. وغسلوا ملابسهم وتشمسوا متمنين ألا تغرب الشمس وأن تبقى حتى ينعموا بها أكثر.

ولما انتهت نوبة العريف فتاك أعادهم إلى الزنزانات سعداء، داعين المولى أن تكون نوبته يوميًا ليخرجوا ويروا الشمس، وأن يستمعوا لقوله الذى يؤنسهم ويعطيهم الأمل بقوله لهم: "لا تنزعجوا فسوف يفرج عنكم جميعًا"

وإذا كان من الممكن أن يوجد نوم عميق فى السجن فإنما كان هو ذلك اليوم لهم. فلقد كان نومًا عميقًا هادئًا مليئًا بالآمال الطيبة. ولكن كل الآمال الطيبة تبخرت حيث استمر الوضع كما هو عليه داخل كومبا كومبا من الوحشية والتعذيب.

أطل يوم جديد، وبعد الانتهاء من تناول الشوربة فتح باب الزنزانة، وإذا بعسكرى واقف على الباب وكأنه عزرائيل.

فسألهم: " من منكم حمزة؟" "أنا" أجابه حمزة مسرعًا ومرتبكًا للغاية. فأمره العسكرى أن يرتدى ملابسه.

لم يكن لديه ملابس غير التى على جسده ليرتديها، فخرج من الزنزانة وأغلق الباب، ثم توجها معًا. حمزة فى الأمام والعسكرى فى الخلف حتى وصلا لباب الاستقبال. يعرف حمزة مكان الاستقبال جيدًا. فهو المكان الذى تم استقباله فيه هو وزملاؤه، وتمت إهانتهم، وتم تجريدهم من ملابسهم، وتركوا عرايا كالحيوانات.

كان يومًا يسوده الهدوء،ولا يوجد الكثير من الناس. وكان هناك عسكرى يقف خلف مكتب الاستقبال، وكان هناك أيضًا شخص آخر قصير القامة نحيفها يقف بجانب المكتب، يرتدى زيًا مدنيًا: بنطلونا طويلا وقميصا أبيض اللون، وطاقية مطرزة تطريزا يدويا، وجهه صغير، وشفتاه بارزتان إلى الأمام بروزا شديدا.

خفق قلب حمزة خفقانا شديدا لأنه يعرف ذلك الرجل جيدًا. إنه رجل مشهور فى وحدات الأمن القومى بكل صفات الغلظة والوحشية.

وهو واحد ممن ذاع صيتهم فى مركز تعذيب المعتقلين.

فما يرتكبه هناك يشبه ما كان يرتكبه البوليس السرى النازى.

كان الرجل قصير القامة، وقصر القامة هذا هو ما جعله متكبرًا ومتعاليًا حتى يطاع فتختفى ضآلة حجمه. كان يلبس نظارة شمسية مماثلة لتلك التى يلبسها البوليس السرى التابع لفصيلة تونتون ماكوت Tonton Makut فى جزر الهاييتى.

" أهذا هو حمزة ؟" سأل العسكرى.

" نعم ، إنه هو" أجيب عليه.

" فلنذهب" تم توجيه الأمر إلى حمزة بغلظة وإهانة.

تم فتح البوابة الرئيسية للسجن كله، وخرج حمزة يرافقه ذلك العسكرى من وحدات الأمن (ضابط مخابرات). فوجد بالخارج جنديين من الشرطة العسكرية فى انتظاره، وهما مسلحان بالرشاشات وفى وضع الاستعداد لإطلاق النار فى أى لحظة. وجها أسلحتهما إلى صدر حمزة، وأمراه برفع يديه. رفع حمزة يديه وأمراه بالسير أمامهما وهما من خلفه، وكأنه قد حكم عليه بالإعدام وكأنه الآن يتوجه إلى مكان تنفيذ هذا الحكم فيه رميًا بالرصاص.

عبروا السور المحيط بسجن كينواميجو والجنديان تعلو وجهيهما الغلظة والعبوس ويسيران بخطوة عسكرية ضاربين الأرض بأقدامهما ضربًا شديدًا، مصوبين رشاشيهما لظهر حمزة. وكان ضابط المخابرات يسير محاذيًا لحمزة يسأله أسئلة يسيرة:

" أين حمدون؟"

" لا أعرف" أجاب حمزة وهو رافع يديه قلقًا للغاية، حيث تأكد له أنه متوجه إلى مركز تعذيب المعتقلين. قد كان يسمع عن هذا المركز من خلال ما يحكيه عبده، وما كان يحكيه الناس فى الأحياء قبل القبض عليه.

فكان المركز قد اشتهر، ولم يعد هناك أحد إلا وقد سمع عما يجرى فيه. فالناس يشبهونه بالآخرة حيث لا عودة إلى الدنيا لمن ذهب إليه، والعذاب فيه يشبهونه بجهنم حيث يعذب الله فيها عباده الذين عصوه فى الدنيا.

والعاملون فيه يخافهم الناس ويرتعبون منهم ارتعابهم من السحرة. فهم فوق القانون، يفعلون ما يشاءون ولا يسألون عما يفعلون. فكانوا يسيرون فى الأحياء متغطرسين متسائلين: "من ذا الذى هو مثلى! من ذا الذى هو مثلى!"

تابعوا الخطى. حمزة فى المقدمة، وحراسه من خلفه يسيرون بجانب السور حتى انفصلوا عنه عند نقطة امتداده إلى جنوب ذلك السجن. فمروا بالطريق الضيق الذى فى وسط مزرعة البرسيم.

وعلى بعد مسافة قصيرة إلى الأمام كان هناك مبنى آخر فى وجههم ملتصقًا بالسجن. فاقتربوا رويدًا رويدًا من ذلك المبنى حتى

وصلوا أمام بوابة حديدية كبيرة. عندها ضغط ضابط المخابرات الجرس ففتح الباب فورًا، ودخل الجميع المبنى. كان حمزة بالأمس يسمع عن مركز تعذيب المعتقلين أما اليوم فهو فيه.

التصميم المعماري للمبنى يشبه نفس التصميم لسجن كومبا كومبا حيث الغرف على الجانبين: الأيمن والأيسر مع ممرات ضيقة تتوسط الغرف. وأمام المبنى ساحة واسعة مرصوفة بالأسمنت.

وفي نهايتها يوجد مبنى آخر بابه يطل على الساحة.

كان في الساحة ستة أشخاص، أربعة منهم عساكر قوات مسلحة، والخامس شرطي والسادس ضابط مخابرات في زي مدني فأصبحوا مع الثلاثة الذين أخذوا حمزة تسعة أشخاص. أحاط الجميع حمزة ومازال رافعًا يديه مثل أسير الحرب.

" أنزل يديك" أمره أحد الجنود بصرامة فنفذ حمزة خائفًا، لكنه تماسك منتظرًا ما سوف يأتي.

كان هؤلاء الجنود أصحاب رتب عالية تعلو أكتافهم الدبابير الثقيلة. وكل واحد منهم يمسك بعصا غليظة من شجر الجوافة تشبه المستخدمة لإسقاط المانجو. تهامسوا فيما بينهم وضحكوا بصوت مرتفع لإرعاب وإرباك حمزة خاصة وأنهم مفتولوا العضلات، وكل منهم ينافس الآخر في ضخامة الجسد. وحمزة صامت يفكر في الشر

وفي الكراهية التي تملأ قلوب هؤلاء المتعطشين للدماء مثل السحرة المنتظرين للأكل الجماعي.

وهنالك تذكر حمزة ذلك اليوم الذى زج بسرور في زنزانتهم. فنظر إلى هؤلاء الجلادين المحيطين به، وشعر أن يومه قد حان.

نظر كل منهم للآخر وتغامزوا، وأمر أحدهم وهو الشرطي حمزة قائلاً: " تعال هنا"

وتم إدخال حمزة داخل ذلك المبنى المقابل للساحة المرصوفة بالأسمنت، ليجد نفسه داخل صالة كبيرة وأمامه مباشرة توجد منضدتان كبيرتان موضوعتان على شكل حرف تى "T" ومرصوص حولهما الكراسى وكأن هناك مؤتمرًا.

عندما دخل تلك الغرفة وجد شخصًا يجلس على الكرسى خلف إحدى المنضدتين، في زى مدنى من قميص لونه فيروزى، وعلى وجهه نظارة أسقطها على أنفه، ونظر إلى حمزة من خارج شنبر النظارة، مومئًا وجهه إلى أسفل كى يرى حمزة جيدًا أثناء دخوله الغرفة وهو يعتصر خوفًا. فرحب به بصوت مزعج قائلاً: " تفضل يا صاحب السمو!"

علم حمزة أن هذا من باب الاستخفاف به لأنه ليس أصلاً من أصحاب السمو، ثم إنه يعرف جيدًا من هم أصحاب السمو. إنهم هم الذين كلفوا هذا الرجل بهذه المهمة، وأجلسوه فوق هذا الكرسى الذى يجلس عليه ناظرًا إلى نفسه وكأنه معبود بشرى. ومن جلسته على الكرسى يظهر أنه صاحب منصب كبير داخل هذا المبنى، إذ أنه يملأ الكرسى بالكامل، ويتفحص الأوراق المنتشرة على كل مساحة المنضدة.

وقال لحمزة: " اجلس، لماذا تقف والكراسى كثيرة؟ "

بهدوء تحرك حمزة، وجلس على كرسى فى طرف المنضدة الثانية. كان ذلك المكتب عبارة عن قاعة كبيرة ذات جدران ضخمة مدهونة باللون الأبيض، سقفها مرتفع، مثبت بدعائم حديدية وفى إحدى هذه الدعائم يتدلى هلبان وكأنهما لتدلية الأنشوطة. وليس بها إلا شباك واحد مرتفع وقريب من السقف، وكان شعاع الشمس القادم منه يضرب فى وجه حمزة لجلوسه فى مواجهته مباشرة. والأرضية ناعمة ملساء، ولوسع القاعة كان مجرد الصوت الخافت يحدث دويًا هائلاً فيها.

خمسة أشخاص دخلوا تسبقهم جلبة: ثلاثة جنود من القوات المسلحة جلسوا على جانب من المنضدة، والشرطى وضابط المخابرات

جلسا على الجانب الآخر منها. ألقى كل واحد منهم بنفسه على الكرسى متعالين وبالطريقة التى تروق لكل منهم. وحمزة هو الوحيد الذى يجلس ذليلاً منكمشًا على مقعده منتظرًا مصيره.

خلع الشخص الذى كان يبدو أنه رئيس المجموعة نظارته ووضعها على جانب المنضدة.

استهل ضابط المخابرات الحديث: "فلنبدأ الآن"، "أين حمدون؟" اندهش حمزة ولم يعرف بم يجيب لأن ما يعرفه هو أن حمدون قد مات، فالحكايات التى أشيعت فى كومبا كومبا كانت تشير إلى أن حمدون قد قتل بعد أن قام باغتيال الزعيم فى الحال.

إذًا فبم يجيب! ولكنه أجاب بصوت كله خوف ومقشعرًا: "لا أعرف" قالها وهو يدعو من قلبه: " يا إلهى ! أعنى على الخروج من هذا البلاء"

" لا تعرف ؟!" قالها ضابط المخابرات قافزًا من على مقعده وفى يده رزمة كبيرة من الأوراق يكتب فيها.

الضابط: " وهل تعرف بركات؟"

حمزة: "أعرفه" وحينئذ تذكر صورة بركات فى اليوم الذى تم فيه إلقاء القبض عليه وقد رآه فى نقطة الشرطة مكبلة يداه ومتورم الوجه.

- " أين هو؟"

- " لا أعرف"

- " أخبرنا عن علاقتك بحمدون"

- " إنه مجرد صديق لي فقط"

- " مجرد صديق؟"

- " أجل"

- " هل تثق فيه جدًا ؟"

تردد حمزة في الرد وهو ينظر هادئًا إلى سائله. وفجأة جاء حمزة صوت حاد من أحد الجنود يأمره: "أجب"

فأجابه حمزة هادئًا بعدما بدأت حالة التوتر تزول عنه:

- " ما كنت أثق فيه"

- " هل كان هو يثق فيك؟"

- " لا أعلم"

- " ولماذا لم تكن تثق فيه؟"

- " لأنه كان من عادته أن يتفوه بكلمات عشوائية عندما يسكر"

– " إذًا ما كنت تثق فيه حتى لا يأتى ويتفوه بألفاظ عشوائية عن خطتكم لهذه الخيانة"

– " إننى لا أعرف شىء عما تتحدث عنه"

– " ما الذى كان يتفوه به؟ "

– " أشياء كثيرة"

– " مثل ماذا مثلاً؟"

– " لا أتذكر الآن، ولكنه كان يقول كلامًا كثيرًا".

– " أخبرنا إذًا مثلاً"

– " ذات يوم مثلاً كان سكرانًا وقال أنه سيلقى بنفسه فى المحيط"

– " ولماذا يلقى بنفسه فى المحيط؟"

– " لا أعرف"

– " إذًا أنت تستهزئ بنا" وهنا توقف ضابط المخابرات عن الكتابة.

– " لا، أنا لا أستهزئ بكم."

– " أخبرنا عما تعرف عن الاغتيال."

- " أى اغتيال؟"

- " يعنى لا تعرف أى اغتيال؟ إنك غبى للغاية. فقد ذكر زملاؤك اسمك هنا، ثم تتظاهر بأنك لا تعرف شيء عن الاغتيال!"

قال أحد الجنود ذلك بصوت مرتفع ضاربًا المنضدة بقبضته واقفًا غاضبًا.

- " أخبرنا حمدون بأنك متورط" قالها رئيس الفريق بصوت هادئ.

- " متورط! كيف؟!" سأل حمزة مندهشًا بأن يورط فى أمر لا يعرف عنه شيئًا، وليس بالبسيط بل باغتيال الزعيم.

- " أنت متورط، ومتورط بشكل مباشر فى خطة اغتيال زعيمنا." قالها جندى آخر بصوت مرتفع فأحدث دويًا هائلاً فى أرجاء القاعة.

- " يعنى هل ستعترف أم لا؟" سأله ضابط المخابرات.

- " أعترف بما أعرفه، ولكن بالنسبة للاغتيال فأنا لا أعرف عنه شيئًا"

- " يعنى لا تعرفه؟ انتظر فسوف ترى"

سحب ضابط المخابرات عصاه الغليظة، وكان واضعًا إياها تحت المنضدة وضرب بها رأس حمزة بكل قواه، فسالت الدماء بغزارة وكأنها ينبوع فتلطخت الأوراق بالدم، ثم سالت دماء أخرى أسفل، وأخرى على وجهه. ومع أن حمزة لم يتمكن حتى من إخراج صوت انقض عليه الجنود الآخرون كالنحل المستنفر، وأخرجوه من المكتب وألقوا به بالساحة المرصوفة بالأسمنت، وأخذوا يضربونه ضربًا مبرحًا.

حاول أن ينأى بنفسه عن العصى، ولكنه حوصر فأصبح كالمحجوز داخل قفص لا يهرب منه. فضرب حتى عجز عن القيام. ولم يكن أحد منهم يتخير مكان الضرب بل كانوا يضربونه حسبما تهوى عليه العصى: على وجهه، على رأسه، على بطنه، على ظهره. فتم سحق حمزة سحقًا شديدًا فسقط على وجهه. فقاموا برفعه فى الحال وحملوه من يديه ورجليه وكأنهم يريدون صلبه ولكنهم أخذوا يضربونه بالسياط على ظهره حتى تمزق قميصه تمامًا.

ثم أعادوه إلى قاعة المكتب، وربطوه بحبل المشنقة المتين المتدلى من الخطاف المعلق بدعامة السقف الحديدية.

وأخذوا يجرونه بلا رأفة جرجرة الحيوان المربوط. وكان الجسم ينزف دمًا، ويسيل من فمه ريق لزج. وكان يصرخ مسترحمًا إياهم حتى بح صوته فلم يخرج من حنجرته سوى الحشرجة.

رأوا الآن شنقه، فرفعوه على الكرسى وحبل المشنقة حول رقبته. وسحبوا الحبل حتى تأكدوا أن الحبل استقر بإحكام حول الرقبة. رفعوه على الكرسى ثم دفعوه بالأرجل. فأصبح حمزة متدليًا. وهم يشدون الحبل حتى أخذ حمزة يحرك يديه فى الهواء وكأنه يسبح فى الماء، وعيناه شاخصتان، ويتبول على نفسه كالطفل.

ولما أشرف على الموت أطلقوا الحبل فسقط حمزة على الأرض. رفعوه وألقوا به إلى الخارج. وما أن استقر على الأرض طريحًا حتى صبوا عليه دلوًا كاملاً من الماء كى يعود إليه وعيه. وما إن بدأ يعود إليه وعيه حتى قالوا له: " الآن ستنطق"

أحاط به الجميع، وامتلأت الساحة بهم، وهو مستلق والرغاوى تملأ فمه وتنزل منه، وينزف دمًا، ويتشنج مثل من يحتضر، وحبل المشنقة مازال حول رقبته، وبنطلونه مبتلاً من بوله.

نظر حمزة إليهم، ولكنه لم ير أشخاصًا بل مجرد صورة ضبابية تملأ المكان دونما شعور بنفسه ولا بمن حوله.

سمع أصواتهم وكأنها أصوات قادمة من على بعد، وأحدهم يقول: " فلنتخلص منه"

وإذا به يركل بالحذاء الميرى على وجهه، فيفقد الوعى تمامًا. وأصبح جثة هامدة كالميت. وتركوه فى نفس المكان من الساحة كى تضربه الشمس طوال النهار كسمكة قرش مجففة.

بدأت الشمس تغرب، وهبت ريح باردة، فشعر حمزة ببرودة الأرض المستلقى عليها. ففتح عينيه بهدوء واندهاش. كان كمن يحلم حلمًا عجيبًا. فقد حلم كأنه مات وعاد للحياة من جديد وقد أصابه ظمأ شديد وأنه يرتعش مثل المصاب بالحمى، ويقول: " ماء! ماء! ماء!"

أراقوا دلوًا كاملاً من الماء على وجهه فبلل وجهه تمامًا فإنه لم يحصل على نقطة مياه واحدة يشربها. فأخرج لسانه وحاول لعق شفتيه بما عليهما من نقاط المياه ليبرد به حلقه المشتعل. ولكن المياه سالت على وجهه وجفت على الأرض وهو مازال يلهث مستغيثًا: " ماء! ماء!"

عندما فتح عينيه رأى عالمًا مليئًا بالضباب، ورأى من هم بالقرب منه على بعد وكأن ستارة خفيفة تغشاهم. شعر بالمرض وبأن جسده كله يؤلمه ألمًا شديدًا، وتورم كالمنفوخ. وكان الدم ينتشر فى كل المكان المستلقى فيه ،وينبعث منه رائحة نافذة جعلته يشعر بدوار.

ومن بعيد سمع صوتًا يقول: " أعطوه ماءً"

ثم رفعه بأن أمسك به شخص على اليمين وآخر على اليسار وأقعداه أرضًا. كان كل جزء من جسده يؤلمه حين يلمسه أحد. وأصبحت رقبته لا تقوى على حمل رأسه الذى مال على كتفه الأيمن. فعدلوا رأسه، ووضعوا على فمه كوزًا من الماء.

استلم الكوز بكلتا يديه وشرب جرعة كبيرة من الماء فدخلت حلقه. عندها تنفس بسرعة ولكن بصعوبة. ولما انتظم تنفسه شرب الماء المتبقى فى الكوز كله وبشراهة. استمر فى مكانه ولم يتحرك. أخذت عيناه تسترجعان النظر تدريجيًا. بدأ وعيه يعود إلى طبيعته رويدًا رويدًا. وجد نفسه مازال على قيد الحياة.

قلت حالة الضوضاء بالداخل ولم يبق إلا المسئولون فقط. وهم الجبابرة فى تعذيب المعتقلين. رفعوه وأوقفوه ساندين إياه يمينًا ويسارًا.

تماسك حمزة وانتصب واقفًا. أمره ضابط المخابرات الذى أتى به من كومبا كومبا عابسًا وجهه كالجلد على الركبة:

" هيا اتبعنى"

ثم اقتياد حمزة إلى الزنزانات وزج به فى إحداها. رأى داخل الزنزانة عسكريًا فى زيه العسكرى مستلقيًا على الأرض ومستقيمًا عليها استقامة جذع الشجرة. زيه العسكرى ملطخ بالدماء. وجهه به كدمات شديدة. حاول حمزة الرجوع إلى الخلف ولكن ضباط الأمن دفعوه بالقوة إلى الزنزانة. سألوه وهم يشيرون إلى العسكرى المستلقى أمامه: " هل تعرف هذا؟"

لم يستطع حمزة أن يتفوه بأية كلمة إذ لا يعرف بم يجيب. فظل ينظر إليهم نظر الساذج محاولاً النطق ولكن لا جدوى.

كان يريد أن يصرخ ولكن استعصى عليه ذلك. فظل ينظر إلى ضباط الأمن والخوف يتملكه. كان يعرف العسكرى المستلقى جيدًا، كان صديق العمر. إنه ضابط برتبة كبيرة فى الجيش. نظر إليه حمزة فشعر من خلال هيئة استلقائه أن الحياة فارقته وأنه أصبح جثة هامدة. أمره ضباط الأمن: " ارفعه".

اقترب حمزة من كيداو Kidau وانحنى عليه. ولما حاول رفعه ليقعده وجد جسده باردًا تمامًا لا حرارة فيه. ولذلك أبى خصره المتجمد المتصلب أن ينثنى إذ إنه أصبح كجذع الشجرة. تأكد حمزة من أن كيداو قد مات. نظر حمزة إلى ضباط الأمن وهم ناظرون إليه فأمروه بغلظة: " ارفعه"

ولما كان حمزة منشغلاً محاولاً تحريك الجثة لرفعها غادر الضباط الزنزانة وأغلقوها تاركين حمزة وحده مع الجثة. هكذا كان يومه الأول فى مركز تعذيب المعتقلين، وهو فى حالة خطيرة بسبب الضربات والتعذيب وما اعترى جسده من تهتك وجروح. إن الفرق فيما بين كومبا كومبا وهذا المعتقل بالنسبة لليوم الأول لحمزة فيهما هو أنه قضى اليوم الأول فى كومبا كومبا وحيد زنزانته بينما فى هذا المعتقل تصاحبه جثة صديق العمر فى الزنزانة الأكثر ضيقًا. أخذ يفكر فاستنبط أنه وضع مع الجثة عمدًا كإنذار شؤم له بأن هذا هو مصيره إذا لم يعترف بما يريدونه منه. انتابته حالة من الذعر والفزع حينما أدرك أن هذه الزنزانة كالقبر الذى دفن فيه حيًا.

فاحت رائحة الدم فى كل أركان الزنزانة، فما يزال الدم يسيل من رأسه إلى حد ما، وملابسه كلها ملطخة بالدماء.

اتخذ لنفسه ركنًا من الزنزانة وجلس منكمشًا انكماش المصاب بالبرد القارص، وعيناه تركزان على كيداو المستلقى مفارقًا الحياة. رجع بالذاكرة إلى الوراء فتذكر كيداو عندما كان حيًا. كان شابًا أنيقًا، صديق العمر، متحدثه الرئيسى. عندما يتقابلان فى نادى المتعة(*) Starehe Club

(*) إنها كافيتريات تقدم المأكولات والمشروبات. وتنفرد بمواقع جذابة بمدينة زنجبار إذ إنها تطل مباشرة على مياه المحيط الهندى. وهى أماكن تجلب المتعة والهدوء والاسترخاء خاصة عند غروب الشمس التى تبدو الشمس عندها وكأنها تلامس مياه المحيط. (المترجم)

أو بيت أفريقيا(*) Africa House. فكانا يجلسان يشربان ويأنسان ويضحكان. تتذكر كيف كانت حياة كيداو مليئة بالبشاشة والسعادة وأدب السلوك. وها هو ذا أمامه جثة مقتولة قتلاً باردًا.

سمع حمزة من على بعد صوتًا جماعيًا لكثير من الناس منددين: " ظالمون ظالمون" فانضم إليهم هتافيًا: " ظالمون ظالمون"

هتف بذلك في البداية همسًا، لكنه ما لبث أن أطلقها صرخة مدوية كالمجنون: " ظالمون ظالمون".

ما كان لأحد هناك أن يصرخ، وإنما هو الذى أصيب بهيستريا هذا الصراخ فكان صوته يدوى في كل الأرجاء: " ظالمون ظالمون"

ولكن لا مجيب. لم يسمعه إلا زملاؤه المعتقلون ومن معهم من الحراس الذين لم يعيروا له بالاً معتبرين إياه مجنونًا مثل آخرين يصابون بالجنون عندما يدخلون ذلك المبنى ويواجهون أهواله وتعذيبه.

أصبح حمزة كمن كان عليه عفريت وتركه وخرج من الرأس. ظل هكذا مستبطئًا مرور الوقت حتى أخذ ضوء النهار يتلاشى ويحل الظلام، حتى أظلمت الزنزانة، فتحولت إلى قبر حقيقى، ولا ينقصه سوى منكر ونكير لاستجواب الميت عن سيئاته وحسناته.

(*) نفس التوضيح السابق.

وإذا كان هناك من أية مفاضلة فى السجن فإن قضاء ليلة فى كومبا كومبا أريح من قضائها فى مركز التعذيب، لأن فى كومبا كومبا يقوم المدمنون بتسلية أنفسهم بتعاطى المخدرات وتدخين السجائر. ويقوم الأتقياء بتلاوة الأذكار ودعاء الله كثيرًا. أما بالنسبة للمركز فإن الصمت الرهيب يخيم على كل الأرجاء، ولا صوت لأحد على الإطلاق. ومن يحبسون هنا تظل رؤسهم منكسة ليل نهار منتظرين المصير المجهول، فلا شيء يرونه إلا الظلام الدامس أمامهم. إنهم يائسون، والموت أقرب إليهم من حبل الوريد. ولا يعرفون شيء عما يجرى داخل المعتقل، لأن كل شيء يتم تنفيذه فى سرية تامة. فمن الصعب للمعتقل فى زنزانة أن يعرف معتقلاً فى زنزانة أخرى، لغة التحدث هنا هى الهمس. ولا أحد يمكن أن يتجرأ ويرفع صوته. لا علم لأحد عمن يدخل ومن يخرج. إنه يشبه معسكر ختان البنات(*)، فلا يعرف أحد عما يجرى بداخله سوى المشرفات فقط.

(*) عادة ما يكون اجتماعًا معينًا فى مكان معين يقام سرًا حيث تقوم السيدات العجوزات للقبيلة بتلقين الفتيات البالغات سن الرشد بعادات وتقاليد القبيلة وخاصة فى أمور الزواج والنكاح مع ختانهن. (المترجم)

وعلى الرغم من الآلام الجسدية والنفسية التى كان يعانى منها حمزة فإنه فى النهاية غلبه نوم ثقيل جعله كالجثة الميتة معه فى الزنزانة وإن كان ليله ونومه كان رعبًا وقلقًا وكوابيس.

وفى تمام الثانية بعد منتصف الليل تم قذف حمزة بعنف من أربعة حراس دخلوا الزنزانة وأخذوا جثة كيداو ووضعوها داخل كيس وخرجوا بها من غير أن ينطقوا بكلمة. نظر حمزة إليهم ولكنهم يبدون كالأشباح وسط ظلام الليل الدامس. فقام حمزة بتوديع كيداو من قلبه: " إلى اللقاء ! إلى اللقاء كيداو!".

خرج الحراس وأغلقوا الباب بجلبة. وتم فتح الباب الحديدى للخروج، بعدها سمع حمزة صوت عربة تتحرك ويبتعد الصوت تدريجيًا حتى اختفى تمامًا. لم يستطع حمزة النوم ثانية، وظل يقظًا، ينتابه الخوف وهو يتابع كل صوت يجيء إلى سمعه فى ذلك الوقت. ساد الصمت والسكون كل الأرجاء، وطالت ساعات الليل حتى بدأت الشمس فى الشروق، وبدأت الغربان تزعق وتصيح. وأعدادها كثيرة داخل أعشاشها التى أقامتها فوق الأشجار المحيطة بمنطقة زيوانى Ziwani كلها. فأصبحت هذه المنطقة هى مستعمرة الغربان، وزعيق الغربان يشير إلى أن الشمس آن لها أن تشرق، فيستيقظ المعتقلون ويبدأ يوم جديد داخل المعتقل.

كل الطعام لمعتقلى هذا السجن يؤتى به من سجن كينواميجو الرئيسى. تم إحضار الشوربة، وعندما تحضر فإنما يكون بهدوء تام. إن البلطجة وعدم مبالاة المساجين الذين يقومون بتوزيع الوجبات لا يمارسها أحد إلا فى كومبا كومبا. فإذا ما دخلوا لمعتقل التعذيب هذا فإنما يلتزمون الصمت والهدوء والأدب الجم، وتنحصر مهمتهم فى إحضار الطعام والانصراف فورًا، ليقوم بتوزيع الوجبات حراس معينون يسكنون هناك ليل نهار. هؤلاء الحراس مدربون تدريبًا كاملاً على كل أنواع الوحشية. إنهم يجيدون عبوس الوجه لتصبح مرعبة ولا تعرف احترام الإنسانية. جعلوا أنفسهم كرعاة أبقار. وتلك الأبقار فى مجزر فى انتظار ذبحها فى أية لحظة.

الزنزانات فتحت الواحدة تلو الأخرى ويسمع حمزة حركات بلا أصوات لأناس يدخلون ويخرجون. فتحت زنزانته فإذا برجل واقف على الباب، عابس الوجه مستديره كالفطير، وفى يده مغرفة، ومكشوف البطن، مرتديًا شورت فقط. على جانبى وجهه وشمتان كبيرتان، شاربه عشوائى. سبق لحمزة أن رأى هذا الوجه من بين الذين أوسعوه ضربًا هناك فى الساحة.

لم يقل لحمزة شيء سوى أنه هز رأسه ليشير إليه بأن يخرج. استجمع حمزة قواه ونهض بصعوبة متورم الجسد متألمًا للغاية. خرج

ليتبعه، واقتاده إلى الساحة. اتبعه ملاحظًا إياه كيف يمشى حيث رجليه تقوستا وكأنه أصيب بميكروب فيهما.

وصلا إلى الساحة التى كانت هادئة تمامًا لدرجة يصعب معها أن يكون المكان مكان تعذيب بالضرب والشنق. كانت الأرضية يغطيها برد الفجر. وعلى جانبى الساحة جنديان كل منهما يجلس على كرسى معانقًا بندقيته. يرتدى كل منهما معطفًا واقيًا من الأمطار وللاستدفاء من برد ذلك الوقت. عيونهما شديدة الاحمرار يملأهما النوم بسبب سهرهما طوال الليل لحراسة الخونة.

وهناك على الأرض دلوان: أحدهما للشوربة والآخر للفاصوليا، وممتلآن تمامًا. وعلى المنضدة أكواب وأطباق فارغة منظمة. فغرف لحمزة مغرفتين من الشوربة وواحدة من الفاصوليا. فأخذ كوبًا وطبقًا وأعيد إلى زنزانته.

هذه النوعية من الأكل التى تعود عليها حمزة منذ دخوله كومبا كومبا طعمها مر، فكلما كان يحاول مضغ هذا الأكل لم يستطع استساغته نظرًا للآلام الشديدة، فالوجه متورم والعينان غائرتان وأصبحتا صغيرتين كعيون أهل الصين. والدم تجلط على جسده، والقميص ملتصق بجلده وكأنه تصمغ. ورقبته بها رضوض ومتسلخة الجلد بسبب حبل المشنقة الذى كاد أن يطيح أمس بحياته. الآلام فى

كل مكان حتى فى الزور، فلا يمكنه ابتلاع الطعام. ولم يتمكن من الجلوس ولا النوم. ولم يبق جزء من بدنه إلا وأصابه الألم الشديد، فأصبح فى حالة خطيرة نفسيًا وبدنيًا.

فقام بتنحية الشوربة والفاصوليا جانبًا لعدم استطاعة تناولها.

كان يطبب آلامه بينما يبزغ ضوء النهار ويخترق ضوء الشمس الزنزانة رويدًا رويدًا. بدأت حركة العمل والأنشطة، حيث الباب الحديدى يفتح ويغلق. وهذه إشارة لتغيير الحراس نوبتهم.

فيغادر حراس الليل ويستلم حراس النهار. وفى تمام الثامنة صباحًا اشتدت الجلبة بين أناس يدخلون ويخرجون وآخرين يدخلون بالقوة ضاربين الأرض بأحذيتهم بشدة؛ ويتحادثون ويضحكون ويتصاخبون غير مبالين بمحظورات السجن. هذه المحظورات لا تطبق عليهم ولكنها تطبق فقط على المعتقلين الخونة أولاد الأفاعى الملعونين. وقد ألفت الأغانى والأبيات الشعرية التى تذاع فى الإذاعات ويرددونها التلاميذ فى المدارس للتنديد بالخونة ولعنهم والدعاء عليهم لقيامهم باغتيال زعيم البلاد.

ولما وصلت العاشرة صباحًا كان جميع مسئولى مركز تعذيب المعتقلين قد حضروا فى مكاتبهم من أفراد الشرطة والجيش من أصحاب الرتب العالية على أكتافهم لتناول طعام الإفطار المكون من

الشاى والسامبوسا والكباب والطعمية. عليهم أن يأكلوا جيدًا لإعطائهم قوة يجلدون بها البكارى المحتجزات فى خدورهن(*). بدأت محادثتهم بالضجيج ثم ارتفعت لمستوى البهجة والضحك، فأربكت وأثارت حفيظة المعتقلين فى الزنازين لإدراكهم أن الوقت قد حان للتعذيب والتنكيل. فالضحكات تشير إلى الصرخات. فعندما يسمعونهم يضحكون هكذا يصيبهم الحزن وينتابهم الخوف والقلق، وكل يسأل نفسه: " أهذا دورى أم دور صاحبى؟ "

كان حمزة مطأطئ الرأس لا يعرف شيء عن الحياة فى هذا المعتقل (مركز التعذيب) إطلاقًا. و كان ذلك الصباح هو الأول لحمزة داخل المعتقل، وكان يعتقد أن مثل هذه الضحكات إنما هى لأناس أغبياء جهلاء فيضحكون فى مكان ملىء بالأوجاع والصراخ والأحزان. إنها ضحكات الوحشيين الذين يستمتعون بوحشيتهم. فدعا عليهم:"اللهم شل أيديهم وأعمهم طوال حياتهم."

أخذ يفكر، فضحك من تلقاء نفسه ناسيا آلامه التى تحاصره لأنه أدرك أن دعاءه هذا هو صياح الدجاجة فلا يصيب أصلاً الحدأة.

(*) المقصود بالبكارى فى خدورهن أى المظلومين المحبوسين فى الزنزانات بلا حول ولا قوة. (المترجم)

فهو الدجاجة وهم الحدأة(*). ولذلك فإنهم سيأكلون، وسيشربون، وسيمرحون، وسيضحكون، وهو فى الحبس يعانى ويتألم.

انقشع الخيط الأسود من الفجر وارتفعت الشمس فاختفت الضحكات ولم يعد يسمعها حمزة. وهذا ينذر بأنه وقت استجواب الخونة كل على حدة. سمع صوت شخص يجلد بسياط شجر الجوافة وهو يبكى ويقول: "صلوا على رسول الله يا سادة ! إنكم تقتلوننى! كفاكم ذلك يا سادة" وفجأة ساد الصمت، فلا يمكن معرفة ما إذا كان ذلك الشخص قد تم إعدامه أم أنه أعيد ثانية إلى زنزانته.

ها هى الحياة فى مركز تعذيب المعتقلين. فعلى مدار الأربع والعشرين ساعة يقوم المعتقلون بمعالجة آلامهم وجروحهم من الضرب والتعذيب. مضى أسبوع كامل وحمزة فى زنزانته بمفرده يسمع الجلبة والصراخ منتظرًا دوره بينما جسده أخذ فى التعفن تدريجيًا، فالكدمات الغائرة والمتورمة تملأ كل جسده وكذلك الدمامل التى على وشك الانفجار تسبب له آلامًا شديدة لدرجة أنها تعجزه عن الجلوس أو النوم ليلاً ونهارًا.

(*) إن المؤلف هنا يقتبس مثلًا سواحيليًا يقول: "Dua ya kuku haipati mwewe" "دعاء الدجاجة لا يصيب الحدأة" بمعنى أنه هو مجرد مخلوق ضعيف بينما هم الأقوياء ولذلك فإنهم سينالون منه ما يقررونه فى دنياهم وفى دنيا الناس. (المترجم)

لم يكن ذلك اليوم كالمعتاد، إذ بدأت الجلبة والضجيج منذ الفجر، وقبل شروق الشمس انفتح باب دخول المركز. وصاحبته جلبة. ودخل ستة أشخاص وهم يتدافعون بعنف مع شخص بدا أنه قوي. وكان جميعهم من الجنود، فسمع وقع أحذيتهم العسكرية تدوسه. كان يبدو واضحًا أن ذلك الشخص يشتبك معهم، إذ كانوا يقولون لبعضهم البعض: "أمسك يديه!"، "أمسك رجليه!"،"اربطه!". بينما يسدد لهم الشخص اللكمات ويشتمهم: "إنكم كلاب كبار، وبربريون وقتلة".

كان حمزة يطأطئ أذنيه يستمع لتلك الجلبة حتى تم دفع ذلك الشخص إلى الساحة وأوسعوه ضربًا مهددين إياه: "عليك أن تعترف، واعلم أنهما أحد أمرين: إما الاعتراف وإما القتل." فكان تهديدًا غاضبًا ساخطًا مصحوبًا بالضرب المبرح. ومع كل هذا الضرب المبرح فإن الرجل لم يتذمر إطلاقًا بل تحمل العذاب بشجاعة وأثبت قوة تحمل رهيبة. وبشكل مفاجئ توقفت الكلمات، وخارت قوة التحمل لدى الرجل، فأخذ يبكي ويصرخ بصوت يدل على أنه يتعرض لآلام شديدة إذ كان يقول: "يا الله! إنكم تقتلونني! يا رسول الله!"

" هل ستعترف؟!"

" إنكم آذيتموني!"

" هيا قل! هل تعرفها؟"

" انتظروا! سأعترف! سأعترف!"

وها هو آخر ما سمعه حمزة من ذلك الرجل: " انتظروا ! سأعترف! سأعترف!" وتبين لحمزة أن ذلك الرجل قد تعرض لعذاب شديد، إذ كيف انهار بهذه السرعة وهو الذى كان يتحمل كل ذلك الضرب بشجاعة نادرة ؟

خيم الرعب على كل الأجواء فى الزنزانة فلم ير حمزة إلا الهول الذى يحيط به فهو قائم فى معمعة التهديدات والرعب المتواصل فكان إذا ما عطس أحد فى الزنزانة المجاورة تجد قلبه يخفق رعبًا كالمريض الذى أصابته حمى حادة. فأصبح كالطفل الذى ينتابه الرعب عندما تحكى له قصص الرعب الخيالية، فإن رعب حمزة كان رعب قصص حقيقية، ترتبط بتعذيب الإنسان لأخيه الإنسان. قصص تنصيب الإنسان نفسه إلهًا وإقامته ليوم حساب فى الآخرة خاص به يعذب فيه كل من يعصونه. إن الرعب دوخ حمزة فجعله كالمخبول.

جاء الشروق ودبت الحركة داخل المعتقل. ومن يدخل فى ذاك الوقت إنما هم أهل الرتب والمظاهر الذين تؤدى لهم التحية ممن هم أدناهم رتبة. أما من هم داخل الزنزانات فكانوا يخرجون منها مشدوهين كالمختلين عقليًا. ومضى وقت طويل دون أن يسمع صوت ذلك الرجل

ثم بدأ يسمعه من على بعد دون بكاء ولا شكوى ولكن بزأير وشخير كأنه مخنوق. إنه قد تعرض لتعذيب شديد. إن حمزة متأكد أنهم فى المكتب داسوا الرجل وهرسوه وهم يستجوبونه لكى يعترف.

أخرجوه من المكتب وألقوا به فى الساحة وسمع حمزة سقوطه وارتطامه بشدة مع الكيل له بالسب والشتم، مصحوبًا بموجة عارمة من الضرب بالعصى الغليظة مما جعله ينهار تمامًا، ولم يعد قادرًا على البكاء ولا الشكوى ولا الشخير بل إنه يتنفس الصعداء، وتنفسه يحدث صفيرًا كصفير مريض الربو.

" إنه يموت" قال أحدهم.

" ليس بعد" قال آخر.

" فلنتخلص منه" تدخل آخر.

" فلنتركه، فإنه إن لم يعترف اليوم فسيعترف غدًا. سيعترف لا محالة. فكم من أناس تظاهروا باستطاعة التحمل ولكن لم يصمدوا طويلاً" قال آخر مستكبرًا ومختالاً.

قام أربعة أشخاص بحمله، واحد يمسك بيده اليمنى، وآخر باليسرى، وثالث برجله اليمنى، والرابع باليسرى. حملوه حملاً عشوائيًا وفتحوا باب زنزانة حمزة وألقوه فيها إلقاءً وحشيًا. أغلقوا

الباب وغادروا. سقط الرجل سقوط المحتضر ماسكًا بخصيتيه بكلتا يديه جازًا على أسنانه، وليس عليه من الملابس إلا فانلة بحمالات فقط، وبقية جسده كيوم ولدته أمه، مع التفاف ساقيه على بعضهما البعض. كان الدم يسيل على جسده من جميع أجزاء جسده، ويسيل كذلك على الأرض. وكان كالطائر المذبوح الذى يرفرف يحرك يديه ورجليه هنا وهناك، ويضرب الأرض برأسه فكان كمن يسكنه الجن، وأصبح أحول العينين تمامًا.

حاول حمزة إيقاف رفرفته كى لا ينفجر رأسه، ولكن الأمر كان صعبًا على حمزة إذ أن الحركات عنيفة، فأخذ حمزة غرفة بيده من دلو ماء بركن الزنزانة ورشها على وجه الرجل فبدأ يهدأ تدريجيًا. فأخذ حمزة غرفة أخرى، وأسنده على فخذه، وأسقاه إياها. ثم أخذ غرفة ثالثة ومسح بها وجهه، فهدأ الرجل أكثر، وأصبح كالرضيع الذى تهنهنه أمه وتغنى له، فأخذ فى النوم تدريجيًا، وحمزة يسقيه حتى هدأ تمامًا، فأرقده على الأرض وهو مازال ماسكًا بخصيتيه لغرضين: للتطبيب ولستر عورته، فقد كانت خصيتاه منتفختين وكأن فيهما فتاء، وكان منهما ينزف الدم، فأصبح شاحب الوجه متهالكًا. لا يتعرف عليه من ينظر إليه فالدم ينزف ويغطى أركان الزنزانة.

الفصل الخامس

عندما أفاق الرجل امتلأ حيرة لرؤية نفسه عاريًا أمام رجل مثله. كان حمزة جالسًا فى أحد أركان الزنزانة مسندًا ظهره على الحائط وناظرًا إلى الرجل وهو يصرخ ألمًا عند محاولته الجلوس. فاستجمع قواه بصعوبة بالغة مبديًا أسنانه ومتألمًا الآلام الشديدة. الآلام فى إليته وخصيتيه وكل أجزاء بدنه. من هنا صعب عليه الجلوس. فنهض حمزة واقفًا وخلع قميصه المهلهل ليلبسه إياه علّه يستر عورته، ولكن القميص لم يعد قميصًا بل أصبح خرقة متمزقة. فقام حمزة بلف القميص حول خاصرة الرجل عله يستر على الأقل سوأته الأمامية.

"لقد أصابونى إصابات بالغة" قالها الرجل شاكيًا متألمًا من التعذيب الذى لحقه. قام حمزة بمساعدته على الجلوس ولكن الألم ما زال يمنع الرجل. فإليته تؤلمه. وإذا ما استلقى على ظهره، ظهره يؤلمه أيضًا. فاستقر به الوضع على الاستلقاء ولكن مع فتح الرجلين عن آخرهما كالمرأة فى حالة الوضع مع استمرار إمساكه بخصيتيه شاعرًا بأنهما ستسقطان من جسده.

وواصل حمزة مهمته فى تمريض الرجل طوال اليوم ولم تعد مهمة شاقة بالنسبة له فقد تعود عليها لما قام به من تمريض الكثيرين فى كومبا كومبا.

إن دوتو Doto كان فى بداية أجازته لما سافر إلى مسقط رأسه جامبيانى Jambiani يقضى معظم الوقت فى اصطياد السمك مع أقرانه من الشباب فى البحر. فكانوا يصطادون السمك بالسنانير فى مركب متحرك. وكانوا يتناوبون النوم فى معسكر الصيادين يوميًا. كان يتمتع دوتو بحياة ريفية هادئة وخلابة. فالنسيم العليل يهب على الريف من البحر ليلاً ونهارًا. وحياة البحر والصيد أكسبته نشوة فريدة خاصة كلما كان يرفع الشراع وينزله. كان قد مل الحياة فى الجيش لروتينيته وأوامره التى لا تنتهى، ولكثرة أداء التحية فيه والوقوف منتصبًا.

وعلى الرغم من أنه كان جاويشًا وممن يصدرون الأوامر وتؤدى لهم التحية العسكرية فإنه كان عندئذ يريد أن يكون مواطنًا عاديًا لا تؤدى له تحية عسكرية ولا يؤديها هو لأحد. ولكن كيف له بذلك؟ فقد انقطع غفلة شوقه فى بقائه بمسقط رأسه بأن ركب البحر فى المراكب منافسًا زملاءه فى براعة رفع الشراع وخفضه. وإذا بمن يذهب إليه (من ضباط المخابرات) فى الثانية بعد منتصف الليل ليأخذوه، مثلما تأخذ النمور المروضة مربيها وتقدمه قربانًا.

ذاع صيته فى وحدته العسكرية بالجرأة والشجاعة. وكان من بين المقاتلين البواسل الذين أرسلوا إلى ناتشنجويا Nachingwea لمواجهة القوات البرتغالية المعتدية على الوطن، فإنه الآن لم يعد جريئًا ولا شجاعًا لأنه فى قبضة أبطال الأبطال وجبابرة الجبارين الذين داسوا عليه بالأقدام وأوسعوه ضربًا لدرجة أنه إذا ما نام على جانبه لا يمكنه التقلب على الآخر إلا بمساعدة حمزة.

وها هى كانت مهمة حمزة، وكانت مهمة شاقة لأن دوتو كان شخصًا ممتلئ الجسم عملاقًا، فكان جسمه جسم ملاكم، صاحب عضلات بارزة من أعلى رأسه وحتى أخمص قدميه، فاليد يد، والصدر صدر، والرجل رجل. وها هو السبب فى أنه تحمل كل تعذيب المعتقل لمدة طويلة قبل أن يستسلم.

فكان مازال فتى يافعًا، فى منتصف العشرينات من العمر، أو يقترب من الثلاثين. شاربه كثيف لتضخيم مكانة رتبته العسكرية، وليبدو فظًا غليظًا.

ولكن مع هذا الشارب ما كان مرعبًا، لأن وجاهته غطت على تلك الغلظة التى كان يريد إظهارها. كانت ملامحه ملامح مهجنة، فالأنف طويل، والشفتان رقيقتان، والشعر بين المجعد والمسترسل، واسع الجبين أسود اللون سوادًا لامعًا كمن تم تدليكه بمرهم، وعيناه حادتان براقتان كالبلية.

وعلى الرغم من رتبته العسكرية وشاربه وقوته كلها فإنه لم يستطع الصمود أمام شباب المعتقل. فكان بالنسبة لهم مثل جوليفار Guliva الذى استعرض عضلاته أمام الأقزام، أما أمام العمالقة فإنهم سيطروا عليه وجردوه من ملابسه، وتركوه عرياناً.

بالنسبة لدوتو كان ذلك اليوم يومًا أليمًا، وبالنسبة لحمزة فكان يوم مداواة طوال الليل وحتى شروق الشمس.

فجرًا وكالعادة فتح السجان باب الزنزانة عابس الوجه وفى يده مغرفة ومرتديًا نفس الشورت من الجينز. خرج حمزة والسجان من خلفه يتبعه بمشيته الاندفاعية كالبطة المجهدة. ولم يستطع دوتو الخروج فجاءته شوربته داخل زنزانته فشربها بصعوبة بالغة دون رغبة فيها. ولم تمض نصف ساعة حتى انفتح الباب ثانية. فارتعبا من شر أمامهما لما رأيا السجّان واقفًا على الباب ولم ينطق بشىء، فإنه ألقى بقطعة قماش إلى دوتو وأغلق الباب. فستر دوتو عورته ذلك اليوم. ومع كل العبوس الذى يملأ دوتو وظاهر بوضوح على وجهه فإن شعورًا بالتقدير دب عندئذ فى أعماق قلبه حين ألقى إليه قطعة القماش التى كان فى أمس الحاجة إليها، فكانت له فرجًا كبيرًا لا يقدر بملء الأرض ذهبًا. فقام دوتو بالدعاء له: " اللهم اجزه خيرًا".

قام دوتو بخلع القميص الذى كان قد لفه عليه حمزة حول خاصرته. نهض دوتو بصعوبة ليلف نفسه بقطعة القماش. عندما نهض شعر بخصيتين ثقيلتين. فقد أصيب بمرض تضخم حوض الخصيتين. نظر إليه حمزة وهو يلف نفسه بها، فخطر بباله الدعاء الذى دعا به دوتو لذلك السجّان ماتشالى Machale لمنحه إياه قطعة من قماش الملايات. وهنا تمتم حمزة: "لعله عرف جرمه"

استغرق الاثنان (دوتو وحمزة) أسبوعًا حتى تحسنت حالتهما فإن حمزة كان أحسن حالاً. وعلى الرغم من استمرار الآهات والصرخات والأهوال فى المعتقل فإن زنزانتهما سادها الهدوء خلال الأسبوع، فكان ذلك فرصة لهما للجلوس والتعارف على ما جرى لكل منهما:

" هل ما زال كومبا كومبا مزدحمًا؟" سأل حمزة دوتو.

" ما هو كومبا كومبا؟" سأل دوتو حمزة.

" ألم تأت من هناك؟"

" أين؟"

" من كومبا كومبا!!"

" أنا لا أعرف شىء عن كومبا كومبا"

" هل تم اقتيادك إلى هنا مباشرة؟!" سأل حمزة مندهشاً.

" نعم، إنهم أخذوني من بلدى جامبيانى إلى هنا"

"إذًا تهمتك كبيرة"

" لماذا؟"

"الذين يتم اقتيادهم إلى هنا مباشرة هم المتهمون الرئيسيون"

"عجبًا" اندهش دوتو، وسأل: " وماذا عن الآخرين ما خطبهم؟"

"هناك أربعة أنماط من المتهمين تقريبًا" وبدأ حمزة فى شرح الموضوع ويستمع إليه دوتو بانتباه شديد، مسندًا ظهره إلى الحائط فى أحد الأركان، فاتحًا رجليه ليفسح المجال لخصيتيه.

"هناك من يتم اقتياده إلى ذلك السجن الرئيسى الذى فى الأمام وهو كومبا كومبا.

"يا للعجب! ذلك الذى هناك يسمى كومبا كومبا؟" سأل دوتو.

" هكذا يسميه السجناء"

طلب دوتو من حمزة إكمال حديثه.

"أولئك الذين يبقون هناك فى كومبا كومبا ولا يأتون هنا هم أحسن حالاً إلى حد ما"

"أكمل"

" وهناك كذلك معتقلون آخرون في كومبا كومبا نادرًا ما يأتون لاستجوابهم فيتم دهنهم قليلاً ثم يعادون إلى كومبا كومبا مرة أخرى".

"يدهنون بأى نوع من الزيت؟" سأل دوتو.

"يدهنون يعنى يجلدون بسياط شجر الجوافة"

"وهل هذا هو المصطلح المستخدم هنا؟" سأل دوتو مندهشًا.

"وهؤلاء أيضًا في حالة أحسن إلى حد ما" استطرد حمزة.

"وهناك معتقلون آخرون يقتادون إلى كومبا كومبا ثم يحضرون هنا لاستجوابهم فيدهنون دهانًا كاملاً ثم يبقون هنا مثلى أنا"

"وهؤلاء ...." تردد حمزة قليلاً: "وهؤلاء هم الذين تواجههم الطامة الكبرى. ثم هناك أولئك الذين تم إحضارهم إلى هنا مباشرة مثلك أنت."

اندهش دوتو وشخصت عيناه ناظرًا إلى حمزة: "فأنتم المطلوبون الحقيقيون! أنتم القتلة! أنتم الخونة الحقيقيون! أنتم أبناء الأفاعى!"

" إذًا ماذا؟" سأله دوتو وكله خوف إذ إن ما أخبره به حمزة هو اليأس نفسه.

" إذًا فلنجلس منتظرين مصيرنا وكفى" أجاب حمزة.

" مصيرنا؟" سأله دوتو....

قطع حوارهما صوت دقات على الحائط من الناحية المجاورة لزنزانتهما: " تو، تو، تو، تو، تو، تو، تو، تو"

"ما هذا؟" سأله دوتو.

" ربما أناس من الزنزانة المجاورة يطرقون الجدار"

واستمر صوت الطرق. وسمعه دوتو بتركيز، فسأل حمزة:

" هل يوجد هنا جنود؟"

" كثيرون" أجابه حمزة

استمر الطرق، وبعد فترة وجيزة توقف. فقال دوتو:

" إن الطارق هو جندى، وإنه يتحدث بإشارات مورس. هل تعرف مورس؟" سأله دوتو.

" زمان وعندما كنت عضوًا فى منظمة كشفية تعلمت المورس وإشاراتها، ولكن مع طول الوقت نسيت." أجابه حمزة.

" هل كنت كشافيًا؟" سأله دوتو

" نعم، ولسنوات عديدة، وكنت كشافيا فى الوحدة الثالثة التى كانت تعرف " بفرقة زنجبار الثالثة".

أليس النشاط الكشفى أمرًا مرتبطًا بالاستعمار فحسب؟ سأله دوتو.

" هناك تعصب استعمارى فى الكشفية يتمثل فى أداء اليمين الكشفى. فكان فى عصرنا هو أن تقسم بأنك ستؤدى واجبك لله ولملك بريطانيا. ولكن فيما خلاف ذلك فهناك أمور أخرى مهمة تتعلمها من خلال الحياة الكشفية"

" أى أمور؟" سأله دوتو بازدراء.

" مثلاً، وكما قلت لك تتعلم لغة مورس بإشاراتها وكودها وتتعلم غوامض الأمور وكيفية فك ألغازها، وتتعلم السباحة، وإنقاذ الغرقى فى البحار، وتتعلم الطهى، وتتعلم تقديم الإسعافات الأولية. والأهم من كل هذا تتعلم كيف تكون منضبطًا بدرجة عالية، وتتعلم أمورًا كثيرة يجب على الإنسان تعلمها" قال حمزة.

" لا داع للتفاخر يا سيدى، فإننا نعلم أن الكشفية هى التعصب للمستعمر فقط. وهذا هو ...." وقبل أن يكمل جملته قاطعه صوت دقات على الحائط يقول ثانية تو، تو، تو.

" استمع " أمره دوتو كآمر العريف للجندى.

فاستمع بانتباه حتى انتهت الدقات. فبدأ دوتو نفسه فى الطَّرق. وأخذ يطرق لفترة، ثم توقف، ثم نظر إلى حمزة الذى كان لديه رغبة فى معرفة الرسالة التى تلقاها والرسالة التى بعثها.

" فى الزنزانة المجاورة جنديان. ويسألاننا من نحن؟ ومن أين نحن؟ ومتى جئنا؟" ذكر ذلك دوتو لحمزة.

فسأله حمزة: " كيف لهما وهما فى زنزانة أخرى أن يعرفا أن بهذه الزنزانة جندى واحد؟"

" ألست أنت الذى قلت لى بوجود جنود كثيرين هنا؟"

" أجل" أجابه حمزة

" إذًا ربما من المحتمل أن يكون هناك جندى فى كل زنزانة"

" ربما"

إن دوتو خبير فى التخاطب بالإشارات الصوتية. وإن وحدات قسم الاتصالات كانت تعتمد عليه كثيرًا فى هذا العمل. ومن هنا تباهى وتعالى على حمزة ببراعته فى هذا التخصص. وعلى مدار أسبوع كامل أخذ دوتو يعلم حمزة كيفية التخاطب باستخدام الإشارات الصوتية. وحمزة من ناحيته سريعًا ما كان يستوعب نظرًا لتعلمه ذلك من قبل لما كان كشافيا إذ إن التدريبات التى كان يتلقاها من دوتو ما هى إلا مجرد مراجعة له. لقد خفف عنهما كثيرًا الحوار

الدائر مع جيرانهما فى الزنزانة المجاورة مما قلل من الشعور بالوحشة التى كانا يعانيان منها داخل زنزانتهما. وأصبح شغلهم الشاغل هو طرق الحوائط لتبادل المعلومات بعد شرب الشوربة مباشرة فى الصباح. ولكن لم تكن هناك معلومات مهمة لنقال لأحدهما الآخر، لأنهم جميعًا فى الحبس معتقلين. فلم تأتهم معلومات جديدة من الخارج. فكلهم داخل قفص الاتهام.

كان اليوم يوم الأحد والمعتقل هادئ، فهو يوم راحة الجبابرة الذين يصحبهم الضجيج والجلبة عند دخولهم يوميًا، والعجوز مانشالى (سجان فى المعتقل) جالس فى منتصف الساحة بمفرده ينعس والسيجارة فى يده. وكان فى حالة خمول وكأنه يتعاطى مخدرًا ذهب بعقله. وكان هناك جندى جالسًا فى أحد أركان الساحة وآخر موجود عند المدخل للمكتب. وكل منهما ساند بندقيته على الحائط متأكدين أنهما ليسا فى حاجة إلى بنادق فى ذلك الوقت.

العجوز مانشالي ينعس تارة ويتنبه تارة أخرى. وإذا ما انتبه يدخن سيجارته تدخينًا عميقًا وسريعًا ثم ينفخ دخانه بقوة، ويواصل النعاس. إنه وكما هو دائمًا، مكشوف البطن، وبشورت متسخ فإن المغرفة الآن ليست بيده. فجأة قام متجهًا إلى المكتب ثم رجع حيث كان وكأنه لا يعرف ماذا يريد فعله. أخذ المفاتيح واتجه إلى الزنزانات. ذهب مباشرة إلى زنزانة رقم ٤ حيث حمزة ودوتو. فتح الباب ووجدهما نائمين.

فأمرهما: " هيا اخرجا للاستحمام"

خرج حمزة مسرعًا لأنه يعلم أن مثل هذه الفرصة نادرًا ما تحدث. وقام دوتو ببطء، ولف خاصرته بالملاية، ومشى مفرشحًا رجليه كالمختون. وقد تعود على تلك المشية نظرًا للآلام الطويلة فى خصيتيه فأصبح كالمعوق. وما إن خرج حتى أعطاهما العجوز مانتشالى قطعة من صابون الجير.

دخل دوتو الحمام أولاً، وانتظر حمزة خروجه فى الساحة. إن حمام المعتقل يختلف عن حمام كومبا كومبا، لأن الاستحمام فى كومبا كومبا يتم من الجميع فى وقت واحد منتشرين تحت مساقط مياه الأمطار، ولا أحد يوارى عورته بل يخلع جميع المعتقلين ملابسهم بالكامل عرايا متسكعين هنا وهناك بلا خجل ولا استحياء.

أما فى المعتقل فالحمام واحد والدخول بالدور والتناوب. فإذا ما دخل شخص وانتهى أفسح المجال لآخر وهكذا دواليك. وهذا هو التكريم الوحيد للإنسان داخل هذا المبنى، ألا وهو اختلاء الإنسان بنفسه في الحمام.

كان ذلك اليوم لدوتو وحمزة يومًا جميلاً، يوم مشاهدة الشمس التى أصبحت من النادر جدًا أن يرياها. وقف حمزة في منتصف الساحة متمتعًا بشمس الصباح تنشطه بحرارتها اللطيفة فى مثل ذلك

الوقت. وعلى الرغم من ذلك فإن نفس الساحة أثارت لحمزة أفكارًا مؤلمة عندما تذكر ذلك اليوم الذى طرحوه فيها أرضًا وعذبوه. لكنه خبرها اليوم مكانًا يخفف عن معاناته ويضمد جروحه التى امتلأ بها ظهره والآخذة فى الالتئام.

رفع بصره إلى السماء ونظر إلى الشمس وهى ترتفع تدريجيًا فى السماء الصافية. وقف مذهولاً فى وسط الساحة يفكر متى سيكون حرًا مرة أخرى ويخرج من ذلك المبنى. عندئذ ناداه مانشالى وأفزعه بصوته: " تعال هنا" التفت ونظر إلى العجوز مانشالى فوجده مسترخيًا فوق كرسى وفى يده سيجارة. اتجه حمزة نحوه بحذر مرتعبًا، فأمره أن يجلس أمامه. جلس حمزة على الأرض التى بدأت تسخن من حرارة الشمس، وجهًا لوجه. أخذ العجوز مانشالى الجزء المتبقى من سيجارته التى كان يدخنها وهو ملىء بريقه وأمسكها بأطراف أصابعه وقال لحمزة: "أمسك"

اندهش حمزة ولم يصدق ما يجرى، لأن التدخين داخل السجن جريمة كبرى. فكيف يتأتى لحارس السجن - وهو ليس أى سجن - بل هو مركز تعذيب المعتقلين أن يعطيه سيجارة؟! ولربما يريد أن يوقعه فى فخ: "أمسك" ثم سأله العجوز مانشالى محملقًا فيه بعينين حمراوين حمرة الحبر الأحمر: "أم أنك لا تدخن؟"

أخذ حمزة جزء السيجارة وهو قلق ينظر إلى العجوز ماتشالى ووضعه بين شفتيه بلطف، وبدأ يدخنه تدخينًا خفيفًا. ونفخ الدخان ببطء من بين شفتيه. وإذا بالسيجارة من الأنواع النفاذة للغاية، فشعر بنشوة، ثم سحب نفسًا آخر عميقًا ملأ رئتيه به ثم أخرجه بقوة من أنفه.

وكان قد مضت أيام طوال على حمزة لم يدخن حتى نفسًا واحدًا. فعندما سحب نفسًا عميقًا من دخان تلك السيجارة بعمق وشراهة شعر أنه لم يعد فى دنياه، والدنيا كلها تدور من حوله وستقع عليه. سبق لحمزة أن دخن أنواعًا شتى من التبغ وكذلك الشيشة فإنه لم يشعر فى حياته بمثل هذه النشوة التى يشعر بها اليوم. نظر إلى العجوز ماتشالى فرآه وكأنه ظل يختفى تدريجيًا أمامه. لقد أذهبت السيجارة بعقل حمزة فأصبح ثملاً للغاية وكأنه شرب قارورة كاملة من الويسكى. سحب نفسه إلى الخلف تدريجيًا حتى أسند ظهره على الحائط والسيجارة فى يده. أخذته سنة من الغفلة والدوخة، ثم أخذت الدوخة فى الزوال، فبدأ يعود إلى طبيعته وأخذ يدخن بقية السيجارة ولكن بحذر بالغ مع إخراج الدخان ببطء.

نظر العجوز ماتشالى إلى حمزة وكيف أنه منشغل بتهدئة نشوة السيجارة فضحك وسأله: "هل أنت لا تدخن؟"

"منذ أيام كثيرة لم أدخن" أجابه حمزة وهو مسند ظهره على الحائط والسيجارة فى يده مستمتعًا بنشوتها المستقرة فى رأسه.

فسأله العجوز مانشالى: " من أى بلد أنت؟"

" بلدى؟" سأله حمزة بدوره وكأنه لم يسمع السؤال.

" نعم بلدك"

"بلدى هنا فى المدينة"

"عجبًا! أنتم أبناء المدينة. أليس كذلك؟"

" نعم"

" أنتم أصحاب المدينة؟"

اندهش حمزة بذلك السؤال، وبينما يفكر كيف يجيب، طرح العجوز مانشالى سؤالاً آخر: "هل أنتم الذين اغتلتم زعيمنا؟ أليس كذلك؟"

نظر إليه حمزة ولم يعرف ماذا يجيب. فأخذ نفسًا خفيفًا من بقية السيجارة، ونفخ دخانها ببطء من أنفه، وفكر سائلاً نفسه: " هل هذا الرجل يبحثنى؟" وسأله حمزة بدوره: "من زعيمكم؟"

" هل تسوق اللوم على؟ ألا تعرف من هو زعيمنا؟"

كان الهدوء يسود المعتقل، فسمع المعتقلون الحوار الدائر بين حمزة والعجوز ماتشالى من زنزاناتهم بوضوح. لقد أنصت الجميع إلى ذلك الحوار مندهشين من تصرف العجوز ماتشالى بإخراج حمزة من زنزانته وإجراء حوار معه.

كانوا يريدون أن يسمعوا ما عساه أن يقوله العجوز عن مصيرهم فلربما يعرف شيء عن ذلك ينطق به، يستبشرون به خيرًا فيزيل عن قلوبهم الهموم الثقيلة داخل هذا المعتقل المليء بالرعب والتهديدات التي غطت حياتهم اليومية تمامًا ليلاً ونهارًا حتى أصيبوا باليأس والقنوط فتضاءل بريق الأمل لديهم، فلم يعودوا يرون أمامهم إلا الموت والنقمة.

لم يتحدث العجوز ماتشالى بأى شيء يبشرهم بالخير أو حتى على الأقل يعطيهم أملاً، بل سمعوه يقول لحمزة وبصوت كله غلظة وكبرياء واستهزاء: " ستبقون هنا طويلاً حتى تهلكوا"

فقط نظر إليه حمزة مسندا ظهره على الحائط، مدخنًا سيجارته بروية، منتشيًا نشوة ذهبت به إلى خارج أسوار المعتقل حيث الهدوء والآمال الطموحة. فجاءته كلمات العجوز ماتشالى وكأنها من على بعد وكأن رياحًا شديدة تطيرها فتذهب هباءً منثورًا. استمر يدخن ويدخن حتى نفذت السيجارة تمامًا وحتى أنهى الأنفاس الأخيرة منها ممسكًا

إياها بأطراف أصابعه. كم كان يتمنى ألا تنتهي. ولكنها انتهت، ورمى بعقبها داخل مجرى الصرف الصحى المجاور لحائط المعتقل.

انتهى دوتو من الاستحمام وجاء دور حمزة لدخول الحمام. خرج دوتو بالملاية الملفوفة على خاصرته وجلس فى وسط الساحة، فى نفس المكان الذى طرح فيه أرضًا، وتلقى فيه الضرب المبرح فى ذلك اليوم الذى زجَ به فيه. جلس هناك يتشمس حيث الشمس المرتفعة والمنتشرة فى أنحاء الساحة مع لطافة حرارتها لبرودة موسم الشتاء. كان قد مضى أسبوعان عليه دون أن تمسه قطرة ماء. فبعد الاستحمام شعر وكأنه بعث حيًا إلى الدنيا من جديد. كان جلوسه يقابل جلوس العجوز ماتشالى وجهًا لوجه، وكل منهما يعبث بشاربه. شارب دوتو كان كثيفًا متناثرًا حول أطراف شفتيه فتواصل مع سوالفه الكثيفة، بينما شارب العجوز ماتشالى أشعث على شكل نبت صغير متناثر حول الشفتين، وشفتاه ذواتا لون بنى لما يلحقهما من دخان السجائر يوميًا.

جلس فى الشمس ليتشمس، ولينشط بدنه البارد بسبب المكوث الطويل فى الحجز الذى أنهكه. وكم كان يتمنى أن تستمر الشمس حيث هى ولا تغرب حتى تحمصه الشمس.

ساد الخمول على العجوز فى جلوسه، وكأن النوم يغلبه، فتأخذه سنة من النوم، وتميل رأسه على كتفه، ثم يتنبه ليدخن سيجارته بعمق، ثم ينفخ الدخان ببطء، ويخرجه من أنفه وشفتيه، فيتخلل شاربه ويختفى فى الهواء.

اكتفى دوتو بالنظر إليه، وهو ينظر إلى دوتو بعين الاحتقار. واستمر فى تدخين السيجارة متبجحًا. ثم نظر إلى دوتو ثانيةً وسأله: " هل تدخن؟"

فأجابه دوتو: " لا أدخن" أجابه دوتو وهو ينظر إليه مستغربًا كيف لهذا الرجل أن يتكيف مع هذا المكان الذى لا أحد يرغب حتى فى الاقتراب منه، وكيف هو جالس على كرسيه يدخن سيجارته مستمتعًا بها وكأنه فى بيته هكذا؟ فالرجل موجود هنا ليل نهار وسط يائسين محاصرين بالرعب. مكان مليء بالصرخات والآهات من الأعماق. مكان يسكنه أفراد مصابون بالأسى وبالكآبة. كان دوتو يفكر فى كل هذا وهو ينظر إلى العجوز ماتشالى وكيف نسى نفسه مستمتعًا بالسيجارة.

وأخيرًا انتهى حمزة من الاستحمام، وخرج من الحمام، فقام العجوز ماتشالى هو الآخر مستيقظًا من النوم ومعه المفاتيح، وأمرهما بالدخول، وأعادهما إلى الزنزانة. فتضاءلت كل آمال دوتو

بالبقاء فى الساحة ناظرًا إلى سطوع الشمس التى يعطيه ضووءها فرجًا وأملاً طيبًا.

أعيدا إلى نفس الزنزانة رقم ٤ منفردين تغشاهما الوحشة داخلها، وتفوح منها رائحة الدم النافذة، ذلك الذى يسيل يوميًا داخل ذلك المعتقل. وهما بالداخل نظرا إلى ضوء الشمس التى كانا يتمنيان أن يتشمسا به طوال النهار، ولكنهما أصبحا ينظران إليه فقط وهو يختفى تدريجيًا مع نهار ذلك اليوم منتظرين يومًا جديدًا.

بعد دخولهما الزنزانة، بدا حمزة مرتبكًا، ناظرًا هنا وهناك كالسارق الذى يسرق. نسي أنه لا يوجد فى الزنزانة إلا اثنان فقط: هو ودوتو. أخذ يتحسس نفسه فى جلسته، وفك خيط جوال ربط به سرواله ساحبًا لافتة كبيرة كان أخبأها.

" من أين أتيت بها؟"

"صه" أسكت حمزة دوتو فأصيب دوتو بالذهول والدهشة.

"لقد أخذتها من الحمام، وكانت فوق السطح"

" ولماذا أخذتها؟"

" انتظر وستعرف لاحقًا"

" وإذا اكتشفوها هنا بالداخل ألا يؤدى ذلك إلى كارثة؟"

" لن يكتشفوها أبدًا" أجاب حمزة.

إن دوتو حديث عهد بحياة السجن فلا معرفة له عن إدخال الممنوعات وإخراج المحظورات، بينما حمزة يعرف جيدًا هذا. فلقد خبر ذلك في كومبا كومبا، حيث يتم تهريب السجائر والبانجو ناهيك عن خمور الكونياجي Konyagi ، فيسكرون ويضحكون ويغنون فينسوا أنهم مسجونون.

" إياك أن تجلب الكوارث إلينا هنا" قالها دوتو.

" أى كارثة أكبر مما نحن فيه؟" سأله حمزة

وضع حمزة اللافتة تحت حصيرة نومه وألقى بنفسه عليها، معلقًا إحدى رجليه على الأخرى، مصدرًا صفيرًا خافتًا بإيقاع موسيقى لأغنيته المفضلة عنده:

" إن مسيجيجو[*] لديه أبقار

وأنا كذلك لدى أبقار

أقول له نخلط ويرفض

إلى اللقاء فأنا ذاهب لحال سبيلى"

(*) مسيجيجو Msegeju هو أحد أفراد قبيلة سيجيجو. (المترجم)

كان حمزة حينذاك فرحًا مؤملاً، تجدد أمله بينما الجميع فاقد للأمل. وجاءته الفرحة فى وقت لم يوجد فيه شىء إلا المزيد من الضيق والأرق.

نظر إليه دوتو حيث كان راقدًا على حصيرة نومه واضعًا رجله اليمنى على اليسرى ويهزها وهو يصفر سعيدًا ناسيًا كل شيء، ناسيًا الشدة والضيق والتعب والتعذيب، مستبشرًا بآمال عريضة. توقف عن التصفير ونهض من على حصيرته ونظر إلى دوتو، فنظر دوتو إليه ورآه كأنه سيصاب بالجنون.

فقال له حمزة: "لا تقلق سيفرج عنا قريبًا"

نظر إليه دوتو ثانيةً فرأى نور البشاشة يضىء وجهه، تلك البشاشة التى تحمل علامات الرحمة والسماحة. اعتبر حمزة أن كلام العجوز ماتشالى عن البقاء طويلاً داخل السجن حتى الهلاك فيه هو كلام لإنسان مخبول لا يعرف ما يقوله. من هنا أصبح حمزة كمن رأى ضوءًا ينير له الطريق إلى الخير. واستمر يردد: " سنخرج لا محالة، قريبًا سنخرج".

فجأة يسمعان طرقًا على حائط الزنزانة المجاورة. كانا قد تعودا على التحدث مع زملائهما من الزنزانات المجاورة باستخدام الإشارات الصوتية. أنصتا ليستمعا لرسالة واردة من جيرانهما تقول: "تو توتوتو تو"

استمروا فى هذا الطرق فيما بينهم حتى انتهوا مما يريدون قوله فيما يخص ما قاله العجوز مانشالى من البقاء فى المعتقل حتى الفناء، لأنهم سمعوه بوضوح لما كان يخبر حمزة بذلك. وتبادلوا الشائعات والحقائق من الأخبار الواردة من الخارج وتسربت إلى داخل المعتقل، وأعطى كل منهم للآخر الأمل.

مر ذلك اليوم ببطء، والشمس التى كان دوتو يتمنى لها أن تبقى كى يدوم نشاطه وهو جالس بالخارج غربت واختفت وحل الليل وتنفس صبح جديد.

استيقظ حمزة نشيطًا كما كان بالأمس، وكان اليوم يوم عمل، فبدأت حركة الداخلين والخارجين من وإلى المعتقل مبكرًا. ولم تعد هذه الحركات وما يتبعها من صرخات وآهات تخيف حمزة إذ إن قلبه تحجر فلم يعد يشعر بشيء. فليس هناك من جديد يحدث بالنسبة له سواء أكان صراخًا أم توجعًا من آلام داخل ذلك المعتقل.

فلم يعد هناك جديد لم يعاينه ويسمعه.

سحب حمزة تلك اللافتة التى سرقها من الحمام، وقطعها إلى أجزاء صغيرة.

وقطع هذه الأجزاء بعناية إلى مقاسات متساوية.

هذا ودوتو مكتف بالنظر إليه فيما يفعل باللافتة خاصة وهو يحرص على أن تكون المقاسات متساوية مستخدمًا عقلة أصابعه. فعل ذلك وهو يصفر لرفع الروح المعنوية فى مثل هذه الأجواء اليائسة حيث إن معظم من فى المعتقل كان قد استسلم فى انتظار مصيره المحتوم. كلما يمسون يدعون الله الخير والنصرة، وكلما يصلون يدعونه ليل نهار. حتى أولئك العصاة الذين نسوا الله تذكروه وأقاموا له الصلوات الخمس، داعين إياه التوبة والفرج.

انتهى حمزة من تقطيع اللافتة قطعًا قطعًا حتى اكتمل العدد الذى يريده تمامًا. ثم همس قائلاً: "كل شيء تمام الآن."

فسأله دوتو: "ماذا تعنى بكل شيء ؟"

أجابه حمزة: "ما عليك إلا الصبر. فعندما تجهز ستعرف الإجابة. وقام حمزة بعدها فوجدها تسعًا وأربعين قطعة، فجمعها ووضعها تحت الحصيرة.

وبعد طول فترة المرض ومعالجة كل منهما للآخر دون أدنى مساعدة طبية لهما لوجه الله فإن حالتهما تحسنت بفضل الله. فعلى الرغم من كل ما سبق وحدث فإن دوتو كان قد تعود على المشى مفرشحًا رجليه ولكنه فى أتم صحته. كما أن جروح حمزة قد التأمت ولم يعد منها إلا قشورها.

جلس دوتو فى الركن الأيمن من الزنزانة، وحمزة فى منتصفها مسندًا ظهره على الباب. وهنا سأل دوتو حمزة:

"من الذى أخبرك أننا على وشك الخروج؟ أهو ذلك العجوز ماتشالى؟ أجل إنه العجوز المشاكس للغاية. فهو الذى قال لى إننا سنبقى هنا حتى نتعفن! فكيف عرفت أننا سنخرج قريبًا إذًا؟"

فشرح حمزة لدوتو مجيبًا بحماسة مفعمة بالأمل:

"إلى متى تظن أنهم سيستمرون فى حبسنا هنا؟ إنهم لا محالة سيفرجون عنا، حتمًا سيفرجون عنا يومًا من الأيام. وبالتأكيد فإن ذلك اليوم قريب جدًا. وعليك يا سيدى أن تعد نفسك."

واستطرد حمزة فى شرحه لدوتو:

"إننى لمّا كنت فى كومبا كومبا قابلت شخصًا يدعى عبده، فأخبرنى بكلام منطقى جدًا، هل تعرف ما هو؟ إنه سألنى عما إذا كان بداخل السجن قبر أم لا؟ فأجبته بأنه لا يوجد قبر، فقال عندئذ إننا سنخرج حتمًا أحياءً أو أمواتًا. فهل تريد أنت أن تخرج من هنا ميتًا؟"

كلمات حمزه هذه أثارت دوتو، فواصل حمزة الشرح:

"إننى سأخرج من هنا وأنا فى أتم صحة. ما أريد قوله لك هو إذا كنت فى محنة فلا تيأس إذ لا عسر يليه عسر بل دائمًا يليه يسر. إذا كنت في مثل هذا الموقف وبدأت تتكمش مكتئبًا فإنك ستخرج من هنا ميتًا، لأنك ستبقى دائمًا مغتاظًا، وعليه فإنك فى النهاية تموت مكروبًا."

وأخذ حمزة يذكر لدوتو الأنواع المختلفة للبشر الذين قابلهم فى كومبا كومبا من أمثال ناصر "العبوط"، وسوجو، وفيمبو، وعن الطرائف والحوادث الجارية هناك. وظل دوتو يستمع فقط. وبعد أن انتهى حمزة من قص حكايات كومبا كومبا، بدأ دوتو هو الآخر يقص حكاياته فى الجيش فنشط الحديث فيما بينهما. فلما أفل النهار وجن الليل ناما نومًا عميقًا، ولكن دوتو فى منتصف الليل أصيب بهذيان ونهض يصرخ وكأنه موضوع فى حبل المشنقة. استيقظ حمزة من النوم على صراخه وأخذ ينبهه ويسأله: "ماذا جرى: ."

استيقظ دوتو مفزوعًا وقلبه يخفق سريعًا سريعًا، ويتصبب عرقًا. كانت الزنزانة مظلمة ظلامًا دامسًا لا يرى أحدهما الآخر. وأجابه دوتو هامسًا: "لقد حلمت حلمًا مفزعًا"

فهدأه حمزة قائلاً: "هذا مجرد حلم، نم ولا تقلق."

فنام ومرت الليلة بدورها.

في الصباح انشغل حمزة باصطياد البعوض من الزنزانة المليئة به حيث أن الوقت هو وقت اصطياده حيث يكون شبعانًا تمامًا من مص الدماء وثقيلاً فلا يستطيع الطيران. أخذ حمزة يتحرك هنا وهناك فى الزنزانة للمسك بكل البعوض الشبعان. اندهش دوتو من هذه المهمة التى يؤديها حمزة فظل ينظر إليه فقط، بالعينين اللتين تعودتا على الانتباه دائمًا كما هو الحال لأى جندى جسور. استمر دوتو يبصر حمزة وهو يتحرك فى أركان الزنزانة مطاردًا البعوض وممسكًا به. أخذ يجمع ما مسكه ويصفه كالسردين، ثم اغترف غرفة ماء من جردل بلاستيك صغير كان فى ركن الزنزانة وصبها عليه وكأنه يريد تقليبه. قام بنزع الأحشاء فحصل على بركة صغيرة من الدماء إذ إن عدد هذا البعوض وصل إلى تمام السبعمائة. الدماء الممتصة منهما وقد استوت فى بطن البعوض تحولت إلى اللون البنى. فجمع حمزة ما يكفيه من دم لتلوين الأجزاء التى قطعها من اللافتة. واستخدم فى ذلك قلمًا صنعه من مكنسة الزنزانة. وأخذ يغمس القلم فى الدم كما يغمس الكاتب قلمه فى المداد لتنقيط تلك القطع الورقية بنقط صغيرة. وظل منهمكًا فى هذه المهمة حتى رفع رأسه ونظر إلى دوتو سائلاً: "هل تعرف لعبة الدومينو أم لا؟"

أجابه دوتو: "لا أعرف"

"إذا ما رأيت الدومينو هل تعرفه؟"

"أعرف الدومينو جيدًا فإننى أرى الناس العاطلين يلعبونه أمام البيوت طوال النهار بضوضائية شديدة" أجابه دوتو بازدراء.

"أنت لا تدرك المتعة فى هذه اللعبة. إن الدومينو لعبة أهل الحضر وأنت ريفى لا تعرفه." علّق حمزة وهو منشغل بتلوين الأجزاء الورقية من دم البعوض.

"ولهذا السبب قلت لك أنها لعبة العاطلين. فالريفى لا يضيع وقته في اللعب طوال النهار." قالها دوتو مفتخرًا.

فسأله حمزة: "من قال لك ذلك؟"

"أنا ريفى، أعرف حياتنا جيدًا التى لا وقت فيها لإضاعته. فبمجرد أن تشرق الشمس، يحمل كل فرد فأسه على كتفه ذاهبًا إلى حقله. فأين الوقت المتبقى إذًا لتضييعه فى لعبة الدومينو؟"

"إذًا سأعلمك هنا لتذهب وتعلم زملاءك من الريفيين بعد الإفراج عنك" قالها حمزة لدوتو مازحًا.

فسأله دوتو يائسًا: "أراك منذ أول أمس يا حمزة حالمًا، تصمم على أننا سنخرج. فمرة تقول إذا خرجنا ومرة تقول إذا خرجت أنت ومرة إذا خرجت أنا. هل تعتقد أننا سنخرج من هنا؟" سأله دوتو يائسًا.

"ولم لا نخرج؟" سأله حمزة هو الآخر.

"لا تعرف لماذا؟ لأننا- وللعجب- نحن الخونة. يقال- وللعجب- أننا قتلنا الزعيم. فهل تعتقد يا حمزة أن هذا أمر هين؟"

"أنا لست خائنًا، ولم أقتل أحدًا. وإذا كان الزعيم تم اغتياله فإنهم سيعرفون بأنفسهم من اغتاله، وإننى سأخرج لا محالة."

"إنك تقول إنك لست خائنًا، بينما الناس فى الخارج يقولون أننا نحن الخونة. هل تعتقد أن العجوز ماتشالى كان يمزح عندما قال لك أننا سنتعفن هنا بالداخل؟"

"حتى العجوز ماتشالى لا يعرف ما يقوله. إنه هو نفسه سجين مثلنا، فهو موجود هنا ليل نهار، فأصبح عقله مثل عقول الموجودين هنا فى الزنزانات."

ترك حمزة ما يفعله من تلوين لأجزاء اللافتة، إذ لم يعد الحوار مع دوتو هزلاً. فقام بترتيب القطع التى لونها بالدم جيدًا وصفها واحدة واحدة حتى تجف. وأخذ ينظر إلى دوتو كيف كان منكسر الخاطر مشغول البال مسترجعًا حياته التى كانت كالزهرة المتفتحة فى الحديقة ولكنها الآن تذبل وتموت حيث انتهت إلى الحصار داخل الزنزانة محاطة بالرعب والتهديد.

"فلندع هذا الحوار جانبًا ولنرجع إلى الدومينو" قالها حمزة مقاطعًا الحوار بقوة، ونهض حاملاً قطع الأوراق التى جف مدادها وجلس بجوار دوتو وقال له: "انظر"، وعرض عليه الأوراق قائلاً: "هذه هى أحجار الدومينو، وانظر إلى هذه النقط" وأخذ يشرح له.

نظر دوتو إلى حمزة، ونظر إلى تلك الأوراق مندهشا من حمزة إذ كيف أنه منشغل بهذا غير مكترث من حالة الرعب التى تحيطه.

"ما لا نقطة فيه يسمى الأبيض، وما فيه نقطة واحدة يسمى يك، والنقطتان دو، والثلاثة ثه، والأربعة جوهار، والخمسة بيش، والستة شيش"

واستغرق حمزة ثلاثة أيام لتعليم دوتو لعبة الدومينو، وأساليبها، وحساباتها، ومصائدها، فأصبح دوتو محترفًا فى هذه اللعبة. وعشقها وتشجع لها لدرجة أن حمزة اندهش من تفوق دوتو عليه أحيانًا حيث تمكن التلميذ من هزيمة الأستاذ.

أزالت هذه اللعبة همومهما داخل الزنزانة بتسلية وقتهما طوال النهار والذى كان يمر ثقيلاً بدون فعل أى شىء، وأصبح دوتو محترفًا فى الفوز بالدُّش والدبش وعندما يفوز يفرح ويرفع صوته قائلاً:"مات! مات!" وبذلك انتهى ذل النهار وهمومه المتمثل فى الضياع الفكرى الذى وصل إلى حد عدم معرفة ماهية هذه الهموم.

الفصل السادس

كان الظلام دامسًا، وكلٌ شيء كان ساكنًا حتى أوراق الأشجار، وأشجار جوز الهند التي عادة ما تتأرجح في الهواء هنا وهناك بأغصانها كانت هي الأخرى ساكنة. وكانت الغيوم الكثيفة بلونها الأسود تحجب رؤية السماء تمامًا، وتحجب معها ضوء القمر ليلة بدره تمامًا فلم يستطع اختراق تلك الغيوم ليكشف أسرار تلك الليلة.

وما كان من شيء في سجن كينواميجو من ذلك الظلام إلا وهو غارق فيه إذ إنه كالكابوس الجاسم على صدر كل من بداخله. فالسجن قائم دائمًا أبدا لا يزول، واقف وقوفًا شامخًا على مدار السنين في كل الأزمنة والفصول. فهو مقر المتوحشين المتجاوزين للحدود. يدخلونه ويخرجون منه على مر السنين، وهو يبتلع ويلفظ كل أنواع المعاصي من المجرمين المرتكبين للمعاصي، ومن أصحاب اللعنة المرتكبين للكبائر فيتم الزج بهم داخله ليتوبوا من ذنوبهم.

إلا أن الذين زج بهم هذه المرة لم يكونوا من المتوحشين ولا من الملعونين ولا من المجرمين، بل هم من المحترمين وأهل الشرف، فبعضهم رجال دين مسلمون، وبعضهم أهل شرف، وبعضهم ذووا مكانة رفيعة في المجتمع، هم رجال ونساء معتقلون فيه يلازمهم الكابوس بداخله.

في منتصف تلك الليلة الظلماء يسمع حمزة وقع أقدام أشخاص يتحركون سرًا كاللصوص، وما كان مستغرقًا تمامًا في نومه عندئذ، فكان يسمع هذه التحركات وكأنه يحلم.

انتبه ليتأكد من أنه ليس في حلم داخل السجن، وتساءل مندهشًا: "أي سارق ذلك الذي يأتي يسرق في السجن، والسجن ليس سجنًا عاديًا بل هو مركز تعذيب المعتقلين؟" جلس حمزة جلسة القرفصاء يتابع أصوات تلك التحركات السرية التي كانت تتجه نحوه، دعك عينيه حتى يزيل عنهما كل آثار النوم، ولكنه لم ير إلا ظلامًا دامسًا يملأ الزنزانة تمامًا. وسمع صوت وضع مفتاح في القفل بهدوء، مع تدوير المفتاح داخل قفله بحذر تام حتى لا يصدر صوتًا مرتفعًا يوقظ النائمين في مثل ذلك الوقت.

اقشعر جسمه وامتلأ قلبه رعبًا، وأخذ قلبه يخفق سريعًا سريعًا إذ إنه لا يعرف من منهما تتجه إليه هذه التحركات السرية، فهل إليه أم إلى دونو المستغرق في نومه غير مدرك لتحركات هؤلاء المتطفلين ليلاً. فتح الباب بهدوء، ووقع ضوء كشاف على وجهه مباشرة في ركن الزنزانة حيث كان متواريًا فيها. غطى عينيه بكفيه ليحجب وجهه عن ضوء الكشاف القوي المفاجئ الذي كاد أن يذهب ببصره المتأقلم على الظلام لفترات طويلة. جاءه صوت خافت كصوت اللص الذي يهمس لشريكه في السرقة أثناء القيام بها يقول: "اخرج." نظر إلى صاحب الصوت فلم يره لشدة الضوء المسلط عليه من الكشاف.

فجاءه الصوت ثانية: "اخرج." عندئذ شعر وكأنه مذهول فى حلم، ولكنه ليس فى حلم بل فى علم. نهض من جلسته ببطء ووقف ينظر ناحية الباب، وخرج من الزنزانة، أغلق الباب بهدوء مثلما فتح. ازداد إدراكًا أن يومه قد حان فتلاشت كل آماله بالخروج. فقد سبق له أن سمع قصصًا عمن أخذوا من الزنزانات ليلاً ثم سيقوا إلى المجهول دون أن يعرف أحد عنهم شيئًا. لكنه واجه الموقف برجولة محدثًا نفسه: "إن يوم الموت هو واحد فقط فإذا جاء فقد جاء."

وكانت البوابة الرئيسية للمعتقل قد فتحت مسبقًا، فتم اقتياده للخارج بخطوات تحسسية حتى لا يوقظ النائمين. وكانت الغيوم الكثيفة فى الخارج منتشرة، والظلام الدامس سائدًا فى جميع الأرجاء داخل المدينة. اقتيد حمزة إلى شجرة ضخمة عندها أربعة أشخاص فى انتظاره كشياطين سود. بدا عليهم من لبسهم أنهم جلادون إذ كانوا يرتدون عباءات سوداء طويلة وملثمين. وبجانب الشجرة سيارة مركونة. ولما اقترب منها حمزة تردد وسأل بصوت المرعوب: "إلى أين تقتادونني؟" لم يجبه أحد، وبدلاً من تلقى إجابة فقد تلقى صفعة قوية على وجهه. وحتى قبل أن يفيق منها تمت مهاجمته، فمسكوا بيديه وتم تقييده من خلفه وعصبوا عينيه بإحكام شديد، ودفعوه داخل السيارة. تحركت السيارة سريعًا، وأخذت تتمايل يمينًا ويسارًا وبسرعة جنونية، صعودًا لمرتفعات وهبوطًا لوديان.

حشر حمزة وسط الرجال فلم يتنفس إلا بصعوبة، فأدرك أن الموت حان وقته وأنه فى مواجهة مع الموت لا محالة مذكرًا نفسه: "الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة." وكانت السيارة حينذاك سرعتها مستقرة على وتيرة واحدة دون أن يعلم حمزة إلى أين يتجه ودون أن يفرق بين اتجاه المشرق واتجاه المغرب.

فجأة انخفضت سرعة السيارة، وبدلاً من وضع ناقل الحركة على البطيء وضعه السائق على السريع فشخشخ محرك السيارة وهى تصعد إلى مرتفع عالٍ.

إن حمزة يعرف التضاريس الجغرافية لزنجبار جيدًا، فتأكد له أن ذلك هو مرتفع كوآنى Koani. حيث سبق لهم أن صعدوا مرتفعًا مما جعله يجزم أن السابق كان مرتفع ويليزو Welezo، وهذا الثانى هو مرتفع كوآنى.

إنه الطريق الوحيد بين طرق زنجبار الذى له مرتفعان كبيران متتاليان تفصل بينهما مسافة تساوى المسافة التى قطعوها.

بذلك التفكير استطاع حمزة بالصدفة أن يخمن أنهم متجهون إلى دونجا ميتينىDunga Mitini، ولكنه تساءل فى نفسه: "أين ستكون نهاية المطاف بعد دونجا ميتينى؟ سأنتظر لأرى، فإذا اتجهوا شمالاً فسأعرف أنها الرحلة إلى متشانجانى Mchangani، أما إذا اتجهوا

يمينًا فسأعرف أنها الرحلة إلى تشواكا Chwaka" وكان حمزة وهو يتساءل فى نفسه كل هذه التساؤلات على يقين بأنها الرحلة إلى تشواكا ليأخذوه إلى الشاطئ ويطلقوا عليه الرصاص وينتهى الأمر.

تأكد لحمزة الآن أن الموت يحاصره فعلاً، فلم يكن بداخل السيارة إلا الرعب الخالص، وكان جسده يتصبب عرقًا، فتجددت آلام آثار الجروح التى تملأ ظهره لاسعة إياه لسع من يضع الكحول على الجروح. كان يصور لنفسه شكل عملية القتل من خلال ما سمع من حكايات كثيرة عن الكيفية التى يتم بها التخلص من الناس هناك. فمنهم من يحفر قبره بيديه ويدفن فيه حيًا. ومنهم من يوضع داخل جوال وتربط به قطعه حديد تكون له كالمرساة ويطرح فى المحيط، ومنهم من يطلق عليهم النار رميًا بالرصاص وجها لوجه.

توقفت السيارة فجأة فاندفع الجميع وتمايلوا، وقبل أن يعتدلوا تم فتح الأبواب وسحب حمزة إلى الخارج ممسوكًا من الجانبين ويداه مقيدتان من الخلف دون معرفة له بمكان وجوده، لأن الأمور سارت على عكس ما كان يتوقع، حيث كان يتوقع أنهم سيذهبون به إلى دونجاميتينى ثم ينعطفون به إما يمينًا أم يسارًا، إلا إنهم لم يصلوا هناك.

جاءه صوت غليظ عميق يشبه صوت العجوز ماتشالى يقول: "قيدوه بالحبال." ولكن لا فرق عنده فالأمر سيان سواء أكان الصوت

للعجوز ماتشالى أم لا، فإن ذلك كان أول ما سمعه منذ بداية الرحلة حيث كان الصمت هو سمة الطريق كله باستثناء صوت محرك السيارة فقط.

وبمجرد صدور الأمر جاءته ضربة بلوح خشبى فطرح أرضًا كالبقرة التى ستذبح. ولما أراد أن ينهض وجد قدمًا توضع على رقبته تدكها فى الأرض دكًا حتى انقطع عنه التنفس. تم قلبه على ظهره ثم على بطنه. وهنا قال حمزة: "إنهم يقت..." ولم يتمكن من إنهاء جملته حيث حشروا فى فمه خرقة ملأت فمه، فظل يهمهم فقط: "م م م م م م م." ولم تعد الكلمات تجد لها مخرجًا لأنه مكمم.

تم تقييده بالحبال فى جميع أجزاء جسده من الرقبة حتى القدمين. أخذوا فى لعنه وشتمه وإهانته قائلين له: "اليوم ستتكلم شئت أم أبيت."

رفع عشوائيًا وتركوه يسقط معتقدًا أنه سيسقط على الأرض ولكنه وجد نفسه معلقًا متدليًا يتخبط بحائط تحميه حبال أخرى. اعتقد أنه يتم إسقاطه فى حفرة فانتابه شعور بأنه سيدفن حيًا قائلاً: "سيدفنوننى وأنا حى!" حاول أن يصرخ لكنه لم يستطع نظرًا للخرقة التى تملأ فاه.

"ستعترف!" صرخ بذلك صوت عميق له دوى وصدى وكأن هناك شخصًا يردده، فأيقن أنه على فوهة حفرة عميقة للغاية يتردد فيها صوت "ستعترف!" من على بعد أكثر.

الحبل المقيد له كان ينساب شيء فشيئًا، وكلما انساب كان يسمع ذلك الصوت المتردد من على مسافة أبعد يقول: "ستعترف!" ولما توقف الحبل عن الانسياب وجد نفسه متدليًا منقلبًا رأسًا على عقب مع تقييد قدميه بإحكام شديد وأخذ يتأرجح هنا وهناك متخبطًا بحوائط الحفرة الحجرية التى أصابته وجرحته فى وجهه. وأخذوا يطلقون الرصاص عليه فى نفس الوقت، وتخطئه الطلقات بأعجوبة وهو مستمر فى سماع ذلك الصوت القائل "ستعترف!."

رأى حمزة أن معاناته تزداد تفاقمًا، فأراد أن يتفوه بأى شيء لينجو بنفسه من موت دفنه حيًا داخل الحفرة. ولكن حتى لو قال شيء فكيف يقوله وهو مكمم بتلك الخرقة التى تملأ فاه والتى تخنقه. وأخذ يهمهم: م م م م م م م م. كان كالأبكم الذى يريد أن ينطق كلما اشتد عليه الأمر.

تم إطلاق الحبل أكثر وأكثر حتى نهايته وعندها وجد حمزة نفسه تغطيه مياه ثقيلة وعميقة. استمروا فى تغطيسه وإخراجه مرارًا حتى نفدت أنفاسه تمامًا إذ إن الخرقة التى تكممه لما ابتلت زادت من

حبس الهواء عنه. ولكن لأنه كان يرتجف وينبض ويتنفس سريعًا ويريد أن ينطق كل هذا جعل الخرقة تخرج من فيه. فسنحت له بفرصة التنفس. رأى نفسه شخصًا انقبضت روحه ثم أعيدت إليه ثانية فتنفس بعمق، ولكن حتى قبل أن يتنفس ما يكفيه من هواء غطسوه ثانية. وفى هذه المرة غطسوه كلية مثلما تغطس المرساة فى الماء. ولأنه كان يجيد السباحة تمكن من حبس نفسه تحت المياه كى لا يتجرعها. أخرجوه ثانية. وبمجرد أن طلع صرخ: "سأتحدث سأتحدث."

كان الهواء داخل البئر كاتمًا وذا رائحة عفنة. وحينذاك تعين عليه أن يقرر لحياته أحد أمرين: إما أن يبقى عليها وإما أن يجهز عليها، فهى الحياة أو الموت، وعليه أن يقرر الآن، فالموت أمامه.

سحبوه إلى أعلى وهم سعداء سعادة الصيادين الذين اصطادوا سمكة كبيرة، فكانوا يحتفلون بانتصارهم على حمزة الذى استسلم. وكان حمزة كالغريق الذى تم إنقاذه من بحر عاصف مضطرب بالأمواج الشديدة. ولكن ما جدوى هذا الإنقاذ الذى يأتى من أناس يرغبون فى ذبحه وأكل لحمه! وهنا أصابه دوار، ورأى الدنيا كلها تدور به. حمل حمزة بحباله المقيد بها حول جسده كله وألقى به فى السيارة، فاقد الوعى ناسيًا كل ما جرى له كالمعتوه الذى تم تنويمه مسحورًا.

لم يتذكر حمزة متى أعيد إلى الزنزانة، فقد فوجئ بشروق الشمس وهو يتنبه رويدًا رويدًا من النوم، منهمكًا متألمًا فى كل جسده كأنه كان طوال الليل فى أشغال شاقة. عندما فتح عينيه رأى دوتو وكأنه بعيد يسبح داخل ضباب الفجر فأراد أن يناديه ولكن لم يطاوعه النداء فظل يتمتم فقط.

لم يكن دوتو ببعيد عن حمزة كما كان يتخيله حمزة، بل كان موجودًا بجواره وفى نفس مكانه، يساعده فى رفع رأسه ليمكنه من تناول شوربته فإن حمزة لم يستطع شربها. فعندما أراد بلعها أحس وكأنه يبلع قطعًا من أحجار موقدة، وحتى قبل أن تنزلق من حلقه كاد أن يلفظها، ولكن دوتو ألزمه ببلعها ناصحًا له:

"اشرب! اجبر نفسك بأى شىء!"

لم يتمكن حمزة حتى من شرب نصف الكوب، فتركه دوتو ليتنفس. نظر إليه دوتو وهو يرتجف ويتنفس الصعداء فجال بخاطره أولئك الأشخاص وذلك المكان الذى أخذوا حمزة فيه طوال الليل وأعادوه وهو فى حالة ما بين الحياة والموت.جال بخاطره كيف يمكن لإنسان أن يفقد الرحمة بإنسان مثله، ويجعل من نفسه إلهًا يمنح نفسه القدرة على إماتة وإحياء الآخرين.

رفعه دوتو وأسنده على الحائط. ظل حمزة يلهث فقط ويفكر فيما جرى له بالأمس من الأذى والمكاره والعذاب الأليم وكأنه كابوس جاءه فى المنام، لولا تيقنه أن ما حدث لم يحدث فى المنام ولا فى الخيال والأوهام وإنما فى أرض الواقع والحقيقة التى كان يسمع عنها فى كومبا كومبا. وهاهو يراها رأى العين واحدة تلو الأخرى على أرض الواقع.

غلبه النوم فنام. فاليوم لا مجال للشيش ولا للدش. فليس هناك بيش ولا دبش. فلا رغبة له على الإطلاق فى لعب الدومينو. كان دوتو جالسًا فى ركن من أركان الزنزانة مصابًا بالذهول ينظر إلى حمزة وهو نائم. كان دوتو يعتقد أن ما أصابه كان هو الأقسى، فإن ما حدث اليوم قد تجاوز كل الحدود، بأن يؤخذ الإنسان ليلاً ثم يعاد به فجرًا مضروبًا ضربًا مميتًا. وهنا حادث دوتو نفسه وقال متنهدًا بعمق: "هيا فلنصبر على ما هو آت."

كل آمال الخروج التى كانت تراود حمزة تبخرت تمامًا ولم يعد يراها. كم كان يأمل أن يخرج فى القريب العاجل. بنى على ذلك آمالاً عريضة خففت عنه آلامه، ونشطته، فامتلأ بشاشة. ولكن كل هذا الآن ذهب أدراج الرياح.

كان يومًا رتيبًا افتقد الحيوية لافتقاده لعبة الدومينو، تلك اللعبة التي وجدت طريقها إلى الزنزانة فأعطتها حيوية وروحًا معنوية كانت مفتقدة. نظر دوتو إلى حمزة وتذكر كيف كان يتفاعل بقوله: "سنخرج، سنخرج."

وكأن ملاكًا جاءه وأوحى إليه أنه سيخرج من تلك المحنة.

انتبه حمزة من نومه في حدود الثالثة بعد الظهر في وقت فتح الزنزانات لتوزيع الوجبات. كان مازال منهكًا، مخدوش الوجه، جسده يؤلمه من آثار تقييده بالحبال. كان جوعانًا يرغب في طعام متبّل ينشط فمه الذي لم يذق شيئًا. ولكن وجبة اليوم هي العصيدة وقطعتان من اللحم ملتصقتان وسط الطبق داخل تلك العصيدة وبارزتان وكأنهما عينان لامرأة غجرية. والشوربة التي تجعل العصيدة سائغة المذاق كان ماؤها كثير وملحها قليل، فأكل نصف الطبق بفضل دوتو الذي أجبره ورغبه في الأكل.

استغرقت حالة الحزن والكآبة يومين فقط، وفي الثالث تمتع حمزة بصحة جيدة تجعلك تقول عند رؤيته أنه ليس بحمزة الذي كان من يومين في حالة ضعف وتعاسة. فقد تنشط اليوم من جديد وامتلأ قلبه بالآمال والابتهاج وأخذ يغني: "اليوم هو اليوم! إنك ستشاهد مواجهة."

شاهد دوتو حمزة فى أوضاع مختلفة فأصبح يفهمه الآن جيذا. إن زنزانتهما دائمًا تحمل صورة أحوال حمزة. والآن حالة النشاط قد عادت إلى الزنزانة مجددًا. لعبة الدومينو تمارس. وعندما يتعبان يجلس دوتو كالطفل ليستمتع بقصص حمزة وبما جرى له فى تلك الليلة الظلماء التى أخذوه فيها. والتى يقشعر لها البدن ويخفق لها القلب.

وقد ملأ حمزة قصصه بالمبالغات الواقعية والخيالية معًا، فكانت هذه المبالغات تجعل حكاياته وقصصه مثيرة ومضحكة. وكلما كان ينتهى من حكاياته كان يردد نفس المقولة التى علّمه إياها عبده فى كومبا كومبا: "سنخرج لا محالة."

الفصل السابع

كان العمل فى المعتقل يبدو كثيرًا فى هذا اليوم، ولم يكن عملاً مرتبطًا بالضرب أو الجلد بسياط شجر الجوافة إذ إن ذلك كان قليلاً والصرخات نادرًا ما كانت تسمع، بل كان العمل يخص كبار المسئولين فى المعتقل، وهم الرجال العتاة المتكبرون فيه. فكانت أصوات وقع الأحذية العسكرية لكبار المسئولين وضباط الشرطة على الأرض تسمع وهى تضرب الأرض مع جلبتهم وخيلائهم داخل المكتب المكتظ بهم. فكانوا يضحكون ويسعدون ويسخرون بينما كان طعام الإفطار المكون من الشاى باللبن ومعه الكباب والسامبوسا والفيليه والطرشى المركز لفتح الشهية فى انتظارهم.

كانوا يتحدثون صخبًا ويضحكون قهقهة دون إحساس بأن ضحكاتهم هذه كانت تحدث حالة من الهيستريا لدى كل من زج به داخل الزنازين منتظرين فرج الله.

كان اليوم يوم سبت والساعة حوالى الثانية عشرة وهم ينصرفون بصخبهم وضجيجهم كذلك. والسيارات فى الخارج تنتظرهم لتقلهم إلى أماكن ملذاتهم خلال عطلة نهاية الأسبوع، فمنهم من يصطحب الفتيات الصغيرات ليذهب بهن فى نزهة متمتعين بالهواء

الطلق ناحية تشواكا أو مانجابوانى Mangapwani أو باجى Paje أو جامبيانى. ومنهم من يستمتع فى نادى المتعة بتناول الويسكى والشامبانيا، ومنهم من يختفى فى الأوكار السرية الواقعة على الشواطئ حيث قصور كبار المسئولين التى أقاموها لارتكاب الفواحش.

وأبقوا فى المعتقل على العجوز ماتشالى فقط، وقد سعد بمملكته، تلك المملكة التى يحكم فيها المساجين. فكان ليل نهار تجده مستلقيًا على الكرسى يدخن السجائر فى حالة خمول كامل. وبالنهار كان يحوم الذباب حوله، وبالليل كان البعوض يزفه. هو الآن الكبير إذ إن القطط لما ولت قام الفأر يحكم المكان.

فقال دوتو لحمزة سعيدًا بمغادرة القطط: "لقد انصرفوا."

فرد حمزة: "أعتقد أن عندهم جلسة"

فعلق دوتو: "لابد ذلك، لأننى أعتقد أن السيارات كانت كثيرة بالخارج."

فتساءل حمزة: "لا أعرف ما هى الخطة الجهنمية التى يبيتونها مرة أخرى: "

"ربما هى خطة قتلنا"

فسأله حمزة مندهشًا: "قتلنا؟! ماذا ارتكبنا حتى يقتلوننا؟!

"وبأى جريمة تعتقد أنهم حبسونا عليها؟ إنهم حبسونا بلا ذنب"

فقال حمزة منتفضًا: "إنهم لا يستطيعون قتلنا بلا ذنب! فليس هناك من ذنب ارتكبناه. فلا يمكن."

فقال دوتو: "إنك لا تعرف هؤلاء الأشخاص يا حمزة، اسألنى أنا يا حمزة، اسألنى أنا الذى أعمل معهم."

- "تعمل معهم فى مهمة قتل الناس؟!"

- "لا، ليس قتل الناس، إننى جندى، وفى الجيش تقع هذه الحوادث، فماذا أقول لك يا حمزة؟

وفجأة بدأ طرق الجدار من الزنزانة المجاورة: تَبٌ تب تب

فتوقفا عن الحديث ليستمعا للطرق فلعل وعسى أن يكون لدى زملائهم شىء يخبرونهم به.

"لقد مات شخص فى الزنزانة رقم ٤ وتم إخراج جثته ليلة أمس، وفى كومبا كومبا لم يرجع شخصان منذ اليوم الذى أخذا فيه ولا أحد يعرف مصيرهما هل سمعتم شىء عن المؤتمر؟ والأمور فى الخارج هادئة."

أصيب حمزة ودوتو بالذهول لأن هذا خبر مفزع، ليس لأن الموت شىء مفزع داخل المعتقل، بل هو شىء معتاد، وإنما بسبب

بداية اختفاء الناس فى كومبا كومبا والظروف هناك فى العادة أفضل. فلو كان الناس بدءوا يختفون هناك فإن الموت هنا أصبح يتربص بهما فعلاً.

ظل كل منهما ينظر للآخر، دون أن يتكلم أحد، لقد صعقا، وأخذت الزنزانة تسخر من أملهما الطفولي فى الإفراج عنهما فى أى وقت. ذلك الأمل الذى انقطع فجأة. ابتعد حمزة عندئذ بفكره عن السجن وخرج به إلى زوجته وابنته، فتمنى أن ينشق الجدار وينبت له جناحان فى الحال ويصبح حمامة تطير إلى خديجة. "مسكينة أنت يا خديجة" فكر فيها حمزة.

فما إن رزقا بالمولودة الأولى حتى تركها معتقلاً تقع عليها مسئولية التربية بمفردها. ظل حمزة يفكر دون حركة. وهنا يسأله دوتو مازحًا: "هل سنخرج؟"

فأجابه حمزة: "بلا شك" أجابه وكأنه انتبه من نوم.

لم يكن سهلاً على حمزة أن تشغله أفكار أخرى عن الاستغراق فى التفكير بشأن خديجة كما أنه لا يريد أن يبقى مكتئبًا طوال الوقت بسبب تفكيره فى المحبوب الذى أبعد عنه بالقوة الحكومية. إذا فعل ذلك فإنه سيكون مثل ناصر الذى أطلق عليه زملاؤه فى كومبا كومبا اسم "الطفل الكبير". ولكن ماذا يفعل؟ وقد انشغل عقله تمامًا بالتفكير

فى زوجته الحبيبة خديجة. فقد انفصل عنها بسياج من أسلاك شائكة يحرسها جنود مسلحون وحراس آخرون متمكنون.

فسأل حمزة نفسه: "ما جدوى التفكير فى خديجة فى مثل هذه الظروف؟" فكل شىء محاط بالأسوار وبالأسلاك الشائكة وبالحراس والجنود المنتشرين بكثرة، ولكن على الرغم من ذلك فإنه لم يفقد الأمل عندما أجاب دوتو بأنهما لا محالة سيخرجان. إنه الإيمان اليقينى بأنهما سيخرجان لا محالة.

بعد مرور يومين فقط اختفى الكابوس الذى كان يحدق بهما داخل الزنزانة، وعادت الأمور إلى طبيعتها، ونسيا تمامًا مسألة اختفاء الناس فى كومبا كومبا، واستأنفا لعبة الدومينو من جديد. لم يكن لديهما عمل يقومان به طوال النهار إلا تبادل أطراف الحديث. وكلما يسأمان من الحديث يلعبان الدومينو. وعندما يسأمان من الدومينو ينامان. وعندما يستيقظان يلعبانه من جديد، وهكذا دواليك يوميًا. لعبا حتى تعبا فى ذلك اليوم، فنظر حمزة إلى دوتو وسأله: "هل تعرف لعبة الشطرنج يا عزيزى؟"

"ما هو الشطرنج؟"

"ألا تعرف الشطرنج؟"

"لا أعرف"

"انتظر حتى نخرج لعلى أجد قطعًا خشبية فأصنع منها شطرنج".

"من أين ستأتى بها؟"

"إنها كثيرة جدًا فى الخارج، سأقوم بإدخالها قطعة قطعة أو قطعتين قطعتين يوميًا، وأنت تقوم بنفس الشىء حتى تكتمل".

"وماذا ستفعل بعد اكتمالها؟"

"سأقوم بنحتها جيدًا"

"كيف ستقوم بنحتها؟"

رفع حمزة متاع نومه عل الأرض، وأخرج شفرة موس وقال: "بالموس، وإننى متأكد أنك ستحب هذه اللعبة كثيرًا مقارنة بالدومينو. فلعبة الشطرنج تحتاج إلى تركيز شديد. ليس هذا فحسب وإنما تستغرق وقتًا طويلاً أيضًا، قد يمتد إلى يوم كامل ولم تنته بعد".

فتساءل دوتو مندهشًا: "يومًا كاملاً؟"

"أجل يومًا كاملاً"

"هل من يلعبونه ليس لديهم عمل يقومون به؟" سأله دوتو. نظر إليه حمزة وابتسم قائلاً: "إن الشطرنج هو لعبة الطبقة البرجوازية، ومن يلعبها هم أولاد الذوات ميسورو الحال، وليس الكادحون". قالها حمزة متباهيًا.

"هل أنت برجوازى يا حمزة؟" سأله دوتو.

"إن من علمنى إياها الرفقاء. ويلعبها عندهم أى فرد، فليس عندهم برجوازيون".

"رفقاء؟" سأله دوتو منزعجًا

"نعم رفقاء، ولماذا الانزعاج؟"

"هل أنت رفيق؟"

"أجل" أجابه حمزة.

"إننى أسمع أن هؤلاء هم الذين اغتالوا الزعيم".

"ممن سمعت؟"

"هكذا يقول الناس فى الخارج، أسمع أنكم أنتم الرفقاء الذين جلبتم هذه الكارثة" قالها دوتو متذمرًا.

"هل أنت رفيق يا دوتو؟" سأله حمزة هو الآخر.

"من؟ أنا؟ أنا حتى لا أعرف معنى هذه الرفقة.

"إذا كان الأمر كذلك فلماذا اعتقلوك وعذبوك وحبسوك متهمين إياك بدور فى اغتيال الزعيم؟"

"شيء عجيب أتعجب منه!!" وتنهد دوتو ثم هدأ وقال: إننى أسمع أنكم أيها الرفقاء مشاكسون للغاية! وأسمع أنكم ملحدون!"

"وهل سبق لك أن سمعت أن هناك مسجدًا تم هدمه أو تم فيه إشعال النار من الرفقاء؟"

"لم أسمع بعد" أجابه دوتو.

"ما هذا إلا تضليل فقط! أتعرف يا عزيزى ما هو التضليل؟" سأله حمزة.

نظر دوتو إلى حمزة وليس عنده ما يجيبه به، وظل متعجبًا.

"دعنا الآن نعود إلى الشطرنج. عندما نخرج للاستحمام وترى قطعًا خشبية صغيرة خذها. وهى تلك القطع التى تتكسر عند ضربهم لنا. وأنا كذلك سآخذها عندما أراها. ومنها سأنحت الشطرنج بشكل رائع يحوز إعجابك"

فى ذلك اليوم فتح العجوز ماتشالى الباب وأخرج حمزة وحده وبقى دوتو فى الزنزانة. وكان كرسى العجوز ماتشالى فى نفس مكانه المعتاد مع علبة سجائره الحارة، والكبريت تحت الكرسى. كانت الساعة فى حدود الخامسة والنصف، والشمس على وشك الغروب، وهناك ظلٌ وارف على أرضية الساحة جعلها رطبة.

والعجوز على نفس هيئته ومظهره المألوفة بسرواله المتسخ، وصدره العارى، وشاربه الأشعث، وعينيه الحمراوين كأنه تناول البانجو.

أخرج العجوز سيجارة وأعطاها لحمزة الجالس فى نفس المكان فى ذلك اليوم مسندًا ظهره إلى الحائط. أخذ السيجارة ونظر إليها متذكرًا اليوم الذى دخنها فيه وما حدث له من تهيؤ للدنيا وكأنها تضطرب وتغرق. أدخلها فى فمه، وأخذ العجوز كبريتًا وأشعلها له. أسند ظهره وأخذ يدخنها بروية مستشعرًا كيفية تأثيرها عليه اليوم. كان العجوز ماتشالى ينظر إليه حال اشتعال عود الكبريت بين أصابعه واحتراقه حتى كاد أن يحرق أصابعه فألقاه بسرعة.

لم يكن حمزة قلقًا لأنه رأى أن قيام العجوز بإخراجه هو فقط إنما هى مجرد رغبة منه عندما يشعر بالوحشة وبأنه فى حاجة إلى شخص يؤنسه ويمازحه، وليريه أنه أيضًا له نفوذ داخل ذلك المعتقل، وباستطاعته التصرف كما يشاء فى هذا المعتقل عندما يكون هو المسئول عند غياب كبار المسئولين. دخن حمزة السيجارة رويدًا رويدًا، وكذلك العجوز كان يدخن سيجارته ولكن بدفعات مكثفة نافخًا الدخان إلى أعلى، وناظرًا للدخان وهو يتلبد وينتشر فى الهواء، مسندًا ظهره على الكرسى، متباهيًا تباهى الجالس على العرش مسترخيًا كأن النعاس غلبه.

وصلت سيجارة حمزة إلى منتصفها وهو يدخنها رويدًا رويدًا، فإن النشوة لم تلعب برأسه هذه المرة كما لعبت سابقًا، والدنيا أمامه مستقرة لا تهتز ولا تضطرب، وهو في انتظار ما سيقوله له العجوز مانشالي. كان حمزة يخشى أن يسأله حتى لا يجيبه بشيء يكرهه. كانت سيجارة العجوز على وشك الانتهاء إلا من جزء صغير يمسكه بأطراف أصابعه. دخن نفسين طويلين وسريعين وألقى بالمتبقي منها في المجرى المائي فانطفأت في الحال. "غدًا" قالها العجوز دون أن يكمل الجملة. اعتدل حمزة عن إسناد ظهره إلى الحائط ليعرف ماذا سيحدث غدًا.

هل انتهيت من سيجارتك؟ سأله العجوز مغيّرًا كلامه وكأنه نسي ما يريد قوله.

"لم انته بعد" أجابه حمزة مشتاقًا لمعرفة ما يريده العجوز من قول.

"انته منها سريعًا" وتوقف العجوز عن القول قليلاً ثم استطرد قائلاً: "انته بسرعة كي أحلق لك شعرك ولحيتك وشاربك تمامًا"

أصيب حمزة بالبلاهة وكأنه لم يسمع شيء فسأل: "ماذا تقول؟"

فرد العجوز على سؤاله بسؤال وبحدة: "ألم تسمع؟" وأضاف: "انته لنحلق شعرك ولحيتك وشاربك تمامًا، فاليوم غير مرغوب في شعرك."

الحلق شيء محظور فى هذا المعتقل، والمعتقلون فيه أصبحوا كالأشباح من اللحى الكثيفة المهملة والشعر الأشعث الأغبر الأكرت. أما حمزة فكان شعره يشبه عش العصافير مع ظهور الشيب فيه تدريجيًا. فاندهش لما سمع العجوز يطلب منه أن يحلق رأسه، ولذلك سأله ثانية متأكدًا: "حلق شعر؟"

فسأله العجوز مستغربًا: "يا للبلاء، هل أصبحت أصمًا؟"

دخل العجوز المكتب واختفى فيه تاركًا حمزة يستمتع بسيجارته. استمر فى التدخين شافطًا إياه مالئًا رئتيه بالدخان، ثم مالئًا به فاه، وبهدوء يخرجه متأملاً كيف يتكثف ثم ينتشر فى الهواء، وكيف يعتدل مزاجه من السيجارة. استمر فى التدخين حتى أوشكت السيجارة على الانتهاء، وعندئذ شعر بأنه فى حاجة إلى المزيد فالتقط قطعة من ورق ولفها وأوصلها بعقب السيجارة لإطالتها. وأخذ يدخنها حتى انتهت تمامًا، فهدأ وهدأت معه نشوة السيجارة كذلك. كان العجوز ما زال بالداخل ويسمعه حمزة يتعامل مع أشياء فتحًا وغلقًا فى الأدراج.

وبينما كان حمزة مسندًا ظهره على الحائط رأى وجه شخص يختلس النظرات بين الفينة والأخرى من شباك زنزانة رقم ١. وما كان يرى من الوجه إلا العيون. وفجأة اختفى الشخص عندما سمع

وقع أقدام شخص قادم من المكتب، فلم يستطع حمزة رؤيته جيدًا، ولكنه كان متأكدًا أنه واحد من زملائه المعتقلين الذين يستطلعون الموقف لمعرفة أى شىء.

رأى حمزة العجوز يخرج من المكتب بطيئًا، وينزل السلم متجهًا نحو الساحة، فبقى حيث هو مسندًا ظهره إلى الحائط، مسترخيًا كالقطة التى تلحس أخرى لتنام. فكانت نشوة السيجارة تلعب برأسه متخيلاً أنه يبنى ويهدم قصورًا شاعرًا بوحشة المكان. وكانت رائحة المعتقلين الذين تركوا حتى تعفنت أجسادهم تنبعث وتلوث الجو.

خرج وبيده مقص وهو يجرجر فى رجليه بمشيته الاتكائية حتى وصل إلى الكرسى فارتمى عليه واستوى، وكان الكرسى متينًا للدرجة التى تحمل معها ثقله.

وأصدر أمرًا إلى حمزة وهو فاتح رجليه: "تعال هنا".

جلس حمزة بين رجليه مسلمًا رأسه إليه يتصرف فى رأسه كيفما يشاء. فبدأ العجوز يتعامل مع الشعر بقطعة من مشط ويقص. كان الشعر غباره كثيف وممتلئ بالقشور ورائحته منتنة، وانبعث كل ذلك فى الهواء ملوثًا إياه. فنأى العجوز برأسه بعيدًا وكتم نفسه حتى لا يتنفس ذلك الهواء. ثم عاد وانهمك فى حلق الرأس بالمقص حتى تم تقصيره درجة. وهنا أخذ قسطًا من الراحة، وأخرج سيجارة من علبته

ووضعها في فيه وأشعلها وسحب نفسه على دفعتين متتاليتين. ثم تنحنح وسلك زوره من بلغم ثقيل وبصقه في ركن من الحائط بقوة.

وقال لحمزة: "عليك أن تستيقظ مبكرًا غدًا."

سأله حمزة قلقًا: "ماذا في الأمر؟"

رد عليه بغطرسة: "آمرك أن تستيقظ مبكرًا."

وضع العجوز السيجارة تحت الكرسي مشتعلة وواصل مهمة الحلق لحمزة. بدأ شعر حمزة يتساوى ويتهذب، فاستخدم مقصًا سطحيًا لإتمام التسوية. أما الشعر الذي تم قصه فكان منتشرًا بعضه على الأرض والبعض الآخر أثارته الرياح فانتشر في الساحة كلها.

بعدئذٍ استراح قليلاً كي يجد وقتًا لتدخين بقية السيجارة.

انتاب حمزة قلق من عدم معرفته السبب وراء المطالبة له بالاستيقاظ مبكرًا، وإلى أين سيتم اقتياده! فأمس الأول أخذوه بعد منتصف الليل وتم إلقاؤه في البئر، واليوم يحلقون رأسه، فيا هل ترى إلى أين؟ أخذ يسأل نفسه.

فأي نوع من التعذيب الأشد الذي لم يذقه بعد؟ لم يعد هناك ما هو أشد إلا الإعدام، وها هو السبب في حلقهم لشعره واستحمامه ليكون نظيفًا وجاهزًا لتقديمه قربانًا. هكذا فكر حمزة.

كان العجوز مانشالى قد انتهى من حلق الشعر حلقًا متساويًا وبدأ يقلب رأس حمزة هذه الناحية مرة وتلك الناحية مرة أخرى متباهيًا بمهارته فى الحلق ممتدحًا نفسه قائلاً: "لقد قمنا بهذه المهام منذ زمن بعيد."

فسأله حمزة: "أين؟"

فأجابه متباهيًا: "في الحرب! كل منا فى الحرب يقص للآخر!"

"وهل شاركت فى الحرب؟"

فأجاب مفتخرًا: "ماذا تقول أيها الصبى! إننى شاركت فى حرب بورما Burma وسيلون Ciylon، فى كلا البلدين. هل ترى هذا الأثر!" وهنا قام العجوز بإظهار أثر جرح تحت جانبه لحمزة وقال: "هذا أثر طلقة. كنا فى ليلة ظلماء مختبئين فى الغابة، ولا أعرف ماذا دهانى حتى أشعل سيجارة. وما أن أشعلتها إلا وجاءتنى طلقة فسقطت وحملنى زملائى سريعًا وبشكل عشوائى.." وهنا توقف قليلاً ليدخن سيجارة واستطرد: "لم أتوقع أننى سأنجو لأن الطلقة كانت غائرة، والدماء كانت تسيل بغزارة."

فسأله حمزة: "وماذا بعد؟"

فأجاب: "الأوربيون يا سيدى"

سأله حمزة: "ماذا عنهم؟"

"أحد الأطباء الشبان من الإنجليز قام بحقنى حقنة واحدة فقط أفقدتنى وعيى. وما إن جاءنى وعيى إلا ورأيت الطلقة تم استخراجها من جسدى، وأضلاعى مربوطة برباط."

فعلق حمزة ملقبًا إياه بالوالد: "عجبًا يا والدى، إنك رأيت الكثير"

فقال متحسرًا: "لا تنظر إلى اليوم إذ وهن عظمى، فلقد كنت حينها ثورًا بمعنى الكلمة، إن أمسكت بك لا يمكن لك أن تفلت، آه، ليت الشباب يعود يومًا."

وهنا أخرج العجوز من جيبه شفرة موس وجزء من مشط. ثم أخرج تلك الشفرة من علبة السجائر وألصقها بالتوازى مع المشط وبدأ يسوى شعر حمزة. وما أن انتهى من تسوية أعلاه حتى بدأ يسوى جانبيه وقفاه. ثم حلق له لحيته وشاربه. تغير شكل حمزة وأصبح كالصبى. أدار العجوز رأس حمزة ليتأكد أنه أنجز مهمته بشكل جيد.

ذهب إلى الداخل وأتى بمرآة أعطاها له ينظر فيها إلى نفسه. نظر حمزة فرأى سوادًا لوجهه وتغيرًا لصورته حيث برزت عظام جمجمته بشكل واضح.

فسأل العجوز: "تبدو رائعًا، أليس كذالك؟"

أجابه: "جدًا."

"اكنس شعرك الآن لتأخذ حمامًا"

لم يعرف حمزة من أين يبدأ لأن الشعر كان متناثرًا في كل أنحاء الساحة. وكلما جاء يكنسه ويجمعه في مكان تطيره الرياح في مكان أخر. وهو يتبعه هنا وهناك وكأنه يلعب لعبة مطاردة الأطفال. وما إن انتهى من هذه المهمة حتى دخل الحمام واغتسل. وبعد أن اغتسل أعاده العجوز إلى زنزانته في انتظار اليوم التالي، فأحس أن اليوم التالي سيكون يومًا مثيلاً للأيام التي قضاها في السجن، دون أن يعرف ماذا سيجلب له ذاك اليوم، أكارثة أم انفراجة؟ قضى ليلة ليلاء متعثرة لا تتحرك تأبى شمسها أن تشرق. طار النوم من عينيه فظل في أرق منتظرًا تنفس الصباح، والصباح يأبى التنفس والدخول، وإنما يحيطه ظلام دامس ملأ أركان الزنزانة. كانت أذناه في حالة طأطأة عله يسمع صوتًا يستشف منه شيء في تلك الليلة لكنه لم يسمع إلا شخير البعض المستغرق في النوم الثقيل.

ما كانت الليلة في الحقيقة متعثرة ولا متوقفة وإنما تمر ببطء، حتى بدأت الشمس تشرق، وانتبه معها حمزة من نومه الذي غلبه فجأة. دخل طهاة كومبا كومبا بجرادلهم من الشوربة والفاصوليا مما يأذن ببداية يوم جديد.

أصبح حمزة وهو في قلق وخوف، ولم يعد يحسب الساعات أو ينتظر انصرام الليل بل ينتظر لحظة اقتياده حيثما يريدون إعدامه ذبحا كان أم شنقًا لتنتهي حياته. وفي هذه اللحظات تلاشت كل آمال خروجه من هذه المحنة مرة أخرى، وغطت على كل آماله التي ترسخت في عقله بأنه في يوم ما سيطلق سراحه وسيكون حرًا طليقًا. فقام بتوديع دوتو وطالبه أن يذهب للاطمئنان على زوجته وابنته إذا ما وفقه الله وخرج.

عندما سمع فتح الباب علم أن الوقت قد حان. انفتح الباب وترك مفتوحًا تمامًا، وملأ ضوء الصباح كل الزنزانة، لم يكن العجوز ماتشالي هو الفاتح للباب كعادته، وخاصة أوقات الفجر، بل هو ضابط حربي واقف على الباب، طويل ممتلئ الجسم، ممشوق، ذو بنية جسدية متناسقة وأنيق في زيه الأخضر، تعلو كتفه ثلاث دبابير تتلألأ باللون الذهبي. وما إن فتح الباب حتى امتلأ جو الزنزانة عطرًا من عطر ذلك النقيب الذي وضعه على لحيته. ودبت الحماسة العسكرية في دوتو فوقف منتبهًا مؤديًا التحية العسكرية للضابط الذي رد عليه التحية باحتقار. نظر الضابط إلى حمزة ولم ينطق بشيء وإنما أشار إليه بأن يخرج.

ما كان يومًا يبشر حمزة بالخير وإنما يحمل نذير الشر والشؤم الموجودين داخل ذلك المعتقل المليء بكل أنواع التعذيب والتهديد

الذى أصاب المعتقلين بالذعر القاتل حتى أصبحوا كالمعاقين عقليًا، فلم يعودوا عاقلين ولا مجانين وإنما مجرد أناس يعيشون معتوهين.

تقدم حمزة إلى الأمام وسار فى المقدمة والنقيب من خلفه يحرسه حراسة الراعى لغنمه، وذهبا إلى مكتب فارغ ذلك اليوم، وأمره النقيب أن يأخذ ما على المنضدة من صرة ملابس ويذهب بها إلى المرحاض ليرتديها هناك.

كانت الصرة عبارة عن قميص جميل لونه وردى فاتح، وسروال رمادى، وحذاء أسود اللون، وجورب. ارتداها حمزة وتأنق بها فبدا إنسانًا كبقية البشر. تعجب حمزة مما يرى، فالملابس تحضر إليه ليرتديها فى السجن ويتأنق بها فسأل نفسه: "إلى أين يقتادوننى؟"

تجمع الحرس فى الساحة، والعجوز ماتشالى لم يك موجودًا، ربما سيأتى فى النوبة الليلية. وكان جنود القوات المسلحة واقفين فى أماكنهم المعتادة: واحد فى ركن وثان فى ركن آخر، حاملين أسلحتهم بسكون كالتماثيل، ناظرين إلى حمزة، وكيف أنه تأنق، وكيف أنه يبدو وكأنه أحد الضباط الذين يدخلون المكتب متبخترين مغرورين ومتكبرين. ولكن كيف يتأتى لحمزة أن يتبختر والجميع يعرفه أنه مجرد خائن.

سار حمزة والنقيب معًا حتى وصلا إلى بوابة الخروج الحديدية ففتحت، وخرجا. كان الوقت وقت الضحى العالى إذ وصلت الساعة الحادية عشرة، وكانت تنتظرهما سيارة بداخلها شخصان بزيهما المدنى. جلس النقيب فى المقعد الأمامى، وأجلس الشخصان حمزة بينهما فى المقعد الخلفي. أبصر حمزة ضوء الشمس والمناظر الخلابة للأشجار الخضراء، ورأى فى الاتجاه المعاكس الناس ذاهبين قادمين أحرارًا فشعر وكأنه أحدهم، ولكنه لم يكن كذلك، فهو محاصر بين فردين من أفراد البوليس السرى. لا أحد منهم يتكلم، ولا يسمع إلا صوت محرك السيارة فقط. اتجهوا صوب الطريق المؤدى إلى المطار. وقبل أن يصلوا إلى كيمبيساماكى Kiembesamaki خرجت السيارة عن الطريق وانحرفت يمينًا داخل الأحراش. ولم يذهبوا بعيدًا حتى وصلوا أمام منزل أثرى كبير من دور واحد، بدا وكأنه أطلال مهجورة منذ سنوات، ولكنه مرمم ترميمًا جيدًا ومدهونًا بدهان جيرى لامع ناصع البياض.

أيقن حمزة أنه مكان المجزرة، وأنه مكان سحله والتخلص منه نهائيًا. صعدوا أعلاه، ووقفوا فى البلكونة ذات الأرضية الخشبية من خشب مساجى Msaji، ورأى حمزة من البلكونة المحيط الممتد حتى الأفق، والمياه الزرقاء الداكنة والمثيرة بأمواج المد والجزر العاتية، والتى كانت تلتوى وتتقلب وتمتد على سطح المحيط، ثم تدور حول

نفسها وترتطم على الشاطئ بقوتها، وتزحف ببطء على رمال الشاطئ الأبيض. لم ير حمزة هذا المنظر الخلاب منذ أيام عديدة، وهو الذى يعشق الوقوف بالبلكونات ليشاهد جمال المحيط. فوقف كالمسحور ناظرًا صوب المحيط. فنبهه النقيب قارعًا كتفه آمرًا إياه بمواصلة السير: "فلنذهب."

ذهبوا إلى الناحية الأخرى من البلكونة حيث أصبح المحيط الذى كان يؤنسه خلفهم. وقفوا أمام باب ضخم يحمل نقوشًا جميلة ثم دخلوا فوجدوا ستة أفراد: أربعة ضباط جيش، واثنين فى زى مدنى. كان المكتب يحمل زخرفة جذابة للغاية، وتغطى أرضية الغرفة بأكملها سجادة حمراء. وعليها أربع أرائك كبيرة عليها الوسائد المغطاة بأكياس صفراء، ومنضدة جميلة مصنوعة من شجر الأبنوس ولها كرسى مصنوع من نفس الخامة وعليه وسادة بكيس أصفر. والهواء العليل من المحيط يدخل مباشرة إلى المكتب، وفى أحد أركان الغرفة زهرية كبيرة من نبات أغصانه عريضة ذات نقاط حمراء وبيضاء.

وعلى الحائط وبالقرب من المنضدة صورة كبيرة للزعيم فى زيه العسكرى معلقة وهو يشير بسبابته، وكأنه يتوعد حمزة الذى كان جالسًا وجها لوجه أمام هذه الصورة قائلاً: "يا أنت".

بالغرفة ثلاثة شبابيك كبيرة، اثنان بالحائط الأيمن، والثالث بالحائط الذى عليه صورة الزعيم، وتحت هذا الشباك ملفات مبعثرة بشكل عشوائى، عليها غبار كثير، يدل على أنها هناك من عدة أيام وبشكل دائم، ولا أحد يلتفت إليها.

كان ضباط الجيش هؤلاء من أصحاب الرتب العالية، وليست رتب النقيب والملازم بل إنها تحمل السيوف وأشجار جوز الهند، والأوسمة التى لم تجد لها مكانًا على أكتافهم تجدها معلقة على لياقاتهم وصدورهم. كانوا جالسين على الأرائك بشكل استرخائى وفى حوار باسم. وكان النقيب الذى قام بحراسة حمزة قد انصرف. جلس حمزة هو الآخر دون أن يفهم شىء عما يجرى من حوار بين أولئك الكبار. فجأة توقف الحوار، وسئل حمزة: "ماذا ستشرب؟" سأله الضابط الجالس عند المنضدة. اندهش حمزة.

"ماذا ستشرب؟ صودا، شاى، أم قهوة؟"

"صودا" أجابه حمزة.

"أى نوع من الصودا؟"

"أى شىء"

"مثلجة أم ليست مثلجة؟"

"مثلجة"

"بكأس أم بدون كأس؟"

"سيان."

"أم نحضر لك بيرة؟"

تعجب حمزة من هذا الكرم الذى أبداه له كبار الضباط لدرجة أنهم يسألونه البيرة لو أرادها؟ هنا استرجع بالذاكرة ما كان يحكيه له زملاؤه وهم أطفال عن المحكوم عليه بالإعدام بأنه يُسأل عما يريده قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه ولابد من تلبية طلبه. ولربما سؤاله هذا عما يريده هو آخر طلب له الآن.

وفى الاتجاه المقابل لحمزة يجلس ضابط قصير القامة، ممتلئ الجسم، مسترخيًا على كرسيه، بارز الكرش، واضعًا قبعته الشبيهة بالقارب على المنضدة، ورأسه تلمع من الصلع العام إلا من شريط رفيع من الشعر حول قفاه، ويداه قصيرتان، وكلما تحدث يضرب بكلتا يديه على ذراعى الكرسى، عيناه ضيقتان حادتان. عندما ينظر إليك تظن أنه يستطلع سرًا من أعماق قلبك.

حمزة جالس بجسده لا بقلبه وعقله، يفكر فى مصير حياته ومستقبل مولودته. علاوة على ذلك فإن حبل المشنقة أمام عينيه، ولكنه

ليس متأكدًا فيما لو كان الإعدام سيكون شنقًا أم رميًا بالرصاص. وحتى إذا تم تخييره فماذا سيختار؟ "أهو الشنق أم الرمى بالرصاص؟ وأخذ يفكر قائلاً: "إن الموت واحد، فليحدث ما يحدث".

كان الضابط الجالس علي الكرسي يتحسس بين الحين والآخر أحد جنبيه مما يدل على أنه يحمل مسدسًا. فكان كثير الحركة لا يهدأ، مرة يهرش ومرة يندفع أمامًا، ومرة يسارًا، ومرة يجذب ملابسه يهندمها. كان قصير القامة جدًا، فبدا وكأنه تمثال قابع على الكرسي. كان ينظر إلى حمزة وكأنه يريد أن يقول شيئًا، ولكن قبل أن يتلفظ بكلمة دخلت إحدى الجنديات الحسناوات تحمل صينية مليئة بأطباق صغيرة بها لحوم مشوية، فوضعت طبقًا لحمزة وللضباط كذلك فوق مناضد صغيرة موضوعة أمام كل شخص. ثم أحضرت صودا باردة تتكثف فوق زجاجتها المياه من شدة البرودة، وجهزت الجندية الوجبات.

كانت الجندية طويلة القامة، ترتدى زيها العسكرى من قميص وجيبة بلون أخضر داكن، قوامها مستقيم، مفاتن جسدها واضحة من خلال جيبتها الضيقة المشدودة تمامًا على وسطها، مكياجها واضح جميل على كل وجهها، شفتاها حمراوان كالوردة، شعرها مقصر مصفوف ممشوط بشكل جميل فأصبحت فاتنة تسر الناظرين.

وبعد أن انتهت من إعداد الطعام، انصرفت وتركت الكبار وحدهم مع حمزة.

فقال له الضابط الجالس بجواره على يده اليمنى: "كل يا سيد حمزة، كل ولا تقلق."

كانت عيون حمزة تتابع عن كثب تحركات تلك الجندية وهى تخرج من المكتب تتبختر. كان منظرًا نادرًا لحمزة لأنه منذ فترة طويلة لم ير امرأة على هذا النحو الجميل ولا ببشاشة صورتها، بل تعود على رؤية الوجوه البائسة لأشخاص تواجههم المصاعب والشدائد.

كان يمسك بزجاجة الصودا فى يده ينظر هيمانًا إلى الجندية حتى الباب. فناداه الضابط الجالس إلى المنضدة: "يا سيد حمزة"

فانتبه إليه حمزة مشدوهًا: "إيه". فسأله: "لماذا لا تأكل؟"

كان طبق حمزة مليئًا باللحم والسلطة المكونة من الطماطم والبصل والتوابل المرشوشة عليها.

نظر حمزة إلى من ناداه فالتقت عيونهما مع بعضهما البعض فقال له: "كل".

أخذ حمزة قطعة من اللحم ووضعها فى فيه، ثم أخذ الثانية والثالثة، الواحدة تلو الأخرى، ثم أخذ السلطة وأخذ يمضغ فيها على

مهل. ذاق عندها طعم اللحم المشوى شويًا جيدًا ذا رائحة شهية وبالتوابل المناسبة، علاوة على السلطة المتبلة مما جعل الفم يتنشط جيدًا. إنها لحم لها طعم وليست كتلك التى تأتى إليهم من كومبا كومبا لا طعم لها حيث يتم سلقها وتنزع منها شوربتها أكثر من أربع مرات، مرة للجنود وأخرى للطباخين، وثالثة لأصحاب القبعات السوداء، والرابعة للمساجين وهى التى تجدها ماءً أكثر منها شوربة مع قليل من الملح. وشرب من الصودا أربع جرعات يبلّع بها اللحم.

أولئك الضباط سكتوا عن الكلام، وعن الضحك وعن المرح، وليس هذا من عادتهم عندما يلتقون للإفطار. كل فرد كان عندئذ هادئًا يمضغ اللحم ويأخذ الجرعات الخفيفة من الصودا، وكان حمزة بينهم كالفتاة العذراء المشرفة على الزواج، بينما هم تمتلئ الأرائك بأجسادهم السمينة وأكراشهم الواسعة ووجوههم العريضة. وكان زيهم العسكرى مكويًا كيًا جيدًا، والدبابير تملأ أكتافهم.

أما حمزة فكان ارتفاع قامته أقصر من الكرسى الجالس عليه، وفى حالة بؤس نفسى إذ إن صحته متدهورة تمامًا بسبب الجوع الذى تعرض له فى السجن. فأكل كل اللحم الذى كان فى طبقه. وكان يرغب فى المزيد لولا خوفه من الإفصاح بذلك، فهو كالغزال بين الأسود المتربصة به أن يتحرك لتنقض عليه وتقطعه إربًا. انتابه خوف شديد لعدم معرفته سبب الإتيان به حيث هو ليحظى بكل ذلك التكريم من لحم شهى وجندية جميلة تقدمه له ليأكل.

ساد الصمت في المكتب إلا من أصوات الأمواج المتلاطمة على الشاطئ، والرياح القوية التي تسوقها حتى ترتطم بالشاطئ، وتطير معها أوراق الأشجار خارج المكتب، وتجد الرياح طريقها داخل المكتب فتهتز الصورة المعلقة على الجدار اهتزازًا كبيرًا كلما هبت. غرفة المكتب هذه غرفة كبيرة، ويبدو أنها كانت مكان اجتماع صاحب المنزل بكبار الضيوف في عصر السلاطين يتداولون فيما بينهم أسعار القرنفل وجوز الهند المجفف.

حملت الرياح معها داخل الغرفة رائحة نافذة لزهور أشجار المانجو الفجة الموجودة خارج المبنى، بينما بعض الأشجار بدأت في إخراج ثمارها. وكان الموسم موسم الربيع الذي أوشك على الانتهاء ليحل موسم الأمطار الخفيفة.

"يا حمزة" نودي على حمزة.

فزع حمزة لما نودي عليه، لأنه كان سرحانًا. كان العقيد بونجو Bunju يهرش صلعته بصابعه الأوسط، وقال له بازدراء: "لقد مكثت طويلاً في الحبس، وقد عانيت الكثير بلا ذنب."

وقف شعر حمزة واقشعر جسده وهو ينظر إلى العقيد بونجو كيف يهرش صلعته ويخبره بكلام يسمعه وكأنه في منام.

فقال حمزة بصوت خاشع شاعرًا بوجود بارقة أمل: "قلت لهم إننى لا أعرف شيئًا، لكنهم لم يصدقونى."

فاستطرد العقيد بونجو: "تعلم ذلك، وقد قلنا أن من لم يكن موجودًا لا يدخل، ومن كان موجودًا لا يخرج، وإننا سنفرز الأرز بعناية فائقة لنخرج منه كل الشوائب." واستطرد قائلا: "ولكن هناك من أصحابك الذين ذكروا اسمك يا حمزة"

سأله حمزة بثقة: "من؟"

فأجابه العقيد بونجو متوقفًا عن هرش صلعته وهو يفرك فى يديه. ناظرًا إلى حمزة:

"أصدقاؤك ذكروك."

"لا أعتقد أن هناك من ذكر اسمى"

"عجبًا!" بدأ العقيد بونجو يشتاط غضبًا شاخصًا عينيه سائلاً إياه: "أتريد أن تقول لنا أننا كاذبون، أليس كذلك؟"

فأجابه حمزة بهدوء تام وبلا خوف ولا قلق بل بجرأة وشجاعة: "أنتم لستم بكاذبين، ولكن الكاذبين هم من ذكروا اسمى".

فعلق العقيد بونجو: "أنت تعرف أننا لو أردنا قتلك فسنقتلك دون أن يسألنا أحد عن ذلك".

فرد حمزة: "تستطيعون ذلك فعلاً، لأنكم تسيطرون على كل الأمور وأنا لا حول لي ولا قوة"

فعلق العقيد بونجو: "عجبًا! ما كنت أعلم أنك تعرف هذا"

"أعرفه"

هنا تدخل العقيد مابيبى Mapepe قائلاً: "اسمع يا حمزة، نحن استدعيناك هنا للاستعانة بك بأن تساعدنا ونساعدك، ونعطى ونأخذ، فما رأيك؟" سأله ذلك مسترخيًا على كرسيه ومتلمسًا كرشه المرتفع. كان عابس الوجه ترتسم عليه دلائل الوحشية الساكنة فى أعماق قلبه.

اندهش حمزة من هذا القول، بأن يستعان به من قبل أناس قبضوا عليه وسيطروا عليه تمامًا. ثم سألهم:

"ما هى المساعدة؟"

أجابه العقيد مابيبى بصوت هادئ ملىء بالحكمة: "إننا نعلم أنك لست متورطًا، وأنك تعرف المتورطين الآخرين. ولدينا قائمة بالأسماء نسلمها إليك، وقد قمنا بتلفيق التهم ضدهم مع أدلة إثبات تورطهم"

فسأله حمزة: "وماذا بعد ذلك؟"

فسأله العقيد نفس السؤال: "وماذا بعد ذلك؟" واستطرد قائلاً: "ثم بعد امتثالهم أمام المحكمة ستكون أنت شاهد إثبات للنيابة"

فسأله حمزة بشكل فضولي: "مجرد شاهد؟"

فأجابه العقيد مابيبي: "أجل مجرد شاهد"

فتبرم حمزة، وفكر مليًا دون أن يعرف ما ينطق به: م م م م م

ثم سأله: "ولكن كيف أكون مجرد شاهد والحال أننى اعترف بمسئوليتى وتورطى؟"

فقال له العقيد مابيبى: "اترك هذا لنا، إننا نعرف كيفية التلفيق والتصرف فى ذلك."

فسأله حمزة: "كيف ستلفقونها؟"

كان الضباط يظنون أن حمزة سيوافق بسهولة ولكن عندما رأوه يعترض ويمتنع انفعلوا عليه. وقال له العقيد بونجو ثائرًا: "اسمع يا هذا! هل ستوافق أم لا؟"

وحرّك يده إلى خاصرته واستل مسدسًا مختبئًا فى ملابسه ووضعه على المنضدة بقوة قائلاً: "قل! هل ستوافق أم لا؟"

تلعثم حمزة، ولم يعرف بم يجيب، ورأى نفسه مترددًا. فالخياران أحدهما يؤدى إلى النار والآخر إلى الحفرة، فلا يعرف أيهما يختار. إما أن يوافق وبالتالى يورط نفسه فى كارثة مجهولة وإما أن يرفض فيتواصل التعذيب.

فقال العقيد مابيبى له: "لا تقلق يا حمزة! فإن هناك من أصحابك من وافق وسنقوم بإحضارهم أمام المحكمة كل على حدة. فإذا ما وافقوا فإنهم سيكونون شهودًا، ثم نفرج عنهم. فما رأيك؟ هل ستنضم إلى هذه المجموعة؟ ولقد وضعناهم فى مكان مريح يأكلون ويشربون ما لذ وطاب: الأرز المحمر. والشاى باللبن، والخبز، والزبد، والمربى. على كل حال هم مرتاحون."

تشجع حمزة وقرر لنفسه: "ليحدث ما يحدث! إننى لا أستطيع الدخول فى هذا الفخ."

وقف العقيد بونجو منفعلاً رافعًا مسدسه مطلقًا إياه طلقتين فى الحائط مثلما يفعل رعاة البقر عندما يدخلون الحانات لإثارة الشغب:

"ماذا تقول؟"

سادت الفوضى فى المكتب، ولم يعد هناك تفاهم بين الموجودين. اشتاط العقيد بونجو غضبًا، وهدد حمزة بصوت مرتفع قائلاً: "سأطلق عليك النار حالاً." ووقف قابضًا مسدسه بيده وزملاؤه يحاولون تهدئته.

ولبدانته وقصر قامته بدا كالقزم الذى فقد صوابه. امتلأ المكتب برائحة البارود، ولكن سرعان ما ذهبت الرائحة أدراج الرياح الآتية من الشاطئ، وعادت رائحة زهور المانجو الفجة مرة أخرى.

استمر الجميع فى الإمساك بالعقيد بونجو يهدئون من انفعاله الشديد إذ كان من الانفعال يرتعش كالشخص الذى لبسه الجن ويحتاج إلى الزار لإخراجه.

"خذوه إلى غرفة الظلام." أمر العقيد بونجو.

نسى العقيد بونجو نفسه، ونسى أن كل الموجودين معه إنما هم الجبابرة مثله وأن جميعهم أصحاب رتب ونياشين تزدحم بها أكتافهم وصدورهم فكلهم عقداء.

"اجلس أيها العقيد، اجلس أولاً" دعاه لذلك العقيد ميسرة Maisara وهدأه وأجلسه على كرسيه. وكان العقيد بونجو عندئذ وهو أسود اشتد سوادًا على سواده.

تعكر صفو جو الصداقة والكرم الذى كان سائدًا داخل المكتب وتحول الكرم المقدم إلى حمزة من لحوم مشوية ومشروبات رطبة إلى نكد، ودارت عليه الدائرة بأن تحول الكرم الذى كان يرجى منه الإفراج عنه إلى ذنب. عاد العقيد بونجو ومعه مسدسه فى يده مستعدًا لقتله فى أى لحظة، وجلس مرة أخرى عابس الوجه مثل سمك البونجو، مسكين هذا اسم على مسمى.

تصرف الضابط ميسرة تصرف الضابط المثقف، فهو ليس من متسلقى الأشجار المثمرة، وليس فلاحًا حصل على رتبته بجبروته أو انتمائه الحزبى، بل مثقفًا سافر كثيرًا شرقًا وغربًا، ويعرف تمامًا ما ينبغى للعقيد أن يفعله حفاظًا على شرفه. فقام بتهدئة العقيد بونجو وإزالة غضبه. وكان هو الوحيد المؤهل لتهدئة العقيد بونجو، إذ إن الأخير ليس عضوًا متعصبًا لحزبه فحسب وإنما شخصية سياسية بارزة كذلك. وله شعبية كبيرة من أنصاره الخاضعين له خضوع الكلاب التى إذا ما أمرها أن تنبح ضد أحد وأن تهاجمه فلا مناص من التنفيذ فورًا. لكن مع العقيد ميسرة فإنه يستسلم.

فالعقيد ميسرة هو الوحيد الذى يعرف سره ونواياه فى أنه يعمل للوصول إلى كرسى الزعيم، وفى أنه يعتمد على العقيد ميسرة ليساعده فى صعود درجات السلم الموصل إلى ذلك الكرسى.

ساد صمت رهيب داخل المكتب، ولا صوت على الإطلاق إلا لصوت الصورة التى تتخبط على الجدران من الرياح. نظر كل منهما للآخر وربما كان ذلك إشارة متبادلة بينهما، فقام العقيد ميسرة باستدعاء حمزة قائلاً: "نعطيك مهلة أسبوع لتفكر جيدًا فيما قلناه لك. سنتقابل بعد أسبوع."

وجد حمزة نفسه فى دوامة، ولا يعرف ما إذا كان هؤلاء الكبار يريدون حقًا إطلاق سراحه أم أنهم ينصبون له فخًا لا يعرف له مخرجًا، أم أنهم يجعلون منه سمكة Kitatange (١) فيدخل فى المصيدة ليجذب إليها الآخرين ثم يخرج هو منها إلى حال سبيله تاركًا وراءه الآخرين قابعين فيها دون علم لهم بالمخرج! عندئذ قال فى نفسه: "إلا هذا"

كان العقيد بونجو جالسًا على كرسيه فى حالة استرخاء تام مسندًا ظهره إلى الوراء واضعًا يديه على ذراعى الكرسى ناظرًا إلى حمزة نظرة لوم وازدراء وقائلاً له: "سنرسلك إلى الغرفة الظلماء، وعند إخراجك منها يتحتم عليك أن تكون قد قررت لنفسك أحد الأمرين: إما الموافقة على ما قلناه لك وإما مواجهة الإعدام." قال له العقيد بونجو ذلك وهو عابس الوجه مقلبًا شفتيه. فهل له من مثيل؟ إنه ولى العهد الذى سيخلف الزعيم.

---

(١) وهى سمكة من طبعها العمل على إدخال غيرها الشباك والمصائد ثم تعرف جيدًا كيف تخرج هى من كل ذلك دون أذى. ولا ننسى أن زنجبار هى جزيرة فى المحيط الهندى وفيها مئات الأنواع من الأسماك التى لا يعرفها إلا أهلها.

الفصل الثامن

إن الغرفة الظلماء هى سجن داخل سجن، يزج فيها بعتاولة المجرمين ولهذا أطلقوا عليها هذا الاسم. إنها مأوى الهاربين الذين يهربون من حراسهم ويحاولون القيام بالدعاية للحرية. إنها مصير العتاولة الذين يتجرءون على انتهاك أوامر السجن، ويواجهون حراس السجن ويتشابكون معهم بالأيدى. إنها محل الأشقياء وأغبياء السجن الذين يضايقون ويعتدون على السجناء الآخرين هذه هى الغرفة الظلماء.

تحركت السيارة بسرعة بطيئة متجهة صوب الشارع. جلس حمزة فى المقعد الخلفى بين الحارسين اللذين اقتاداه إلى المكتب سابقا. وهو ما زال يفكر فيما حدث له اليوم. زادت السيارة من سرعتها عندما وصلت الشارع وأخذت السرعة تزداد حتى وصلت إلى أقصاها. ولم يمر وقت طويل حتى وصلوا كينواميجو حيث الاستقبال والمدخل لكومبا كومبا. دخل به الحراس محاصرين إياه حصارًا محكمًا حتى أوصلاه حارساه إلى مكتب الاستقبال حيث كان فى انتظارهما حارس واحد. تهامسوا معًا ثم أصدروا الأمر لحمزة "اخلع الملابس"

تظاهر حمزة أنه لم يسمع، وظل ينظر إليهم فوجهوا الأمر ثانية:

"اخلع الملابس" ما كانت الملابس ملابسه أصلاً بل كانت مستعارة، والآن يتم تجريده منها لتتكشف عورته مرة أخرى. أخذ يفكر ويقول فى نفسه: "صدق من قال أن الملابس المستعارة لا تستر عورة." وحتى لو كانت غير مستعارة فإنه كان عليه أن يخلعها أيضا. فهذا هو قانون السجن هنا. إذا ما وصلت هنا فلا بد من تجريدك من الملابس لإذلال إنسانيتك وتقليل آدميتك.

فخلعها حمزة وأصبح كيوم ولدته أمه. وهنا اصطحبه حارس الاستقبال يسير خلف حمزة ومعه سلسلة مفاتيحه التى لا حصر لها محدثة شخشخة عالية. تلك الشخشخة التى لم يسمعها حمزة منذ أيام طويلة، والتى كان كلما سمعها السجناء يقلقون متوقعين قدوم سجين جديد. وها هو اليوم مقتاد لا إلى كومبا كومبا فحسب بل إلى الغرفة الظلماء. وهذه إرادة العقيد بونجو.

إنها غرفة تقع بين غرفتى الإعدام والمطبخ، بابها حديدى، تضربه الشمس طول النهار، جدارها ملاصق لجدار المطبخ، فكل الحطب المشتعل نارًا يصب بحرارته داخل هذه الغرفة، ولذلك فإن طقس الغرفة الظلماء هو الحرارة الشديدة المنبعثة من حرارة الشمس ومن حرارة موقد الطهى وكلها تصب داخل هذه الغرفة على مدار الأربع والعشرين ساعة. ناهيك عن البعوض الذى يتدفق داخلها ليلاً لحرارتها وكأن شخصًا ما قام بشحن البعوض داخلها.

عندما زج به داخل الغرفة كانت الشمس محرقة تضرب بأشعتها الباب مباشرة، وكانت الفاصوليا الحمراء تغلى فى المطبخ وكذلك مياه إعداد العصيدة تغلى على الموقد، وكان الحطب يشتعل. أى أن المطبخ حرارته عالية للغاية. والغرفة ضيقة إذ إن حجمها ٢م٢، ولا توجد تهوية إلا من شباك صغير أعلى الباب الحديدى. لفحته حرارة الغرفة كأنه دخل فرنًا، فالحرارة تلسعه، ومسام جسده تتصبب عرقًا شديدًا، فأصبح جسده ساخنًا متلزقًا كأنه يغلى بعرقه.

ازداد حمزة فزعًا من الحالة التى عليها عريانًا فى مثل تلك الحرارة، ورأى نفسه كالحيوان المحبوس فى قفص ينظر الناس إليه. أخذ يتأوه طوال ذلك اليوم الذى دخل فيه الغرفة. قعد، ثم قام، ثم جلس القرفصاء. ولكن لا جدوى من كل الأوضاع. فإنه إذا ما استند إلى الجدار فإنه يلسعه، وإذا ما جلس على الأرض فإنه ينكوى، وإذا ما وقف فإن قدميه تحترقان فماذا يفعل؟ إنه فى ورطة، إنه فى جهنم الحياة الدنيا. وفى النهاية لم يجد بد من القعود حتى بدأ جسده يتكيف تدريجيًا مع الوضع.

لم يتذوق حمزة الطعام حتى السادسة مساءً، اللهم إلا إذا كان اللحم المشوى التى تفضل بها عليه أولئك الضباط تعنى أنها وجبة لليوم بأكمله. بدأ الظلام يحل والبعوض يتكاثر داخل الغرفة والحرارة تشتعل والجوع يشتد.

ولما جن الليل ظن حمزة أن شدة الحرارة ستتحسن بعد ما غربت الشمس وأن المطبخ سيبرد. ولكن وللعجب اشتدت الحرارة اشتدادًا فظيعًا. كأنها تنفخ من خلال الكير، واشتد ظلام الغرفة دماسة فحق لها أن تسمى "بالغرفة الظلماء". فلا شيء يراه على الإطلاق فيها، وليس هناك من أية فجوة يأتى منها ضوء، والأمل إن وجد ضعيف فى أن يؤتى بطعام. فأيقن حمزة أن الغرفة ليست غرفة ظلام فحسب وإنما غرفة جوع كذلك. مرت عليه تلك الليلة بصعوبة بالغة يعانى طوالها من الحر والجوع والبعوض.

عادة ما تبدأ أعمال المطبخ في الفجر حيث توقد النار التى تجعل من حرارة الغرفة الظلماء جحيما. فأيقظته جلبة الطباخين حركة وصوتا من النوم اليسير الذى غلبه فجرا. وعلى الرغم من أن هذه الحركات أيقظته من النوم الذى غلبه بصعوبة فإنها فتحت له باب الأمل فى أنهم سيعطفون عليه ولو بكوب من الشوربة يسد به رمقه الذى غلبه لمدة أربع وعشرين ساعة. عندها خطر بباله أن ليته وافق على ما قاله له العقيد بونجو. ولو فعل لكان الشاى باللبن والخبز بالزبدة مع المربى "وربما البيض" تم تقديمه له، أخذ يفكر. "بيض؟، يعطوننى أنا البيض؟ إنهم أنفسهم لا يأكلون البيض فى بيوتهم"، كان يحدث نفسه كالمجنون. إنه فى بداية أسبوعه الأول فى الغرفة الظلماء فعلا.

لم ير حمزة شيء من الشوربة ولا حتى ما يشير إلى ذلك حتى العاشرة صباحا. والشمس بدأت تقرع الباب، والقدور على النار تغلى، فازدادت شدة الحرارة فى الغرفة، وازداد معها جوع حمزة فأصبح فى حالة حرجة، واستمر فى حالته هذه حتى الثالثة عصرا. عندها سمع أشخاصا يتجهون نحوه، وسمع العريف أوسى Usi من بعيد يقول بصوت مرتفع متلعثم لهؤلاء الأشخاص : "إنه سيموت جوعا". وعادة ما يزداد تلعثمه حدة عندما يكون تحت ضغط العمل الكثير. سمعهم حمزة وهم يضعون دلوا عند الباب، وانفتح الباب.

بدا العريف أوسى مرهقا، وبصحبته فريقه المكون من السجناء المحنكين والموثوق بهم لخدمة حراس السجون. وكان يرتدى أفرول أزرق أزراره كلها مفتوحة، وصدره مكشوف ويتصبب عرقا. كان قد وزع كل الوجبات على كل السجون وهى كومبا كومبا، وكيتشونجوانى Kichungwani ، وكونديم Kondem، ومركز تعذيب المعتقلين، والآن غرفة الظلام، فهو فى حالة إجهاد كبير، وقد سحب قبعته إلى الخلف على قفاه. وبسبب تلعثمه فإنه عندما يتحدث سريعا يتعذر خروج الألفاظ وترمش عيناه محاولاً إخراجها هكذا : "ه ه هيا اعمل اعملوا كى ن ن ننتهى." قال ذلك لمساعديه بصوت مرتفع متلعثم .

عندما فتح باب غرفة الظلام توارى حمزة بالجدار وانزوى كي يستر عورته، فلقد مضت أيام كثيرة منذ أن انتقل من كومبا كومبا الذى لا تستر فيه العورات، ولم يجرؤ حمزة على أن يقف أمام العريف أوسى وفريقه مكشوف العورة. هذا الأمر بالنسبة للعريف أوسى أصبح من الأمور العادية لأن غرفة الظلام لا تخلو أبدا من سجين أو اثنين أو ثلاثة، وكل من يدخلها لا بد أن يكون عريانًا.

أمرالعريف أوسى مساعديه بأن يغرفوا: "ن ن نصفا" فتم غرف نصف طبق من الأرز وصب عليه مغرفة من الفاصوليا الحمراء، ثم أغلق الباب، وانصرفوا إلى حال سبيلهم.

انقض على الأرز بشراهة كبيرة بسبب ما عليه من جوع شديد، ولكن الأرز لم يسمنه ولم يغنه من جوع، وأخذ يلعق بضع حبات ملتصقة بالطبق.

والآن قد أدرك حمزة ماهية أمل الإفراج عنه وثمنه. إنه للإفراج عنه لا بد أن يرتكب ذنبا وخطيئة، وما أدراك ماالخطيئة ! إنها خطيئة إقحام الأصدقاء فى ورطة قد تؤدى بهم إلى فقد حياتهم، فكر حمزة مليا ثم فكر وقال فى نفسه : "ليسوا على شيء". إنهم يريدون إغرائى كى أتقول على أناس ليس بينى وبينهم علاقة، بل لم يسبق لى مقابلتهم قبل ذلك أو حتى معرفتهم. وأتظاهر أننى أعرفهم وأنهم قاموا بهذا وذاك، وقالوا هذه وتلك، فلن أقبل القيام بذلك. "حاشا لله".

قال كل هذا فى نفسه، ولا أحد معه يشرح له ويسمعه ذلك، فهو بمفرده معزول وبعيد عن أمثاله من البشر. إن معتقل التعذيب وهو للتعذيب أفضل بكثير من هذه الغرفة الظلماء، فكان على الأقل معه دوتو وأحيانا معه العجوز ماتشالى. ولكن هنا! "أعاذك الله! ليس بمكان يأتي فيه مخلوق". وما يسمعه إنما هو صوت الطباخين من على بعد وهم يتخاصمون ويتشاتمون. ومن يراهم إنما هو العريف أوسى وأفراد فريقه عندما يأتونه بنصف طبق وجبة مرة واحدة. لقد أذله الجوع، وأقعده الحر، وامتص البعوض دمه، وأتعبه طول الليل، فاعتلت صحته وتدهورت فأصابته حمى شديدة جعلت عينيه ملتهبتين متورمتين ومليئتين بالعماص لا يرى بهما وكأنهما امتلأتا شطة. أصبح يحسب الأيام الواحد تلو الآخر إذ إن اليوم الواحد فى هذه الغرفة يعادل سنة. واليوم هو اليوم الرابع، وقد أصبح مريضا ومتهالكا ومرهقا للغاية، لا يستطيع أن يحرك أى عضو من جسده، ولا يستطيع أن يتحرك من مكانه. يتضرع جوعا نعم ولكن ليس لديه شهية وأصبح فمه متغير الرائحة.

كانت الساعة تشير إلى السادسة مساء وأوشك المغرب على الإتيان وضوء النهار يتلاشى تدريجيا، وإذا بصوت شخص يستدعيه. اندهش حمزة ولم يعرف صاحب الصوت لأن أحدا لا يعرفه، وإذا به يرى خرطوم مياه رش الحديقة يدخل من الشباك وتم إنزاله داخل

الغرفة حتى وصل إلى الأرضية، وإذا بالصوت يقول: "خذ يا حمزة هذا الخرطوم، وضعه في فمك، واشفط طرفه بقوة! ونفذ بسرعة."

زحف حمزة حتى وصل أسفل الشباك وأخذ الخرطوم وأدخله في فمه، معتقدا أنه سيكون ماء يشكر الله عليه حيث يعاني من ظمإ شديد، فشفط طرفه بقوة فإذا به يتذوق شوربة من خليط الفاصوليا الحمراء مع الأرز بالتوابل المضبوطة. فاستمر في الشفط ، وكلما شفط كلما أتاه المزيد، فعادت إليه شهية الأكل مجددا فاستمر يشفط حتى شبع. وفي النهاية أتى إليه بماء فشربه حتى ارتوى. ثم سحب الخرطوم إلى الخارج على وجه السرعة. وكأن هذا أول يوم يأكل فيه ويشبع منذ أن دخل الغرفة الظلماء. فتعجب من ذلك سائلا نفسه من يا ترى الذي أتى إليه بهذه النعمة وأطعمه إياها بمصاصة. إنه يسمع فقط الناس يمزحون فيما بينهم عن "تناول الدجاج بالمصاصة"، فإنه اليوم لم يأكل الدجاج بالمصاصة ولكن ما أكله بالمصاصة كان الفاصوليا والأرز. من ذا الذي يا ترى يتمتع بهذا القدر الكبير من الإيمان والشفقة في هذا المبنى الذي يتسم جميع من فيه بكل أنواع وأشكال الوحشية؟ سأل حمزة نفسه. لم يستطع حمزة الإجابة. ولما أتى إليه في اليوم التالي بنفس الشوربة واستدعاه باسمه استمع إلى صوته جيدا وشبهه بصوت حمد ماتوبي Hamadi Matope الذي درس معه في مدرسة ماشيموني Mashimoni، وبعد أن تخرج زاول تجارة بيع

التمر. وهذا العمل جعله يتعرض للسجن دائما، فيكون فى السجن لستة أشهر وطليقا لمدة شهر وهكذا أصبحت حياته. خطر ببال حمزة: "أن هذا الشخص لابد أن يكون حمد ماتوبى". تكرر هذا العمل الإنسانى بصفة يومية وفى نفس التوقيت وبنفس الطريقة. أما وجبة نصف الطبق الذى يأتى بها إليه العريف أوسى فهى بمثابة التصبيرة.

تصادف أن يكون اليوم السابع يوم أحد، وكان حمزة ينتظر هذا اليوم بفارغ الصبر، ولكنه لم يكن متأكدا ما إذا كان كبار المسئولين فى السجن سيتذكرونه أم لا.

إنهم ليسوا بمن تجدر بهم الثقة لأنهم قد يحبسون شخصا وينسونه داخل السجن حتى يموت. خطر هذا بباله. وإذا تذكروه فإن العقيد بونجو ورفقاءه من الضباط سيكونون فى انتظاره يعطيهم الرد. فماذا سيقول؟ هل يوافقهم فينعم ويتمتع أم يرفض فيلقى الأذى والعذاب.

ولكن أين هى النعمة والتمتع؟ هل هى فى السجن؟ "ألن تكون كمتعة الكلب عندما يجلس على ذيله؟" سأل حمزة نفسه. وكان مستلقيا على الأرض وكل جسده متعفن من العرق والوسخ. وكان عندها محموما، اشتدت عليه الحمى التى به، وتورمت عيناه أكثر، فلم يعد قادرا على فتحهما جيدا حيث تلاصقت الرموش لتكاثر العماص الأصفر فيها.

كل من فى كومبا كومبا وصلتهم الأخبار بأن حمزة حاليا فى الغرفة الظلماء، وقد تم نقله من مركز التعذيب ليهلك حيث هو. وقد مرت الشهور منذ أن انتقل إلى مركز التعذيب. وعندما سمع الشيخ ماندوندو خبر انتقاله إلى الغرفة الظلماء أمر زملاءه: "فلنقرأ له الفاتحة."

فتذمر شديد وقال: "لماذا نقرأ له الفاتحة؟ ألم يورطوا أنفسهم؟ ألم يدعوا الزعامة الحزبية ويجلبوا لنا الكوارث؟"

فتساءل الشيخ ماندوندو: "لا تتحدث هكذا! إن هذه الكوارث قد حلت بنا جميعا سواء للحزبيين أم غير الحزبيين. ألا ترى أننا جميعا نعانى ونتعذب؟"

فعلق شديد: "لكنهم هم الذين جلبوا لنا كل هذا. إنهم كافرون عتاة."

فقال عبده متحمسا: "فلنقرأ له الفاتحة يا شيخ." واستطرد عبده: "إن ما فعلوه هو فى غاية الأهمية لإنقاذنا مما نحن فيه من بلاء. فكل فرد فى البلد تجده قلقا، فأنت لا تعرف متى سيلقى القبض عليك وتحبس، وإذا ما قلت بعدم وجود سكر أو أرز فى البلد فإنك تحبس، فأى نوع من الحياة هذه؟ لقد أحسنوا عندما اغتالوه، فالخير قد يولد من رحم الشر. إننا ضحايا! ضحايا من أجل أن ينجو الآخرون."

وهنا تدخل ناصر: "إذا كنت تريد أن تضحى، فلتضح بنفسك أنت لأن حياتنا تهمنا، فزوجاتنا وأولادنا يعانون بسبب كارثة جلبها لنا آخرون."

فقال الشيخ ماندوندو: "ولكن حمزة واحد منا، مكثنا معه فى هذه الزنزانة بإحسان، فلنقرأ له الفاتحة." ودعا الله له أن ينصره وينجيه من الشر ويجلب له الخير. فأمّن من أمّن، وصمت من صمت.

كان سرور ينظر إلى شديد بعين الاحتقار معتبرا إياه غير فاهم لما يقول، وسأله: "ما الذى تقوله يا رجل منذ أن بدأت؟" فأجابه شديد بسؤال : "ألم تسمع ما كنت أتحدث عنه؟" فأجابه سرور: "أسمعك تتحدث عن أمور تافهة." وكان سرور وهو يجيبه فى هيئة عملاق الغابة، وكان متكئا على الجدار، مكشوف البطن، صدره مشعر، شعره ممتد حتى البطن، وخليط بين الأبيض والأسود، ولحيته البيضاء تلتف حول وجهه، وشعر رأسه امتلأ شيبا، وفى رأسه صلع لامع. عندما يتحدث ترى له أربعة أسنان مخلوعة فى مركز التعذيب، وما كان لديه من عضلات كثيرة تملأ صدره ويديه قد هوت، وبشرته تجعدت.

" من فينا يقول كلاما تافها ؟" سأله شديد منفعلا، وقد أصبح هزيلا نحيفا، في وسطه قطعة خيش، شعره مجعد، له لحية أسفل

الذقن فقط، عندما تنظره تقول إنه ليس هو شديد الذى تعطرت الزنزانة عندما دخلها بما عليه من عطر. فاليوم تفوح منه الرائحة الكريهة كالجيفة، وأضلاعه يمكن عدها بسهولة، وما عاد له كرش.

"هل أنت تعرف من هم الحزبيون يا رجل ؟" سأله سرور.

"إننى أعرفهم جيدا ، ولا أحبهم على الإطلاق."

"ألا تحبهم ؟" سأله سرور.

"لا أحبهم إطلاقا. وإنهم هم الذين جلبوا كل البلاء للبلاد."

"إن الحزبيين لم يجلبوا أى بلاء، وإنما يريدون تحقيق نظام العدل والمساواة وليس نظام السادة والعبيد."

"أى نوع من العدل والمساواة يريدون! انظر إلى أصابعى." ورفع شديد أصابعه وقال: "حتى الأصابع، لم يخلقها الله متساوية، فكيف يمكن للحزبيين تحقيق المساواة ؟ "

"يا جماعة! بطلوا دوشة، نريد أن ننام." تذمر كوندو مستلقيا بالقرب من دلو الفضلات واستطرد قائلا: "كيف تزعجوننا فى الصباح الباكر هكذا بأصواتكم البذيئة ؟ فسواء عليك، أأحببت الحزبيين أم لم تحبهم فلا فرق. فأنت قابع وباق هنا ولن تخرج أبدا."

"من لا يخرج؟ "سأله شديد، وأضاف: "أنا بإذن الله سأخرج، أما أنت ورفقاؤك الحزبيون فأنتم الذين تبقون هنا."

- "أغرب عن وجهي يا غبى."

- "من الغبى؟ أنا؟"

انقض شديد على كوندو وهو مستلق فدفعه كوندو فوقع على دلو الفضلات، فانقلب ولحسن الحظ كان الدلو فارغا.

تدخل الآخرون وفضوا التشابك بالأيدى الذى كان سيحتدم فى الزنزانة.

كان الشيخ ماندوندو ينظر إليهم مندهشا وفانلته التى يرتديها متسخة، وإزاره الحامل لماركة جابر قد تمزق. وأصبح ضعيفا هزيلا. طالبهم أن يكفوا عن الشجار فيما بينهم إذ إنهم فى محنة وعليهم أن يتراحموا ويدعوا لبعضهم البعض.

كانت تلك الزنزانة كئيبة وكل من فيها مملوء بالاكتئاب من الأعماق. فامتلأت حزنا وشكوى، شكوى لم تجد أذنا صاغية ولا عينا حانية. فهم وحدهم المكتئبون. استمروا يتحدثون حتى نفدت موضوعات التحدث، ولم يعد لهم ما يناقشونه، فتشاجروا. حتى الطبخ فكانوا قد انتهوا من طهى كل أنواع الأكلات. ولم يتبق أمامهم من

الأكلات التى لم يطبخوها سوى المن والسلوى تقريبا. فلا أحد إلا الله يمكنه طهيها. خيم الكابوس على كومبا كومبا، وكل فرد متقوقع على نفسه، والجميع قابع دون أن يعرف أحد مصيره، وكل ما يقال لا يخرج عن كونه مجرد تكهنات. "لعلها هذه، لعلها تلك، ربما اليوم، ربما غدا." والأيام تمر.

أما حمزة فهو قابع فى الغرفة الظلماء ليتدفأ. فلو كان فى الغرفة ثمرة مانجو أو موز نيئة لاستوت وصلحت للأكل، ولكن حمزة لم يدفس هناك ليتدفأ أو ليستوى بل ليتعفن فيتأدب. وهو فعلاً يصبر قائلا: "لعله الآن، لعله بعد حين."

صبر حتى نفد صبره، ورأى يوم الأحد يمر بلا أية إشارة إيجابية. لم يمر عليه أحد إلا العريف أوسى الذى أعطاه نصف طبقه من الأرز فى الثالثة ظهرا. كان يرافقه نفس الفريق من المساجين المحنكين ذوى النفوذ داخل السجن ومن المساعدين حاملين جرادل الفاصوليا وأطباق الوجبات، ويقومون بالمرور فى السجن كله، هم فى المقدمة وهو فى المؤخرة.

عندما فتح الباب بجلبة كعادته رأى حمزة نائما على جنبه الأيمن واضعا رأسه على كفه مكرمشا نفسه كأنه يشعر بالبرد. بدأت تعلو وجهه طبقة سوداء من الوساخة وتمتد حتى بطنه وتسودّه سواد

بائع الفحم. ولأن عينيه مليئتان بالإفرازات الصفراء فإنه عندما فتحهما لينظر إلى العريف أوسى رآه وكأنه واقف خلف ناموسية رآه من على بعد وكأنه يتلاشى وسط شبورة صباحية. فنادى عليه العريف: "هيا استيقظ!"

"أنا مريض يا عريف." اشتكى حمزة بصوت خافت.

"م – م – مريض وتخبرني أ – أ – أنا، وهل أنا د – د – دكتور؟"

ورمى إليه بذلك النصف من طبق الأرز المصبوب عليه قليل من الشوربة وقطعة من اللحم. وأغلق الباب وانطلق لحال سبيله.

كان ذلك اليوم يوم وجبة الأرز حيث يسعد به كل السجناء. وكان هو يوم الأحد، إن الأرز في السجن هو وجبة قيمة، وكل سجين يسميها بما يحب من أسماء. فهناك من يسميها مبونيينيي (mpunyenye)، وهناك من يسميها متي (mtee)، وآخرون يتجرأون ويسمونها نور النبي. وكل هذه الأسماء تشير إلى إجلال الأرز والإشادة به. أما بالنسبة لحمزة فكان الأرز لا يمثل ذلك لأنه تم طهيه بشكل عشوائي الغرض منه أن يملأ المسجونون به بطونهم، وحتى لو قدموا إليه الأرز المحمر بالفراخ ومعه الكثير من الممبار المحمر والسلطات لم يكن ليفتح شهيته للأكل.

اشتدت الحمى على حمزة، وتجاهله العريف أوسى، ولم يستجب لشكواه من المرض. كان يشعر أن هذا هو الموت فى السجن وسيخرج جثة هامدة كما قال له عبده سابقا ، ولكنه تشجع وقال فى نفسه: "ليس شرطا أن يكون المرض سببا للموت."

كان يأمل أن ينظر إليه العريف أوسى بعين الرأفة بعد أن شكى إليه مرضه، ولكن من أين لك بهذه الرأفة داخل السجن؟ فالعمال والموظفون فيه يتم تعيينهم على الفرازة حيث يجب أن تتوفر فيهم شروط منها: عدم الإنسانية، وعدم الرحمة والرأفة، والقسوة والوحشية. والقلة النادرة منهم لا تتوفر فيهم هذه الشروط فيتعاطفون، ولكن العريف أوسى ليس من هذه القلة.

وكيف ينظر إلى حمزة بعين العطف وهو فى نظرهم خائن. والخونة يقاطعهم الناس والحراس فى ذلك المعتقل يعتبرونهم نجسا، يمتنع التحدث معهم ، ويحرم الضحك معهم، وأية إشارة تعاطف معهم تجلب لصاحبها المتاعب. والمصيبة هى أن الأعمال الوحشية ضدهم تعتبر من صميم الواجب الذى يستحق المكافأة. والمسئولون والحراس بمعتقل التعذيب لديهم السلطة المطلقة لضربهم ضربا مبرحا بل وشنقهم وإعدامهم. أما المسئولون فى كومبا كومبا فليس لديهم مثل هذه السلطة إذ إن سلطتهم تقتصر على إمطارهم بوابل من الألفاظ النابية والشتائم، وأحيانا يصفعونهم.

لا أحد ولا اثنين من أيام الأسبوع. فالأيام مرت مخلفة وراءها حمزة يتعفن داخل الغرفة الظلماء. اشتدت عليه الحمى، حتى فقد النطق ولم يعد قادرا على إبداء الشكوى من مرضه. أحضر إليه العريف أوسى وفريقه الوجبة وانصرفوا. لم يستطع حمزة تناول الوجبة. وكل ما فعلوه عندما أتوا إليه هو أنهم أخذوا وجبة البارحة ووضعوا وجبة اليوم. حتى وجبة القليل من العصيدة التى وضعوها له فى الغرفة رآها مقززة ولم يقبل حتى أن يشم رائحتها. تعذب حمزة داخل الغرفة على مدى اثنى عشر يوما. وفى اليوم الذى أتوا فيه لإخراجه كان حمزة منهارا لا يستطيع تحريك أى عضو من جسده.

الملابس المستعارة التى ما كانت كافية لستر عورته وجدها حيث خلعها فى الاستقبال. وعندما ارتداها لم يعرف كم من الوقت ستستره. كان لابد من الإمساك به من جانبيه ليقوم كالطفل الذى مازال يتعلم القيام، والحال أن عينيه متورمتان، وجسده مهدود وقذر تفوح منه رائحة كريهة. رفع أحد الشخصين يده اليمنى والآخر يده اليسرى وعلقاه على كتفيهما. وعندما خرجا به إلى الخارج جاءت أشعة الشمس منفجرة في وجهه كالبرق لأنه منذ أن زج به فى الغرفة الظلماء لم ير ضوءًا على الإطلاق لدرجة أن عينيه لما تأقلمتا على الظلام أصبح ما يراه أمامه هو ساتر من ضباب مظلم، ولكن سرعان ما انقشع هذا الساتر الضبابى عندما ضربته الشمس وضربه ضوؤها فى وجهه فانتشر الضوء فى كل مكان أمامه.

جروه كمن يجر متاعا له ممطرين إياه بوابل من الألفاظ النابية والشتائم الفظيعة أثناء إعادته إلى معتقل التعذيب أى يعيدونه من حيث أخذوه من هناك ذلك اليوم، ذلك اليوم الذى كان فيه معززًا مكرمًا حالقًا لشعره مزينا بملابس جديدة، ولكنهم حاليا يجرونه كمن يجرون جثة، لأنهم لم يحققوا هدفهم إذ رفض حمزة تماما تحقيق مأربهم فقاموا بتعذيبه بما فيه الكفاية، وتم تنفيذ حكم العقيد بونجو فيه بالحجرة الظلماء. والآن يتم إعادته إلى معتقل التعذيب لينتظر ما هو أدهى وأمر.

الزنزانة كانت هى هى ولكنه رآها اليوم كالجنة. كأنه أخرج من النار الموقدة إلى جنة النعيم يأكل فيها التين والأعناب. وعلى عكس ما كان يتوقعه من أنه سيجد دوتو يلعب معه الدومينو ويعلمه لعب الشطرنج ويحكى له ما تعرض له فإنه وجد الزنزانة فارغة، لا شيء فيها سوى الحصير المتهالك ودلو الفضلات. وكذلك عندما دخل معتقل التعذيب ظن أنه فى معسكر للسحرة والمسحرين وأنهم أصبحوا بكمًا معتوهين داخل الزنازين. وكان لا يسمع التحركات النشطة للطباخين التى كانت تبدأ من الفجر وحتى الليل لبعده عنها. وكانت هذه التحركات بالنسبة له إشارة إلى وجود حياة حتى وإن كانت ضنكا، لأن هناك من تكيف مع هذا الضنك وأصبح جزءا من حياتهم اليومية. وهؤلاء يجدون متسعا من الوقت أن يبتهجوا

ويبتسموا. وكان هذا يثلج صدر حمزة إذ إن الابتهاج والضحك دوما يعطى وميضا من الآمال الطيبة له. ولكنه ضحك ليس كضحك عتاولة التعذيب، فهؤلاء ضحكاتهم وحشية وقاسية، لأنهم يضحكون للدماء ولأرواح البشر وذلك كالسحرة عندما يضحكون لروح الفرد المقتول قربانا.

غياب دوتو عن الزنزانة زاد من شعور حمزة بالوحشة ووطأة الانفراد. لقد اشتاق إليه منذ فترة وكان يتمنى وجوده ليدلكه ويطيبه ويهدئه. وجاء المغرب واشتدت الحمى فجاءته تهيؤات أنه يرى أشياء وهى أصلا غير موجودة. وهذه التهيؤات هى ما قد حلت على دوتو فأصابته بحالة من الهيستريا والقلق الشديد. فكان يرى أشباحا من المخلوقات العجيبة كالغيلان تلتف حوله وتهتف ضده. فامتلأت الزنزانة من نسيج خياله رعبا وخوفا من الغيلان والأشباح التى أوجدها هو بنفسه وألبسها أرواحا وأشكالا أرعبته رعبا تملكه، وأصبح يتشنج ويصيح صيحات الاحتضار.

كان العجوز ماتشالى وهو نوبتجى الحراسة ذلك اليوم جالسا على الكرسى وحيدا يحيك طاقيته. كان يمسك بكعب الطاقية ويطرزه مستخدما أعوادا خشبية. وكان هذا العمل يزيل عنه ما هو فيه من وحشة المكان فى المعتقل. وعندما يعسعس الليل يدخن السجائر بشراهة الواحدة تلو الأخرى. وعندما ينتهى من الحياكة يفضل قراءة

فصل من فصول كتاب المولد النبوى للبرزنجى. وعندما تجيئه نشوة يردد أبياتا من الهمزية. كان يتمتع بصوت عذب مؤثر. مما جعل الكثير من السجناء يحبونه أن يكون هو النوبتجى ليستمعوا إلى صوته الجميل. إنهم يحبونه عندما يغنى فقط وليس عند مسكه الكرباج يجلد به. وعندما كان يفعل ذلك لا تحسبه أنه وحده الذى يسهر لمنتصف الليل يغنى ويمدح ويصلى ويسلم على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى صحابته.

صيحات حمزة أفزعت العجوز فظن أن الخونة يقتل بعضهم بعضا فى الزنزانات فنهض مسرعا ومعه الكشاف واتجه صوب الزنزانات حيث اشتدت الصيحات حدة. فتح باب الزنزانة وأضاء الكشاف فوجد حمزة يتشنج كالمخنوق قائلا: "إنهم قادمون، إنهم قادمون." ولما سأله العجوز: "من ؟" أجابه: "إنهم قادمون، هاهم هاهم قادمون."

أدرك العجوز مانشالى أن حمزة مصاب بحمى شديدة بلغت مرحلة حرجة. أغلق الباب وتركه كما هو يواجه مصيره، إن كان سيموت فليمت، وإن كان سيشفى فليشف. ما يهمه هو أن تنتهى نوبته وينصرف إلى بيته.

وما إن تنفس الصبح حتى ركب دراجته وذهب إلى بيته منهيا بذلك نوبته الليلية، مسلما السجن إلى من يخلفه، ناسيا تماما ما جرى لحمزة.

سمعت تأوهات حمزة فى كل الزنزانات طوال الليل. وكل فرد تخيل ما تخيله عما يجرى لحمزة. فالبعض اعتقد أنه يتعرض للتعذيب فقط ولا علم لهم بموضوع الحمى. ظنوا أن الهدنة التى سادت بالمعتقل مؤقتا قد ولت وأن عمليات التعذيب قد بدأت مجددا، وأنها لم تعد تمارس بالنهار فحسب بل بالليل كذلك. كانوا جميعا قد سمعوا عما تعرض له حمزة، فاعتقدوا أنه عاد للتخلص منه. فانتابتهم حالة من الخوف والقلق لتحل محل التهدئة التى سادت ولو لفترة وجيزة.

بدأت جلبة دخول وخروج الساعة العاشرة صباحا فى المعتقل، حيث تفتح وتغلق البوابة الرئيسية، وحيث يكتظ المكتب بالأفراد، وحيث يسمع وقع النعال العسكرى على الأرض بشدة. وعندما أحسوا بباب الزنزانة يفتح تأكد لهم أنهم أتوا هذه المرة لاصطحاب حمزة إلى مكان مجهول للتخلص منه وإلى الأبد.

عندما دخلوا الزنزانة التفوا حوله وجعلوه وسطهم، وهو نائم لا يعرف أمر الكوابيس والأحلام المزعجة التى طاردته طوال ليله دون أن يذوق طعم النوم. التفوا حوله وكأنهم يريدون إقامة حفل زار له يستعيد به صحته وعافيته. ´كان اثنان منهم يرتديان الزى العسكرى، واثنان آخران الزى المدنى. كان قصيرهم أبيض اللون بدينا بعض الشىء، وجهه مستدير، شفتاه رقيقتان تدلان على أنه متحدث لبق عند التحدث فى أمر ما. كان برتبة نقيب حيث الدبابير

الثلاثة على كتفيه، وكان إذا ما تحدث تحدث بهدوء، واضعا يده على جنبه عندما يشرح شيء ما. وكان يعلق برقبته جهاز قياس درجة حرارة جسم الإنسان لمعرفة ما يجرى داخل الجسم، أما الضابط الثانى فكان طويل القامة، أسود اللون داكنا، بثلاث دبابير على ذراعه الأيسر. كان حاملا لحقيبة مليئة بالأدوية والأجهزة الطبية المختلفة. كان هو المسئول عن حمل حقيبة الطبيب رمضان وهو طبيب وقور محترم فى الجيش. درس الطب فى الصين. وبسبب خبرته وكفاءته كانوا فى الجيش يشبهونه بالأطباء الصينيين. وحتى الصينيون أنفسهم كانوا يقولون عنه أنه يأكل الثعابين والضفادع (مثلهم).

"ارفعوه" طلب الدكتور رمضان.

ثم رفعه وإجلاسه، عندئذ استيقظ. وعندما أراد أن يفتح له عينيه انفتحتا جزئيا نظرًا لتراكم الإفرازات الصفراء فيهما، انحنى الدكتور رمضان، ولمسه بيده فإذا به يلمس العفونة، فأخرج منديلا من جيبه يمسح به ما علق بيده، وأمر بقياس درجة حرارته.

فتح حامل الحقيبة حقيبته وأخرج منها المقياس ووضعه تحت إبط حمزة، وتركه لثوان معدودة، ثم سحبه وعرضه على الدكتور رمضان، فلم ينطق إلا بالتمتمة " م ن ن ن" وأمر: "هيا احضر لى هذه الحقيبة". تم إحضارها، وفتش فيها، وأخرج منها علبة مليئة بالأقراص،

وأخذ أربعة أقراص وأمر بالماء وأعطاها كلها لحمزة الذى تجرعها بكوب من الماء. وانصرف الجميع وتركوا حمزة يتعافى.

واستمر الدكتور رمضان ومساعده على مدى أسبوع يعاودان زيارة حمزة لعلاجه حتى بدأت حالته الصحية تتحسن تدريجيا.

الفصل التاسع

كانت كلمات العقيد بونجو تهب كالعاصفة فى إذنى حمزة: "عندما نخرجك منها يجب عليك عندها أن تكون قررت أحد الأمرين: إما الموافقة على ما قلناه لك وإما الإعدام." كلمات كانت تزعج حمزة بشدة وخاصة كلما تصور صورة العقيد بونجو وهو يهذى ويضرب باللكمات على المنضدة بغضب شديد كالمجنون.

رأى حمزة نفسه مع الوحشة المحيطة به داخل زنزانته كأنه وسط زوبعة أحاطت به ودفعته إلى الاستسلام. كان ضعيفا هزيلا لاحول له ولا قوة، وازداد سوادا على سواد فأصبح فريدًا فى سواده، فاقدا للصحة، يابس الجسد، مترهل العضلات، مما أدى إلى ظهور التجاعيد الكثيرة تحت خديه. فبدى كالعجوز الشمطاء. وكانت شفته السفلى منتفخة كأن بها وشم، وكان شاحب الوجه مما أظهر عظام جمجمته وقد غارت عيناَه.

حمزة لم يعد حَمزَةَ الذى كان يتمتع بالقامة الطويلة والجسم الممتلئ والبسمة الدائمة، فصار اليوم فى المعتقل هيكلا مختل العقل تائها، وكأنه هو الرجل المخبول المجنون. ساده الرعب فى الزنزانة مع الاستسلام. فأصبح فى انتظار قدومهم إليه ليأخذوه ويقتادوه إلى

حيثما يريدون ليفعلوا به ما يشاءون. فأى صوت يصدر من داخل المعتقل كان يكفى أن يطير روحه ويصيبه بالهيستيريا ظنا منه أنهم قادمون. فعاش فى حالة قلق ليلا ونهارا من جراء أعمالهم الوحشية التى لا نهاية لها فى المعتقل، فأصبح يفزعه أى شىء. وهذه الحالة هى التى أذهلته وجعلته يتصرف كالمخبول.

تفننوا فى أساليب جعل الإنسان يعيش فى حالة من الهيستيريا ليحولوه من إنسان عاقل إلى مختل عقليا. تركوا حمزة كما هو فى الحبس الانفرادى، وفى خوفه وقلقه، دون أن يعرف كم من الوقت يقضى، كالذى ينتظر الموت. وهم يدخلون ويخرجون. وعند دخولهم يرفع العقيد بونجو صوته عمدا. وعندما يخرج يترك حمزة وراءه مضطربا، لأنه عندما يدخل يراه حمزة عزرائيل قد دخل المعتقل دون أن يعرف من سيقبض روحه عند خروجه.

كانت هذه الحالة من الرعب هى السائدة فى كل الزنزانات داخل المعتقل. فلا أحد من المسجونين لم يتوجس خيفة من ذلك، فامتلأت النفوس اكتئابا. مرت الأيام وانصرمت الشهور وهم فى الذل يعانون. وكان ذلك على عكس ما يتوقعون تماما، لأنهم ظنوا يوم القبض عليهم أن الإفراج عنهم بعد بضعة أيام وينتهى الأمر. ولكن هيهات هيهات! إنهم مازالوا موجودين قابعين، يشاهدون الأهوال والفظائع.

تبددت فيما بعد حالة الخوف المتمثلة فى ترقبه لهم أن يأتوا ويأخذوه فى أى لحظة وصار مستسلما فقط. مضى شهر كامل دون أن يرى أحدا يأتى يأخذه ويقتاده إلى حيث القضاة الذين يصدرون أحكاما على حسب هواهم.

كان حمزة قد انتهى فى ذلك اليوم من احتساء الشوربة الصباحية مسندا ظهره إلى الحائط خاملا. فأخذته سنة من النوم أخرجته من السجن وذهبت به إلى بيته مباشرة.

وفى بيته رأى نفسه مستلقيا ومسترخيا على سريره بشكل مريح فوق مرتبة من ماركة دانلوبيلو (danlopilo)، رابطا على خصره إزارا نظيفا معطرا برائحة ذكية بعد تبخيره ببخور العود فى اليوم السابق. وضع سيجارة فى فمه وأخذ يدخنها على مهل مع نفخ دخانها بمزاج عال. كانت الزوجة بأحد أركان الحجرة، والحجرة مفتوحة، فكان هواؤها يخلخل الدخان ويخرجه من الشباك. كانت الغرفة تفوح منها رائحة البيض الذى تقليه خديجة فى المطبخ منشغلة بإعداد طعام الإفطار لزوجها، بينما الطفلة منخرطة فى البكاء.

"نجا! نجا!" صوت بكائها ملأ البيت.

"يا للدوشة! الطفلة هذه تبكى كثيرا! لم أر لها مثيلا!" تذمرت خديجة.

"أعطيها ثديا ترضع، ربما هى جائعة." أمرها حمزة وهو مستريح وسيجارته فى فمه.

"إنها ليست جائعة فلقد انتهيت فى التو من إرضاعها، وإنما تهوى البكاء فحسب" قالت خديجة.

"إذا احمليها" أمرها.

"كيف أحملها وأنا مشغولة! تعال أنت واحملها، أم أنك تجلس عندك وتصدر الأوامر فقط."

حملت خديجة الطفلة، وذهبت بها إلى الغرفة، ووضعتها بجانب والدها قائلة: "هاهى ابنتك. لاطفها."

أخذها حمزة، وقام بتدليكها وتدليكها ثم احتضنها مداعبا إياها: "تشو تشوو تشو تشووو".

ابتسمت الطفلة فإذا بالنابين باللثة السفلى قد نبتا. رفعها حمزة إلى أعلى مدللاً إياها أكثر من مرة مغنيا لها:

"السلامة لك يا بنيتى فلا تبكى

فإذا ما بكيت فإنك باللّه تبكينى

تذكرى إياى باللّه وحدتى..."

كانت خديجة متكئة على الباب فرحة ناظرة إلى زوجها مستغرقا فى مداعبة ابنتها متسائلة: "يا للعجب! إنك كذلك تعرف كيف تهدئ الابنة."

اندهش حمزة لأنه ما كان يعرف أن خديجة تنظر إليه، فطلب منها الإتيان لأخذ ابنتها.

"دعها معك قليلا، ألا ترى كم هى فرحانة."

وذهبت خديجة بدورها وجلست بجوار حمزة. فأحس حمزة باكتمال الفرحة. جذب خديجة إلى صدره فأخذت تلاطف شعر صدره، ثم رفعت رأسها ونظرت إليه. فلما نظر إليها هو الآخر ارتخت عيناها وارتعشت شفتاها، فاشتعلت نار الحب، وامتلأ وجهها رغبة جنسية مع زوجها. فجذبها حمزة إليه ليقبل شفتيها، فإذا بالباب ينفتح بجلبة ويؤمر:

"البس ملابسك!"

عندما انتبه وجد الطفلة غائبة، ووجد خديجة التى كان يتمنى ضمها إلى صدره ليقبلها قد اختفت، ورائحة البيض المقلى قد تبخرت، ولم يعد هناك إلا رائحة البراز الكريهة فى المرحاض قد طغت.

كان النوم مازال يملأ عينيه، وصورة خديجة ما زالت ماثلة أمام عينيه كسراب. وكان على الباب ثلاثة نفر ذوو أجساد ضخمة واقفين بوجوه عابسة لا ترى فيهم مثقال ذرة من رحمة.

كان قد طوى ملابسه جيدا ووضعها حيث يضع رأسه عند النوم. تأكد له عندئذ أن الوقت قد حان وأن نهاية أجله قد اقتربت. تخيل الحالة التى سيجد عليها العقيد بونجو وهو على أهبة الاستعداد لإصدار حكم الإعدام عليه أو باستبقائه حيا. وفى نفس الوقت جاءته أفكار أخرى جعلته يسأل نفسه: "ولكن كيف؟ كيف يتأتى لبشر مثلى أن يصدر حكما بإنهاء حياتى. فمن يكون ذلك العقيد بونجو؟ إنه ليس الذى يحيى ويميت، إن الذى يحيى ويميت هو الله." فلبس حمزة ملابسه ليقابل الواقفين على الباب. امتلأ وجهه عزيمة قوية، وولى الخوف الذى كان يتملكه داخل الزنزانة وطار كغبار تذروه الرياح.

استعجلوه قائلين: "أسرع"، لكنه كان فقط ينظر إليهم. كان أحدهم طويل القامة جدا لدرجة أن رأسه كادت أن تصطدم بسقف الباب، وكان صغير الوجه، غائر العينين، تعتقد حين ينظر إليك أنه لا يراك جيدا، صغير الأنف، رقيق الشفتين، رفيع الشارب، على وجهه لزوجة العرق، واسع الصدر، مرتديا قميصا أبيض فضفاضا بنصف كم، يحمل آثارعرق كثير عند الإبط، يرتدى سروالا طويلا

أخضر اللون، يجذبه بين الفترة والأخرى إلى أعلى ليضبطه على خصره. نظر إلى حمزة بعينيه الصغيرتين، فنظر إليه حمزة. عندئذ أصدر أمرا لحمزة: "هيا اخرج هيا لنذهب."

عندما خرجوا مشوا مشى العساكر خطوة عسكرية. حمزة فى المقدمة وهم من ورائه مع صحبة جنديين من الجيش أحدهما على الميمنة والثانى على الميسرة حاملين بندقيتيهما وأصبعهما على الزناد ومنتظرين إصدار الأمر بإطلاق النار عليه. اتجهوا به إلى كومبا كومبا حيث مكان تعذيب حمزة فى الغرفة الظلماء. تلك الغرفة التى رأى فيها الويل حتى أصبحت حالته كما هى هزيلا ضعيفا للغاية. ظن أنهم آخذون إياه إلى كومبا كومبا ليشووه بالحرارة وليقدموه وجبة على مائدة البعوض مع تقديم نصف طبق من العصيدة له، تلك الوجبة الوحيدة لليوم الكامل.

كانت درجة حرارة الجو بالخارج مرتفعة، والهواء الذى يهب لم يساعد فى تلطيف درجة الحرارة، كما أن ظلال أشجار المانجو المنتشرة فى الساحة لم تلطف هى الأخرى من درجة الحرارة. كانت هذه الأشجار مثمرة تفوح منها رائحة قوية تنتشر فى كل مكان. مروا بجانب السور الضخم المحيط بالسجن فنظر إليه حمزة وكيف تم تشييده بهذه الضخامة ليحيط بمعتقل المجرمين الأشقياء، وكيف أنه

يحيط بعالم آخر يختلف عن ذلك العالم الملىء بالمتعة والراحة والرفاهية وكل ما هو من شأنه إشباع الشهوات الإنسانية. عالم آخر لمن كتبت عليه لعنة الرب فأخذهم وقذف بهم فيه ليذوقوا عذابه وهم فى الدنيا.

لما وصلوا إلى بوابة السجن وجدوا السيارات كثيرة أمام البوابة، وكان من غير المألوف أن يكتظ هذا المكان بالسيارات. وفوق ذلك كله ما كانت السيارات سيارات عادية وإنما هى لكبار المسئولين ولأصحاب النفوذ فى السلطة، فكانت مصفوفة بجوار بعضها البعض نظيفة لامعة بينما سائقوها واقفون هنا وهناك. حمزة يعرف بعضهم، وعندما نظر إليهم غيروا من وقفتهم متظاهرين بعدم رؤيته خشية أن يلاحظ أحد معرفتهم للخائن. فتظاهر حمزة هو الآخر بأنه لم ير أحدا منهم، وهو أصلا ليس فى حاجة لرؤيتهم قائلا لنفسه: "إنهم لن يغنوا عنى من الأمر شيئا."

امتلأ الاستقبال بالجنود ذاهبين آيبين منشغلين انشغالا غير عادى خوفا من هؤلاء الكبار. كان الوضع يختلف تماما عما كان عليه فى اليوم الذى مر فيه مقتادا إلى الغرفة الظلماء حيث كان الجنود ساعتها فى خمول. ولكن هاهم اليوم فى حيوية ونشاط وأناقة فى زيهم العسكرى النظيف المهندم تماما. كان الكبار جميعا داخل

مكتب رئيسهم يحتسون الشاى. فأدرك حمزة أن اليوم يوم عسير دون أن يعلم ماهية الكارثة التى أتوا بها.

عندئذ أصدر جندى أمره: "فليصطفوا جيدا هناك."

كان الجمع فى الساحة حاشدا مما أحدث حالة من الارتباك فى ذلك اليوم حيث تم تجميع كل من كان فى الزنزانات متكدسين من المساجين، ولا أحد يعرف الهدف من هذا الحشد. وصدق ذلك العربى فيما قاله بأن هذا الحشد أشبه بيوم الحساب حيث يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

كانت أصواتهم فى المكان كدوى النحل المستنفر داخل المنحل، فإن النحل عندما يستنفر يكون عنيفا وشرسا. ولكن نزلاء كومبا كومبا هؤلاء بما أصابهم من بلاهة فلا عنف ولا شراسة لهم. إنهم يرجون الرحمة والعفو.

إنهم سود الوجوه، تراهم شعثا غبرا، صحتهم متدهورة للغاية، ملابسهم قذرة متمزقة، على بعضها آثار الدم الواضح، عيونهم شاخصة كالتى أصابها الحول. انضم حمزة لهذا الحشد وعيناه تنظران هنا وهناك دون توقف. ومن على بعد رأى صديق عمره فرج. أخذ يحرك نفسه حتى اقترب منه. كان فرج واقفا كبقية المتواجدين نحيفا كالعصا لا يقوى على الوقوف. كان قميصه عليه

بقع من الدم، وسرواله مربوط على خصره كى لا يسقط منه، وجهه مليء بالجرب، تحول شعره المجعد إلى شعر مسترسل خفيف من الجوع والمحن وكأنه مدهون بمادة "الباندورا." سأله حمزة وهو يمسك بيده ليمنعه من الترنح: "هل أنت مريض؟" نظر فرج إلى حمزة وابتسم وقال له: "مرضت مرضا شديدا."

ألقى حمزة ببصره إلى ذلك الحشد، وكلما وجه بصره فى ناحية ما يقع بصره على شخص يعرفه. فرأى ناصرا منزويا هناك، وشديدا فى وسط الحشد متكورا كالمريض بالحمى. إنهم كثير كثير، فبعضهم كانوا معه فى نفس الزنزانة عند حبسه فى كومبا كومبا، وآخرون ما رآهم منذ أن أخرجهم العريف فاتاكى Fataki من زنزاناتهم للاستحمام، ومجموعة ثالثة قيل أنه تم القبض عليهم، وها هو يراهم اليوم لأول مرة.

لما التفت حمزة وراءه رأى الشيخ ماندوندو يحرّك شفتيه. أدرك أنه بالتأكيد يقرأ دعاءه. نظر أحدهما إلى الآخر وعندها همس الشيخ ماندوندو قائلا: "إن شاء الله سيكون كل شىء على ما يرام." جلباب الشيخ ماندوندو الذى دخل به كومبا كومبا وهو ناصع البياض يلمع أصبح عبارة عن قطعة من الخرق فقرر أن يلقى بها على كتفه كأنها كوفية لأنها ماعادت صالحة للبس. كانت أفئدتهم هواء، الكل

يفكر في نفسه، لقد سئموا ماهم عليه من هلاك وإذلال، ويرجون من الله أن ينظر إليهم اليوم بعين الرحمة. واليوم ربما هو وقت فرز الأرز لاستبعاد الشوائب منه. كان ما يجول في خاطر الواحد منهم يختلف عما لدى الآخر، منه الخير كما هو الحال عند الشيخ ماندوندو ومنه الشرعند آخرين.

توقفت الضوضاء التي كانت تسود الساحة فجأة وخيم عليها صمت رهيب وكأن إبليس مر بالمكان. فقد بدأ رجال معتقل التعذيب يدخلون واحدا تلو الآخر، في خيلاء وتبختر. أول من دخل منهم كان ذلك الذي ذاع صيته بالوحشية والقسوة في المعتقل، كان متوسط القامة، ولكن بسبب إعجابه بنفسه وخيلائه واستعراضاته كنت تحسبه رجلا عملاقا. فعندما كان يمشي يرفع كتفيه، ويبرز شفتيه، وكان بذلك يظهرسفاهته. كان يرتدي قميصا أبيض اللون بكم طويل ثني أسورته فوق يديه، وسروالا أزرق اللون، وحذاءً مدببا من المقدمة أسود اللون، واضعا يديه في جيبي سرواله وهو يمر وسط الحشود، ناظرا إليهم كأنهم دمى في مسرح العرائس. ويسير خلفه كبار المسئولين أصحاب السلطان والنفوذ منتشرين في جميع أنحاء الساحة. كان يرتدي نظارة شمسية سوداء تحميه من أشعة الشمس، متظاهرا بجبروته. اتجه إلى سرور وهو على حالته هذه وناداه: "أيها الرفيق"

نظر سرور إليه غاضبا للغاية وعابس الوجه، وجالسا كالذئب بلحية بيضاء تحيط وجهه مع اشتعال الرأس شيبا إلا من مقدمة الرأس ذات الصلع الامع. نظر إليه سرور وتذكر ذلك اليوم الذى تم فيه اقتياده إلى المعتقل لأول مرة، وكيف أن هذا الشخص انهال عليه ضربا مبرحا باستخدام سياط شجر الجوافة دون رحمة أو رأفة. ولما سقط على الأرض أخذ يركله فى وجهه حتى كسر له ثلاثة أسنان فتركه أدرد.(*) كان سرور جالسا محشورا وسط الحشد مرتديا نفس الفانلة التى ألقى القبض عليه بها. حاول كثيرا عند غسلها أن يزيل منها آثار الدم عليها ولكن بلا جدوى، فكانت البقع الدموية ظاهرة بوضوح. أمره ضابط الأمن وهو واضع يديه فى جيبى سرواله سائرا بكبره وخيلائه مصدرا صفيرا بشفتين كشفتى النمس قائلا: "قف."

ونادى الضابط على العسكرى الحارس فجاءه مسرعا وأمره: "خذه إلى زنزانته" قاده العسكرى إلى الزنزانة هناك فى كومبا كومبا، وبذلك رفع اسمه من قائمة من سيفرج عنهم عندئذ. وفى الوقت الذى كان هذا الضابط يمشى مستعرضا عضلاته وكبرياءه كان المساجين جميعهم قلقين متوترين لا يعرف أحدهم من سيلحق بسرور.

(*) أدرد ، درداء ، جمعها درد وهو من سقطت أسنانه . (المترجم)

ألقى حمزة بنظرته إلى أقصى الساحة فرأى ناهودا Nahoda جالسا مع خلفان Khalfani وسويدى Suedi وعنبر Ambar وماجوتو Majuto. إنه يعرفهم جميعا جيدا. وجميعهم من جزيرة بيمبا Pemba. إنه يراهم لأول مرة. فتعجب قائلا: "يا!" وهو فى حالة التعجب هذه إذا بمن ينادى عليه : "أنت!"

فتساءل حمزة: "من؟ أنا؟"

"نعم أنت" أجابه ذلك الضابط الأمنى الذى مازال يتحرك مختالا فى الساحة. فمن مثله؟ "ارجع إلى زنزانتك." فتم اقتياد حمزة إلى زنزانته فى كومبا كومبا. واستمر الضابط على نفس الوتيرة ينتقى واحدا تلو الآخر حتى وصل العدد إلى ثلاثين شخصا. بقى الآخرون فى الساحة منتظرين نهاية لهذا التجمع الملىء بالإثارة والخوف والقلق وكذلك الأمل. ولكن من منهم يتملكه الخوف؟ ومن منهم يتملكه القلق؟ ومن منهم يتملكه الأمل؟ اليوم هو اليوم. والأرز فى منخل يتم غربلته لتنقيته من الشوائب.

ولا أحد من الحشد المحشود فى الساحة يمكنه أن يتكهن بمصيره خيرا كان أم شرا. فقاموا بالقراءة والدعاء، وكان الشيخ ماندوندو جالسا متربعا كما يجلس شيخ الكتاب على الحصير، مرتديا فانلته الممزقة تماما والمليئة بالثقوب. والكرش الكبيرالذى دخل به

كومبا كومبا اختفى وأصبح خطا مستقيما، شاحب اللون أصفر، كأنه يعانى من سوء التغذية، على خصره إزار مشدود من ماركة جابر، واضعا جلبابه على كتفه لعدم صلاحية ارتدائه، ماسكا طاقيته فى يده، ويبدو عليه القلق الواضح مع تحريك شفتيه فقط بالدعاء.

حدث صمت مفاجئ عندما دخل ثلاثة من رجال المكتب إلى الساحة وخيم السكون على الساحة كلها، جلس ضباط الأمن الذين غرتهم القوة وملأهم الكبر على عتبة أحد الأكواخ الذى يتناول فيه المساجين الوجبات. جهزت منضدتان وحولهما ستة كراسى. تواجد الضباط الثلاثة ورافقهم كل من مدير مصلحة السجون، ومدير سجن كينواميجو، وصاحب السعادة ماصابورى Masaburi. الأخير رجل عملاق بدين واسع الصدر ممتلئ اليدين مثل غصن شجرة جوز الهند، رأسه صغير، عيناه حادتان، يدغدغ فى عود قصير من الكبريت فى الفك الأيسر من الفم، يرتدى قبعة رمادية اللون مسحوبة إلى الأمام حتى جبينه، وقميصا بنيا متدليا خارج سرواله الكاكى، توسط زملاءه ناظرا إلى الأسرى المحتشدين أمامه وهم ينظرون إليه بعين الاستعطاف. جلس على يمينه كل من صاحب السعادة بانزى Banzi وصاحب السعادة مانزى Manzi، وعلى يساره جلس مدير مصلحة السجون، ومدير سجن كينواميجو المقدم كيسودا Kisuda. كان زى مدير مصلحة السجون زيا موحدا لامعا مكويا كيا متقنا،

حزامه أسود اللون يمر في وسطه وبين كتفيه، يلمع مثلما يلمع حذاؤه، وتملأ الدبابير كتفيه، وقبعته محكومة تماما على رأسه، حاملا عصا قصيرة سوداء اللون وقد وضعها على المنضدة ويعبث بها.

الصمت! ماكان يسمع هو صوت الغربان فقط التى كانت تنعق بالخارج.

"كيف حالكم؟" سألهم صاحب السمو ماصابورى.

"نحن بخير" أجاب الجميع فى صوت واحد فدوى صوتهم كالعاصفة.

"حسنا" هنأهم صاحب السمو ماصابورى. ونظر إلى زملائه أصحاب السمو، وتهامسوا ثم هزوا رؤوسهم متفقين على شىء ما.

أخرج عود الكبريت الذى كان يدغدغ فيه من فمه وألقاه جانبا وقال: "اليوم جئ.." ولم يكمل جملته ونظر إلى مدير مصلحة السجون وهمس له بشىء، فضحك الجميع بصوت مرتفع، فالتفت ثانية إلى الحشود أمامه، تلك الحشود المتلهفة لسماع بيانه الذى سيدلى به. نظر إليهم ولكن لشراسة نظرته لم يتمكن من قراءة عيونهم وقلوبهم ليعلم مدى الضنك والخوف الذى يتملك هؤلاء الخلق المحتشد أمامه كبارا وصغارا ومرضى وهلكى.

"اليوم جئنا لنوفى بوعدنا" قال صاحب السمو ماصابورى.

"وعدناكم بأن المتورط لا يخرج، وغير المتورط لا يدخل." واستطرد قائلا: "لقد انتهينا من عملية الفرز، وجميع الموجودين هنا أمامى..." توقف ونظر إليهم، فصمتوا جميعا خافقة قلوبهم.

"أنتم جميعا الموجودون هنا ماكنتم..." وقبل أن ينتهى من كلامه صاحت الحشود قائلة: "الحمد لله! شكرا يا صاحب السمو!، الله أكبر." المهم كل واحد كان لديه ما يقوله فسادت الفوضى وانتشرت الصيحات فى كل مكان بالساحة.

تلك الوجوه التى كانت مسودة ومكتئبة منذ لحظات تحولت فجأة إلى وجوه مبتسمة ومبتهجة، فأصبحت الساحة كالحديقة المليئة بالزهور المتفتحة فى وقت واحد. فرحوا وتعانقوا، وقدموا الشكر، ونسوا أنهم مازالوا داخل السجن ولم يفرج عنهم بعد.

"الهدوء الهدوء" أمرهم مدير مصلحة السجون ضاربا المنضدة بعصاه الصغيرة لتهدئتهم.

" أعلنا بوضوح وبصراحة أننا لن نظلم أحدا ولن نضطهد أحدا." استمر صاحب السمو ماصابورى فى الإدلاء بتصريحاته.

سادت حالة من الصمت مجددا مع اطمئنان قلوبهم لامتلائها بآمال الإفراج عنهم، والخروج من تلك المحنة. أصبحوا متأكدين أنهم لن يموتوا بالداخل فيخرجوا محمولين فى قطعة من الحصير جثثا هامدة. وأن الحرية التى كانوا يدعون الله بها ليل نهار بالأوردة المحفوظة والأذكار المأثورة قد اقتربت. فلقد استجاب الله دعاءهم، وكما كان يقول الشيخ ماندوندو بعد كل دعاء: "قبول إن شاء الله، قبول إن شاء الله."

"أنتم الآن سيفرج عنكم، ولكن قبل كل شىء هناك كلمة موجزة لكم من مدير السجن" أخبرهم صاحب السمو ماصابورى.

عندئذ وقف المقدم كيسودا بينما أصحاب السمو جالسون فى هدوء تام ناظرين إلى من أمامهم وكيف انتابتهم هيستريا الفرح.

المقدم كيسودا رجل فى مقتبل عمره وهو المدير لهذا السجن من عدة سنوات، فهو كبير هذا السجن كله، وهو بطل الأبطال والمقدام فى سحق أى سجين يحاول التصرف بهمجية، نحيف الجسم لكنه قوى، ترتسم على وجهه الجدية والتجهم فلا يعرف الابتسام، صوته جهورى ذو نبرة حادة. فالتزم الجميع الصمت ناصتين إلى قوله: "ستخرجون بهدوء خال من الفوضى، ستذهبون أولا إلى الاستقبال، ليتسلم كل منكم أمتعته، وبعدها تتوجهون مباشرة إلى بيوتكم، لا نريد هرجا ولا مرجا."

انصرف فى المقدمة أصحاب السمو، وتبعهم كبار رجال الأمن المرافقون لهم. تم تشغيل السيارات وتحركت بهم تاركين وراءهم حيرة المفرج عنهم فى ذلك اليوم، فهم مرتبكون لا يصدقون، كانوا كمن ابتلعهم الحوت ثم لفظهم، البعض لا يرغب حتى فى استلام أمتعته من الاستقبال، فخرجوا منتشرين لكل وجهته. استقبلهم أهلهم بالترحاب الحار والزغاريد الخافتة مخافة أن يقال أنهم مبتهجون بينما الشعب كله مكظوم لاغتيال الزعيم.

فكان اليوم يوم من اشتهى أكلة ال visheti ومن اشتهى أكلة ال katlesi ومن اشتهى أكلة ال vipopoo ومن اشتهى أكلة mikate ya chila(*). كان هو يومهم الذى يستحقون فيه أن تعد لهم كل هذه الأكلات الشهية فيأكلوا ويشبعوا حتى يستكفوا منها، وينسوا وجبة كومبا كومبا. وأن يقوم أهلهم بالدعاء لهم بأن ينجيهم الله من هذه المحنة وغيرها.

اليوم قام ست مائة وخمسة وخمسون شخصا اكتظ بهم سجن كومبا كومبا بمغادرته. وأصبح شبه فارغ، ليس فيه إلا حمزة وزملاؤه الذين يصل عددهم إلى تسعة وعشرين، منهم عشرة فى زنزانة رقم (٦) وخمسة عشر فى زنزانة رقم (٧). فقلّ الهرج الذى

(*) كلها أكلات محلية مشهورة.

كان سائدا داخل الزنزانات نهارا. وأصبح كومبا كومبا كالبهو، زنزاناته تنادى على الثلاثين المتخلفين فيه إنها فارغة، إنها فى انتظار أصحابها من المستهدفين لتشريفها.

فى الزنزانة رقم (٦) التقى مجددا كل من حمزة، وسرور، وكوندو بالآخرين لبدء مرحلة ثانية من حياتهم فى كومبا كومبا. والآخرون ماكانوا غرباء حيث سبق لهم التعارف وهم خلفان، وعنبر، وسويد وكلهم من جزيرة بيمبا.

كانوا جميعا فى حالة يأس لما شاهدوا زملاءهم يخرجون طلقاء بينما هم فى غياهب السجن اللعين من جديد. ليس هذا فحسب وإنما متهمون بالتورط المباشر فى اغتيال إنسان غير عادى. فهم يواجهون الموت الحقيقى.

كان كوندو جالسا وسطهم مسندا ظهره على الحائط، مختلفا عن ذلك اليوم الذى اقتيد فيه إلى السجن، حيث كان يومها شابا يافعا وسيما. أما اليوم فقد بهت وجهه، وغارت عيناه، وبرزت جمجمته، واصلعّ شعره الذى كان يحب دائما تمشيطه، كان يرتدى الشورت الذى وزع له داخل السجن، مكشوف البطن، ناظرا إلى سرور، سائلا إياه: "هل سنخرج؟"

"من كتب له الخروج قد خرج، ونحن هنا باقون" أجابه.

"إلى متى: "

"إلى يوم يبعثون"

"يعنى أننا لن نخرج؟" سأله كالمتطفل.

" ماذا دهاك يارجل! كيف تسأل هذا الهراء؟ قلت لك من كتب له الخروج فقد خرج!"

نظر حمزة إلى كوندو ولاحظ أن كتفيه أصيبا بالوهن، وأنه فى حالة يأس، ولم يعد فاتنا جذابا، تعثرت الآن حياته.

"عجبا يا سرور! كيف بك ترهب صاحبك هكذا؟" تساءل حمزة وهو نائم على حصيرته فى ركن قريب من الباب معتلا صحيا بسبب الحمى التى أصابته ولم يبرأ منها تماما.

فاعترض عليه سرور: "أرهبه؟" وسأله سرور: "ماالذى تراه يا حمزة؟"

"إننى أرى أن هذا الفرز لم ينته بعد، وإننى واثق أننا سنخرج"

"ولكن ليس اليوم ولا غدا ولا بعد غد ولا بعد بعد غد"

"أجل، إلا أننا فى النهاية سنخرج"

"إننى أقول لك إننا لن نخرج" قالها سرور مؤكدا.

كان عنبر جالسا في مواجهة حمزة وجها لوجه في الركن الآخر من الزنزانة. رأسه مغطى كلية بالشعر المجعد تماما وبالسواد الشديد. تحيط لحيته بوجهه كله، ومتواصلة مع شاربه الذى يغطى شفتيه.

صدره ممتلئ، عضلاته مفتولة حتى بطنه، يغطى صدره بالكامل الشعر الأسود، يبدو وكأنه ملاكم في انتظار القضاء على خصمه فوق الحلبة. كان يبدو قويا وأن محن وشدائد كومبا كومبا لم تتمكن منه ولم تؤثر عليه بشيء.

قال عنبر بهدوء موجها عينيه إلى السقف: "لما نمت بالأمس، رأيت في المنام شخصين دخلا السجن، أحدهما ضخم عملاق، يتجاوز طوله سور السجن كالجنى، والثانى صغير قزم." هنا أنصت الجميع مستمعين إلى عنبر الذى استمر قائلا: " كان العملاق يحطم بوابات هذا السجن الواحدة تلو الأخرى حتى وصلا إلى هنا في كومبا كومبا، ثم بدأ العملاق يكسر أبواب الزنزانات الواحدة تلو الأخرى. وكلما كسر بابا يقوم القزم بالدخول فيها لإخراج من بداخلها." استمر عنبر في حديثه الهادئ هدوء قارئ الفنجان: "استمرا هكذا حتى انتهيا من إخراج جميع من كانوا بالسجن. فخرج الجميع وتركوا السجن خاويا." انتهى عنبر من قص رؤياه وصمت وهو على نفس الهيئة من توجيه عينيه إلى السقف.

ساد صمت الجميع لبرهة، ثم تساءل خلفان: "هل لدينا النبى يوسف هنا فى السجن ليفسر لنا هذه الرؤيا؟"

"لسنا فى حاجة إلى النبى يوسف، فها أنذا أقوم بتفسيرها." أجابه كوندو، وقد بدأ الآن يتنشط بعض الشيء، وتعلو البشاشة وجهه: "هذان الشخصان هما داود وجالوت." قالها كوندو مبتسما يهرش صلعته: "وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بين داود وجالوت اتفقا معًا على أن يتوجها إلينا فى كومبا كومبا."

" لكن داود وجالوت فشلا فى التفاهم بعد انتهاء الحرب بينهما فتقاتلا حتى قتل داود جالوت." قالها حمزة.

"أليست الآن هذه رؤيا، والرؤيا تأتى عكسية." قالها كوندو.

"إذا كان الأمر كذلك فأنا الذى سأقوم بتفسير هذه الرؤيا." قالها سرور.

"إن الشخص العملاق هو صاحب السعادة ماصابورى وإن القزم هو رجل الأمن القصير الذى كان يتجول هنا وهناك فى الساحة." التفت الجميع مستمعين إلى تفسير سرور لرؤيا عنبر.

"إن صاحب السعادة ماصابورى هو من قام بتحطيم وتكسير جميع بوابات هذا السجن وأخرج كل المعتقلين فإن رجل الأمن

القصير ذلك وهو القزم صاحب الوجه المشابه للنمس قام بتصرفات عكسية، وبدلا من إخراجه للمعتقلين من زنزاناتهم قام هو بإعادتهم ثانية، إنهم نحن، ألا ترون كيف سارت الأمور عكسيا؟" فسر سرور ذلك وهو يبتسم ابتسامة عريضة وقال: "فلن نخرج أبدا."

"لماذا تتسم أفكارك بالتشاؤم فقط يا سرور؟" سأله خلفان. فأجابه سرور: "كيف تفكر فى الخير وأنت فى موضع الشر، هل تعتقد أن هناك خيرا فى هذا المكان الذى نحن فيه؟ إنه مكان الشر الخالص. هل تظن أن هؤلاء الأشخاص عندهم مثقال ذرة من خير؟ هل يمكن لأهل الخير أن يعاملوا إنسانا مثلهم هكذا؟" وقام بخلع فانلته الممزقة وكشف لهم ظهره ليروا امتلاءه بآثار الجلد الغائر في معتقل التعذيب. قال حمزة مهدئا: "اسمعوا، لا تخمنوا، إننى عندما أقول إن عملية الفرز مازالت جارية فإننى أعى ما أقول تماما." توقف حمزة قليلا ناظرا إلى سرور ثم استطرد قائلا: "وأعتقد أننا جميعا سنكون متهمين وسنمثل أمام المحكمة، بمعنى أن هناك أشخاصا تم إعدادهم ليكونوا شهودا علينا لصالح الحكومة. هؤلاء الأشخاص الآن فى مكان آمن يأكلون ما لذ وطاب من الأرز المحمر بالفراخ، وليسوا مثلنا نأكل البطاطا ليل نهار."

فاعتدل عنبر فى جلسته وتوقف عن النظر إلى السقف وسأل حمزة "أنمتثل أمام المحكمة؟"

فأجابه حمزة: "نعم"

"بأى تهمة؟"

"وبأى تهمة نحن محبوسون هنا؟"

فقال سرور: "هل تظن أن هؤلاء الناس لديهم مدة لاقتياد أحد إلى المحكمة؟ لا أظن، إنهم سيأتون يوما ما بليل لإخراجنا، ثم يطلقون علينا النار جميعا، فلا محكمة ولا يحزنون."

كان فرج مستلقيا فى آخر الزنزانة قريبا من دلو الفضلات وقد ساءت حالته يستمع كيف يفسر كل منهم رؤيا عنبر محاولا فك ألغازها وكأنه خبير فى تفسير الأحلام ويحمل ليسانس القانون من جامعة لومومبا بموسكو.

فطبقا للنظام الجديد للمحاكم فى الوطن، وهو النظام الذى من خلاله أنشئت المحاكم الشعبية ينظر إلى خبراء القانون مثل فرج بعين الريبة على أنهم نصابون ومحتالون، ومن ثم كان فرج عاطلا. فكان إذا استيقظ فى الصباح يلبس ويرتدى رابطة عنقه ويتسكع فى شوارع المدينة، يسأل الناس نقودا، يطلب من هذا مائة شلن ومن ذاك خمسين شلنا.

كان محبا للخمر ولكنه لا يقدر على شرائها. فبعد تسوله هنا وهناك يذهب إلى متيبورا Mtipura ليشرب المسكرات المحلية. وكان غموس أكله لا بد أن يكون لحم الأخطبوط المسلوق، وكان هو نفسه يسميه زوكوسكى "Zukuski" . وهناك قابل كابيرا Kapera الرجل الكبير فى إدارة الأمن الذى استأجره بمكافأة شهرية قدرها مائتى شلن مقابل تجميع الأخبار عما يقوله هذا ويفعله ذاك.

وفى يوم من الأيام تقابل فرج وكابيرا وجها لوجه وقال له فرج: "اسمع! دعوا هذه الأمور الفارغة عما يتحدث به الناس من الصغائر فى أن فلانا يقول لا يوجد سكر وآخر يقول لا يوجد أرز، وانتبهوا، فإن هناك مخططا يحاك لاغتيال الكبار."

وفوق ذلك جاءه شخص فى بيته يوقظه من قيلولته قائلا له: " هناك مؤامرة تحاك فى كيتوبى Kitope لاغتيال الكبار." ولكن كابيرا لم يهتم به وتجاهله واستبعد حدوث ذلك، فهو منشغل فى متابعة من يقول لا يوجد سكر ولا يوجد أرز. وفى اليوم الذى تم فيه اغتيال الزعيم كان فرج من بين الأوائل الذين تم إلقاء القبض عليهم. فتم استجوابه مرات عديدة وتم تعذيبه حتى فقد الوعى. ولم يكن يعرف أكثر مما قاله لكابيرا. وهاهو إلى اليوم قابع فى زنزانة رقم (٦) منزويا بجانب دلو الفضلات، من يراه لا يعرفه، فقد أصبح هيكلا عظميا ولم يعد هو فرج، بينما كابيرا يتباهى بنفسه فى الشوارع.

لذلك قال فرج: "إننى أوافق حمزة، إذ يمكن الامتثال أمام المحكمة ولكن الأهم هنا ليس المثول أمامها وإنما الكيفية التى بها تدار المحكمة."

"قضية، قضية." قال سرور مازحا "انظروا إلى القضاة أنفسهم! بعضهم بائع للسمك جاءوا به من السوق! فهل هذه ستكون محاكمة عادلة؟"

نظر فرج إلى سرور مندهشا. فالأمر عند فرج هو أنه ليس من الضرورى أن يكون القاضى هو من يرتدى الباروكة والعباءة السوداء الفضفاضة. لذلك قال: "ليكن من يكن، فالقاضى هو من يميز الحق من الباطل."

"وهل تعتقد أن القضاة من الشارع يميزون الحق من الباطل؟" سأله سرور. "ستسمعهم يستجوبون الإنسان: هل ترى أولئك؟ ويشيرون إلى المارة خارج المحكمة، لم لم يؤت بهم هنا فى قفص الاتهام؟ ولم أنت هنا؟ هذه هى أسئلتهم. فهل تعتقد أن أمثال هؤلاء الأشخاص عدول؟!" استطرد سرور.

"إن هذه القضية لن تكون هزلية، فهى ليست قضية سرقة دجاجة، أو التلبس بحمل زجاجة مسكر، وإنما هى اغتيال الزعيم." قال فرج "فإذا تمت الإدانة فهى الإعدام حيث ستكون قضية خيانة."

ولما جاءت الساعة الخامسة مساء، عادت الحركة إلى كومبا كومبا حيث جلبة وضوضاء المسجونين العائدين إلى زنزاناتهم من أعمالهم الشاقة، فجميع الزنزانات التى هجرها من أفرج عنهم اليوم قد عادوا إليها وملأوها إذ إنها أصبحت مسكنهم الذى تأقلموا على الحياة فيه، لأنهم أدركوا أنهم وهم فيه لا يفكرون فى أى شىء آخر أكثر من الشغل الشاق.

أما أولئك القابعون فى الزنزانة رقم (٦) ورقم (٧) فإنهم يفكرون فى أشياء أخرى تماما. إنهم يفكرون فى قضية الخيانة. فى الصباح يسود الهدوء أركان كومبا كومبا حيث يكون المسجونون فى الخارج ولا يبقى إلا مسجونو الزنزانتين السادسة والسابعة منكسى الرؤوس مكتئبين. وفى المساء تدب الحركة عندما يعود المسجونون داخلين زنزاناتهم. فليس وراء نزلاء السادسة والسابعة فإن ينظر أحدهم إلى الآخر من الصباح حتى المساء، ويفسرون كل حدث حسب هواهم، فإذا ما مرت سحلية تجد خبيرا يشرح لك المغزى من هذا المرور، وإذا ما نعقت بومة تجد من يشرح مغزى هذا النعيق. إنهم وقعوا فى اليأس، وارتبطت أفكارهم بالخرافات. وبعضهم ألصق لنفسه حرفة الدجل والشعوذة فقاموا يضربون الرمل ويفسرون منازل النجوم والشمس والقمر والمريخ والزهرة وغيرها.

ماكان حمزة فى حاجة إلى مشعوذ ولا إلى طبيب ماهر. فكل تفكيره ينصب حول قضية الخيانة. كيف ستكون؟ كيف سيتم إعدادها؟ ما الافتراء الذى سيحدثه من تم إغراؤهم بالخداع وأجبروا على الموافقة عن طريق التعذيب حتى وافقوا على ماوافقوا عليه.

كان فرج أيضا منشغلا بنفس الموضوع، ويحاول تحليله قانونيا: "إذا سألونى كذا فسأجيبهم بكذا." أما سرور فإنه لم يعتقد أن الدعوى سترفع من الأصل، ويعتبر الجميع سذجا. وكان كوندو مستلقيا على ظهره واضعا رجلا على الأخرى لا يكترث بشىء سواء أكان بخصوص من يشعوذ بضرب الرمل أم بمن يتأهبون للذهاب للمحاكمة. وعادت إليه حالة الحيوية ونأى بنفسه عن الواقع وأخذ يغنى أغنية مبارك موينشيخ Mbaraka Mwinshehe :

"انتفض الأخوال ، وأتوا إلى حفل الزفاف

فأين المهر ، و لم لم نحصل عليه بعد..."

كان يحفظ أغانى مبارك جيدا بكلماتها وألحانها ونغمات آلاتها الموسيقية، وكان يقلد كل هذا بصفير يصدره لدرجة تجعلك تظن أن فرقة سوبر فولكانو الموسيقية تعزف بكامل أطقمها داخل الزنزانة.

أما أولئك المتخوفون من أخبار اقتيادهم للمحاكمة فقد اعتبروا كوندو مستفزا لهم لتجاهله المحنة التى تمر بهم. إنهم مازالوا يتذكرون ما تم التصريح به فى معتقل التعذيب سواء أكان حقيقيا أم غير حقيقى لتضييق الخناق عليهم.

الفصل العاشر

مر شهران عليهم فى السجن بمثابة سنتين. إذا طلعت الشمس ظنوا معها أن النهار لن ينتهى، وإذا ما غربت ظنوا أنها لن تشرق ثانية. كانت الأيام طويلة عليهم، لا تمر إلا ببطء شديد، حتى أن المقدم كيسودا عطف عليهم بأن أخرجهم أثناء النهار ليجلسوا أمام ساحة كومبا كومبا بدلا من تركهم في الزنزانات، فيتشمسون ويتحركون هنا وهناك سيرا على الأقدام داخل الساحة، ويمكنهم ذلك من نشر حصيرهم فى الشمس لقتل الحشرات من بق وقمل لا حصرله، وليغتسل البعض وليحلق البعض للبعض. ففى مثل هذا الوقت من النهار لا يوجد فى السجن أحد سواهم إذ إن الآخرين يكونون فى مواقع أعمالهم الشاقة، وعمودها الفقرى هو الزراعة. ومنهم المحظوظون الذين يتم إرسالهم إلى أعمال معمارية لبناء شقق كبار المسئولين. فى ذلك اليوم أظهرت الشمس بوادر الخمول ففشلت فى السطوع نظرا لتلبد الجو بالغيوم الكثيفة، لدرجة أنهم لما أخرجوا من زنزاناتهم فى العاشرة صباحا كانت السماء مازالت ملبدة بالغيوم، إشارة إلى أن الأمطار ستهطل. وكان الجو جو خمول وهم مجتمعون فى مجموعات وسط الساحة. فى ذاك اليوم لم يرغب أحد فى الاستحمام أو فى نشر حصيره .وانكمش البعض انكماش مريض الحمى.

"ما رأيك لو حصلت على زجاجة ويسكى فى جو بارد كهذا ؟ قال حمزة لفرج مازحا لعلمه بمدى حبه للخمر.

"ليس بالضرورة ويسكى، بل تكفى زجاجة من خمر التمر."

"ثم إن التمر نفسه يجب أن يكون بالمكونات التى قمت أنا بإعدادها فى ذلك اليوم بالمنزل. هل تتذكره؟" فأخذ حمزة يذكّر فرج بجلسات الشرب التى كانت تجمعهما دوما فى الأيام الخوالى التى يسميانها بأيام الحرية، عندما كانا أعزبين.

"بأن تأخذ زجاجتك من التمر، ثم تضعها فى سلطانية، ثم تقوم بخلطها بخمر من ماركة مارتينى، ثم تخلطها بسائل ثمرة جوز الهند بقدر ما يخرج من ثمرتين أو ثلاثة، ثم تضع قطعا من برتقال غير مقشور لإزالة رائحة التمر، وياحبذا لو أضيف قليل من الأناناس فإن الأمر سيكون أكثر من رائع، ثم تملأ ذلك بقطع من الثلج."

"عندئذ يكون عندك الشراب المعروف باسم "punch" الذى ترتقى نشوته تدريجيا ومرحليا." قال فرج.

كان خلفان جالسا بجوارهما يستمع إليهما يذكر أحدهما الآخر بأيام المتعة فابتسم.

وأضاف حمزة: "وإذا تمكنت النشوة منك فإنها لا تغادرك سريعا حتى إذا استيقظت صباحا فستجد نفسك مازلت فى حالة من النشوة."

"وللتخلص من هذه النشوة يجب عليك أن تشرب حساء الخضروات "البرش" كما كانوا يسمونها فى روسيا." قالها فرج ولعابه يسيل حيث أصبح من عادته أن يسيل لعابه عندما تأتيه سيرة المشروبات المختلفة من الخمر، فتجد سيل لعابه يملأ فمه ويصبح كنافخ الناى، وتساءل فرج: "هل نسيت تصرفاتى عندما كنا نعد المشروبات مع جميع غموسها؟ ألا تتذكر شرائح اللحم التى كان يحضرها إلينا راما جوبو "Rama Gobo" .

"تلك كانت أيام المتعة، كانت الحياة حلوة كالعسل، التمتع كان يحيط بنا، حيث الخمر والنساء والموسيقى." قال حمزة ذلك بينما فرج ينظر إليه ويتذكر تلك الأيام. "ولكن انظر كيف انقلبت علينا الدنيا كالمصباح الذى أطفئ فجأة! فقد كنا حتى وقت قريب فى النور نتمتع بجميع متع الحياة، والآن أصبحنا فى الظلام لا نرى شىء إلا الضنك والمحن والعذاب."

"كيف لا ترى شيئا؟" سأله فرج.

"ماذا ترى أنت يا فرج؟"

صمت فرج صمتا رهيبا ناظرا إلى الباب حيث البوابة المؤدية إلى الاستقبال. كان ينظر وكأنه يرى شىء رؤية عينية وهو مذهول ومندهش ومستغرب. فقال لحمزة: "اسمع"

"ماذا؟" سأله حمزة.

"ألا تسمع شيئا؟"

فطأطأ حمزة أذنيه: "أسمع أصوات صفارات من بعيد."

"إنها أصوات الصفارات. أعتقد أن هناك لصا يطارد."

"فمن ذا يكون هذا اللص الغريب الذى يأتى ويسرق فى السجن؟" سأله حمزة.

اقتربت أصوات الصفارات أكثر فأصبح يسمعها الجميع. اقتربت أكثر وأكثر حتى أصبحت داخل السجن، فدبت حالة من الفوضى فى كل مكان، وتمت معها إعادة المسجونين إلى زنزاناتهم، وكانوا هم قد أعيدوا لزنزاناتهم من قبل حارسهم الذى تملكه قلق شديد.

جاء المسجونون من مواقع أشغالهم الشاقة وهم يساقون كالأبقار، والحراس يدفعونهم دفعا ويصيحون فيهم، مطلقين الصفارات. وعندما وصلوا كومبا كومبا أدخلوا زنزاناتهم بجلبة، وأغلقت الأبواب فورا. وظل نزلاء الزنزانتين (٦) ، (٧) مندهشين متسائلين: "مالجديد؟"

لم يستطع عنبر أن يصبر، فوقف يختلس النظر من ثقب الباب، ذلك الثقب الذى لم يثقب ليرى منه الخارج بل ليرى منه الداخل. فلم يستطع رؤية شيء سوى أنه رأى مختلسا آخر يختلس النظر من ثقب باب الزنزانة المواجهة له. فسأله عنبر: "ما الخطب؟"

"هرب ثلاثة مساجين" أجابه.

فعاد عنبر أدراجه وجلس على الحصير جلسته المفضلة ناظرا إلى سقف الزنزانة.

فسأله كوندو والحال أن زملاءه متعطشون لسماع ما قيل له من الزنزانة المواجهة: "أى رؤيا رأيتها اليوم فى المنام؟"

"اليوم ليست رؤيا بل هى الواقع الذى وقع بالفعل، لقد هرب ثلاثة مسجونين."

"ثلاثة هربوا؟!" سأله سرور. "هاهم الرجال حقا، إنهم ليسوا مثلنا قابعين هنا كالأغبياء." أشاد بهم وهنأهم ورأى أن هذا هو المثل الذى يجب الاحتذاء به. إنه لم ينم طوال الليل من التفكير والإمعان فيه. توصل إلى أنه يمكنه الهرب. بدأ فعلا يخطط بالتفصيل لتنفيذ الهروب، هروبا يكون الأول من نوعه، لا ينمحى من ذاكرة كل الموجودين داخل هذا السجن. فما أن أشرقت الشمس حتى توصل إلى خطته التى سماها "قطع الأحراش."

قطع الأحراش كانت هى خطة الهروب التى أبدعها سرور لتكون طوق النجاة لهم. وطبقا للخطة فلن يكون هروبا تقليديا كالذى يفعله السجناء الآخرون. فهؤلاء السجناء يكونون طوال النهار خارج السجن فى أعمالهم الشاقة، ومن السهل جدا مغافلة الحراس وخداعهم للهرب مباشرة وبلا عودة. أما سرور وزملاؤه فإنهم قابعون دائما أبدا داخل السجن.

لذلك كان من الضرورى البدء فى تنفيذ هذه الخطة من داخل السجن، ليس هذا فحسب وإنما يجب اشتراك الجميع فيها. اخترعها سرور ومازالت تشغل عقله، ويحاول أن يبحث عن معاون من داخل زنزانتهم ليبدآ معًا فى الإعداد.

"من؟ من؟" أخذ يفكر. "عنبر، خلفان، حمزة." تمحصهم واحدا واحدا لتقييم مدى قدرتهم واستعدادهم، ليست القدرة على تحمل العذاب والإرهاب، فهذه فعلا لديهم، ولكنها القدرة على افتعال الأحداث والتمرد لمغافلة الحراس. نظر إلى زونجا Zonga . إنه متواجد معهم داخل الزنزانة كالحشرة. فمنذ أن زج به إلى الزنزانة لم يتحدث إلى أحد، ويتقلب ذات اليمين وذات الشمال على حصيرته طوال اليوم بين نائم ومستيقظ. إنه كثير النوم. فما إن يضع رأسه على الأرض حتى يستغرق فى النوم كسمكة البونو.

كان دائما ما ينظر سرور إلى زونجا وهو يتقلب على حصيرته ذات اليمين وذات الشمال نائما ومتيقظا، وكأنه لا علاقة له بقضية الخيانة على الإطلاق، فرأى أن هذا الرجل هو الشخص المناسب لخطته هذه لأنه رجل صامت لا يتلفظ ببنت شفة، وكانت علامات الشؤم ترتسم على وجهه، ويبدو معها أنه رجل عنيد. وكان من السهل جدا لسرور أن يتحكم فى مثل هذه النوعية من الرجال ويسيطر عليهم. فما أكثر هذه النوعية من الناس فى الميناء حيث يعمل سرور، نوعية المعاندين والمشاكسين والأشقياء، نوعية عمل معها سرور فى الميناء على مدار عشر سنوات. فهو يبحث عمن يتصف بالجرأة والعناد "إذ كيف يمكنك الهروب من السجن إذا لم تكن جريئا وعنيدا؟" سأل نفسه.

كان يتحين الفرصة والوقت المناسب لمفاتحة زونجا فى الموضوع منتظرا أن يراه سامح الوجه لأنه دائما عابس الوجه، فاعتاد على هذا العبوس لدرجة أن بشرة وجهه تجعدت تجعد جلد الركبة. عندئذ يخبره بخطة قطع الأحراش، وهى خطة الهروب التى ستنجيهم مما هم فيه من محنة.

ما كان الأمر سهلا لسرور فى أن يتقرب إلى زونجا بسهولة بحكم طباعه هذه وتطويعها للقيام بالتوريط فى عملية الهروب هذه.

وأخذ سرور على مدى يومين يدرس شخصية زونجا ويحاول أن يجد له شبيها يتسم بنفس الطباع، فلم يجد سوى شعبان، إذ إن زملاء شعبان من العتالين فى الميناء يطلقون عليه اسم شعبان الساحر(*)، وذلك لانطوائه وانفراده طوال الوقت، فالتصق به هذا وأصبح اسم شهرته للأبد، فإن شعبان موانجا هذا حشاش، وبعدما يتعاطى الحشيش وينضبط مزاجه تحسبه شخصا آخر، فتجده ثرثارا بشوشا ونشيطا أكثر من أى شخص. هنا شعر سرور أن زونجا ربما يكون من متعاطى البانجو وأن خموله هذا ربما يعود إلى فقدانه لهذا البانجو.

وإذا كان الأمر كذلك فمن أين له بهذا البانجو ليعطيه لزونجا كى ينشطه فيتحدثا معًا عن خطة الهروب. هذا لا يعنى أن كومبا كومبا لا يوجد به بانجو، بل العكس هو الصحيح فهو متوفر بكثرة، حيث يعود به المحترفون فى تهريبه داخل فتحة الشرج بعد تغليفه فى لفائف وهم قادمون من مواقع أشغالهم الشاقة من خارج السجن. وعندما يصلون يقومون بتفريغه بطريقة الضغط على البطن والأمعاء عند التبرز. وبعد عملية التفريغ هذه تنتشر رائحة البانجو فى كل أنحاء السجن، فيصير وكأنه معسكر لتعاطى البانجو.

(*) كلمة الساحر هنا ترجمة للكلمة السواحيلية "mwanga" وتعنى الساحر الذى يتجول ليلا لممارسة أعماله السحرية، وعادة ما يكون منطويا على نفسه.

إن الأمر أصبح اختبارا لسرور. فإذا ما وفر البانجو لتنشيط زونجا فهل زونجا فعلا من مدمنيه؟ أم هو مجرد الظن من أنه يشبه شعبان موانجا فى طباعه.

إن فكرة الهروب من السجن تسيطر تماما على عقل سرور وكأنها الحمم البركانية. كم كان يتمنى أن لو استطاع تحطيم ذلك السور الضخم الذى يحيط بهم ويسويه بالأرض، ولكن من أين له بهذه الاستطاعة. إن سمك السور ذراعان، ومشيد بالطوب الحجرى والصبة، ومرتفع شامخ، فوقه الأسلاك الشائكة الممتدة عليه وبالشكل العشوائى على مدار السنين.

إنه لا يستطيع تحطيمه، لكنه يستطيع فعلا تسلقه، ثم ينقلب بنفسه إلى الخارج. وإذا ما انقلب إلى الخارج فلن يجرؤ أحد على إعادته إلى الداخل. ومن الممكن كذلك ثقب السور من أسفله رويدا رويدا. "إننا نستطيع" هكذا فكر سرور. "وكل يوم شيء فشيئا حتى وإن كان حفنة من التراب يوميا. وكما يقول المثل السواحيلى فإن الضرب بالفأس ضربة ضربة ينهى الجذع. ونحن كذلك نثقبه ضربة ضربة." هكذا قال فى نفسه.

وعلى مدى أسبوع كامل وسرور لم يكترث بما يجرى داخل زنزانتهم وحتى عند خروجهم إلى الساحة فإن عقله لم يفكر إلا فيما سيفعله بذلك السور الذى يحيط بسجن كينواميجو، متسائلا من أين سيحفرونه وكيف يتخطاه؟

استيقظ كوندو من نومه فجأة، وبدأ يغنى بعض المقاطع من أغانى مبارك موينشيخ، فاعتبره سرور مجنونا، استمر كوندو يغنى وسرور ينظر إليه كيف تنتفخ عروق رقبته وكيف ينتصب وكأنه المطرب مبارك نفسه واقفا على خشبة المسرح يغنى ويرقص:

اجعل سمعتك نصب عينيك

واستقبح العناد والكبرياء عليك

فالجمال ليس الفيصل وإنما حسن خلقك

عندها فى كل مكان ستجد الجميع يحبك

احتقره سرور واعتبره لا يصلح أن يشارك فى عملية "قطع الأحراش."

أما عنبر فكان منشغلا بمنازل الأبراج دائما، ولكونه من جزيرة بيمبا فإنه كان يدعى أنه حفيد السيدة كيريمبوى Kirembwe أميرة السحرة. وتظاهر بأنه يستطيع تفسير كل ما يقع من حوادث حتى التنبؤ بما سيقع فى المستقبل. من هنا كان استهزاء سرور به عندما سأله: "متى سنخرج؟" أو "أنت شخصيا متى ستخرج؟" فإنك عندئذ ستراه يعد على أصابعه ذاكرا منازل الأبراج ويقول: "سنخرج جميعا سنخرج، ولن يبقى أحد هنا داخل الزنزانة."

"لو كان الناس يخرجون من هنا بضرب الودع لكنا قد خرجنا من زمن." قال سرور مجيبا.

فهذا الذى يعتمد على الخروج من السجن بضرب الودع يعتبر أيضا غير مناسب للمشاركة فى عملية قطع الأحراش.

وماذا عن حمزة وفرج؟ اعتبر سرور أنهما متماثلان فى أنهما على درجة كبيرة من الثقافة حيث إن أحدهما صحفى والآخر رجل قانون، فكلاهما خبير فى مجال الحقوق والقانون، ويعرفان جيدا الإجراءات القانونية والقضائية. وإذا فاتحهما فى هذا الموضوع فإنهما سيقومان بمقاضاته حتى قبل أن يأتى يوم مثولهم للمحاكمة.

إنهما سيستجوبانه وسيسألانه كيف؟ ولماذا؟ وبأية طريقة؟ إنهما سيدخلانه فى متاهات يعجز عن الخروج منها. فهذان أيضا غير مناسبين. ومن ثم فليس له من مساعد فى هذا سوى زونجا.

كانت الساعة عندئذ تشير إلى الواحدة إلا الربع تقريبا، فى مثل هذا الوقت ترجف المعدة من الجوع، وتكون حاسة الشم كالمغنطيس يمكنها أن تشم رائحة العصيدة حتى بمجرد البدء فى عملية إعدادها فى المطبخ. أما حاسة السمع لديهم فقد أصبحت قوية للغاية كتلك التى لدى الفيلة. فكان بالإمكان لهم أن يسمعوا صوت السحلية تتنفس فى سقف الزنزانة، ودائما تجدهم فى حالة من اليقظة بهدف متابعة

مصدر أي صوت يسمعونه. إنهم يسمعون كل شيء، ولا يستثنى من ذلك تقريبا إلا دبيب النمل على الحجر الصلد. ولقد اكتسبوا هذه المهارات في الشم والسمع من انعزالهم عن الآدميين من أمثالهم ومن الفراغ القاتل حيث يقضون وقتهم ليل نهار ينامون ويستيقظون وليس وراءهم غير أن ينظر كل منهم للآخر.

عندئذ وضع المفتاح في سرة الكالون لفتح بوابة الدخول إلى الساحة، فاخترق الصوت آذانهم، فاعتدلوا في جلوسهم متأهبين. إنهم يدركون تماما أن من يقوم بفتح هذه البوابة فإنه حتما لا مفر له فإن يمر عليهم. فأنصتوا ليتابعوا وقع خطواته. وبالفعل اتجه إليهم حتى دخل كومبا كوميا وفتح بوابة الدخول، وفتح زنزانتهم دون أن يتكلم إلى أحد منهم وأخذ يتفحصهم الواحد تلو الآخر. ثم استدعى زونجا وأمره "بارتداء ملابسه."

قام زونجا متباطئا متكاسلا، وخلع رقعة الجوال التي كانت تلتف حول خصره. فاندهش زملاؤه لأنه في مثل هذه الظروف وعندما يستدعى مسجون ويؤمر بارتداء ملابسه فإن هذا يعني وبالتأكيد أنه قد أفرج عنه، وأنه سيذهب إلى بيته، مما يجعله ينهض بنشاط وهمة ليخرج بأسرع ما يمكن من الزنزانة، فإن زونجا خرج منها وكأنه مجبر على ذلك. لعل ذلك يكون بسبب طبعه الخمولي. وما إن خرج زونجا إلا وقال عنبر متباهيا: "لقد رأيت من زمن أن زونجا سيخرج."

"رأيت أنه سيخرج إلى أين؟" سأله سرور.

"سيتوجه إلى بيته مباشرة." أجابه عنبر.

"كيف عرفت؟ وماذا إذا قلنا أنهم يقودونه إلى الشنق؟"

"كيف يشنقونه؟" تدخل فرج. "إنه عميلهم، دسوه بيننا عمدا ليستمع إلى حديثنا ويعرف كل صغيرة وكبيرة عنا."

" حتى أنا كنت أشك فيه وأقول أنه لابد وأنه عميل." أضاف كوندو.

"إنه رجل مخابرات محنك." أكد خلفان. "إننى قد سبق ورأيته داخل سيارة رجال الأمن فى بيمبا."

"ولم لم تومئ لنا لنعرف أننا نعيش مع رجل مخابرات؟" سأله حمزة.

"أنا ظننت أنه تم القبض عليه كما حدث لبعض رجال الشرطة والجنود." أجاب خلفان.

"إذا كان جيء به إلى هذه الزنزانة ليتجسس علينا فقد خرج خالى الوفاض ولم يحصل على شيء." قال عنبر.

"وأنت إذا كنت ضالعا وبارعا فى التنبؤات فلم لم تعرف أنه رجل سيئ؟" سأله سرور.

"لم يخطر ببالى إطلاقا أنه كان من الممكن أن يندس بيننا رجل كهذا." قال عنبر.

"ولكن هل أنتم متأكدون أنه كان مدسوسا للتجسس أم أنه مجرد ظن؟" سأل سويد الذى لا يتحدث كثيرا ويكتفى فى العادة بالاستماع وطرح الأسئلة.

"عجبا! ماالذى جرى لك؟ ألم تر تصرفات الشخص نفسه؟ إننا لم نسمع له قولا منذ أن دخل هنا، إنه أخرس كالأبكم طوال الوقت، يتظاهر بأنه نائم بينما هو يستمع إلى ما يدور بيننا من أحاديث." قال فرج.

"ولكن هذه الأمور معتادة لدى خبراء التجسس فى أن يدسوا عميلا لهم فى مثل هذا المكان."

"إذًا لماذا يسوقون إلينا رجال المخابرات حتى داخل السجن؟ عن ماذا يبحثون وهم القائلون بأنهم قد انتهوا من التحقيق وتوصلوا إلى كل الأدلة." سأل خلفان.

"نظر فرج إلى خلفان مبتسما وقال: "اسمع! إننى أسمع أن الذى قام باغتيال الزعيم قد تم قتله فى الحال. فزملاؤه الذين كانوا معه تمت ملاحقتهم كالخنازير وقتل الواحد تلو الآخر حتى تم القضاء عليهم جميعا، فلا أحد منهم قبض عليه حياً. إذًا من أين لهم بالأدلة؟ إن الأدلة الحقيقية لهذه القضية قد دفنت. ولذلك فإنهم مضطرون إلى تلفيق الأدلة ضد آخرين".

"كيف يبحثون عن الأدلة الملفقة الآن؟" سأل خلفان. "فإذا كانوا لم يتمكنوا من الحصول على الأدلة عن طريق تعريضنا للتعذيب الشديد طوال هذا الوقت، فإنهم لن يحصلوا على الأدلة التى يبحثون عنها على الإطلاق."

"إنهم قد حصلوا على الأدلة والشهود أيضا، وما يبحثون عنه الآن إنما هم الأشخاص الذين سيؤيدون ويثبتون صحة أدلتهم هذه." قال حمزة.

"إن ما معهم من أدلة إنما هى أدلة ملفقة." قال فرج مستعرضا خبرته فى القانون.

أصيب سرور بذهول، ليس بسبب الجدل الدائر بشأن الأدلة والشهود حيث إنه خارج هذا الجدل تماما ولا علم له بهذا الشأن، من طلبهم شهودا لصالح أدلتهم، وإنما بسبب خروج زونجا الذى أفقده صوابه والذى كان يعتقد فيه أنه سيكون شريكه فى عملية الهروب. وكان من ثقته فيه على وشك أن يفاتحه فى موضوع الهروب. ولكن وللعجب يظهر أنه رجل مخابرات. كان سيبيع نفسه بسهولة تامة، وبأبخس الأسعار. اعتقد أنه المناسب الذى سيبوح له بسره، فإذا به الذى كان سيهوى به إلى الهاوية ويتهمه بالجريمة. لذلك أبقى سرور خطة قطع الأحراش فى سريرته هو وحده، وجعلها سرا يتغلغل فى أعماقه ويترسخ فى داخله، لايخرج إلى مخلوق آخر، ومن هنا لم تعد خطة جماعية وإنما فردية تخصه وحده.

الفصل الحادى عشر

لما حل شهر رمضان ازدادوا حزنا وتفكيرا فى بيوتهم. فشهر رمضان فى زنجبار له خصوصياته، بعكس الشهور الأخرى من السنة. قدوم هذا الشهر وهم مازالوا فى السجن سبب لهم أذى كبيرا فى نفوسهم. إن هذا الشهر هو شهر التوبة وشهر التمسك بتعاليم الدين كما ينبغى، وعلى رأس ذلك أداء الصلوات الخمس فى أوقاتها وعلى الوجه الأكمل، إضافة إلى عشرين ركعة لصلوات التراويح وصلاة الوتر للذين يخافون الله أكثر. فتمتلئ المساجد عن آخرها بالمصلين، ويتكدس فى بعضها المصلون حتى يضطر البعض إلى الصلاة خارج المسجد، وخاصة فى صلاة المغرب حيث يلتقى الصائمون يحيى بعضهم بعضا مع تناول التمر وفناجين القهوة. يتسع الكرم فى هذا الشهر بين المسلمين فيقدمون الدعوات لإخوانهم وأقربائهم وأصدقائهم لتناول وجبة الإفطار معًا، وجبة تم إعدادها جيدا.

وفى المنازل يتم إعداد الوجبات الدسمة والمتنوعة، كالشعرية ولقمة القاضى والحلويات المختلفة والشوربات ذات المكونات الغذائية الرفيعة والفطائر وشرائح السمك والكاسافا والموز. مثل هذه الأكلات تقدم للإفطار لإطفاء نار الجوع الحاصل طوال النهار. بينما تتمثل المشروبات فى عصير جوز الهند الذى يروى الظمأ.

وفى الليل يتكدس الناس فى منطقة فوروضانى، بعضهم يسترخى فى الحدائق والبعض على رمال الشاطئ يتمتعون بنسمات الهواء اللطيف من المحيط الهندى. وفى داخل الأحياء يجوب المسحراتى الحوارى والزقاق يوقظ النائمين بالطبول لتناول السحور، كما يتسابق الناس فى لعبة الكوتشينة حتى يتقابل الفائزون من الأحياء المختلفة ويتنافسون فيما بينهم لإظهار كل منهم خبرته واحترافه وحنكته وعبقريته.

أما الأطفال فإنهم ينشغلون بعد الإفطار بالتجمع فى أحيائهم ليلعبوا معًا الألعاب المختلفة كالاستغماية وما إليها. ومن الأطفال من يحب الجرى فيطارد بعضهم بعضا مختبئين فى الحوارى والأزقة المتصلة بضواحى المدينة، ويقومون بهذا عندما يلعبون لعبة عساكر وحرامية. ويقومون بالغناء معًا فيكون غناؤهم أشبه بأصوات الطيور المغردة مما يدخل السرور والبهجة فى قلوب أولياء أمورهم الذين يتواجدون حينذاك فى بيوتهم يتمتعون بالاستراحة والتسلية والمرح، متأكدين أن القدر على الموقد المشتعل بالفحم اشتعالا هادئا لطهى الأرز لوجبة السحور.

كلما تذكروا كل هذا فإن. الاكتئاب يحيق بهم والحزن يعتصرهم متمنين لو يغرق السجن فيخرجوا ليصوموا رمضان فى بيوتهم. ولكن هيهات هيهات! إنهم قابعون فى السجن لشعبان ورمضان، وحتى شوال قد يأتى وهم قابعون داخله يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال على حصائرهم.

تاتى فرحتهم عند خروجهم من زنزاناتهم عند المغرب لتناول الإفطار فيختلطوا بالسجناء الآخرين عند طرقات مؤدية إلى كومبا كومبا. ووجبة الإفطار عبارة عن العصيدة والشوربة مع الفاصوليا. ولا يسعدهم هذا الإفطار بل يسعدهم اختلاطهم بالسجناء الآخرين الذين تم عزلهم عنهم طوال فترة مكوثهم داخل كومبا كومبا. وهؤلاء السجناء هم الذين لديهم كل الأخبار القادمة من خارج السجن، حتى وإن كانت من نسيج خيالهم واختلاقهم، لأنه كيف يمكن للمسجونين تحت حراسة يقوم عليها حارس يحمل بندقية على كتفه أن يحصل على الأخبار؟ ولكن مثل هذه الأخبار الخيالية والمختلقة تشبعهم. وفى هذا الوقت للإفطار تسود الفوضى والضوضاء والشغب إذ إنه هو الوقت الذى يتيح لهم الفرصة لتهريب السجائر والكبريت فيما بينهم ليدخلوا بها إلى زنزاناتهم مثمنين إياها تثمينهم للماس واللؤلؤ.

كان سرور فى بحث عن جبابرة السجن الذين مكثوا فيه طويلا حتى طبعت عيدان الحصير على أفخاذهم من نومهم عليه. وهؤلاء هم محترفو عمليات التهريب، وهم الذين يصمدون أمام ضربات الحراس بعدما يلقى القبض عليهم أثناء محاولتهم الهروب. يجلس سرور مع هؤلاء يستمع إلى قصصهم، وكيف يفتخرون ويتباهون بمهاراتهم فى السرقة أو بجرأتهم على الهروب، وكيف يفلتون من حراسهم، وكيف يصمدون أمام التعذيب الذى يتعرضون له بعد إلقاء القبض عليهم إثر عمليات الهروب.

بولو Polo مثلا حاول الهروب أكثر من عشر مرات. ونظرا لشدة الضرب من قبل الحراس أصيبت رجله بإعاقة، ويمشى الآن أعرج. كان عمره حين دخل السجن أربعة عشر عاما، والآن يتجاوز عمره الأربعين. وقد ضاجعه اللواطون في السجن حتى أصبح كالزوجة لهم ويقدم له كل ما يطلبه. والآن تحول بدوره من المفعول إلى الفاعل حيث يضاجع هو الآخرين. ويغطى وجهه من أثر جرح كبير ممتد من العين حتى أسفل خده الأيسر. إنه يتباهى بهذا الجرح لكونه من إحدى الضربات التى لم تصبه إصابة مباشرة والتى تعرض لها أثناء قيامه بعملية سرقة.

كلما كان يجيء موعد الإفطار هذا وتفتح الأبواب كان سرور يذهب باحثا عن بولو ليجلس حيثما يجده يستمع إلى ثرثرته وامتداح نفسه عن جرأته على الهروب وعن جرائمه الأخرى. كان بولو حالقا لشعره تماما كبقية السجناء فظهرت رأسه مع رقبته القصيرة أشبه بزهرية زرع مقلوبة رأسا على عقب، فكناه عنبر بكنية "أبوالرأس". كان زيه الأبيض ذو النقاط السوداء نظيفا دائما نظرا لعمله فى قسم الحياكة. هذا القسم ليس فيه وحل ولا طين كما هو الحال فى المزارع، وتم نقله إلى هذا القسم عن عمد لمنعه من إتاحة الفرصة له للهروب. صوته جهيركقائد أعلى للقوات المسلحة،

فعندما يتحدث تسمعه لامحالة، بل إن صوته يدوى فى كل أنحاء كومبا كومبا. إن حياة السجن هذا لبولو إنما هى الحياة ، وطعام السجن هذا له هو الطعام الشهى اللذيذ، وكأن طباخا ماهرا أعده له، ومن ثم فإنه عندما يأكل يقطع لقيماته قطعا كبيرة يمتلئ بها فاهه ويبرز بها خداه، ويتحدث وهو يمضغ فينطلق من فيه الرزاز ليتعلق بوجوه كل الجالسين حوله إذا لم يتوخوا الحذر. وبعد لقمتين أو ثلاث من لقيماته الكبيرة هذه لاتجد شيء فى طبقه.

لم يكترث سرور بكل هذا. وإن كان هناك من يتجنبه بسبب سلوكه هذا فإن سرور يبحث عنه ليجلس معه، ولا يهمه حتى إذا طالته منه رزازات الطعام وغطت وجهه كله.

فلا قرف ولا غضاضة له من هذا مقارنة بما هو أشد قرفا وغضاضة متمثلا فى نومه بجانب دلو البول والبراز. وحتى هذه الرزازات لم تعد مقرفة له ولا مقززة.

مر شهر رمضان مرور الكرام وبقيت خطة قطع الأحراش كما هى متركزة فى عقله. وفى يوم العيد قدم لهم الأرز المحمر وأخرجوا إلى الساحة مبكرا، وسمح لهم بالاستحمام لمن يريد، ومن لم يرد يبق فى الساحة يتشمس. كان هذا الكرم بمثابة العيد نفسه حتى وإن لم يوجد من يعايدهم.

كان سرور جالسا أسفل مصطبة المدخل. ولما ألقى بنظره إلى الحمام رأى سلما مسندا إلى الحائط، ربما نسيه أحد المساجين بالأمس عندما كان يطلى جدار السور بالطلاء. فرح وانشرح صدره، ورأى أن الوقت قد حان لتسلق السور واجتيازه. كان السلم سلما مزدوجا يتساوى طوله مع طول السور. كان السلم قديما، وبعض درجاته المصنوعة من شجر المانجروف منخلعة. نظر إليه فى مكانه ورأى ارتفاعه موازيا لارتفاع حافة السور بالضبط، فيبقى من ارتفاع السور تلك الأسلاك الشائكة المتداخلة تداخلا عشوائيا مع أطرافها المدببة والبارزة بروز الأشواك، وتحيط بالسجن كله وهى فوق السور تسير معه حيث سار برسوخه وشموخه.

نظر سرور إلى ذلك السلم، ونظر أيضا إلى السور وما فوقه من أسلاك شائكة بأطرافها المدببة وقال: "اليوم هو اليوم ومن قال غدا فهو كاذب."

كان يرتدى الشورت ونفس الفانلة الملطخة بالدم وفى حالة غدوٍ ورواح فى الساحة. وكان عنبر جالسا بالقرب منه، بينما كان حمزة داخل الكوخ الذى يأكل فيه المسجونون طعامهم يحلق له خلفان بالموس. وكان آخرون قد نشروا حصائرهم فى الشمس للتخلص من البق فيها وهم فى حالة من الغدو والرواح بالساحة، والبعض الآخر

يغتسل، فيومهم يوم عيد الفطر بعد أن انتهوا من صيام رمضان. وهو بالنسبة لهم يوم حزن حيث يتذكر كل منهم أسرته متخيلا كيف يدخل ويخرج الأطفال لابسين الثياب الجديدة لتقديم التهانى بمناسبة العيد ومطالبين إياهم بالعيدية.

نظر سرور إلى عنبر وانحنى وهمس فى أذنه: "هيا نذهب إلى حال سبيلنا."

"إلى أين؟" سأله عنبر مندهشا.

"إلى البيت." أجابه سرور

"كيف! هل جننت يا رجل؟"

"لم أجن ولم أخرف. بل أقول لك هيا نذهب."

"أين؟ وكيف؟ إنك تبحث لنفسك عن الموت بدون داع" قال عنبر ناظرا إلى سرور مندهشا. "إن الموت آت لك لا محالة سواء أبحثت عنه أم لم تبحث، فإن لم تبحث عنه بحث عنك وأدركك حيثما كنت." قال سرور هامسا كى لا يسمع أحد حواره مع عنبر.

"هل ترى ذلك السلم هناك؟" أشار إلى السلم

"أين هو؟" سأل عنبر

"هنالك موجود." وأشار إلى مكانه، وكان بعض المسجونين يغتسلون عراة مستمتعين بالمياه النازلة من الدش.

"يا سرور!" ناداه عنبر، ونظر إليه نظرة مخيفة أرجفت قلبه وقال له: "لا يمكن أن تقدم على القفز للسور قبل التفكير مليا أولا فى عواقب ذلك، إنك لا تتوقع من ذا الذى ستقابله فى الخارج بعد القفز، أهو طيب أم شرير؟ فلو كان طيبا فهو الخير لك وإن كان شريرا فما العمل؟ ثم انظر إلى تلك الأسلاك الشائكة، هل تعتقد أنك تتخطاها؟ إنها ستمزقك تمزيقا حتى قبل عبورك لها إلى الجانب الأخرمن السور."

"إذا كنت لا ترغب فأنا ذاهب لخطتى" قال سرور، متجاهلا كل ما قاله له عنبر."إنك ستموت هنا فى السجن جبنا" قال سرور.

"ولكن الجبان أحيانا ما ينجو، فعليك بالتريث، انتظر حتى تعود إلى الزنزانة وتتشاور مع الزملاء، يجب أن تتمهل" نصحه عنبر."

"إن نجاة الجبان هى نجاة العبودية. إن الوقت يداهمنى. فإذا ما انتظرت حتى نعود للزنزانة فإن السلم عندما نخرج ثانية لن يكون موجودا." نظر إليه عنبر، وهو لا يصدق ما إذا كان سرور مصمما حقا على توريط نفسه فى مصيبة أخرى وقال:" أرى أن ذلك السلم سيجلب لك المصائب، فالمصائب التى حلت بنا ليست باليسيرة ثم تذهب تبحث عن أخرى، ألا تتريث وتكن رجلا، وتتخلى عن هذه الأفكار الجنونية" قال ذلك لسرور.

"إنها جنونية بالنسبة لك ,أما بالنسبة لى فهى عين العقل، إلى اللقاء، فإنى ذاهب وشأنى."

"اذهب إلى حال سبيلك." أخبره بغضب، فقد سئم من إسداء النصح له: "إذا ما اعتقلوك فإنهم سيلقنونك الدرس، وعندئذ فإنك ستنطق الباء ميما." قال محذرا إياه.

كان العريف نجوالى Ngwali واقفا فى وضع الانتباه الكامل فى برج المراقبة، يراقب جميع الاتجاهات متقلدا بندقيته، وارتفاع البرج أعلى من ارتفاع السور. وكان ستة أبراج أخرى متماثلة ومنتشرة فى كل أركان السجن. كان العريف نجوالى فوق البرج داخل حرم سجن كومبا كومبا يرى كل شىء أسفله مصغرا. وفى اتجاه الشمال يرى مرتفعات كينواميجو وهى تنحدر انحدارا شديدا باتجاه ميفينجينى Mivinjeni، وفى الجنوب هذه المرتفعات تعلو فجأة وتتخطى مازيزينى Mazizini. وفى الشرق يوجد السجن نفسه وهو يراقبه من أعلى. وفى الغرب توجد سلسلة من عمارات منطقة كيليمانى Kilimani المتراصة. لم يهتم العريف نجوالى باللون الأخضر للأشجار المورقة العالية فى هذه المنطقة ولا باللون الأزرق الجميل للسماء التى تراها وكأنها تتلامس مع بحر كيزينجو Kizingo غربا. إنه ليس من هواة المناظر الطبيعية الخلابة. فقد أمضى جزءا كبيرا من عمره يعمل فى السجن المحاط بالسور وقد تأقلم مع

المجرمين المقيمين هنا وحراسهم. ليس لديه الوقت للتأمل فى البيئة من حوله لينشرح صدره من جمالها الساحر. ما تعود على رؤيته إنما هو الضنك والتعب والبؤس والعذاب الذى يحل بمن يحرسونهم، والجميع مغلوب على أمره لا حول له ولا قوة. لذلك فهو لا يهتم من فوق البرج بهذه المناظر الطبيعية مترامية الأطراف خارج السجن بل بالمأساة القائمة داخل السجن. وبالبندقية التى يحملها لاستخدامها ضد المسجونين بالداخل فى حالة ما إذا تجرأ أحدهم وهرب، فإنه يصب عليه وابلا من النيران فى صدره لتكون نهاية حياته سواء أكان ذلك داخل السجن أم خارجه.

ما جال كل هذا فى خاطر سرور، بل تملكه عناد لا يستطيع معه أن يستمع لنصح الناصحين، فتوجه مباشرة حيثما يوجد السلم فأمسك به يعاين متانته والتأكد التام من تحمل وزنه عند الصعود عليه. صعد عليه حتى وصل إلى الأسلاك الشائكة المعهودة.

رأى من موقعه هذا الجهة الخارجية للسجن فإن الأسلاك هى الحائل بينه وبين هذا الخارج، وقد علاها الصدأ فى إشارة إلى طول عمرها فى مكانها على السور لتدعيم عملية الحراسة حول السجن. عندئذ اتخذ سرور قراره الحاسم الذى لا رجعة فيه وهو على قمة السلم. إنه قرار التنفيذ لخطة قطع الأحراش فورا.

أمسك بالسلك الشائك محاولا التسلق عليه، وكلما دفعه فى محاولة للوصول إلى الناحية الأخرى نخزته الأطراف المدببة فمزقت إحدى الأطراف المدببة فخذه، والطرف الآخر مزق يده. أخذ يتسلق عليها بحركة لا شعورية واضعا جسده كله عليها فمزقته الأطراف الأخرى فى بطنه تمزيق السكين الحاد وأخذ ينزف دما غزيرا من رجليه ويديه وبطنه.

ولما كان يجذب الأسلاك بمشقة كبيرة عله يتعداها ويقفز إلى الخارج مالت الأسلاك كلها إلى جانب واحد، فلاحظ العريف نجوالى اهتزازها، فالتفت ينظر إلى مصدر الاهتزاز فرأى سرورا متسلقا إياها، مستعدا للقفز إلى الخارج، فصاح فيه: "ياأنت!" وأطلق عليه النار فمرت الطلقة "كالرعد" من فوق رأسه. ألقى سرور بنفسه وسقط على الأرض سقوطا مدويا خارج السجن. إنه فعلا خارج السجن غارقا فى دمه، منكسرة رجله، مقاوما للموت حيث إن العريف نجوالى مازال يصب عليه وابل نيرانه كالمجنون، فإن سرور وبخفة الغزال اختفى فى الأحراش غير مبال ببحر الدم ولا بكسر الرجل. إن خطة قطع الأحراش قد بدأت فعلا.

الفصل الثانى عشر

كان العريف نجوالى كمن أصابه جنون مفاجئ فى إطلاق النار بشكل عشوائى، ولا يعرف على من يطلقها. شعر أنه مغلوب على أمره. فقد عمل حارسا لسنوات طويلة يحرس السجناء لمنعهم من الهروب. وها هو اليوم يشاهد سرور يهرب ويقفز إلى الناحية الخارجية من السور على مشهد ومسمع منه. ولما أدرك أنه لا جدوى من إطلاق مزيد من الطلقات، نزع صفارته من جيب قميصه وأطلق صفيره بكل ما أوتى من قوة، فعم السجن كله رنين صفارته.

كان المقدم كيسودا جالسا فى مكتبه بهدوء، فأفزعه صوت الصفير. هرع مسرعا إلى الخارج. جمع كل الحراس الذين كانوا فى نوبتهم فى ذلك الوقت، وتجمعوا فى الاستقبال ببنادقهم. سيق كل السجناء إلى زنزاناتهم، بما فى ذلك الموجودون خارج السجن فى أعمالهم الشاقة على وجه السرعة. سادت حالة من الارتباك فى كل السجن لأن من هرب اليوم ليس من المسجونين العاديين، بل من الخائنين، وقد يسبب هروبه مشاكل عديدة لكل من المقدم كيسودا وللعريف نجوالى، إما أن يسجنا وإما أن يطردا من الخدمة، وإما أن يختفيا عن الأنظار فى مصير مجهول.

أصيب العريف نجوالى بصدمة كبيرة وذهول. كان متواجدا بجسده فقط يسير هنا وهناك ومعه بندقيته مدركا أنه لا محالة سيكون فى مأزق كبير إن عاجلا أو آجلا. كان متأكدا أن رجال معتقل التعذيب قادمون ليقتادوه إلى مخابئهم ليعذبوه حتى يتقول على نفسه تقولا يورط به نفسه فى مصيبة لا علاقة له بها أصلا.

بدأت عملية البحث عن الهارب، وانتشر العسكر فى جميع أركان جزيرة زنجبار. لم تقتصر العملية على حرس السجون فحسب وإنما شملت كذلك أفراد من الشرطة والجيش والمخابرات. وبحثوا عن سرور وكأنهم فى مطاردة لوحش مفترس يفترس الناس، إذ كان لزاما عليهم أن يعثروا عليه وبأية طريقة.

انتشر نبأ هروب الخائن فى كل أنحاء مدينة زنجبار، وأن الخائن رجل خطير مسلح يتسلح برشاش وبكمية كبيرة من الطلقات، وأنه يمتلك قدرة عجيبة على السحر، فإذا ما اقترب منه أحد ذاب واختفى فى الهواء كالغبار، ويمتلك حجابا منحه إياه كبير المشعوذين والدجالين، يمكنه من الطيران فى الجو كالنسور إذا أراد.

تحول نبأ هروب هذا الخائن إلى قصص كقصص الجان والشياطين التى تحكى عن "علاء الدين والمصباح العجيب"، فعندما يطلب علاء الدين شيء ما عليه فإن يفرك مصباحه فيتحقق المطلوب فى الحال. من هنا أصبح هروب سرور هو حديث المدينة.

ما كان مع سرور رشاشات ولا طلقات. دعك من الرشاشات والطلقات، وحتى المقاليع والأحجبة والأحراز، فما كان معه هذا ولا ذاك، بل كان فى حالة طلوع الروح. أقحم نفسه وسط الأحراش متألما من تمزقات جسده بالأشواك، أعرج الرِجل، عريان الثياب، ليس عليه إلا شورت السجناء. يميزه من يراه بأنه زى السجناء، فالنقط العشوائية السوداء المنسوجة على الشورت تقول ذلك. وها هو اليوم الثانى وهو فى الأحراش بلا ماء ولا طعام. ولما اشتد عليه الجوع خرج طواعية فى منتصف الليل فى ظلام دامس. كان كل شيء ساكنا فيما عدا أصوات صرصار الليل وومضاته المتلألئة وهو يطير كالنجوم فى الهواء. رأى ضوءا خافتا من على بعد. شعر معه بوجود حياة هناك، وبوجود مخلوق حنون يمكن أن ينقذ له حياته. أخذ فى جر نفسه بطيئا مخترقا الأحراش قاصدا ذلك الضوء. لكنه كلما قصده كلما ازداد بعدا عنه دون أن يصل إليه. كان يتألم بشدة حيث الجروح والرضوض المنتشرة فى كل جسده بدأت تتعفن مسببة له الأذى الكبير. كل هذه الآلام جعلته يندم ويتمنى أن لو انشقت الأرض ودفن نفسه حيا. كان هدفه أن يصل إلى فومبا Fumba ليصعد على ظهر أى مركب يأخذه إلى باجامويو Bagamoyo على الأقل، ومن هناك تبدأ رحلة حقيقية فى خطة قطع الأحراش، ليذهب بعد ذلك إلى أى مكان يأمن فيه الحياة. ولكن هذا مجرد حلم، إذ إنه

لم يصل بعد إلى أى مكان سواء أكان فومبا أم باجامويو، حتى الضوء الخافت الذى يمنحه الأمل يعجز أن يصل إليه. أصبح الضوء وكأنه يهرب منه، ولا يريده أن يقترب منه، فهو فقط يراه ويتبعه.

إن رغبته الملحة فى الحرية التى ترسخت فى قلبه هى التى جعلته عديم الصبر، ويرى كل شيء قد أعرض عنه ولا يكون كما يريده. فالضوء الذى كان يراه من على بعد وظن أنه ينأى بنفسه عنه إنما كان يأتى ويقترب منه رويدا رويدا كلما كان يتجه إليه وهو يعرج برجله المتورمة التى كانت تؤلمه آلاما رهيبة.

أخذ يتبعه حتى وجد نفسه وسط قرية صغيرة ذات أكواخ صغيرة متناثرة، متواضعة مبنية بالطين، سقفها من الأغصان المتآكلة. الكوخ الذى كان يقصده سرور محاط بأغصان شجرة. الكوخ نفسه كان مائلا تظن أنه سيسقط فى أى لحظة، فإنه مسنود بجذع شجرة ضخم يمنعه من الانهيار. ذهب إلى الشباك الصغير الذى كان ينبعث منه الضوء. واختلس منه نظرة فرأى مصباحا صغيرا متوهجا فى ثبات، فتيله فى أقصى درجات الانخفاض حتى لا يشتعل بقوة فيصدر منه دخان كثيف، لا أحد موجود فى الكوخ، ولكن كانت هناك أغصان كثيرة من شجرة جوز الهند فى ركن، وثمرتان من جوز الهند بلحافهما. استأذن للدخول بصوت قلق. لم يرد عليه أحد، فاستأذن بصوت أعلى: "يا أهل البيت!" فلم يرد أحد.

ذهب إلى الباب، والباب من صفيح، ومغلق بإحكام يدل على أن وراءه عمود. واستأذن ثانية: "يا أهل البيت!" "تفضل" أجابه صوت امرأة بنغمة بطيئة تدل على أنها كانت مستغرقة فى نوم عميق: "من يا أخى؟"

"أنا"

"أنت من؟".

أنا ضيف"

"أى ضيف هذا الذى يأتى فى مثل هذا الوقت والناس نيام."

خرجت المرأة من البيت بقطعة رداء واحدة مربوطة على صدرها، تفتح عينيها بصعوبة من شدة نومها. كان صدرها متضخما، وثدياها متدليين، تسترهما بهذا الرداء الذى كانت تحاول ربطه عليها ولكنه يتفلت من يديها لشدة نومها. سألته ثانية وهى واقفة عند الباب والمصباح الصغير فى يدها كى تتمكن جيدا من رؤية هذا الطارق الذى أتى فى مثل هذا الوقت بعد منتصف الليل:

"أنا، افتحى لى من فضلك، عندى مشكلة"

"أى مشكلة؟"

"افتحى لى من فضلك"

"قل لى أولا ما هى مشكلتك؟"

"أنا مصاب إصابات بالغة، أرجوك أن تفتحى لى." رجاها سرور وهو متعب.

أزالت المرأة العمود الغالق للباب وفتحت الباب ببطء وقلق شديدين، فعكس المصباح الصغير ضوءه على وجه سرور فظهر وكأنه عفريت حيث اللحية البيضاء المتناثرة تناثرا عشوائيا، والشعر الأشعث الأغبر حول جوانب رأسه فقط، والصلع المنتشر فى وسطه، وصدره المليء كذلك بالشعر الأبيض، وفمه المليء بفجوات الأسنان المكسورة وتفوح منه الرائحة الكريهة.

فزعت المرأة وأصيبت بالدهشة والذهول ومصباحها فى يدها. ولما جاء نظرها على شورت سرور أيقنت أنه سيق إليها سوقا، فلم تستطع أن تتمالك نفسها فصاحت: "حرامى".

أراد سرور أن يكمم فاها. ولكن قبل قيامه بفعل ذلك، أغلقت المرأة الباب بقوة. ففر هاربا قبل أن تحدث له كارثة أخرى. فأيقن بحقيقة المثل السواحيلى: "إن ماعز الفقير لا تلد." فالمكان الذى رجا فيه الحياة وتوقع مقابلة إنسان يشفق عليه إذا به ينادى عليه فيه بالحرامى!

انطلق بسرعة كخنزير يطارده صياد متوغلا فى الأحراش دون أن يعرف إلى أين يتوجه فى تلك الليلة الظلماء التى كلها نحس وشؤم. فأهل القرية – على صراخ المرأة – أيقظ بعضهم بعضا، واحتشدوا وسطها مسلحين أنفسهم بالعصى والخناجر، حاملين المصابيح الصغيرة.

تحدثت المرأة إليهم: "مرّ من ه ه هنا" قالت ذلك بصعوبة بسبب ضيق نفسها بعد أن خرجت من كوخها متأكدة أن استغاثتها تمت تلبيتها.

"لا تقلقوا، فإذا كان لصا حقيقيا فإنه سيعود وعندها نلقى القبض عليه، فليبحث كل منا عن مكان يختبئ فيه ترقبا له" قال أحدهم ناصحا.

قاموا بالحراسة حتى الصباح دون أن يعود سرور. لقد لاذ بالفرار فى منتصف تلك الليلة الدامسة لا يعرف أين يتجه ولا من أين جاء. حتى وجد نفسه فجأة فى أرض منبسطة أمامها مزرعة وتهب الرياح من ناحيتها في وجهه. وعندها سمع أصوات طبول من على بعد، فتوقف وأنصت ليعرف من أين تأتى هذه الأصوات. وكان فى منتهى الإجهاد، مريضا، جائعا، ظمآنا.

حاصره الظلام الدامس فى الأرض المنبسطة، وجعله فى وسطه محاطا به كمن يحاط بحائطين كبيرين أحدهما من الأمام والآخر من الخلف، فلا يرى من أى اتجاه أتى ولا أى اتجاه يذهب إليه. وعم الصمت الرهيب المكان، فكل شىء ساكن نائم باستثناء أصوات الطبول وأحيانا صياح البوم أو ضحكات الكومبا.(*) كان مجهدا جدا لا يقوى على القيام، وخارت قواه، فقعد على الأرض وأسند نفسه على شجرة القشدة التى أمسك بها كى لا يسقط على الأرض عندما كان واقفا يستمع إلى أصوات الطبول. استمع إلى أصوات الطبول وكأنها تجلب الهدوء له وأخذ صوتها يتلاشى رويدا رويدا حتى غشاه النوم تماما فنام فى الحال وفى نفس المكان.

انتبه من نومه عندما سمع ضجيج الناس ينبهون بعضهم بعضا مشيرين إليه قائلين: "إنه هو! إنه هو!" كان الصبح قد تنفس والشمس قد أشرقت وأنارت الدنيا. فلما فتح عينيه ووجد الضوء ساطعا ورأى العسكر يحيطونه من كل ناحية حاملين بنادقهم أصيب بخيبة أمل، وأيقن أن خطته "لقطع الأحراش" قد فشلت فشلا ذريعا.

(*) Komba حيوان يشبه القط الكبير منتشر بساحل شرق إفريقيا وزنجبار، وصوته مزعج ليلا، وكثيرا ما يدمر مزارع جوز الهند ليأكل منها.

وعند نظره إلى أولئك العسكر تهيأ له أنه يراهم من على بعد وكأن ضبابا كثيفا قد أحاط بهم، فعيناه مرهقتان لا تقويان على رؤيتهم جيدا وكيف حاصروه وجعلوه فى وسط دائرة لهم أسيرا. حملوه كجثة حيوان كانوا يطاردونه ليصطادوه منذ فترة طويلة وهاهم اليوم قد اقتنصوه. أمسك أحدهم بيده اليمنى، وآخر باليد اليسرى، وثالث برجله اليمنى، ورابع برجله اليسرى، وأخذوا يجرونه ويشتمونه ويسبونه ويتوعدونه.

جروه على هذا النحو حتى وصلوا إلى الطريق الرئيسى حيث عربتهم في انتظارهم. وضعوا الكلبشات فى رجليه ويديه، وقذفوا به خلفا داخل السيارة تحت حراسة جنديين. تحركت السيارة مباشرة إلى معتقل التعذيب، وهنالك أذاقوه شتى ألوان التعذيب.

تجاهلوه على مدى يومين، وتركوه وكأنه لا وجود له. كان فى الزنزانة وحيدا ويعانى من الإجهاد وآلام الجروح. تفوح من قذارته رائحة كريهة، بشعره الكثيف الأشعث على جانبى رأسه الذى يتوسطه صلع يلمع، وبلحية كثيفة بيضاء، تحسبه بها معفر بالرماد. تركوه هكذا لمدة يومين مكبل اليدين والرجلين، يأكل وينام ويعمل كل شيء وهو على هذا النحو، وحيدا فى الزنزانة يتألم نفسيا وجسديا، لا أثر للحياة فى هذا السجن، بخلاف كومبا كومبا حيث يمتلئ السجن بالحياة، فيكفى على الأقل أنك ترى صورة إنسان مثلك، أو حتى من

تتحدث معه. أما هنا فالصمت القاتل. وإذا سمعت صوت إنسان بالصدفة فإنه يكون صوتا هامسا. وهذا ليس بالجديد عليه فى هذا المكان، فهو يعرفه جيدا، ويعرف كل مآسيه وحوادثه.

فى اليوم الثالث فتح عليه العجوز ماتشالى الباب فجرا. وكان الجو ضبابا بعض الشىء حيث الشمس لم تشرق شروقا كاملا. وهذا الوقت هو وقت الشنق لمن حكم عليه بالإعدام. فرأى سرور أن أجله قد حان، وعليه أن ينطق بالشهادتين. كان العجوز ماتشالى فى صحبته جندى من الجيش برتبة رقيب. وهو (العجوز) على نفس هيئته، لم يتغير، فالشورت عليه قذر ولا يغيره، وملتصق بجسده، مكشوف البطن، أحمر العينين. لم يسألاه شىء وإنما أومآ إليه أن يرفع يديه، ففك قيده من رجليه ويديه وأغلق الباب. شعر سرور كأن معجزة حدثت له، إذ لم يعد مكبلا بالكلبشات التى كانت تضايقه وتزعجه على مدى يومين. نعم لم تعد الكلبشات موجودة ولكنها تركت أثرا كالذى تتركه الأسورة الملبوسة لفترة طويلة. ماكان يعرف ما سيحل به بعد ذلك فإنه أحس بالفرج مع فك الكلبشات عنه. جلس فى الزنزانة يفكر ويتساءل: " ماالذى يبيته هؤلاء الناس له؟" إنه اليوم الثالث منذ إلقاء القبض عليه، ولم يسألوه شيئا، لا الباء ولا التاء. ومعلوم أن الهاربين لا يعاملون هكذا خاصة إذا ما أخذ فى الاعتبار أن الهارب متهم بالخيانة. لو كان موجودا فى كومبا كومبا

لرموه فى الغرفة الظلماء بعد أن يوسعوه ضربا مبرحا يعجز معه أن يحرك أى جزء من جسده، ويرقد فى حالة حرجة داخل بركة من الماء حيث يملأون الزنزانة التى يحبس فيها الهارب بالماء عند دخوله فيتحطم نفسيا وجسديا.

إن نوبة العجوز ماتشالى محفوظة ولا سر فيها فهو عندما تبدأ نوبته يعلم بها الجميع حيث تنتشر رائحة السجائر فى كل أركان السجن . وهى سجائر بنكهة نافذة يدخنها الواحدة تلو الأخرى. وعندما يدخن يأتيه السعال الثقيل المستمر، ثم يسلك زوره ويبصق بلغمه الكثيف. إنه الوحيد الذى يدخن بين الحراس فى هذا السجن، وغالبا ما تبدأ نوبته من الرابعة عصرا وحتى الفجر وكأنه هو الذى يطلب هذه النوبة الليلية عن عمد، لأنه لا مكان له يبيت فيه، فيصبح السجن هو البيت الوحيد الذى يقضى فيه ليله.

كان سرور يعد اليوم بعد اليوم، ولما كان اليوم الخامس. فتح العجوز ماتشالى الباب ببطء وسرور جالس فى ركن الزنزانة مركزا عينيه على الباب. أمره ماتشالى بالخروج وهو عابس الوجه. خرج مصاحبا إياه حتى الساحة. كان مقعده موجودا فى ذات المكان أى أمام باب الدخول للمكتب، جلس على كرسيه وأمر سرور أن يجلس على الأرض. تفحص ماتشالى سرور وكيف مزقته الأسلاك الشائكة، والجروح المتعفنة المغطاة بالقشور فسأله: "هل أصبت إصابات بالغة؟"

اخرسٌ سرور ولم يرد عليه بشيء. فدعاه ماتشالي: "اقترب هنا." وأخرج ماتشالي موسا وأزال شعره كله، فأصبح أصلع الرأس كله وليس فقط مقدمة الرأس، وحلق له لحيته وشاربه كذلك، ثم أعطاه قطعة صابون وأمره بدخول الحمام للاغتسال.

مر الآن أسبوعان تقريبا وجسده لم يلمسه الماء، فتجمعت بقع سوداء من الوساخة على كل جسده. وإنه الآن يشعر أن رأسه أصبح خفيفا، وأن ذقنه نظيفة لا شعر فيها، وأن عش القمل فى رأسه تم تدميره نهائيا فيما عدا القمل الذى أقام عشه فى لباسه، فهذا سيقوم بتدميره حاليا عند الاغتسال. دخل الحمام ولم يخرج بسرعة حيث مكث فيه مدة ساعة كاملة، حتى ألح عليه ماتشالى بالخروج سائلا إياه: "ما هذا؟ هل اتخذت الحمام لك بيتا؟"

لما خرج خرج لامعا، فلقد اغتسل وأصبح ناصعا. ونظرا لغسله لباسه فقد ارتداه وهو مبلل. وخرج يعرج بينما ماتشالى ينظر إليه وأمره: "تعال اجلس هنا." ودعاه للجلوس بالقرب منه. جلس سرور شاعرا بالنشاط والتحسن إلى حد ما. دخل ماتشالى المكتب تاركا سرور وحده بالساحة، وهواؤها لطيف، وظلها ممتد عليها، والشمس مائلة عن كبد السماء ناحية الغرب على وشك أن تغرب.

شعر سرور بالإجهاد التام وأنها الآن الفرصة لأن يستريح، فأسند جسده ورأسه على الجدار ناظرا إلى السماء. عندها رأى الأسلاك الشائكة قائمة كما هى فى تداخلها وامتدادها فوق السور. فلعنها لما فعلته فيه من إصابات وتمزقات، ولكنها لعنة لا تضرها شيئا. فالأسلاك شامخة قائمة كما هى سواء لعنها أم لم يلعنها، إنها لا تشعر بما يجرى. وهى كما هى مدببة الأطراف مستتة الأسنان تنتظره أن يعبث بها ثانية لتمزقه.

لما خرج العجوز ماتشالى من المكتب كان فى إحدى يديه ملابس وفى الأخرى زجاجة. كانت الملابس مصنوعة من الكاكى وعبارة عن قميص وشورت. ماكانت الملابس من نوعية ملابس كومبا كومبا المنقوشة ببقع سوداء، وإنما كانت بيضاء اللون لا بقع فيها. كان سرور فى حالة نوم بسبب هواء لطيف استمتع به. وهنا قال له ماتشالى: "خذ هذه والبسها هنالك."انتبه سرور من نومه على قيام ماتشالى بمناولته الملابس، فسأله سرور:

"أهى لى؟"

"لك؟ من أين لك هذا؟ هل أتيت بملابس هنا؟ اذهب والبسها فى الحمام، واخلع ما تلبسه ليجف، وغير فى الطاقمين كلما اتسخ أحدهما."

وعاد العجوز ماتشالى إلى كرسيه يجلس عليه باسطا إحدى رجليه في ناحية والثانية فى ناحية أخرى، مسندًا ظهره على الكرسى، ناظرا إلى السماء، مفكرا فى شىء مهم. لا شىء بعينه ينظر إليه فى السماء بل هو الفضاء الفسيح، والسموات الممتدة فى كل الأركان. لما خرج سرور من الحمام نهض ونظر إليه وقال له: "لقد تأنقت اليوم."

مشى سرور يعرج حتى أتى ماتشالى فجلس على الأرض. أمره ماتشالى: "هيا اخلع هذا القميص." وتفحص ما به من جروح ثم أخذ الزجاجة التى أتى بها من الداخل وأخذ يغمس القطن بما فيها من دواء ويضعه بلطف على الجروح حتى لا يوجعه مجددا. مس كل الجروح هكذا مركزا على منطقة البطن حيث تمزقها من الأسلاك الشائكة كان أكثر. ولما انتهى من ذلك وضع الزجاجة على الأرض ونظر إليه وسأله:

"كيف ورطت نفسك فى هذه الأمور ياصاحبى؟"

"أى أمور؟" سأله سرور هو الآخر."أمور الخيانة هذه."

"أنا لست متورطا." أجابه سرور.

" كيف تكون غير متورط! وغير المتورطين تم الإفراج عنهم جميعا؟"

قال له ذلك ناظرا إليه بعينيه الحمراوين، وشاربه الذى تبعثر وانتشر عشوائيا على شفته العليا وفى أنفه. رحب بسرور بسيجارة وأخرج أخرى وأشعلها. وأخذا يدخنان صامتين دون أن يكلم أحدهما الآخر، حتى استأنف ماتشالى الحوار مجددا: "أنت الآن ورطت نفسك فى هذه الأمور وأولادك هنالك فى الخارج يعانون."

"إنى أقول لك لست متورطا، وليس عندى أولاد."

"ليس عندك أولاد؟" سأله العجوز ماتشالى.

"ليس عندى. لم يرزقنى الله."

وماذا عن الزوجة؟"

عندى زوجة."

أليست الآن تعانى فى الخارج؟"

"إنها تعودت على حياة البؤس والتعاسة، فحياتنا مليئة بذلك."

"أنا عندى اثنا عشر ولدا يعنى دستة كاملة" قالها ماتشالى متباهيا. عندئذ ارتسمت ابتسامة على وجهه وهذا نادرا ما يحدث.

"مع من كنت تتسابق حتى يصبح لديك هذا العدد من الأولاد؟"

"ماكان سباقا، وإنما هى الرجولة ياسيدى."

"وأين جميع هؤلاء الأولاد؟"

"بعضهم تزوج وبعضهن تزوجن، وأحدهم كابتن فى الجيش" قالها متباهيا.

"مع هذا العدد الكبير من الأولاد كان يحق لك أن تبقى فى البيت فقط. وترتاح مع أحفادك تداعبهم، لكننى أراك تقضى حياتك فى السجن كأنك مشرد. فأنت تسهر فى السجن يوميا، يلدغك البعوض طوال الليل، فلم كل هذا التعب؟"

نظر العجوز ماتشالى إلى سرور بعين حمراء، وتغير فجأة آمرا إياه:

"عد إلى الداخل." ماكان قد انتهى بعد من تدخين سيجارته حتى أعاده إلى زنزانته، وأغلق عليه الباب غاضبا، ورجع إلى كرسيه مواصلا الاسترخاء والتدخين. طوال الليل وهو يفكر فيما قاله له سرور وماذا يقصد بهذا الكلام، إنه منذ أن بدأ العمل فى هذا السجن لم يسبق أن أخبره أحد بمثل هذا الكلام. ومن ذا الذى يجرؤ على إخباره بأى شىء كهذا والجميع هنا يخشاهم الناس خشيتهم من

النار. إنهم مرعبون، والجميع يعرف شقاوتهم وخبثهم. "إنه سوف يعلم من أنا" قالها مانتشالى فى نفسه متوعدا.

وفى حوالى الساعة العاشرة صباحا بدأ المدخل الرئيسى لمعتقل التعذيب يفتح ويغلق، شعر سرور أن هناك حركات غير عادية، فعلى مدار خمسة أيام قضاها فى المعتقل ماكانت هناك تحركات بل الهدوء التام. وتتمثل التحركات المسموعة فى دخول وخروج الموظفين العاديين ورؤسائهم. والمعتقلون فى زنزاناتهم يتهامسون، فلا أحد يجرؤ على رفع صوته. أما فى الخارج فأصوات السيارات القادمة والمغادرة تسمع. وبقرع النعال على الأرض عند الدخول فى خيلاء وتبختر فهم سرور أن بعضهم ضباط فى الجيش. كانت أصواتهم تسمع للمسجونين من على بعد وهم جالسون يتحادثون ويضحكون. إنهم يضحكون بينما المسجونون فى زنزاناتهم ترتعد فرائصهم خوفا لعدم معرفتهم وعلى وجه الحقيقة ماهية المصيبة التى أتى بها هؤلاء الضباط ضدهم.

منذ فترة طويلة والهدوء سائد فى معتقل التعذيب. فما كانت هناك تحرشات ولا ضرب ولا قذف ولا تعذيب ولا قتل حيث إن عملية الفرز قد تمت وخرج على أثرها من خرج وبقى بالسجن من بقى، وبعضهم بقى فى كومبا كومبا والبعض هنا، فى انتظار

مصيرهم دون أن يعرفوا ما هو اللاحق. إنهم لا يعرفون شيئا، وليست هناك أخبار متناقلة على الإطلاق ينقلها من يخرج للقابع في السجن مثلما يحدث في كومبا كومبا عندما يلتقي من يخرج لمواقع الأعمال الشاقة ويعود لزنزانته في المساء بالأخبار لمن هم بالداخل حتى ولو كانت شائعات. لكن هنا في معتقل التعذيب لا يستطيع المسجون رؤية أحد. ومن يراهم إنما هم القابعون معه في زنزانه واحدة وهم لا يعرفون زملاءهم في الزنزانات المجاورة. فهم جميعا يتملكهم الخوف والقلق مرهقين آيسين.

فجأة قام رجل الأمن كيفوبينيوندو Kifupinyundo (*) بفتح باب الزنزانة. كان سرور جالسا على الأرض فنظر إليه فقط. شاع عن رجل الأمن هذا في كل أنحاء البلاد أنه قاس متوحش وأنه يحتل المركز الثاني في معتقل التعذيب بعد بامكوى Ba Mkwe نفسه الذى سمى السجن باسمه. نظر إلى سرور في وجهه نظرة ازدراء وقال: "ياصاحب وجه الهرة المتمردة السارقة".

(*) هذا الاسم كنية ويعطى لكل قصير يتسم بالقوة والوحشية والفظاظة. وهو مكون من kifupi تصغير قصير ومن nyundo بمعنى مطرقة. وسوف يكتفى من الآن فصاعدا بذكر الجزء الأول من اسمه كيفوبى Kifupi فقط.

نظر سرور إليه فقط نظرة خوف تام. قام الرجل بإغلاق الباب وانصرف وتنفس سرور الصعداء تنفسا قويا مع شعوره بزوال الشر عنه.

وكما تعبر كنيته فإن كيفوبينيوندو هو القزم القصير فقط فإن تصرفاته تتناقض وهذه الكنية. فإذا ما سمعت عن الجرائم التى يرتكبها فى معتقل التعذيب تقول إنها لرجل عملاق كله فتوة وإذا به شخص كالقزم. كان يرتدى فى ذلك اليوم قميصا أصفر اللون بنصف كم، وتركه مسدولا على خصره، ويرتدى بنطلونا بنى اللون، وصندلا جديدا، وطاقية جميلة مطرزة تطريزا يدويا على شكل أزهار بلون التمرهند، وقد سحبها على مقدمة رأسه فغطت جزءًا من جبهته.

وجهه صغير، وعيناه صغيرتان، وأنفه كذلك صغير، وفمه مستدير وغليظ، وعندما يتحدث يكفهر وجهه، وتعود على الإمساك بمفصلى وركيه عند التحدث مستعرضا كبرياءه وغلظته.

رجع كيفوبى إلى المكتب لينضم إلى زملائه من الكبار، كان عددهم الإجمالى ستة، وكان الرائد مابانجا Mapanga جالسا على كرسى الرئاسة. وكان هذا الكرسى فى الوسط، والكراسى الأخرى مصفوفة على الناحيتين منه يتوسطها منضدة طويلة، وكرسى واحد فارغ موضوع فى نهاية المنضدة يواجه الرائد مابانجا.

وقدم الرائد مابانجا سؤالا: "هل نستدعيه هو أولا أم نستدعى حراميا Haramia ؟"

"نستدعيه هو أولا لأن حراميا قد وافق على كل شيء." أجابه كيفوبى.

"هل تعتقد أنه سيوافق مثل حراميا؟"

"إذا رفض نستدعى حينها حراميا."

"نهض كيفوبى وعاد من حيث أتى، وعندما فتح الباب وجد سرور ممتدا على الحصير، فأمره: "انهض."

فنهض سرور، وأمره: "هيا معى."

تقدم سرور وكيفوبى من خلفه حتى المكتب. كان الجميع ينظر إلى سرور كأنهم رأوا مخلوقا غريبا، صامتين جميعا. كان الرائد مابانجا يرتدى زيا عسكريا لونه أخضر ويجلس على الكرسى مختالا، واضعا قبعته على المنضدة، يهز رجليه ناظرا إلى سرور. كان منهم اثنان من ضباط الشرطة يرتديان زى الشرطة من الكاكى، وكلاهما برتبة مفتش، ويعرفهما سرور جيدا، وهما اللذان أوسعاه ضربا فى ذلك اليوم المعهود حتى رأى الدنيا كأنها منقلبة رأسا على عقب.

"اجلس" أمره الرائد مابانجا موجها إياه إلى الكرسى الخالى، فجلس. فكان الجلوس وجها لوجه مع الرائد مابانجا الذى سأله: "ما أخبار الأيام الطوال؟"

"هى كما هى." أجابه سرور.

"ماذا تعنى بقولك هى كما هى؟" تدخل كيفوبى.

نظر سرور إلى كيفوبى دون أن يعرف بم يرد عليه.

"أسألك ما معنى هى كما هى؟" سأله ثانية، وهذه المرة بحدة وغلظة.

"أعنى أنها ليست على ما يرام." أجابه سرور بصوت هادئ.

"ليست جيدة لأنك فشلت فى الهروب. أليس كذلك؟"

التزم سرور الصمت، ولم يكن لديه إجابات. وشعر أن هذا اليوم سيكون عصيبا، لأنه يعرف ما يجرى هنا جيدا، وهو أن الأمور تبدأ هكذا بأسئلة بسيطة للغاية وسرعان ما تنتهى بضربة موجعة للغاية.

"يا سيد سرور!" دعاه الرائد مابانجا.

ارتعد سرور. فمنذ أن تم القبض عليه لم يسبق أن دعاه أحد بالسيد.

"إن ما لدينا أمورا بسيطة، وإذا وافقتنا فإننا سنطلق سراحك." أوضح له الرائد مابانجا، ثم سحب درجا وأخرج منه ملفا ورماه أمام سرور.

عندئذ تغير الحال داخل المكتب إذ إن جميع الوجوه اسودت، اندهش سرور ناظرا إلى الملف الملقى أمامه، كان الملف وردى اللون وعليه اسم سرور بخط أسود كبير.

"هذه هى اعترافاتك بنفسك ونريدك أن توقع عليها." أخبره الرائد مابانجا.

نظر سرور إليه وسأله: "هل يسمح لى بقراءته؟"

"تقرأ ماذا وهذه اعترافاتك بنفسك! فلا تضيع وقتنا ونحن لدينا أعمال أخرى لإنجازها" قال كيفوبى بصوت عال.

"اقرأ" سمح له الرائد مابانجا.

سحب سرور الملف، وفتحه، إنه يحتوى على خمس وعشرين صفحة من الاعترافات الطويلة المكتوبة بالآلة الكاتبة وبشكل جيد. انكب سرور على الملف قارئا إياه كلمة كلمة، وينظر الجميع إليه وهو يقرأ الصفحة تلو الأخرى. وبعد نصف ساعة نفد صبر كيفوبى

وقال له: "اسمع يا رجل! نحن هنا لسنا فى مكتبة، لن نستطيع أن ننتظر حتى تنتهى من القراءة، فهل ستوقع أم لا؟"

نظر إليه سرور، وقد تغير وجهه، وتصبب عرقا وهو منكب على الملف إذ إن ما فى الملف أفزعه للغاية، فما فيه يودى بحياته تماما. وهنا قال: "لا أوقع."

كان ما فى الملف سرد لحكايات مطولة عن كيفية اشتراك سرور فى خطة اغتيال الزعيم بالتفصيل، فتذكر اليوم الذى قابل فيه حراميا عند سينما ماجستك، حيث أخبره حراميا بأنهم قد انتهوا من عملية سرقة كمية بنادق كثيرة من مخزن السلاح.

وأخذ يشرح له حراميا كيف تم وضع الخطة، واليوم الذى تحدد فيه تنفيذ الخطة حيث يصل فى هذا اليوم فريق كامل من دار السلام بحرا، وأن مركبهم سيرسو أمام نادى المتعة، وأن سرور مكلف باستقبال هذا الفريق، ويصطحبهم إلى بيت حمدون حيث مخبأ الأسلحة.

تتواصل الاعترافات فى شرح الكيفية التى قام بها سرور لتنفيذ الخطة، وجلس هناك حتى السابعة مساءً. ولم يصل هذا الفريق الذى كان يتوقع وصوله من دار السلام. ويشرح سرور كيف كان مرتبكا لعدم وصول الفريق، فهرع مسرعا إلى حمدون ولكن لم يجد أحدا هناك أيضا.

كل هذا وسرور منكب على الملف يهز رأسه والعرق يتصبب منه، فسأل: "من أين لكم بكل هذا؟"

"هذا هو ما نريده منك أن تشرحه هكذا كما هو." أجابه الرائد مابانجا.

"أشرحه أين؟"

"فى المحكمة" وهنا نظر الرائد مابانجا إلى سرور فوجده تغير، فقال:

"اسمع، إنك ستقدم للمحكمة، ولن تكون وحدك، فهناك زملاؤك الآخرون الذين وافقوا على هذا. وسوف ترفع دعوى ضدك فى المحكمة فى ضوء هذه الاعترافات. فالمطلوب منك فقط هو الاعتراف. وإذا اعترفت فلن تحاكم، وستكون فقط شاهدا لنا."

شاهد من." سأله سرور.

"شاهدنا" أجابه الرائد مابانجا.

"إن ما كتبتموه هنا لا أعرفه، ولا علم لى به." وهنا رفع سرور يديه وخلل أصابع كفيه إشارة إلى ما فيه من ذل وقال: "ألتمس منكم ألا تورطونى فى شهادة الزور."

"شهادة زور؟ من المزور؟ نحن مزورون؟" صاح كيفوبى وملأ صياحه أركان الغرفة. "ستوقع أم لا؟" سأله محملقا عينيه متجهما وجهه: "أنت بادئ ذى بدء تعلم أنك هارب، فقد قمت بالهروب، فكنت تستحق أن نطلق عليك الرصاص فى المكان الذى ألقى القبض عليك فيه، ويحفر لك حفرة وتدفن فيها، كما فعلنا مع زملاء لك. ولكننا أشفقنا عليك وأتينا بك إلى هنا، ثم بعد ذلك تتجرأ وتتهمنا بالكذب! إنك غبى!" توقف عن الكلام، ونظر إلى سرور وإلى زملائه واحدا واحدا ثم التفت إلى سرور ثانية: "أسألك للمرة الثانية. هل ستوقع أم لا؟"

"لا أوقع." أجابه سرور بثبات. انقض عليه الجميع دفعة واحدة ورفعوه وقذفوا به إلى الخارج حيث الساحة. طيروه كهبو لانفع فيه. فسقط على الأرض بظهره، وارتطمت رأسه بالأرض فانفتحت، وانتشر الدم بغزارة. وإن مات هنا فليتغمده الله برحمته. لقد أصبح سرور فريسة بين الوحوش الجائعة، حيث قاموا بإخراج الكرابيج من المخزن والتى من فترة طويلة لم تستخدم، كل واحد منهم مسك بكرباج وضربه به بشراسة. لم يصدر سرور أى صوت. استمروا فى ضربه حتى فقد الوعى. حملوه عشوائيا وألقوا به فى الزنزانة. وبذلك انتهت مهمتهم فى ذلك اليوم وخرجوا.

الفصل الثالث عشر

انتشر نبأ إلقاء القبض على سرور فى جميع أنحاء مدينة زنجبار مثلما انتشر نبأ هروبه. بالغ الناس فى الموضوع وأصبح النبأ يتناقل على ألسنتهم وكأن عفريتا من الجن تم إلقاء القبض عليه. وما عرفه الناس فى المدينة هو ما يتعلق بإلقاء القبض عليه. أما ما جرى له فى معتقل التعذيب فلا أحد يعرفه سوى الموجودين فيه. فالطباخون الذين يوزعون الشوربة الصباحية والوجبة الكاملة هم صغار الجواسيس الذين ينقلون كل ما يحدث هناك إلى كومبا كومبا. فبمجرد حصولهم على أى خبر سواء أكان صحيحا أم غير صحيح فإنه لا يبيت إلا ويصل إلى حمزة وأقرانه. ولما جاءهم خبر سرور قال عنبر: "لقد حذرته."

كان الجميع فى زنزاناتهم تتنازعهم نوبات الحزن والاكتئاب، وقد ملوا من الحياة فى السجن. فقد مرت الأيام الطوال وهم مازالوا قابعين فيه ولا يعرفون حتى متى، ولا يعرفون ما سوف يطلب منهم عندما ينتقلون إلى حيث يؤخذون. فكانت الأخبار التى تصل إليهم تزيدهم ضعفا، إلا أنهم جميعا كانوا على الموقف والمبدأ القائل: "على الرجل أن يصمد."

كان حمزة مسندًا ظهره على الباب، سارحا بفكره بعيدا خارج السجن، يفكر فى زوجته خديجة، وكيف أنها تعانى وحدها مع المولودة الصغيرة، جاءه خبر أن خديجة تم طردها من البيت لعجزها عن سداد قيمة الإيجار. ليس هذا فحسب وإنما طردت بازدراء وقلة احترام حيث تم إلقاء أمتعتها وممتلكاتها فى الشارع، والجيران كلهم يشاهدون ذلك من نوافذهم. لم يجرؤ أحد أن يساعدها خشية اتهامه بمساعدة زوجة الخائن. كان حمزة يتخيل أنها ذهبت إلى مسقط رأسها كيسيماماجونجو عند والدها السيد مفتاح. فذهب حمزة هو الآخر بخياله إلى هناك وأخذ خديجة سريعا واتجه بها مباشرة إلى كومبا كومبا وأدخلها الزنزانة وأقعدها أمام عينيه، مسندًا ظهره على الباب، ينظر إليها. إنه الوحيد الذى كان يرى خديجة داخل الزنزانة، واقفة أمامه، ناظرة إليه بعينين عاشقتين تناديه جنسيا، واضعة رداءً على صدرها يبرز ثدييها المنتفختين، وتناديه: "تعال، تعال يا حبيبى" كم كان حمزة يتمنى أن ينهض ويضمها إلى صدره، ولكن أنَّى له هذا! إنها مجرد أحلام اليقظة داخل السجون.

أما خلفان فقد جاءته الأخبار من بيمبا بأن زوجته لما وصلها رسالة تقول أن زوجها هو كبير الخونة وأنه لن يفرج عنه البتة وأن الحكم عليه سيكون الشنق لا محالة، أصبحت الحياة لها صعبة، وضاقت بها الدنيا، حتى وصل بها الأمر إلى أكل الديدان تستخرجها

من الشاطئ. فلم تستطع التحمل. وذهبت آيسة إلى القاضى تطلب الطلاق. وتزوجها رجل آخر. من هنا يتألم خلفان وينحف يوميا.

بينما فرج يمسك بقطعة من مكنسته يستخدمها فى قتل الذباب، ومع تهالكها لطول عمر استخدامها كان ينظر هنا وهناك متصيدا الذباب لضربه بها حتى جمع عددا كبيرا من الذباب المقتول. كان منشغلا تماما بهذه المهمة وكأنه يستطيع أن يتخلص من كل الذباب المضايق لهم داخل زنزانتهم. ولكن هيهات هيهات، فكلما قتل ما يطارده كلما ازداد الذباب وكأنه يتنافس معه، فيتدفق إلى الزنزانة بأعداد أكبر.

توقف عن ضرب الذباب ونظر إلى حمزة الذى كان بفكره بعيدا جدا خارج السجن. ثم عاود مهمته فى ضرب الذباب الذى تكاثر جدا لتجمعه على ما تم قتله من ذباب فقام بضربة قاضية على هذا التجمع فقتل الكثير منه. وأخذ بجمع كل المقتول بشكل منظم ليكون طعما يجذب المزيد إليه فيقتله بضربة واحدة وهكذا دواليك، لكن الذباب ما كان فى حاجة إلى طعم، فهو آت آت سواء بوجود طعم أم لا، فالبيئة كلها طعم. من هنا أدرك أنه لن يتمكن من الانتهاء من ذلك لأنه كلما قتل كلما أتى المزيد من الذباب الحى. نظر مجددا إلى حمزة وكم هو شارد وغارق فى أحلام اليقظة لا يحس إطلاقا بمن حوله داخل الزنزانة، فناداه: "يا حمزة."

"هى" رد عليه وكأنه كان بعيدا جدا، وكأنه أُوقظ فجأة من نوم. إنه أيقظه من حلمه الذى كان يحلم به فى يقظته، وأزال من أمام عينيه زوجته الحبيبة التى أحضرها من حيث كانت وأقعدها معه داخل الزنزانة. "ماذا تقول؟" سأله حمزة.

هنا قام فرج باغتراف غرفة ماء وصبها على تلك الكمية الكبيرة من الذباب المقتول لسوقه من خلال ماسورة الصرف مع دفعه بقطعة المكنسة حتى خرج مع الصرف خارج الزنزانة.

"إنك تقول يا حمزة أن الشهود قد تم إعدادهم، وهم جاهزون. فمن هم هؤلاء الشهود؟ " سأله فرج.

"هم زملاء لنا، وهم منا، من الذين تم تعذيبهم عذابا أليما وعجزوا عن تحمل العذاب فوافقوا على كل شيء طلب منهم سواء أكان حقا أم باطلا."

"هل تعنى أنهم شهود مكرهون؟" سأله فرج.

من أين تعتقد أن بإمكانهم الإتيان بشاهد يقبل بنفسه وبمحض إرادته الشهادة؟" أجابه حمزة بسؤال.

"هل سبق لك أن تقابلت ولو بشاهد واحد من شهودهم؟"

"لم يسبق لى ذلك، لكننى أعرفهم جميعا."

"كيف عرفت أنهم وافقوا على أن يكونوا شهودًا إذًا؟"

"لا تسأل أسئلة كثيرة يا فرج وتجعل من نفسك قاضيا لنا فى كومبا كومبا. ما عليك إلا الانتظار حتى اليوم الذى سننقل فيه إلى معتقل التعذيب."

"ألم أكن هناك؟"

"أجل كنت هناك، وأظن أن المجال لم يفسح لك لمقابلتهم. ويوم أن يفسح لك المجال لمقابلة أحدهم فإنك ستتعجب. ستجدهم قد أصبحوا كالمسحورين يتفوهون بالكلمات عشوائيا ويختلقون لك قصصا لا علاقة لك بها على الإطلاق."

"ثم ماذا؟"

"لا شىء اسمه ثم ماذا، فإنك ستكون عندئذ داخل مصيدة للفئران فى داخلها المستهدف وغير المستهدف."

"ولكن أليست الاعترافات كلها مكتوبة؟" سأله فرج.

"أجل، مكتوبة ولكن ما سوف يسمع لن يكون ما كتبته أنت بل ما كتبوه هم."

"لكن القانون ينص على وجوب أن يسمع كل طرف."

"لا تأت لنا بالنصوص القانونية هنا. منذ متى يطبق القانون فى هذا البلد؟" قال عنبر منفعلا من مكان جلوسه مسندًا ظهره إلى الحائط.

"القانون موجود ولكن لكل دولة نظامها التشريعى الخاص." قال فرج.

"انت يا فرج تتباهى بأنك رجل قانون، فاشرح لنا القانون المنظم لنا هنا. فنحن محبوسون كل هذه المدة، وعذبنا بكل أنواع التعذيب، فهل تعتقد بوجود نظام للقانون فى هذا؟" سأله عنبر.

"القانون موجود ولكن المشكلة تكمن فى تطبيقه أو عدم تطبيقه."

"هل تعذيب شخص أجبر على شهادة الزور هو تطبيق للقانون؟" سأل خلفان بصوت هادئ وقد خرج من تفكيره فى زوجته.

"تعذيب الفرد شىء، وشهادة الزور شىء آخر. فكلنا عذب ولكن لا أحد منا افترى أو اختلق، فهل هو منا؟" سأل فرج.

"إنك يا فرج لم تتعرض للتعذيب الحقيقى، لقد قاموا فقط بتدليكك." قال كوندو مازحا معه.

"من ذا الذى تم تدليكه؟ أنا؟ انظر! انظر!" التفت فرج إلى كوندو ثائرا مما قاله، وأراه ظهره وما عليه من آثار الجروح والتهتكات التى وقعت به من سياط شجر الجوافه.

"إنك لم تعذب ياسيدى، بل ماأصابك كان لمسا لطيفا فقط". قال له كوندو مازحا مرة أخرى.

"إذا كنت تسمى ما حدث لى باللمس اللطيف فما هو شكل التعذيب إذاً؟

"إن الذين عُذبوا بمعنى الكلمة هم الموجودون هناك، هم الذين وافقوا على كل شىء، هؤلاء هم المعذبون فعلا. فكر فى الأمر يافرج، كيف يمكن لإنسان عاقل رشيد يعرف الصالح من الطالح أن يوافق على تورطه هكذا بينما هو يعلم عن يقين أن عقاب ما قد وافق عليه هو الإعدام؟! سأله كوندو.

نظر حمزة إلى كوندو، وخال بخاطره ما أصابه هو عندما طلب منه أن يوافق على كل ماطالبوه به أولئك الذين أخذوه ليلا وأذاقوه ما أذاقوه طوال الليل، وقال: "اسكت يا فرج. من الأفضل أن تسكت حتى توفرعلى نفسك الجهد ولا يستغل شخص آخر كلامك، فأنت لم تعذب بل دهنت فقط. وهذا ما يقولونه هم بأنفسهم."

"أنا دُهنتُ؟" سأل فرج.

انفرط سويد فى الضحك بشدة، فاندهش كل من فى الزنزانة، لأن هذا ليس من طباع سويد لما يتمتع به من هدوء تام، وقلما تسمع صوته.

"علام تضحك يا سويد؟" سأله فرج.

"أضحك على ما قيل عن الدهان.ففى اليوم الذى أخذونى سمعتهم يقولون نفس الشىء: هاتوا به إلى هنا لندهنه. وعندها سألتهم: لتدهنونى؟"

"ماالمضحك إذاً؟" سأله فرج.

"المضحك هنا هو أننى عندما سمعت أنهم يريدون دهانى ظننت أنهم يريدون تدليكى بالمراهم، فتعجبتُ و تساءلتُ منذ متى يُدلك الناس فى السجن! فإذا بهم ينهالون على بالعصى وكأنهم يقتلون ثعابين."

"ثم ماذا؟" سأله عنبر.

"ضربونى حتى تبولت على نفسى وأنا رجل."

"فليكن ضحكا معتدلا." قاله فرج. "وهل هذا هو معنى الدهان؟" سأله فرج.

"نعم هذا هو معناه ." أجابه سويد، وسكت كعادته ولم يشارك بعد ذلك فى محادثتهم.

"فلنترك الآن يا حمزة مسائل الدهان واللمس اللطيف والتدليك، ونحاول تحليل هذه القضية، وكيف سيتم إدارتها قانونيا؟

"هيا" قال عنبر. "فلننتظر هذا القانون، قانون النمر داخل حظيرة الماعز."

"ما هو هذا القانون " سأله فرج.

"ألا تعرف قانون النمر داخل حظيرة الماعز؟" سأله عنبر هو الآخر.

"قانون النمر داخل حظيرة الماعز هو التمزيق إربا إربا، والشنق شنقا شنقا، والقتل قتلا قتلا. هذا هو قانون النمر داخل حظيرة الماعز " أكد له عنبر.

نظر فرج إلى عنبر مندهشا، واعتبره كالمختل عقليا، وسأله: "هل هكذا تفكر أنت؟"

"وكيف تفكر أنت؟" سأله عنبر هو الآخر، وهو يمسح بيديه على لحيته، وعيناه شاخصتان صوب فرج دون أن يطرف له رمش، مسندًا ظهره على الحائط في استقرار وهدوء تام، ممددًا رجليه حتى نهاية حصيرة نومه.

نظر فرج إلى حمزة، وقد عاد حمزة لحالته الطبيعية وعاد بفكره داخل الزنزانة وقال: "هل تسمع يا حمزة ما يقوله؟"

"نعم، هكذا ما يقوله له برجه." أجابه حمزة.

"أظن أن برجه يوجهه إلى الطريق الخطأ." قاله فرج.

"اتركونى وبرجى وانتظروا أنتم قانونكم." قاله عنبر بازدراء.

نظر إليه فرج وكأنه يريد أن يقول له شيئًا، ولكن قبل أن يفتح فاه ليقول ما يريده قال له عنبر: "تنظر إلى وكأنك لا تعرفنى."

"ما كنت أظن أنك غبى إلى هذا الحد." قال فرج لعنبر.

"ماذا تقول؟" سأله عنبر.

"ألم تسمع ما قلته؟" سأله فرج هو الآخر. "إذا كنت لم تسمع فإنى أقول لك ثانية: "ما ظننت أنك غبى إلى هذا الحد."

"أنا غبى؟ أنا؟ أنا؟" قاله عنبر مشيرًا بسبابته إلى صدره.

لم يتفوه عنبر بكلمة أخرى، بل انقض على صدر فرج فجأة، فى دهشة من كل الموجودين حيث لا يعرف أحد منهم كيف قفز عنبر من مكان جلوسه وألقى بنفسه هكذا على صدر فرج كما ينقض الأسد على الغزال ليفترسه.

ونظرًا لضعف فرج فإنه سقط بظهره على الأرض وعنبر جاسم على صدره يخنقه، وهو فى حالة هياج وغضب شديد وكأنه ملبوس بالجان، فلا يسمع البتة الصيحات والصرخات التى يطلقها كل من فرج وزملاؤه الموجودون فى الزنزانة، يرجونه أن يكف عما

يفعل قائلين له: "صل على النبى، تقتل!" قام عنبر بخنق فرج بكل ماأوتى من قوة قائلا له: "إذا كنت أنا غبى، فسأريك اليوم غباوتى."

فهبوا جميعا هبة رجل واحد بنية ضرب عنبر، ولكن عنبر بقوته ضرب بمرفقه إلى الخلف فأصاب خلفان، وتنحى خلفان ولم يجرؤ على الاقتراب من هذه المشاجرة مرة أخرى. وحاول كوندو أن يخنقه من الخلف فنهض عنبر وضربه ضربة واحدة برأسه فشجها وسالت منها الدماء وانتفخت شفتاه. ولما أردا عنبر الجسوم مرة أخرى على فرج، نهض فرج بسرعة ولجأ إلى ركن من أركان الزنزانة ماسكا بيد مكنسة، وانزوى منتظرا عنبر يقترب منه.

لما رأى كوندو أن الدماء تسيل منه بدأ يصيح قائلا: "ياعريف، يا عريف، ياعر..." وقبل أن يناديه المرة الثالثة قفز إليه حمزة وكمم فاه المليء بالدم لأنه يعلم أن العريف إذا جاء فإنه سيتم نقلهم جميعا إلى الزنزانة الظلماء يحبسون فيها لمدة أسبوع، وحمزة يعلم عذابها جيدا. وجه كوندو لكمة إلى حمزة، ولكن حمزة صدها وأمسك بذراعه ولواه من الخلف، وتمكن من السيطرة عليه.

وقف عنبر وفرج ينظر أحدهما إلى الآخر. عنبر قابض لكمته، وفرج ماسك عصاه قائلا له: "إذا اقتربت خطوة واحدة فإننى سأحطم رأسك." أما حمزة فما زال يسيطر على كوندو تماما، وكلما حاول

الأخير أن يتفلت منه كان حمزة يلوى ذراعه أكثر فتؤلمه أكثر فيضطر إلى الانصياع.

أما خلفان فإنه كان جالسًا فى ركن الزنزانة يعالج نفسه من الآلام التى لحقت به من ضربة الكوع. كانت الضربة قد أصابته إصابة مباشرة فى عينيه فتورمت وهو يشكو قائلاً لهم: "كفوا يا رجال عن هذا، استعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، فالمحن قد حلت بنا، وأنتم تبحثون عن المزيد!" كان عنبر واقفا كما هو - ينظر إلى فرج - ضخم الجسم مفتول العضلات، واسع الصدر يعلوه الشعر الكثيف، مرتفع الكتفين، قوى الذراعين، واقفا فى مواجهة فرج الضعيف النحيف الذى تستطيع أن تعد أضلاعه البارزة. قزما أمام عملاق. وما زال فرج ممسكًا بالعصا ناظرا إلى عنبر العملاق. ومهما حاول فرج فإنه لن يستطيع إطلاقا منازلة عنبر. تنهد عنبر بعمق ورجع ببطء إلى حصيرته وجلس ووضع رأسه على ركبتيه يبكى.

وحمزة بدوره ترك كوندو ورجع إلى مكانه عند الباب وجلس. وقام فرج ورمى العصا جانبًا فأحدثت صوتًا عاليًا. نظر كل منهم للآخر مستغربين، فساد الهدوء. رفع عنبر رأسه ونظر إلى حمزة وعيناه حمراوان يمسح دموعهما نادما على ما فعله. رأى أنه أهدر سمعته فى كونه أكثرهم صبرا فى الزنزانة. كما أهدر كونه قدوةً لزملائه، وعمودا بنوا عليه أخوتهم وصحبتهم وسط هذه الحالة من

الضنك السائد داخل هذه الزنزانة، حتى ارتسم الضنك على وجوههم بلا حدود وبلا انقطاع، ويلازمهم ليل نهار دون أن يعرفوا متى سينتهي. وكلما حاولوا إحياء الأمل وجدوا أنفسهم في اليأس، متشاجرين مع بعضهم البعض. وهنا سأل عنبر وهو في حالة ندم: "متى سنخرج من هذه المحنة التي لا تنتهي؟"

"سنخرج ياعنبر، سنخرج." أجابه حمزة متذكرًا ما قاله له عبده في ذلك، فعلى الرغم من استمرار بقائه في السجن فإنه لم ييأس. ساد الصمت في الزنزانة كلها إذ إن الجميع التزموا الصمت وكأنها ماكانت على الإطلاق مسرحا للاحتكاكات والمخانقات. كل منهم جلس يفكر دون أن يعرف إلى متى سيظل قابعا داخل تلك الزنزانة، معلقة أرواحهم فلا وجود لهم في الدنيا ولا وجود لهم في الآخرة.

قطع خلفان هذا الصمت بأن قال: "الفاتحة" وقرأ الفاتحة، ودعوا الله تاركين أمرهم إلى الله تعالى، ولتستمر الحياة كما هي بلا جدوى فيما أمامها ولا فيما وراءها حيث أنها توقفت كما توقفوا هم داخل الزنزانة.

كان من المعتاد لهم أن يظلوا في حالة من الكآبة والوهن طوال النهار حيث يبقون وحدهم داخل السجن، لكن الحيوية كانت تعود إليهم بعد الخامسة مساء عندما يعود المسجونون من حيث ذهبوا

لخدمة سنوات الحكم عليهم. وتعود بعض هؤلاء المسجونين على اختلاس النظر من خلال ثقب الباب، وكانت بعض قطع السجائر عن طريقهم تدخل الزنزانة، وكذلك الشائعات الكاذبة يأتون بها من الخارج من حيث أتوا. وكانت عقولهم عقول طفل يبكى على قطعة حلوى"بمبم" فلما يُقدَّم له قبضة كف على أنها الحلوى يسكت فى الحال. كانوا يريدون سماع أى شىء يعطيهم أملا سواء أكان صدقا أم كذبا. كان الجميع صامتا، سائما من الشجار والجدال، منتظرين عودة المسجونين ليسمعوا منهم الجديد من الخارج. كل واحد منهم وهم فى هذه الحال مستغرق فى أحلامه الخاصة. سمعوا صوت فتح بوابة الدخول إلى كومبا كومبا ودخول أشخاص. ارتعب الجميع وكأنهم أوقظوا فجأة من نوم. وقبل أن يتساءلوا فيما بينهم فتح باب الزنزانة، وإذا بحارس السجن وضابط الأمن واقفان على الباب ينظران إليهم. نظر ضابط الأمن إلى حمزة وقال له : "تعال أنت."

"أنا؟" سأله حمزة.

"نعم أنت." أجابه ضابط الأمن.

خرج حمزة كما هو بالشورت، وأغلق الزنزانة، وترك كل من بقوا فيها ينظر كل منهم للآخر، كل يفكر فى شىء يختلف عن الآخر. وجد حمزة فى الخارج خمسة أشخاص جالسين أمام الكشك

الذى يجلس فيه المسجونون لتناول الطعام، اثنان منهم من أفراد الجيش بزيهم العسكرى ويعرفهما حمزة جيدا، فكلاهما من ضمن الذين يقومون باستجواب المتهمين فى معتقل التعذيب، وآخران هما ضابطا أمن فى زى مدنى، يحمل أحدهما مجموعة من ملفات. أما الخامس فهو السجان الذى كان يقف جانبا مع مجموعة من المفاتيح.

كان قلب حمزة قد مات من هذا، فلم يعد يرهبه شىء، ولن يكون هناك جديد فى الأمر لم يواجهه من قبل، ما بقى هو تقريبا إخراج روحه. كلهم كانوا جلوسا وحمزة واقف أمامهم ينظر إليهم هزيلا نحيفا، أضلاعه بارزة، وبطنه منكمشة، وشفتاه تبدوان كبيرتين بسبب انكماش وجهه. وكان يحملق فيهم.

ضابط الأمن الذى يتفحص الملفات سأله: "ما اسمك أنت؟" سأله وكأنه لايعرفه بينما هو يعرفه، وكانا فى الخارج يتبادلان التحية والحوار جيدا قبل إلقاء القبض على حمزة. ويتظاهر اليوم بأنه لا يعرفه، فالتفت إليه وأجاب:

"حمزة."

أخذ الضابط يكرر اسم حمزة وهو يتفحص الملفات واحدا واحدا: "حمزة، حمزة، حمزة" حتى أخرج ملفا من المجموعة وفتحه ونادى عليه:

"تعال هنا."

و أعد له جيدًا الملف وأعطاه قلمًا: "وقع" أمره بالتوقيع.

"انتظر حتى أقرأ أولاً" حمزة رجاه.

"تقرأ ماذا؟ وقِّع فقط، ولا تضيع وقتنا" أمره ذلك الضابط الحربى ثائرًا.

نظر حمزة فى الأوراق الكثيرة بداخل الملف فوجدها مكتوبة على الآلة الكاتبة وبطريقة جميلة، وشعر عند محاولته الاطلاع عليها سريعًا بأنها تحوى بعض البيانات عن اغتيال الزعيم. "أقول لك لا تضيع وقتنا" صرخ فيه ضابط الجيش، فوقع حمزة وأعيد إلى زنزانته.

تم إخراج الجميع، الواحد تلو الآخر وأُجبِروا على التوقيع فى الأوراق الموجودة داخل الملفات، دون أن يعرف أحد منهم شىء عن البيانات التى تحتويها هذه الأوراق وما فيها من اختلاقات وافتراءات من قبل أولئك السادة أصحاب النفوذ والسلطان عليهم.

فى زنزانتهم جلسوا ينظر كل منهم إلى الآخر، ولم يتحدث أحد، فالكل مندهش.

"أترون هذه الأمور؟" سأل خلفان.

"أى أمور؟" سأل عنبر.

"مسائل إجبارنا على التوقيع على البيابات حتى من غير أن يسمح لنا بالاطلاع عليها، ثم يقول لنا السيد فرج أن هناك قانونا." قاله خلفان محرجًا فرج.

"تلك هى مجرد بيانات، أما فى المحكمة فبإمكانك أن توافق عليها أو أن ترفضها." شرح فرج.

"كيف ترفضها وقد وقعت عليها؟" سأل عنبر – وقد هدأ من غضبه – بهدوء. استرجع كل منهم بذاكرته الأيام العصيبة فى معتقل التعذيب عندما أوسعهم ضربا وتعذيبا فتفوه كل منهم بكلمات، وأخذ كل واحد منهم يتذكر ما قاله صدقا كان أم كذبا.

لما جاء وقت عودة المسجونين من أعمالهم الشاقة إلى السجن عمت الفوضى مرة أخرى فى كومبا كومبا، حيث مر عليهم أحد المسجونين وألقى تحت باب غرفتهم بسيجارتين من ماركة النجمة. وقام آخر باختلاس نظرة من ثقب الباب وصاح فيهم: "ستعدمون جميعا."

كانوا يساقون إلى زنزاناتهم كالماعز القادمة من مراعيها، بينما أبواب تفتح وتغلق وضوضاء تسمع فى كل أنحاء كومبا كومبا، وهذه صورة يومية للمكان فى مثل هذا الوقت يوميا.

فى يومهم هذا ما كانوا فى حاجة لسجائر ولا لأحاديث ولا لشائعات مفتريات يأتى بها المسجونون العائدون من مواقع أشغالهم

الشاقة خارج السجن، لأن كل فرد فيهم كان يفكر فيما وقّع عليه من بيانات توقيعا حيا يدل على اعترافه بأنه هو الذى أدلى بها شخصيا.

"لقد قلت لكم." قال فرج. "إن القضية الآن فى المحكمة، وهناك لا بد من تطبيق القانون."

كان الليل قد عسعس، والظلام قد ساد فى الأركان، وها هو وقت ارتكاب التجاوزات من المسجونين الحشاشين. ها هو وقتهم فى لف مخدراتهم بالبانجو وإشعالها الواحدة تلو الأخرى ثم يقومون بتناوبها. عندئذ تنتشر رائحة البانجو فى كل كومبا كومبا لدرجة تظن معها أن البانجو مسموح لهم به فى الداخل. وحتى لو لم يكن مسموحا لهم فإنه لا يعتبر مخالفا للقانون إلا فى الخارج فقط. وهم ليسوا بالخارج وإنما فى الداخل والداخل بالنسبة لهم لا تحكمه قوانين.

ومدخنو السجائر يسيرون كذلك على هذا المنوال، فالسيجارة تقطع قطعا صغيرة، وكل قطعة يدخنها أكثر من شخص، عسى كل منهم ينوبه نفسان أو ثلاثة، ويتم تدخين كل قطعة حتى آخرها دون أن يبقى منها شيء وذلك عن طريق تطويلها بلفة من ورق الجرائد للتأكد من نفادها تماما. وهناك السجائر المحشوة بالبانجو وهى عزيزة المنال ومن يمتلكها فهو ملك والسجن له مملكة.

والليل فى الزنزانات هو موعد الذهاب للمراحيض للتخلص مما فى بطونهم من براز مختزن طوال النهار، كل واحد فيهم ينتظر الآخر أن يكون هو البادئ فى قضاء الحاجة هذه مستخدما دلو الفضلات. وعادة مايؤدى ذلك إلى أنهم جميعا يدافعون الأخبثين، أى أنهم يقاومون إلحاح البراز عليهم، فلا يكون البادئ منهم إلا ذلك الذى لم يستطع مقاومة الأخبثين أكثر مما قاوم، وعليه تقع مهمة حمل الدلو فى الصباح لتفريغه. فكما كان أول من تمتع بالجلوس على الدلو ليقضى حاجته فعليه فى مقابل هذا التمتع أن يكون هو الحامل له فى الصباح بعدما تفتح أبواب الزنزانات لتفريغه. وكانوا جميعا يتأففون من ذلك، ولكن لابد من احترام هذا القانون فيما بينهم. وإذا كانوا لايحترمون قوانين الحكومة التى خالفوها وسجنوا من أجلها فإنهم يلتزمون حرفيا بذلك القانون الداخلى فيما بينهم. وبمجرد أن ينتهى البادئ من قضاء حاجته، فإنهم جميعا يتناوبون على الدلو الواحد تلو الآخر لقضاء حاجتهم حتى يمتلئ الدلو عن آخره. أما فى زنزانة حمزة ورفقائه فكان الأمر مختلفا فى هذا حيث لايطبقون هذا القانون الداخلى بل يتناوبون مهمة تفريغ الدلو فى الصباح. وكانت النوبة فى ذلك الصباح هى لعنبر. وإذا كان المسجونون الآخرون لايحبون القيام بتفريغ الدلو فإن حمزة وزملاؤه ينتظر كل منهم دوره

بفارغ الصبر للقيام بهذه المهمة لأنها تكون فرصة للواحد فيهم أن يخرج ويقابل المسجونين الآخرين. ولما كان الدور فى ذلك الصباح لعنبر فإنه بمجرد أن فتح الحارس الباب وأمر بإخراج الدلو فإن عنبر حمله بسرعة وخرج به من الزنزانة. وكانت بالوعة تفريغ الفضلات مفتوحة تستقبل كل الدلاء. وكل المسجونين منتشرون فى كل أنحاء الساحة، والهواء ملىء بالروائح النتنة الناجمة عن كل الفضلات المصبوبة فى البالوعة مع الروائح الكريهة للمسجونين. وقف عنبر بعد أن أفرغ الدلو ووضعه على الأرض ينظر هنا وهناك باحثا عمن يتحدث إليه، فصاح فيه الحارس: "أنت!"

نظر إلى الحارس فوجده يحملق فيه ثائرا ماسكا بشومته فى يده، وقال له: "ارجع إلى الداخل بسرعة!"

حمل الدلو ورجع إلى الداخل، فأغلق الحارس الباب بإحكام، وترك المسجونين يمسون وجوههم بالماء منتظرين الشوربة وقطع الكاسافا. لما دخل عنبر الزنزانة نظر الجميع إليه منتظرين منه أن يخبرهم بأى شيء جديد يسليهم ويعطيهم الأمل، لكنه لم يكن لديه ما يخبرهم به. وبدأ يوم جديد وهم مازالوا داخل الزنزانة. وكلما حاولوا صرف أنفسهم عن التفكير فيما هم فيه يعودون إليه يحاصرهم الضنك وتكتنفهم الأحزان الثقال.

الفصل الرابع عشر

ليلة أمس نام كل من فى البيت وليس لديهم أى مبلغ من المال ولو سنتا واحدا، لأنهم يمرون بضائقة مالية حادة، وبحالة من الفقر الشديد. كانت خديجة جالسة فى الغرفة غارقة فى بحر لجى من التفكير فى معاناتها. لقد تعودت على حياة الاعتماد على الزوج فى كل شيء، ولكنها الآن أصبحت هى الأم والأب. والطفلة ليس لديها اللبن، ولا يوجد خبز وجبة الإفطار. ضاقت الدنيا بخديجة. واشتعلت نار حبها وعشقها لزوجها فى أعماق قلبها. فنذرت نذرا بأنها يوم أن يفرج عن زوجها فإنها ستتصدق على أهل الحى بأكمله.

ولقد قدمت القرابين إلى جميع الآلهة التى تعرفها. والآن تفكر، والطفلة منخرطة فى البكاء "نجى! نجى!" وضعتها على فخذيها وأعطتها ثديها، ولكن الطفلة لا تريد لبن أمها. طفلة مزعجة، كثيرة البكاء، تعتقد أمها أنها تبكى أباها. وضعتها على فخذيها تربت عليها وتغنى لها لتهدأ.

"عندما حملت بطنى

كان تعبى ومشقتى

فلا نوم لى طوال ليلى

وعند سعيى لروحى

يقال لى الولد ليس ملكى

وإنما ملك زوجى."

ولكن الطفلة لا تهدأ ولا تكف عن البكاء، "نجى! نجى!" وصوتها يعصف بكل البيت، وخديجة تلاطفها وتعطيها حلمة ثديها فى فمها وتغنى لها:

"ذلك المركب القادم

لا بد وأنه يحمل شىء لى

فيه كردان ألضم لآلئه

على قدر ومقاس رقبتى

فإذا ما جاءنى لا أتقلده

ولا أهديه لصاحبة لى

وإنما أذهب أعطيه أمى

فأمى هى مكمن سرى."

انتفضت الطفلة رافضة ثدى أمها ورافضة التجاوب مع الأغانى الجميلة التى تغنيها لها أمها لتهدئتها. ملأ بكاؤها أركان البيت. فتخلت خديجة عن مواصلة تهدئتها بعد أن غنت لها:

"اكبرى يا بنيتى اكبرى

اكبرى لأعطيك نصيحتى

لأعطيك قطيعا من الأبقار

وقطيعا من الضأن فتشربين لبنا

من الله مولاك الكريم

أدعو الله لك بثلاث دعوات

الأولى أن يعطيك الصحة

الثانية أن يرزقك المال

الثالثة أن يهبك حب الناس."

إن خديجة لا ينقطع أملها، وقد أصبح بكاء طفلتها شيء معتادا لها، فلم يعد ضوضاء ولا أذى. فعادت تهدئها وتغنى لها:

"لا تبكى لا تبكى

فبكاؤك يبكينى

ادخرى دموعك

فتبكينى بها عند موتى

آه! آه! آه! يا بنيتى

آه! آه! آه!

كانت خديجة تغطى صدرها برداء، وأرخته حتى نزل إلى فخذيها، فانكشف أحد ثدييها، وأعطته فم طفلتها. امتلأ الفم بحلمة الثدى لكن الطفلة لا تريد أن ترضع.

تغيرت خديجة، ولم تعد هى خديجة صاحبة الجسد الممتلئ من رأسها حتى قدميها. لم تعد هى خديجة ذات الخدين البارزين. إنها كانت كذلك لما كانت مع حمزة، والآن هى مع مولودتها وفى بيت والدها السيد مفتاح الذى يعيش على يومه وشهره. شهر على ما يرام، وشهر لا شيء عنده، ليس له من أعمال يومية معينة، فاليوم يأتيه من يقرأ له قصة أهل بدر تبركا، وغدا يأتيه عراف يريده أن يبطل له مفعول السحر، وبعد غد قد يأتى ثالث يريده أن يقرأ له الفاتحة ويدعو له. هكذا تدور عجلة حياته.

نحفت خديجة من رأسها وحتى قدميها، ولكن صورتها تحتفظ بهيبة الجمال عندها. ضاقت بها الدنيا بمصائبها ومعاناتها وتفكر فى زوجها.

منذ أن خرج السيد مفتاح لصلاة الفجر فى مسجد ماباتى Mabati لم يرجع حتى الآن. إنها التاسعة والنصف تقريبا. اشتد قلق خديجة لأن عملية القبض على المواطنين نظام متبع من قبل السلطات. إذا ما غاب قريب لك فاعلم أنهم اعتقلوه واقتادوه إما إلى كومبا كومبا أو إلى معتقل التعذيب. هدأ قلقها لما سمعت وقع نعال أبيها يقترب من البيت ببطء، متلفعا بتلفيعته، مسبحا بمسبحته، مرتديا جلبابه الطويل الأبيض المزرر حتى الرقبة، وطاقيته الجميلة ذات النقش الزهرى الصغير المهداة له من ماكوندوتشى Makunduchi. كان يُهمهم بالتسبيح مستخدما حبات مسبحته حبة حبة. لم يدخل المنزل ولكنه جلس أمامه ونادى على ابنته،

"زالحاتا!"

"ليست موجودة." أجابته خديجة من الداخل.

"أين ذهبت؟"

إننى أرسلتها إلى البيت المجاور."

"تعالى أنت إذًا."

نهضت خديجة، وأرقدت الطفلة بهدوء على سريرها. كان النوم قد أخذها وتخشى أن تستيقظ وتعاود البكاء فأرقدتها بحذر،

وأحكمت ربط ردائها، وغطت رأسها، وذهبت تستمع إلى ما يريده السيد مفتاح. كان مازال جالسا على المصطبة أمام البيت ومعه مسبحته. ولما رأى خديجة أدخل يده فى جيبه وأخرج عشرين شلنا وقال لها: "اذهبى ابحثى عن خبز، واشترى بالباقى أرزا وسمكا إذا مر عليكم بائع السمك." قال ذلك دون أن يضيف كلمة أخرى.

بدأت خديخة تفكر. من أين ستحصل على الأرز، ولم يأت دور العائلة بعد للحصول على تموينها من الجمعية الاستهلاكية. إذا ما ذهبت إلى هذه الجمعية فى غير يومهم المحدد لهم فإنها لن تحصل على الأرز، حتى ولو بكت دمًا.

ومن أين ستحصل على الخبز، وطابور الخبز طويل طويل يصطف فيه الناس من الليل ويسهرون انتظارا لرغيف الصباح. وعلى الرغم من ذلك فإن الحصول على هذا الرغيف يتوقف على الحظ، لأنه فى بعض الأحيان يضطرب الطابور من تدافع الناس، فيتشاجرون ويكادون يميت بعضهم البعض.

"لن تستطيع زالحاتا مواجهة ذلك، فمن الأفضل أن أذهب بنفسى." حدثت نفسها بذلك.

وبينما هى فى هذا التفكير دخلت السيدة فاراشو الغرفة ومعها سلطانية شوربة وقالت لها: "اشربى بنيّتى لتدفئى بها معدتك."

"وهل انتهيتم أنتم من الشرب." سألتها خديجة.

"إنها متوفرة فى المطبخ." أجابتها السيدة فاراشو.

وقفت السيدة فاراشو ناظرة إلى ابنتها خديجة ثم إلى حفيدتها. إنها تعبت من البكاء، والآن مستغرقة فى النوم مع بزازة فى فمها. انهمرت الدموع من عينيها، ومسحتها بردائها الذى تكتسى به، ونظرت ثانية إلى خديجة، وعيناها ممتلئتان بحنان الأمومة.

سحبت كرسيا بالقرب منها، مصنوعا من الحبال، وجلست عليه تنظر إلى ابنتها. إن السيدة فاراشو فى بداية المرحلة الأولى من الشيخوخة ولكنها ضعفت نظرا لصعوبة الحياة. فظهر الشيب فى مقدمة الرأس فقط وكأنه قطعة من طرحة بيضاء. وهى بيضاء اللون مع نقاط سوداء صغيرة منتشرة على بشرة الوجه. لها سوالف بيضاء ممتدة تحت الذقن. والسواحيليون يؤمنون بأن هذا يدل على حسن الطالع. وهى رفيعة الجسم متوسطة القامة مستديرة الوجه. "هكذا نتعلم من شدائد الحياة." قالتها تسلية لخديجة وبصوت هادئ، وهكذا يكون صوتها عندما تتحدث. إنها هادئة دائما.

"ولأن الطفلة نائمة دعينى أخرج بحثا عن الخبز." قالتها خديجة ونهضت من السرير حيث كانت جالسة.

"من أين ستأتين بالخبز فى مثل هذا الوقت يا بنيتى: " سألتها السيدة فاراشو. "سأحاول فى مخبز كيموتو Kimoto."

" هل يوجد خبز فى مخبز كيموتو فى هذا الوقت؟"

"سأحاول، وإذا لم أنجح فسأذهب إلى مخبز جيريجى Girigi"

"من الأفضل عند مخبز جيريجى لأننى أسمع أن هناك لاتوجد طوابير."

"أيوجد مكان من غير طوابير فى أيامنا هذه يا أمى؟" سألتها خديجة بانفعال وهى تبحث عن عباءتها.

"آه يا ابنتى! لا ترفعى من صوتك خشية أن يسمعوك فتحدث لنا كارثة أخرى." بالنسبة لخديجة كانت الغرفة المكتظة بالأمتعة تسبب لها مضايقات كثيرة. وشفقة أمها الخالصة، وحبها الشديد لها ما تمكن من إزالة هذه المضايقات. فالغرفة صغيرة وممتلئة بأشياء مهملة غير مستخدمة. والأنتيكات التى كانت تسر الناظرين وتكسو صالة بيتها بالأبهة كان بعضها معبأ داخل صناديق موضوعة تحت السرير. والسجاد الشيرازى مطوى ومركون على الحائط فى أحد الأركان، وفى ركن آخر رف موضوع عليه بانيو أطفال ملىء بملابس غير نظيفة، كما أن دولاب ملابسها الكبير الذى كانت تحب أن تقف أمام مرآته تنظر إلى نفسها كان أيضا داخل الغرفة آخذا مساحة كبيرة فى الجانب الأخر من الغرفة، مما جعل باب الغرفة الضيق لا ينفتح كاملاً. فسألت جديجة أمها وهى تفتح باب الدولاب تبحث عن عباءتها:

"أى كارثة تلك التى هى أكبر مما نحن فيها؟"

ظهرت زالحاتا فجأة، ووقفت على الباب خارج الغرفة تدلى ستارة. فسألتها خديجة:

"هل ذهبت إلى حيث أرسلتك؟"

"لقد ذهبت."

"ماذا يقول؟"

"يقول ليس عنده." أجابتها زالحاتا. نظرت السيدة فاراشو إلى زالحاتا وهى واقفة عند الباب، ثم التفتت ونظرت إلى خديجة فالتقت عيونهما تنظر كل منهما للأخرى، وعيون السيدة فاراشو كلها شفقة وحنان، وعيون خديجة كلها آلام وأحزان:"فيم أرسلتها؟" سألتها السيدة فاراشو.

"أرسلتها تقترض لى عشرة شلنات من دكان العربى.

"تقترضين يا ابنتى ثم من أين تسددين؟" سألتها السيدة فاراشو.

"إن الوضع كما هو، فلا تقترضى حتى لا تفتقدى سمعتك الطيبة، فيبدأ الجيران يلتقطوننا بألسنتهم. وبادئ ذى بدء فإنه لايليق ببنت من أسرة محترمة أن تجمد وجهها وتذهب تقترض من شخص لا تعرفه.

"لم أعد فى حاجة للاقتراض لأن أبى أعطانى عشرين شلنا تكفينا اليوم والغد." ابتسمت السيدة فاراشو، فابتسمت خديجة هى الأخرى، وامتلأت الغرفة حبا بين الأم والابنة. "لقد قال لى سيذهب لأداء التواشيح فجر اليوم." قالت السيدة فاراشو. "فكيف ستتصرفين الآن؟" سألت.

"قلت لك إننى ذاهبة للبحث عن الخبز أولا، وأترك لك ثلاثة شلنات تشترين بها السمك إذا مر عليكم بائع السمك. وسنعرف فيما بعد أمر الأرز."

ارتدت خديجة عباءتها وخرجت . كانت الشمس مرتفعة والحرارة شديدة. كانت المدينة شبه مشلولة، يسودها هدوء، وكأن كابوسا حل بها، وقد امتلأت قلوب الناس خوفا وقلقا، فلا أحد يعرف وقت أو لحظة القبض عليه. الناس يذهبون ويروحون متوقعين حدوث ذلك فى أية لحظة.

كان الناس يتحدثون همسا، والثقة بين الناس منعدمة، فلم يعد أحد يثق بالآخر، وكل واحد يعتبر الآخر جاسوسا. فاغتيال الزعيم أصبح هو الحزن الملازم لمدينة زنجبار بأكملها حيث أقام الناس حدادا مستمرا.

لما وصلت خديجة إلى مسجد ماباتى كانت وحيدة فى الشارع، إلا من قلة قليلة من الناس منتشرين هنا وهناك. فجأة اقتربت منها سيارة اقترابا شديدا وتوقفت بالقرب من قدميها فقفزت خائفة مذعورة ناجية منها. أخذ قلبها يخفق متسائلة من ذا الذى يريد إزهاق روحها. وقفت على جانب الطريق، وتوقفت السيارة كذلك ببطء، مع استمرار تشغيل محركها. نظرت خديجة إلى سائق السيارة، وهو بدوره أخرج رأسه وقال لها: "اركبى أوصلك."

"شكرا، لقد وصلت." أجابته خديجة بقلق شديد.

إن خديجة تعرف جيدا ذلك الشخص الجالس خلف عجلة قيادة السيارة ذات اللون السماوى من طراز فيات، وتقول أرقام لوحتها أنها حكومية، وهى نوعية من السيارات لايركبها إلا أصحاب المناصب العليا والنفوذ الكبير من أمثال عزيز Azizi. إنه سياسى كبير، ومدير لشركة تصدير الأسماك للخارج. كان جالسا خلف عجلة القيادة جلسة المختال المتكبر، وكأن خديجة لاتعرفه، كان كرشه بارزا بروز المرأة الحامل فى شهرها السابع، ونظرا لجلسته هذه فإن كرشه كاد أن يتلامس مع عجلة القيادة.

نظرت خديجة وتساءلت: "كيف يمكن لشخص كهذا جسمه ضخم ومنصبه رفيع أن يتجرأ ويوقف سيارته بفرملة شديدة، هل لمساعدتى وأنا زوجة الخائن، أم أنه ولا بد له مآرب أخرى!"

كان يُنظر إلى زوجات الخونة على أنهن ثعابين صغيرة، وكانت هناك أغنية تم تأليفها بهذا المعنى وتذاع ليل نهار، يقول مطلعها: "ابن الثعبان هو ثعبان."

ثم خطر ببالها أفكار أخرى وقالت فى نفسها: "البشر ليسوا سواء، فلعل هذا من أولئك الذين وضع الله فى قلوبهم شىء من الشفقة فيشعرون بما نشعر به دون أن ندرى."

كان عزيز قد فتح باب السيارة، عندها خطر ببالها:"لو رآنى الناس داخل سيارته فإن كل شخص سيتقول على بما يحلو له. فمن الأفضل أن أذهب وحال سبيلى سيرا على الأقدام ولا حاجة لى بالسيارة."

"تعالى، ادخلى كى ننطلق." قالها عزيز لخديجة وباب السيارة مفتوح.

"شكرا، تفضل واذهب أنت، فإننى وصلت." أجابته خديجة.

"ادخلى، إننى أحمل رسالة لك." أخبرها عزيز.

عندما سمعت كلمة "رسالة" فزعت وشعرت أنها حتما رسالة قادمة من زوجها حمزة، لأن الكبار من أمثال عزيز عادة ما يعرفون ما يجرى هناك عند حمزة وزملائه.

"رسالة لى؟" سألته مندهشة.

"نعم، رسالة لك." أجابها عزيز.

لم تشأ خديجة أن تسأل المزيد ووجدت نفسها تدخل السيارة. شغل عزيز محرك السيارة وانطلق مباشرة فى اتجاه منازى مموجا "Mnazi Mmoja"

إلى أين نحن ذاهبان؟" سألته خديجة وقد تملكها القلق.

"إلى أين أنت ذاهبة؟" سألها عزيز.

"ذاهبة إلى المخبز أشترى خبزا." أجابته خديجة.

"كيف بإمكانك الحصول على خبز فى مثل هذا الوقت المتأخر من النهار والناس يسهرون فى الطابور انتظارا للخبز؟" سألها عزيز وقد وصلا إلى مدرسة بن بيلا، وينعطف الآن بالسيارة متجها إلى السوق.

"ذاهبة فى محاولة للحصول عليه، لأن البيت عندنا ليس فيه ما نفطر به"، وهنا توقفت عن الحديث و نظرت إلى عزيز سائلة إياه: "ماذا عن رسالتى؟"

"لا تقلقى، فسأبلغك إياها." أجابها عزيز وتبسم متكلفا.

"أعطنى إياها إذًا، إنى أريد النزول فى المحطة القادمة، فلقد وصلت."

"إنها رسالة تحتاج لمكان هادئ، نجلس فيه ونستريح، فلا تكون فجائية هكذا." قالها عزيز مركزا وجهه إلى الأمام غير ناظر إلى خديجة مع تحرك السيارة ببطء.

"إذا كان الأمر كذلك، فنزلني حتى يتسنى لي الفرصة التي تريدها، وليس اليوم." قالت خديجة وهي تبتغي فتح باب السيارة وهي متحركة.

"انتظري" قالها عزيز صارخا. وأوقف السيارة فجأة، ففتحت خديجة باب السيارة، وخرجت، وأغلقت الباب بقوة، ولم تلتفت خلفها، نظرعزيز إليها، وشغل محرك السيارة، وذهب إلى حال سبيله.

كان على المخبز طابور طويل؛ وأمام باب المخبز مهازل، فالناس يتدافعون، ويتحاشرون حال كون الباب مازال مغلقا ولا أحد يعرف متى سيفتح.

أرادت خديجة أن تتخطى هذا الطابور لتصل مباشرة إلى الباب حيث التدافع والتزاحم، فصاحت فيها سيدة: "أنت يا أختي ماذا جرى لك؟ هل نحن الواقفون في الطابور أغبياء؟ وهل أنت فقط المستعجلة؟" لم ترد عليها خديجة بشيء. إنها تعرف جيدا أن الجوع إذا تملك شخصا ولم يتمالكه الشخص فإنه يشتم ويسب من ينكد عليه، حتى ولو

كان من المحسنين إليه، أو كان أكبر منه سنا. إنها كانت سيدة كبيرة في عمر والدتها، وكانت ترتدى عباءة، وفى يدها كيس مصنوع من سعف شجر جوز الهند. كانت عباءتها باهتة اللون من تعرضها لضرب الشمس لها، فكان من الصعب تمييز لونها. وكان عدد من هم خارج الطابور كثير، لذلك لم تهتم خديجة بكلام هذه السيدة. توجهت مباشرة إلى الباب، واندست بين المتدافعين والمتزاحمين عند الباب المغلق وهم غير متأكدين فيما لو كان سيفتح أم لا.

تملك الجميع الغضب. كل واحد غضبان ولكن لا أحد يعرف من أكثر غضبًا. والكل يتحسر على نفسه لفراغ معدته ومعدة من يعيلهم. الكل يصيح:" الرغيف! الرغيف!"، ولا مجيب، وكان برج ساعة كنيسة الإنجليز منصوبا أمامهم وكأنه يطل عليهم يريهم كيف يمضى الوقت بتحرك عقارب ساعته التى كانت تشير إلى الثانية والنصف. بدأت خديجة تقلق بشدة، لأنها تعتقد أن طفلتها الآن منخرطة فى البكاء وخارجة عن السيطرة. فالطفلة من الصباح لم ترضع لبن أمها. لذلك تفكر الأم فى مغادرة المكان عائدة إلى بيتها تُرضع ابنتها. وإذا بالباب الواحد للمخبز يفتح. وبمجرد أن فتح تدافع الناس، ووقف من كان قاعدًا، وتدافع الجميع، فتصارع الواقفون أمام الباب فسارت فوضى.

وإذا برجل يظهر من داخل المخبز، بطنه مكشوف، عرقه يتصبب، وجهه يكسوه الدقيق، وكأنه راقص فى فرقة شعبية. رأى كيف يتصارع الناس على رغيف الخبز وكيف يتحاشرون فرفع رأسه ليشاهد الطابور كم هو طويل طويل حتى وصل إلى سوق الفراخ، بينما يتدافع الناسى ويطرح بعضهم بعضا أرضا، دون شفقة ولا احترام، الشاب لايرعى الكبير، ولا يشعر بالعجوز، والصحيح لايهتم بالسقيم. الكل يعضه الجوع، والكل ينادى:

"يارب، نفسى نفسى!"

"هيا اصطفوا جيدا، ومن يثيرشغبا لايحصل على الرغيف." صاح فيهم الرجل، والجميع ينظر إليه، إنه السيد الكبير، الموزع للأرزاق حينذاك.

لم تبال خديجة بكلام الناس. فدخلت وسط المتصارعين والمتدافعين عند الباب الذى ابتعد عنه الأقوياء. وبعد أن استقر الصف وجدت خديجة نفسها من بين الأوائل. تحلت بالصبر، وتحرك الطابور ببطء حتى جاء دورها، وحصلت على رغيفَيها الكبيرين من" التوست". وكانت عقارب ساعة برج الكنيسة تشير إلى الثالثة تماما، والبرج نفسه قائم وكأنه هو الآخر فى انتظار الرغيف غير أنه ليس فى حاجة إليه. إنه قائم هناك منذ أن تم تشييده ليقوم بمهمته فى

إصدار دقات الساعة لإعلام الناس كيف يمضى الوقت. وهو قائم هناك الآن كشاهد على الزحام والتدافع والصراع النابض فى تلك الساحة، فالناس يذهبون ويروحون، والواقفون فى الطابور يتزاحمون، كل يضغط بصدره على ظهر من أمامه محشورين متدافعين جاعلين الطابور يتعرج ويلتوى كالثعبان الكبير الزاحف.

بعد أن حصلت خديجة على الرغيفين شعرت أن ذلك الصراع لم يعد يخصها، ومايخصها الآن هو طفلتها فى بيتها والتى تركتها منذ الصباح وهى متلهفة تماما إلى لبن أمها. ولبن أمها يملأ ثدييها المنتفخين البارزين إلى الأمام ، وتتلهف للوصول إلى البيت لترضع طفلتها حتى تشبع .

كانت تمشى - وكأن شخصًا ما يطاردها - رافعة ذيل ردائها تحت إبطها ومخبئة الكيس بالرغيفين داخل العباءة. تجاوزت مدرسة كيسيواندوئى فى حالة قلق شديد خوفا من أن يظهر لها عزيز ثانية فيضايقها بكلامه. انعطفت يمينا فى اتجاه مسجد ماباتى، وانطلقت مسرعة إلى كيسيماماجونجو مباشرة. ولما وصلت إلى البيت وجدت الطفلة تبكى بحرقة وصوتها يعصف بالبيت كله. فشل الجميع فى كل محاولات تهدئتها، وكلما أعطوها شيء ترفضه، حتى البزازة رفضتها واستمرت تبكى وكأن روحها تخرج .

عندما دخلت خديجة كانت زالحاتا هى التى تحمل الطفلة وتمشى بها هنا وهناك فى محاولة لتهدئتها، ولكن الطفلة لم تهدأ. وضعت خديجة الخبز، وخلعت رداءها، وأخذت الطفلة من زالحاتا. جلست على السرير وأخرجت ثديها وأعطته فم الطفلة، واضعة الطفلة على فخذيها. سكتت الطفلة واختفى بكاؤها نهائيا. رفعت الطفلة عينيها ونظرت إلى أمها، عيناها سوداوان واسعتان مثل أمها. كانت نظرتها تعبر عن أشياء أخرى أكثر من احتياجها لثدى أمها لإشباعها. كانت تنظر إلى أمها كأنها تشعر أن شىء ما قد حدث فى البيت، شىء قد أزال فرحة الأم. الطفلة فى حجر أمها، وحلمة ثديها تملأ فاها وتنظر إلى أمها دون أن ترمش، وخديجة بدورها تنظر إلى ابنتها. وهنا انتقلت بخاطرها إلى زوجها مباشرة. إنها تحب حمزة حبا جما، وكانت رغبتها الكبيرة أن تلد له مولودا، ولكنها الآن تندم، فلو علمت أن المولود سيأتى فى مثل هذا الوقت من المحنة لتوقفت عن الإنجاب.

لكنها أنجبت، والمولودة الآن فى حجرها تعانقها وترضعها، وكأن المشيمة التى كانت تربطها بها وهى جنين لم تنقطع بعد. إنها تحبها، وتحبها جدا، وروحها متعلقة بها. إنها قد أنجبتها، ولايمكنها أن تعيدها إلى رحمها. فعليها الانتظار حتى يوم الإفراج عن والدها. إنها ستقوم بتربيتها على خير مايكون، وتذلل لها الصعاب والمعاناة التى تعصف بها.

نظرت إلى الطفلة وعيناها ترغرغان بالدموع ,وتفكر كيف جاءت هذه الطفلة إلى الدنيا مصحوبة بسوء الحظ الذى عزلها عن والدها. ساد الهدوء الغرفة لسكون الطفلة ومواصلتها الرضاعة لثدى أمها بلا انقطاع . مازالت الطفلة تنظر إلى أمها فقط، وعيناها تزغللان الآن حبًا فى النوم. إنها مجهدة بسبب البكاء طوال النهار، والآن تريد النوم وثدى أمها فى فمها. سمعت خديجة من على بعد صوت السيدة فاراشو وزالحاتا تطهيان فى المطبخ .

الغرفة كلها امتلأت بسر الاثنتين، خديجة وابنتها. سر الأم هو عشقها الكبير لزوجها، وسر الطفلة هو حبها لأبيها.

كانت خديجة مجهدة، لأنها ومنذ الصباح كانت فى رحلة مكوكية لم تمكنها حتى من الاستحمام. والجلباب الذى ترتديه هو هو نفسه الذى نامت به الليلة الماضية. إنه أصفر اللون مزركش بالأزرق والأبيض، وفضفاض لأنها كانت ترتديه أثناء الحمل. شعرها كان أشعث لعدم وجود وقت لتضفيره أو تمشيطه.

منذ أن تم القبض على زوجها وهى مهملة لنفسها، ولم تعد تستمتع بالوقوف أمام المرآة تنظر إلى نفسها، أو تتزين وتتعطر كما كانت تفعل دائما. إنها الآن تتواجد تواجدا مجردا. فالحناء التى كانت لا تفارق قدميها وكفيها، وزهور العطر والياسمين والعود والكحل

والصندل الذى كانت تدلك به جسدها بعد التطهر من حيضها، لم تعد تهتم بكل هذا البتة. ولا وجود الآن لرائحة العود الزكية ولا للعطور الأخرى التى كانت تمتلئ بها غرفتها. الغرفة الموجودة حاليا هى هذه الغرفة المليئة بزفارة لبنها، وهى رائحة لا تعجب إلا الطفلة الموضوعة على فخذيها.

عندما لاحظت خديجة أن طفلتها نامت والثدى فى فمها قررت أن تنام هى الأخرى لبعض الوقت. فنامتا على السرير. ولما أخذ النوم خديجة رأت حمزة فى منامها. شعرت معه بدفء شديد من حب زوجها الذى يتسرب فى جسدها ويحرقها كالنار. رأت حمزة على بطنه فوق صدرها تشعر بوزن جسده عليها نائما على ثديى صدرها، ويتقلب على جسدها متنهدا هامسا بكلمات لم تفهمها. كانت تسمع الكلمات من على بعد، وكأن شخصا يتحدث بها من آخر الدنيا. وأخذت تعانق حمزة وتجد فى ذلك سعادة، وتريد أن تصيح بذلك، ولكنها تنبهت فجأة وقد تبللت كثيرا.

الفصل الخامس عشر

كان مباكانى Mpakani منزويا فى ركن من الزنزانة منكبا على نفسه يفكر فى كل ما اعترف به. إنه اعترف بكل شيء، ولكنه مازال فى الحبس لم يخرج. إنه يعرف اعترافاته من الألف إلى الياء. وهى كما كتبها فى تقريره ووقع عليها. ويفكر الآن فى الوعد الذى وعدوه إياه، قائلين له: "عليك بالاعتراف فقط، وإذا ما اعترفت فى المحكمة وأدليت بشهادتك وانتهت القضية فإننا سنقوم بالإفراج عنك." هكذا وعدوه هو وزملاءه. وكلهم موجودون فى الزنزانة، وهو ينظر إليهم ويفكر.

أما سومبو Sumbu فليس قلقا على الإطلاق. إنه مستلق على حصيرته فى هدوء تام، يربت على بطنه، منتظرا ذلك اليوم الموعود الذى فيه يقتادونه إلى المحكمة ليقول ما سيقول. وإذا ما أفرجوا عنه فبها ونعمت، وإلا فليحدث ما يحدث. ليس لديه أى قلق. فما الباقى فعله عندهم ليرتعب. إنهم فعلوا به كل ما يُرعب ويُفزع، حتى أدخلوا إبرة كبيرة تحت أظافره فتورمت يداه وأصبحتا كالمصابتين بالفلاريا. ومن ثم اضطر إلى قول ما قال.

وكان مباكانى المنزوى المنكب على نفسه فى التفكير أحسن حالا من مرزوق Maruzuku الذى كان فى حالة ندم، لأنه تفوه بالكثير كذبا، واختلق قصة ورط فيها كل من يعرفه وكل من سئل عنه. كلهم متورطون فى الحادثة. ذكرهم واحدا واحدا وأعطى كل واحد منهم مهمته ودوره الذى كان يفترض أن يقوم به يوم اغتيال الزعيم. فاختلق مرزوق القصة، وشيقها بأحداث مثيرة، وجعل الجميع أبطالا لأحداثها. لم يترك أحدا دون أن يذكره سواء أكان فى كومبا كومبا أم فى معتقل التعذيب، فكلهم متورطون.

إنه الآن يفكر فى أنه ورطهم فى ذنب لم يرتكبوه، وفى مصيبة ستسبب لهم الطامة الكبرى. إنهم لن ينسوه بقية عمرهم فى الدنيا ولا فى الآخرة. وها هو ما يجعله نادما.

ولكن ماذا كان بإمكانه أن يفعل فى ذلك اليوم الذى قاموا فيه بالاعتداء عليه، وقد أوسعوه ضربا، ووضعوه متدليا فى حبل المشنقة حتى تبرّز على نفسه. "ماذا كان لى أن أفعل وقد وقفوا على وقوف عزرائيل يريدون إزهاق روحى؟" دائما ما يجلس ويسأل نفسه هذا السؤال.

لقد قال ما قال، وكل ما قاله محفوظ جيدا فى الملفات انتظارا لليوم الموعود، فالأمر عنده الآن سيان، ندم أم لم يندم.

فى الوقت الذى كان يفكر فيه الزملاء ويندمون فإن مقدم Mkadam كان يتعبد فقط، لا تفكير ولا ندم لأنه كان يشعر بأن أجله قد حان، وعلى وشك الانتقال إلى العالم الآخر. كان يرى أن وعدهم له بأنهم سيفرجون عنه ما هو إلا كذب كمن يكذب على الرضيع بإعطائه بزازة فارغة يظن معها أنها ثدى أمه. كان متأكدا أن مصيره إما حبل المشنقة أو الرمى بالرصاص طبقا لاعترافاته. لذلك يجب عليه أن يداوم على الاستغفار لربه ليغفر له ذنوبه. فهو مرتكب ذنوبا كثيرة لا تعد ولا تحصى.

لما كان حرا طليقا فى الخارج تجاوز كل الخطوط الحمراء، فاستمتع، وأطلق العنان مرتكبا المعاصى كأنه هو الخالق لهذه الدنيا، فنسى ربه نهائيا. فما صلى وما صام، بل انغمس فى كل متع الحياة.

والآن يشعر أن الوقت قد حان ليرجع إلى ربه بأن يقضى ما عليه من صلوات فاتته بشكل كامل بما فى ذلك سننها القبلية والبعدية، وكذلك صيام كل أيام شهر رمضان التى لم يصمها. لذلك أخذ يصوم يوميا ويصلى الصلوات المتتالية ساجدا وراكعا، تائبا مستغفرا، لا يكلم أحدا ولا يضحك مع أحد. يعتبر زملاءه كلهم أعداءً له لأنه يشعر بأنهم هم الذين ورطوه فى هذا التشكيل منذ ذلك اليوم الذى قابل فيه كوبوالاؤ فقال له: "هناك خطة."

"أنا لا أريد، فلا تورطنى على الإطلاق، إننى لست فيها." علق مقدم.

"إذا كنت لا تريد فإننا سنقتلك فى حالة نجاح الخطة، وإذا لم ننجح فإننا سنموت معا." أخبره كوبوالاؤ.

التزم مقدم الصمت، والآن لم تنجح الخطة، "إذًا نموت معا، نموت جميعا." هكذا يحدث مقدم نفسه.

مادام (كوبوالاؤ) متورطًا فى ذلك التشكيل فإنه بدوره يقوم بتوريط الآخرين معه. وقد قام فعلا بتوريطهم، منتظرا فقط اليوم الموعود ويذكرهم واحدا واحدا "لنموت معا".

كانت زنزانتهم لها وضع خاص مقارنة بالزنزانات الأخرى سواء أكانت فى كومبا كومبا أم فى معتقل التعذيب. إنها زنزانة المحترمين، المحظوظين بالمزايا الخاصة التى لا يحظى بها الآخرون. فهم فى هذه الزنزانة لا يأكلون الكاسافا وأوراقها صباح مساء، بل يأكلون الوجبات الدسمة المعدة لهم خصيصا مكافأة لهم نظير موافقتهم على الاعتراف بالجريمة، والموافقة على الإدلاء بالشهادة ضد الآخرين أمام المحكمة.

وكى لا يكون يومهم مملا فقد تم تزويدهم بالألعاب المختلفة لتسليتهم ولإزالة الوحشة عنهم، بما فى ذلك لعبة الداما والكوتشينة، والدومينو التى تسليهم وتنشطهم طوال اليوم. إنهم يلعبونها طوال اليوم، ويلبس بعضهم بعضا تيجان الملوك، ويتبادلون هذه التيجان، ويتزاوجون، ويركب بعضهم بعضا فى ضوء الفائز والمنهزم أى من كانت له الفورة ومن عليه الفورة.

فى الوقت الذى كان فيه مباكانى ومرزوق يفكران كل على حدة، كان سومبو نائما لا يبالى بشىء. وكان مقدم على حصيرته راكعا ساجدا. وكان فينجوشو Vingosho وزاريكانى Zarikani وبواتشا Pwacha منهمكين فى لعبة واحد وستين. وكان كوتشى وزاريكانى تم تصعيدهم لورقة الفوز الثانية ويشاهد لعبهما حراميا فقط.

إنهم فى مجملهم تسعة أفراد، وقد وُضعوا معا فى تلك الزنزانة، معزولين عن الآخرين. إنهم وحدهم فى الناحية الأخرى من معتقل التعذيب. وتم إعدادهم بشكل جيد. فكل فرد فيهم يعرف عما سيُسأل وعما سيجيب. إنهم جُهزوا تجهيزا كاملا. ويطلق عليهم زملاؤهم: "التسعة الكبار."

إن لعبة الكوتشينة فى نشوتها وصلت إلى الذروة. وفاز زاريكانى بالفورة. وليس لديهم فى زنزانتهم طاقية، ولو كان لديهم

تاج للبسه وأدخل فيه أوراق الفوز. فقامو بنسج ما يشبه التاج من خيوط الخيش بشكل جيد ليرتديه اللاعب الفائز فوق رأسه ويضع عليه ورق الفوز. والفائز الآن هو زاريكانى وترفرف أوراق الفوز فوق رأسه.

إنهم يثيرون ضجيجا وكأنهم فى أحد النوادى ناسين تماما أنهم فى السجن. فصوت بواتشا جهورى، وعندما يتحدث يعصف الصوت بالمكان كله. وإنه يصيح قائلا: "سنطيح بكم هذه المرة بالضربة القاضية." وعلى الجانب الآخر يمسك زاريكانى بالورق فى يده ويتباهى بقوله: "لا بد أن أتزوجك أولا قبل أن تطيح بى."

"إننى أحذرك بألاّ تحاول فعل ذلك. وأخبرك أننى سأقذفك بثلاثة مدافع." قالها بواتشا متحديا.

والآن زاد الضجيج فى الزنزانة حدة. ويقوم فينجوشو هو الآخر بتأييد زميله بواتشا قائلا: "إنكم أنتم الحمقى، ولا بد أن ترحلوا بثلاث، فليس بيدكم حيلة."

ويجلس حراميا فى زاوية ويشجع: "سنرى من البطل! سنعرف اليوم من هو بطل أبطال الكوتشينة."

بدأ ضجيج عشاق الكوتشينة يزعج مقدم، ويشوش عليه فى صلواته ودعواته لدرجة يصعب معها الصبر. فسألهم: "لماذا تثيرون

كل هذا الضجيج؟ هل نسيتم أين نحن؟ هل نسيتم أننا فى السجن فى انتظار الموت المقبل علينا؟ وبدلا من أن تدعوا الله أن ينجينا من هذا البلاء تقومون بإثارة هذا الضجيج. ثقلتكم أمهاتكم!"

"ماالموت الذى يواجهنا وقد وعدونا بالخروج؟" سأله بواتشا، وورق الكوتشينة فى يده ناظراً إلى مقدم، إنه ممتلئ الجسم وبدين وكبير البطن.

فصاح فيه مقدم: "إلى أين سنخرج؟ نخرج مما نحن فيه؟ إنك تحلم." صاح مقدم.

"ألا تصدق أنهم سيفرجون عنا؟" سأل بواتشا.

"لا أصدق على الإطلاق. هل تعتقد أن هؤلاء الناس جديرون بالثقة؟" سأل مقدم.

"لماذا وافقت واعترفت إذًا وأنت تعلم أن هؤلاء الناس ليسوا جديرين بالثقة؟" سأله بواتشا ثانية.

"ماذا كان بإمكانى أن أفعل؟" سأله مقدم بهدوء وبصوت منخفض ضعيف. "ماذا كنت سأفعل وأنا مغلوب على أمرى، ما حدث لى ليست قصة ولا رواية، وأنت نفسك تعرف ذلك."

توقفت لعبة الكوتشينة، وكان اللاعبون يستمعون إلى الحوار ما بين بواتشا ومقدم.

"هل أنت تريد أن تقول إننا مع كل اعترافاتنا وموافقاتنا لن يفرجوا عنا كما وعدونا؟" سأله زاريكانى مندهشا.

"يا زاريكانى! هل يعقل أن تمثل أمام المحكمة وتوجه إليك تهمة التورط فى اغتيال الزعيم، وتعترف، ثم تأتى وتصعد على منصة الإدلاء بالشهادة شاهدا ضد زملائك فتتردى بهم إلى الهاوية بلا مثقال ذرة من الرحمة، ثم تتوقع وجود إشارة للإفراج عنا فى مثل هذه الحالة؟" سأله مقدم.

"أرى أن ما قاله مقدم معقول جدا." علق سومبو وهو مازال فى مكانه على حصيرته مستلقيا يربت على بطنه. وأضاف:

"إن هؤلاء الناس أراهم يحتالون علينا فقط."

"إذًا ماذا تقولون؟" سألهم مباكانى وقد خرج من بحر الأفكار الذى غرق فيه.

"ليس عندنا ما نقوله. فماذا نقول وقد وقعنا فى الفخ بشكل كلى." قال بواتشا مستطردا.

"لا"، انتفض حراميا شاخصا عينيه. "لم نقع بعد فى الفخ. سنقع فى الفخ فى حالة ما إذا اعترفنا أمام المحكمة. ولكن إذا ما أنكرنا وقلنا إننا لا نعرف شىء فسينقلب مكرهم عليهم فى نهاية المطاف."

"هل تعنى أن ننكر عند مثولنا أمام المحكمة؟" سأل كوتشى.

"نعم، ننكر كليا." أجاب حراميا.

"كيف ننكر وقد وعدناهم، ووافقنا على كل شىء، وكل ذلك مسجل؟" سأل زاريكانى.

"سنقول إننا حررنا كل هذا مجبرين، سنقول إننا ضُربنا وعُذبنا." قال حراميا.

"أنت تعلم أننا الآن نأكل طعاما شهيا وصحيا، ويؤتى إلينا بالسجائر، وقد وفروا لنا أنواعا مختلفة من الألعاب نلعبها، وندلل كالأطفال. كل هذا يفعلون ثم نذهب إلى المحكمة وننكر! إنهم والله سيقتلوننا." قال زاريكانى.

"لا يستطيعون." قال حراميا.

"لا يستطيعون؟! إن هؤلاء الأشخاص بإمكانهم فعل أى شىء." قال مقدم وهو جالس فى مصلاه. "فكم من الأشخاص يا حراميا قتلوا هنا أمام أعيننا، هل نسيت هذا فى هذه الفترة الوجيزة؟"

"اسمع يا مقدم! ماذا تظن أنهم فاعلون إذا اتحدنا ووقفنا على قلب رجل واحد وقلنا إننا لا نوافق ولا نعرف شيئا؟ حتى القضية ذاتها ستسقط، ولن يكون لديهم شهود." قال حراميا.

"ماذا تقول؟" سأله بوانشا ناهضا من جلسته، شاخصا عينيه تجاه حراميا. "ماذا تقول؟" سأله بوانشا ثانية.

"مع كل هذا الكرم الذى أسدوه إلينا نأتى وننقلب عليهم بهذه السهولة! هل تعتقد أن هذا يتفق ودماثة الخلق؟"

"أى كرم هذا؟ هل تعتبر الأرز غير المستوى وقطعتى اللحم كرما يقدمونه إلينا؟ دماثة خلق، هل تظن أن هؤلاء الأشخاص يعرفون معنى دماثة الخلق؟ التعذيب الذى أذاقونا إياه والتهديدات التى تعرضنا لها، والإهانات التى أهانونا إياها، كل هذا وتقول دماثة خلق؟" سأله حراميا.

"أنت تسمى الأكل بأنه نيئ، فهل تعرف ماذا يأكل زملاؤنا؟ إنهم يأكلون الكاسافا بأوراقها يوميا صباح مساء." قال بوانشا.

"أكل الكاسافا صباح مساء أفضل لى من خيانة زملائى أمام المحكمة مقابل أطباق صغيرة من الأرز وقطع من اللحم."

"كيف نخونهم؟ ألم نعرفها؟ ألم نرتب نحن ذلك بأنفسنا؟" سأله بوانشا وهو مازال واقفا.

"لتجلس أولا، اجلس واسترح، إذا كنا نعرفها، وإذا كنا خططنا لها فما المبرر لتوريط الآخرين؟" سأله حراميا. واستطرد قائلا

بصوت هادئ: "كيف تورط شخصا فى جريمة لم يرتكبها ولم يعرف شيء عما يجرى، كيف تقف أمام المحكمة وتزج به فى مصيبة لا علاقة له بها أصلا؟" وأضاف حراميا:

"إذا كنا نحن المسئولون الحقيقيون فلنواجه العواقب بأنفسنا، ولا ندفع بالآخرين فى ذلك."

"عم تتجادلون؟" سألهم زاريكانى واستطرد قائلا:

"أنا أظن أن ما يجب علينا التفكير فيه هو ما إذا كانوا سيفرجون عنا فعلا إذا ما وافقنا وأصبحنا شهودا أم أنهم سيحتالون علينا فحسب".

"اسمعوا يا رجال!" تدخل مباكانى وسأل: "هل تعتقدون أنه من المعقول أن نذهب إلى المحكمة ونعترف بكل شيء ثم يفرج عنا، ويتم إدانة من قمنا بالشهادة ضدهم، والتى بكل تأكيد سوف يعترضون عليها بكل ما أوتوا من قوة، فهل يعقل هذا؟"

"فلنذهب إلى المحكمة، ونوافق على طلباتهم، ونشهد كما يريدون ثم ننظر، أسيفرجون عنا أم سيعاقبوننا؟" قال سومبو ذلك وهو مستلق لا يبالى بشيء.

"وهل تعرف ما هى عقوبتنا إذا قرروا ذلك؟ إنه الإعدام." قاله مرزوق.

"أحقا ذلك؟" سأل كوتشى وكأنه استيقظ من نومه فجأة.

"أحقا؟" سأل ثانية. "وهل هذا يعنى أن كل ما قلناه وما اعترفنا به لن يغنى عنا من العقاب شيئا؟"

"إن كل ما قلناه وما اعترفنا به سيساعد فى تشديد حبل المشنقة حول رقابنا بإحكام." قال حراميا.

"لا تسمع كلام حراميا يا كوتشى. إننى أعتقد ان حراميا هذا بدأ عقله يختل! عليك أن تصدق ما قالوه لنا بأنفسهم." قاله بواتشا.

"ما قالوه لنا بأنفسهم" أخذ حراميا يكرر هذه الجملة باستهزاء.

ثم سأل: "ماذا قالوا لنا بأنفسهم؟"

"إنهم قالوا لنا بأنفسهم أن نوافق، وهم بدورهم سيفرجون عنا." أجابه بواتشا وأضاف قائلا: "وإننى أصدقهم."

"إننى أقول لكم إن هؤلاء الناس قد نصبوا لنا مصيدة فأر ليدخل فيها المستهدف وغير المستهدف. وإذا كنا نحن المستهدفين قد دخلنا فيها فلماذا نجر فيها غير المستهدفين؟" سأل حراميا.

أخذوا يتناقشون ويتجادلون حتى جن عليهم الليل. ومازال حراميا متمسكا بموقفه وهو الامتناع، بينما بواتشا مصر على موقفه وهو الموافقة فحسب.

فى تلك الليلة أصيب حراميا بالأرق، وطار من عينيه النوم، وأخذ يفكر: "كيف أقف أمام المحكمة، وأعترف أننى متورط، وأعرف كل شىء، وأننى اشتركت فى اغتيال الزعيم، ثم بعد كل هذا يفرجون عنى! هل هذا معقول؟" كان حراميا يتحدث إلى نفسه، ولم يستطع تحمل هذا الشعور بمفرده فأيقظ كوتشى.

كانت الزنزانة يسودها الهدوء. ومعتقل التعذيب يسوده الهدوء، فالخونة كلهم نائمون. كانوا فى البداية لا يستطيعون النوم بسبب الخوف والقلق، والآن قلوبهم ليست يقظة، إنهم مستغرقون فى النوم جيدا، ويحلمون أحلاما عجيبة تصل إلى أن بعضهم يتفوه بكلام وهو نائم. الوحيد الذى خاصمه النوم هو حراميا فى تلك الليلة. وكان كوتشى بجانبه نائما. وكى لا يوقظ الآخرين همس إلى كوتشى:

"أقول لك يا كوتشى حذار حذار من الموافقة. فثمة خطر يواجهنا. وهذا الخطر كبير. فلا تستمع لكلام بواتشا. إنه سيعرضنا للخطر." واستطرد قائلا: "إنه يقول أننا نعرفها وخططنا لها بأنفسنا. فما هى تلك التى نعرفها؟ وما هى تلك التى خططنا لها؟ يا كوتشى. ليس هناك ما نعرفه وليس هناك ما خططنا له. إن فى هذا تلميح لدورنا، وهذا التلميح هو الذى يعرضنا للخطر."

"ما هى كيفية التلميح إلينا؟" سأله كوتشى.

"اسمع يا كوتشى، هذه الأمور لها أصحابها الذين يعرفونها، ويعرفون تفاصيلها من الألف إلى الياء، ثمة أصحاب الذين قاموا بالتخطيط لها." أخبره حراميا.

"من هم أصحابها؟" سأله كوتشى.

"الكبار، الكبار هم الذين خططوا لها." أجابه حراميا.

"هل تريد أن تقول لى أن الزعيم اغتاله المسئولون المقربون منه؟"

"بكل تأكيد."

"كيف؟" سأله كوتشى.

"اجلس وفكر يا كوتشى. كانت هناك سرقة للأسلحة من مخزن الأسلحة قبل الاغتيال بأسبوع، وعرف الكبار بذلك، ولم يتخذوا أى إجراء!" قاله حراميا.

"ماذا كان عليهم أن يفعلوا بعد هذه السرقة فيما تعتقد؟" سأله كوتشى.

"تسأل : ماذا كان عليهم أن يفعلوا؟" وأضاف حراميا: "كان عليهم أن يبدوا قلقا، ولكنهم لم يفعلوا البتة. إننى كنت مع العقيد بونجو يوم الاغتيال، ولم يظهر أدنى قلق، وتصديقا لما أقول فإنه طلب منى الذهاب معه إلى الاستاد لمشاهدة مباراة كرة القدم."

"هل تعنى أن العقيد بونجو كان يعلمها؟" سأله كوتشى.

"نعم، وبلا شك."

"متورط؟"

"بلا شك."

"اسمع يا سيدى! لا تزعجنى فأنا أريد النوم، إذا كانت المسألة هى التعريض للخطر فقد عرضنا أنفسنا فعلا لهذا الخطر، أما بالنسبة لمسألة هؤلاء الكبار فأنت الذى تعرفها. ما نعرفه نحن فقد قلناه." قال له كوتشى ذلك، وقد أخذه النوم.

"إذا كنا عرضنا أنفسنا للخطر، فعلينا ألا ندمر أنفسنا نهائيا، فهذا الذى نريد فعله هو الهلاك بعينه."

"آه آه يا سيدى! دعنى أنام ونكمل الحديث فى الصباح." قاله كوتشى بصوت منخفض وكأنه يتحدث فى المنام.

"يا كوتشى! لا تأخذ هذا الأمر بهذه السهولة، فهذا الذى نريد فعله ليس إهلاكا لأنفسنا فحسب وإنما هو إهلاك للآخرين كذلك، وهم أبرياء بكل ما تحمل الكلمة من معنى." قاله حراميا مؤكدا.

"مالك وما يخص الآخرين؟ اهتم فقط بما يخصك أنت، فالإنسان عندما يصيبه مكروه ينادى: يا أماه ولا ينادى: يا أمنا." قاله كوتشى وأكد: " فليبك كل واحد هنا على نفسه فقط."

"إذا كان ذلك كذلك فليكن كل واحد منا شاهدا على نفسه فقط دون أن يورط الآخرين." أخبره حراميا.

لم يعد كوتشى يريد الاستماع إلى حراميا لأن النوم قد غلبه، فرأى من الأفضل السكوت ليواصل النوم تاركا حراميا يواصل الكلام لنفسه كالمجنون. ماكان حراميا بالمجنون، وماكان يتحدث إلى نفسه، فقد كان هناك فى الزنزانة من يستمع إليه ولكنه لم يرد التدخل.

كل حارس كان قد وضع لنفسه نظاما خاصا به فى إخراج المعتقلين للاستحمام، البعض يقوم بإخراجهم مثنى مثنى، والبعض ثلاث ثلاث. بينما الحارس دودى Dude يخرجهم واحدا واحدا. وكان قبل ذلك يخرجهم ثلاث أو رباع، ويجلس معهم فى الساحة يتبادل معهم الحديث. وذات مرة رآه كيفوبى جالسا مع أربعة معتقلين يدردش معهم معطيا إياهم السجائر يدخنونها فى حالة من الاسترخاء والهدوء وكأنهم فى أحيائهم جالسين أمام بيوتهم.

عندئذ نهره كيفوبى قائلا له: "يا رجل! هل تعرف هؤلاء؟ إنهم سيمسكون بك، ويقيدونك، ويأخذون منك المفاتيح عنوة ثم يهربون. حينذاك ستعرف ماذا يحل بك، سنذبحك ونأكل من لحمك."

ومن يومها كف دودى عن إخراجهم فى مجموعات، ويخرجهم الآن فرادى. فبدأ اليوم بإخراج كوتشى.

من عادة دودى أنك تراه نشيطا بشوشا خارج ساعات العمل، ولكنه فى العمل معه الكرباج يضرب به المعتقلين ضربا مبرحا ويركلهم بلا رحمة أو شفقة.

كان اليوم يوم أحد، وعادة ما يسود الهدوء معتقل التعذيب حيث لا توجد أعمال رسمية. تعود دودى أن يأتى بملابسه غير النظيفة ليغسلها في ذلك اليوم بالمعتقل. كان جالسا على كرسى، وأمامه دلو يغسل فيه الملابس. كانت الساعة حوالى العاشرة صباحا والشمس ارتفعت شرقا دون أن تسطع بأضوائها على الساحة نظرا لحجب الأشجار الطويلة لها، تلك الأشجار الكثيفة المحيطة بالسجن.

كان كوتشى لم يغتسل بعد، بل كان يتمشى هنا وهناك فى الساحة لتليين أعضاء جسده، إذ إنه سئم القعود، وكلما سنحت له الفرصة هذه تجول هنا وهناك، وقفز هنا وهناك، وتشقلب هنا وهناك حتى يجد العرق.

لم يهتم دودى بما يفعله كوتشى وتركه يواصل تمارينه، مواصلا هو غسل ملابسه. وبعد الانتهاء من تمارينه اغتسل، ثم أعاده إلى الزنزانة، ثم أخرج الآخرين واحدا واحدا. وكان بواتشا هو آخر من يخرج.

من طباع بواتشا أنه كسول، وتكوين جسده يجعله كسولا نظرا لبدانته وكبر بطنه وترهلاتها. كان يشد على خاصرته ملاءة سرير، مسندًا ظهره إلى الحائط، ويبدو كسولا. كان دودى جالسا على درجات السلم عند الباب، وكلاهما فى مواجهة بعضهما البعض، وليس معهما ثالث. كان بواتشا متعطشا للغاية فى أن يفشى إلى دودى بما سمعه ليلة أمس فى الزنزانة.

لقد سمع كل ما دار من حديث وشعر معه أن حراميا يريد إفشال الأمور. لذلك سيخبر دودى لترسيخ ثقته بهم: "هناك فى زنزانتنا أمور."

"ما هى هذه الأمور؟ وهل هى ذات أهمية قصوى أم عادية؟ سأله دودى مازحا.

وهنا أشار بواتشا إلى دودى أن يخفض من صوته خشية أن يسمعه الموجودون بالزنزانة، "إنهم يقولون إنهم لن يوافقوا. وأن الكبار متورطون كذلك. ومنهم العقيد بونجو."

الفصل السادس عشر

في يوم جنازته دفن الزعيم بكل ما يستحق من تقدير. وبعد فترة وجيزة تم تنصيب خلفه. فوجئ العقيد بونجو بشخص آخر يعتلي كرسي الرئاسة بدلا منه.

كان جالسا بمفرده في مكتبه يفكر في كيفية حدوث اغتيال الزعيم وإنه لا يوجد أي شخص آخر يستحق أن يرث كرسيه سواه، واليوم يعتلي هذا الكرسي شخص آخر سواه. كيف؟ ماذا حدث؟ إنه سياسي كبير ذو نفوذ، ورجل شجاع، قاد عملية مطاردة القتلة، واقتنص الواحد تلو الآخر حتى قضى عليهم جميعا، واليوم يذهب العرش من بين يديه ويستولي عليه شخص آخر.

. شعر بأن حجرة مكتبه وكأنها تهتف ضده بعد خيبته. وكان يوم تشييع جنازة الزعيم منخرطا في البكاء حتى وصلت دموعه إلى صدره، وتقلب على الأرض كمن مسه جان متظاهرا بأنه الأكثر حزنا وأسى. ولكن كل هذا لم يساعده في وراثة عرش الزعيم.

كانت مرافقته للزعيم دائمة، فما كان يذهب الزعيم إلى أي مكان إلا ويصطحبه، وماكان ينفذ شيء قبل أن يستشيره، وكان الزعيم لا يأكل ويشبع قبل أن يقابله، ولا ينام قبل أن يجلس معه حتى

منتصف الليل ليسمع منه النصائح الأخيرة قبل أن يخلد إلى النوم. إنه رفيقه، إنه صاحب سره، يثق به كل الثقة فى كل شىء. ورغم كل هذا لم يرث العرش، وتبخرت أحلام إرثه لعرش الزعيم. جلس فى مكتبه يفكر فى كل هذا.

لم يعد فى حاجة لما على كتفيه من رتب ونياشين. فما على كتفيه يمتلكه، ولكن ما يحتاج إليه الآن هو الكرسى، الكرسى الذى تركه الزعيم. لا أحد أحق به منه. فكيف يجلس عليه شخص آخر؟ خبط على مكتبه بلكمة أحدثت دويا سمعه كل من فى المكتب الآخر فهرول الحراس إلى مكتب العقيد بونجو للوقوف على ما حدث. دخل ثلاثة حراس مكتبه وأعطوه التحية العسكرية وسألوه: "ما الخطب يا سيدى؟"

"لا شىء. اخرجوا من هنا!"

خرجوا من المكتب فى خزى من غبائهم فى التودد للعقيد بونجو.

كان فى البداية يعتبر أن جلوسه داخل هذا المكتب هو قمة طموحاته وأنه أعلى درجات صعود السلم، وأنه استطاع الصعود إليه فى مغامراته بحثا عن المنصب والسلطة. ولكنه اليوم يرى أن هذا المكتب لا شىء على الإطلاق. إنه يريد الآن الجلوس فى المكتب الذى كان يجلس فيه الزعيم نفسه. يريد أن يعتلى العرش، ويصدر الأوامر، وأن يتذلل إليه الجميع، وأن يكون الجميع تحت قدمى سيد الأسياد.

لم يعد يجدر به الآن أن يكون فى مكتبه هذا يتلقى التحية العسكرية من صغار الضباط من رتبة الرقيب وحتى المقدم، بل يريد أن يتلقاها من رتبة عقيد وحتى لواء، يريد أن يأمر فيطاع فورا، وإذا ما كحّ يرتعش الجميع، ها هى أحلام العقيد بونجو التى تراوده بعد مقتل الزعيم.

بينما هو يفكر فى كل هذا جالسا على الكرسى، سمع على بعد العقيد مابيبى Mapepe يتبادل التحية مع آخر، وسمع وقع نعاله يتجه إلى مكتبه، فإذا به واقف على الباب، فرحب به ودخل العقيد مابيبى المكتب.

جلس على الأريكة، وخلع الكاب ووضعه على منضدة صغيرة بجانب الأريكة. المكتب يسوده الهدوء اليوم، بخلاف اليوم الذى وضعوا فيه حمزة يسألونه ويستجوبونه. هدأ الوضع فى المكتب هذا بسبب تواجد العقيد مابيبى فقط، ولكن المكتب فى الحقيقة كان مليئا باضطرابات فكرية ونفسية تتصارع داخل رأس العقيد بونجو.

"ماذا أحضر لك أيها العقيد؟" سأله العقيد بونجو.

"توجوا togwa " (*).

(*) هو شراب لذيذ يصنع محليا من الشعير

ابتهج العقيد فجأة وضحك ضحكة وكأنه شخص آخر وليس الذى كان يحلم باعتلاء العرش المفقود.

"لقد ذكرتنى بالأيام الخوالى لما كنت ألعب الكرة، وبمجرد أن أخرج من الملعب كان لا بد أن أفوت على نجازينجى Ngazinje عند بنت أوليدى Uledi لأشرب زجاجة كاملة من التوجوا"

"من أين تحصل على التوجوا هذه الأيام يا عقيد؟" سأله العقيد مابيبى. "فى أيامنا هذه أحضر لنا الأوروبيون الصودا ونسينا التوجوا، ونسينا عصير جوز الهند، فلم يعد لدينا سوى الصودا، قل لهم إنى أريد أن أشرب صودا."

رفع العقيد بونجو سماعة الهاتف وطلب مشروبين مثلجين. بعد دقائق دخلت عليهما فتاة تم التعاقد معها خصيصا لخدمة العقيد بونجو وضيوفه حاملة المشروبين على صينية فضية صغيرة. كانت أنيقة جذابة.

وبعد أن وضعت لهما المشروبين من الصودا خرجت تتمايل كالعادة. ولكن الموجودين هنا لا تجذبهما هذه المشية التمايلية التى أثارت شهوة حمزة وحده يوم زيارته المكان نظرا لافتقاده لزوجته عدة شهور فى السجن دون جماع.

جلسا هما الاثنان فقط. فبدأ العقيد مابيبى المحادثات: "جئت أيها العقيد لأن هناك دلائل سلبية ظهرت."

"ما هى هذه الدلائل السلبية؟" سأله العقيد بونجو.

"أولئك الأشخاص التسعة."

"الأشخاص التسعة؟ من هم؟" سأله العقيد بونجو.

" الأشخاص التسعة أيها العقيد! أظن أنك تفهمنى إذا قلت الأشخاص التسعة فإننى أعنى الأشخاص التسعة."

"نعم، نعم، فهمتك، ماذا بهم؟"

"يقولون إنهم عند مثولهم أمام المحكمة فسيرفضون، ولن يعترفوا بأى شىء."

"ماذا؟" صعق العقيد بونجو، وامتلكه الذهول: "كيف؟ هل نسوا بهذه السرعة؟ هل نسوا اجتياحنا الكبير لهم حتى استسلموا وركعوا لنا واعترفوا أمامنا؟ هل نسوا هذه الجولة؟"

"يقولون إنهم ليسوا ممن يعرف ، وما وصلهم هو مجرد تلميح فحسب، ولكن العارفين هم الكبار." قاله العقيد مابيبى للعقيد بونجو وهو ينظر إليه.

"الكبار؟ من هم الكبار؟ انتظر فسوف نريهم! ولسوف يذكرون في هذه الجولة أولئك الكبار الذين يعرفونهم."

"يقولون إنك من بين هؤلاء الكبار."

"أنا! هاء! هاء! هاء!" تقهقه العقيد بونجو.

وفي الوقت الذي أصبح فيه العقيد بونجو مرتبكا من كلمات حراميا كان هو نفس الوقت الذي كان فيه مقدم قلقا للغاية، وجعلت عقله يدور، حيث كان يقظا ويسمعها جيدا عندما كان يحكيها حراميا لكوتشي محاولا إقناعه. فطبقا لمعلومات مقدم هي أن كوبوالاؤ هو العقل المدبر بينما حراميا يقول إن العقيد بونجو متورط أيضا. فكيف يتأتى هذا؟ إن العقيد بونجو وكوبوالاؤ لا يجتمعان أبدا وإنهما متخاصمان خصومة شديدة. ففي الوقت الذي كان كوبوالاؤ لا يريد رؤية الزعيم فإن الزعيم والعقيد بونجو كانا صديقين حميمين.

"هل عدم اهتمام العقيد بونجو بواقعة سرقة الأسلحة هو الذي يجعل العقيد بونجو متورطا؟" سأل مقدم نفسه.

"ولكن لماذا قام بقتل كل أولئك الذين اغتالوا الزعيم، ولم يبق منهم أحدا. فماذا كان هدفه؟" استمر مقدم يسأل نفسه.

"هل يمكن أن يكون كل من كوبوالاؤ والعقيد بونجو مشتركين معا فى العملية بينما يجعلان تنافرهما ستارة للناس؟" استمر مقدم يسأل نفسه.

لم يتمكن اليوم من القيام بصلواته والتوبة إلى الله ولا من تلاوة أذكاره الخاصة من الاستغفار، بل كان جالسا فقط فى أحد أركان الزنزانة يفكر. كان يفكر فيما سمعه من حوار بين حراميا وكوتشي. وكان حراميا هو الآخر فى أحد أركان الزنزانة يفكر فى الكلام الذى قاله له بواتشا وهو:

"فلنعترف ونوافق كما قالوا لنا." وكان كوتشي هو الآخر مسندًا ظهره إلى الحائط، جالسا على حصيرته، شاخصا بعينيه كالمذهول يفكر. كان يفكر فيما قاله حراميا فى الليلة الماضية: "بأننا بذلك نهلك أنفسنا." كانت الأفكار الأليمة كلها تدور وتتلاطم داخل الزنزانة، وهى التى طيرت أرواحهم وجعلتها كالمعلقة فى الهواء لا يعرفون ما إذا كانت ستنجو أم سيتم قطعها.

تملكهم الجميع الخوف. وقيامهم بتسلية أنفسهم بلعبة الداما والكوتشينة ما كانت إلا لمجرد تثبيت النفس. فقد وصلت إليهم رسالة حراميا بشكل مباشر وجيد، وحتى بواتشا نفسه بدأ يشك فى الوعود التى وعدوهم بها، متأرجحا فيما بين التصديق وعدم التصديق. إن

نفاقه هو الذى كان يتحرش به فى هذا، معتقدا أن كونه مذبذبا يمكنه أن ينجو، كما أن حراميا خلط عليهم فكرهم تجاه العقيد بونجو.

إن العقيد بونجو يعرف حراميا جيدا، ويعرف أنه كان من بين الذين يتوددون إليه، ويسيرون وراءه أينما سار كالأذيال. يعنى كان من بين الحاشية التى تحيط به، الحاشية التى تضحك عندما يضحك، وترتعش عندما يغضب. جعلوا أنفسهم معه إمعات. وكان حراميا عنده من بين الذين يسيئون استخدام السلطة لصالحهم عندما كان يوزعهم فى كل مكان للتجسس لصالحه.

ولكن فى اليوم الذى تم فيه إلقاء القبض على حراميا انقلب عليه العقيد بونجو وتبرأ منه تماما. وبدلا من أن يكون سببا فى نجاته لقربه منه كان سببا فى تعريضه للخطر. من هنا بدى حراميا وكأنه أرسل من قبل كوبوالاؤ ليندس فى حاشية العقيد بونجو ليرصد له تحركاته.

ولذلك كان حراميا من بين الأوائل الذين تم إلقاء القبض عليهم يوم اغتيال الزعيم فأوجعوه ضربا مبرحا وطرحوه أرضا بالركلات وضربا بالسياط ضربا مؤلما، فاضطر إلى التفوه بما تفوه به، وأصبح من ساعتها من بين التسعة. والآن يندم ويحاول ان يقنع أصحابه بأن يبرئوا أنفسهم من كل شيء، فتزول عنهم التهمة بالتورط، وتذهب تهمة التورط للعقيد بونجو وزملائه.

لاحظ العقيد بونجو أن حراميا يريد إثارة البلبلة والارتباك لإفشال كل ما تم تدبيره والإلقاء بالجريمة على الآخرين، ولذلك يجب عليه اتخاذ إجراءات وقائية كي لا يحدث ما لا تحمد عقباه. فتأبط به شرا قائلا: "سيعرف حراميا من أنا."

كان ذلك في المكتب، وبعد أن أخبره العقيد مابيبي بما قاله حراميا، انصرف مباشرة تاركا العقيد بونجو وحده في المكتب، يواجه امتحانا. لم يعد امتحانا يتعلق بخلافة عرش الزعيم لأنه لن يحصل عليه على الإطلاق بعد أن جلس عليه شخص آخر. وإنما هو امتحان حراميا.

إنه مندهش وشاخص العينين، لا يرى إلا ظلاما في وسط النهار، اضطرب عقله وتداخلت أفكاره، وانقلبت الأمور عنده رأسا على عقب، لقيام حراميا بتشويه سمعته. "لا بد وأن حراميا ابن حرام، وابن الحرام حتى وإن أخفيته في زجاجة فإنه سيُخرج منها إصبعه." قال ذلك متذمرا. "لكن من ذا الذي سيسمع له، من ذا الذي سيصدق حراميا عني." سأل نفسه، "ألا يعرف أنني الجبار." تباهى العقيد بونجو بنفسه.

إن العقيد بونجو كان فعلا جبارا، حتى وإن لم يرث عرش الزعيم فإنه يتمتع بسلطة لا حدود لها. فلا أحد يجرؤ أن يفتح فمه

أمامه ويقول له: "وأنت متورط." حتى حراميا هذا عندما يواجهه سينخرس لسانه، ويتلجلج، ويسمى الكرسى منضدة. إن حراميا عند العقيد بونجو لا شىء على الإطلاق، فلا يقدم ولا يؤخر. "وتاالله لأرينه!" أقسم العقيد بونجو.

رفع سماعة الهاتف وأدار الرقم المطلوب والمباشر لمركز التعذيب فرد عليهBa Mkwe بنفسه.

"أهلا حماى." العقيد بونجو سماه كذلك.

ولأن صوت العقيد بونجو ليس بالغريب على حميه فقد عرفه بمجرد أن سمعه.

"اؤمر يا فندم" رد الحم.

"جهز لى غرفة فى فندق العسرة. عندى ضيف أريده أن ينزل فيه. والضيف نفسه موجود عندك، وإننى قادم لآخذه غدا فى أى وقت."

"من هو يا فندم؟" سأله الحم.

"ستعرفه عندما أصل، ما عليك فإن تطلب تجهيز الغرفة فحسب فى فندق العسرة."

"طلبك مجاب يافندم."

في اليوم التالى دخل العقيد بونجو معتقل التعذيب فى صمت على عكس المعتاد فعادة ما يدخل بجلبة وغطرسة، فإنه اليوم بمجرد أن فتح له دودى البوابة الحديدية دخل فى هدوء غير عادى. كان العقيد بونجو ودوذا وليس بغيضا أو ذا طبيعة شريرة كما كان بالأمس. تعتقد أنه ليس الذى كان يضرب بالأمس على المكتب بلكمته متفوها بألفاظ لا يتفوه بها إلا سكران.

كانت الساعة تقترب من التاسعة صباحا، كان الحم ينتظره بالمكتب. لما دخل وقف له الحم احتراما، فهز له العقيد رأسه يرد التحية. جلسا وتبادلا الترحيب.

كان الهدوء يسود المعتقل. ما عادت هناك جلبة ولا هيجان. انتهت المخانقات والضغوط الموجعة، فلم تعد هناك صيحات آلام التعذيب. ومن يبكى الآن يبكى من داخله دون أن يسمعه أحد، إنهم يتألمون حزنا واكتئابا.

فأولئك التسعة إنما يسلون أنفسهم بلعب الأوراق، ويحدوهم أمل في ضوء الوعد الذى تلقوه وهو "اعترفوا، واذكروهم، يفرج عنكم." ولكن حراميا أخبرهم أن تلك مصيدة، من يقترب منها يقع فيها، وعلى كل فرد أن يفكر على شاكلته.

كان العقيد والحم فى المكتب على انفراد.

"هل تعرف ما يجرى لديك هنا أيها الحم؟" سأله العقيد بونجو.

"عن ماذا؟" سأله الحم.

"عن أولئك التسعة."

"لدى كل الأخبار عما يجرى، لا تقلق، فإن كل ما يتحدثون به نعرفه، فأنا كنت فى انتظارك لأسمع منك." قال الحم.

"سننقل حراميا إلى فندق العسرة ليستريح هناك ولو لليلة واحدة. فهل جهزت الغرفة؟"

"الغرفة جاهزة وسيجد مضيفه فى انتظاره." أجاب الحم.

استدعى دودى وأمره بإخراج حراميا. كان حراميا منشغلا بلعبة الداما ينافس زاريكانى حيث كان كل منهما يتباهى بأنه الفائز والأذكى. وكان مباكانى يلعب مع سومبو، ومرزوق مع كوتشى. بينما بواتشا مستغرقا فى نوم عميق كله شخير. وكان مقدم يتلو أذكاره. لما فتح الباب نظر إليه الجميع. فينجوشو الذى كان مستلقيا على حصيرته نهض وجلس، زاريكانى الذى كان يشجع لعبة الداما نظر أيضا إلى من على الباب. كلهم مندهشون، شاخصة أبصارهم صوب دودى. نادى دودى على حراميا دون التفوه بكلمة. كان حراميا يريد أن يخرج كما هو بالشورت الأبيض وبلا قميص. أمره دودى أن يرتدى قميصه.

ينظر الجميع الآن إلى حراميا الذى كان مرتبكا يبحث عن قميصه الذى نسى أنه تحت وسادته. عثر عليه وارتداه سريعا، ونظر إلى أصحابه لا يعرف ماذا يقول لهم، هل يودعهم؟ هكذا يسأل نفسه. فقال لهم: "كل منا يدعو للآخر." وخرج من الزنزانة يمشى خلف دودى. لما دخل المكتب وجد العقيد بونجو وحماه يتحدثان بهدوء. تظاهرا بأنهما لم يرياه حتى سلم عليهما وحياهما تحية الصغير للكبير.

ما كانا كبيرين سنا حتى يحييهما بهذه التحية. ولكنه فعل بسبب سلطانهما ونفوذهما وصلاحيتهما. من هنا حياهما بهذه التحية وسلم عليهما بما يليق بهما شاء أم لم يشأ.

فرد عليه الحم بالترحاب.

ونظر إليه العقيد بونجو قائلا: "تبدو بصحة يا حراميا. أرى أن الحم يعتنى بكم جيدا."

"تشكركم." قال حراميا.

"أتشكرون؟" سأله العقيد بونجو. "أتشكرون حقا أم هو شكر الجاحد للنعمة." استطرد العقيد بونجو.

خفق قلب حراميا خفقانا سريعا، وشعر أن هناك أمرا جللا جعل العقيد بونجو يقول ما قاله. "لماذا شكرى له هو شكر الجاحد للنعمة؟"

سأل حراميا نفسه وهو واقف فى ركن من أركان المكتب فى مواجهة الحم، بينما العقيد بونجو كان جالسا فى نفس اتجاه وقوف حراميا.

"أتعرف يا حراميا أنه لا شىء أسوأ للرجل المحترم من الإساءة لمن أحسن إليه." قاله العقيد بونجو.

زاد قلق حراميا أكثر وأكثر. لم يكن يعرف ماذا جرى فعلا ليعتبره مسيئا إلى من أحسن إليه، وما هو المعروف الذى أسدى إليه؟" سأل نفسه."إننى يا باشا لا أعرف كيف أكون ناكرا للمعروف؟" دافع حراميا عن نفسه.

"لست أنت يا حراميا، لست أنت، إنما هو نحن الناكرون للمعروف." أجابه العقيد بونجو فى عجالة.

"إنك تعلم يا حراميا أنكم أنتم الأشخاص التسعة الذين قدمتم لنا خدمة جليلة. إنكم تعاونتم معنا طوال فترة التحقيقات إثر اغتيال والدنا الزعيم. قد قلتم الصدق فى كل ما تعرفون، وأرشدتم إلى كل الأشقياء الذين ارتكبوا هذه الجريمة النكراء، ووافقتم على التعاون معنا إذا وقفتم أمام المحكمة. هل تظن أن كل هذا بالشىء القليل؟" سأله العقيد بونجو.

نظر حراميا إلى العقيد بونجو مندهشا. ما كان فى حسبانه أن يسمع مثل هذا الكلام. تمنى أن يجيبه بأنكم أنتم الذين قتلتم أباكم الزعيم بأيديكم، لكنه لا يجرؤ على فتح فيه ليقول ذلك.

"لا، ليس بالشيء القليل." أجابه حراميا.

" لا ضير فى أننا قرصناكم قليلا، إلا أنكم ساعدتمونا كثيرا، أليس كذلك يا حراميا؟" وأضاف العقيد: "وبهذه الخدمات فإنكم تستحقون ألا تبقوا فى المعتقل حتى الآن."

أصيب حراميا بذهول. فقد أدهشه قول العقيد بونجو، إذ كيف يسمى كل ما تعرضوا له من أنواع العذاب والوحشية والإهانات بأنها "مجرد قرص." فكر حراميا. إن العقيد بونجو عند حراميا هو الرجل القاسى الفظ الذى ليس فى قلبه مثقال ذرة من رحمة. يتعجب أنه يسمعه يقول هذا الكلام، وتصل به الجرأة على أن يُنسب إلى حراميا خطأ الإساءة إلى من أحسن إليه. إنه منافق زنديق، "لعنه الله." هكذا لعنه حراميا فى نفسه.

"ولكننا يا حراميا ما كنا ناكرين للمعروف فيما يبدو، وخاصة تجاهك أنت."

توقف العقيد بونجو ناظرا إلى حراميا الذى نظر إليه هو الآخر فى قلق ولا يعرف ماذا يريد إثارته، "إننا سننقلك إلى فندق العسرة لتستريح هناك لمدة يومين تقريبا." أنهى العقيد كلامه.

ظل حراميا فى حالة اندهاش فقط، فلم يسمع قط طوال عمره عن مثل هذا الفندق، وقال فى نفسه إن كان خيرا فخير، وإن كان شرا فشر، وليكن ما يكون، فالآتى أدهى وأمر.

الفصل السابع عشر

إن فندق العسرة ليس فندقا بمعناه الحقيقى فيأتيه النزلاء وتقدم لهم كل أنواع الأطعمة والمبيت الملائم، ولكن هو مجرد اسم مستعار يشير إلى أحد المخابئ التى تقع تحت سلطان الحم. فمن ينقل إليه يخبئونه لعدة سنوات من غير أن يعرف عنه أحد أين هو، وفى النهاية يختفى إلى الأبد.

إنه مبنى ضخم جدا مخيف وسط أيكة من الأشجار الكثيفة على ساحل المحيط شمال زنجبار. قائم هناك كالهيكل، ولا يذهب إليه إلا الموظفون التابعون للحم فقط. فإذا ما كان هناك شخص آخر ينقل إليه فإنه فى الواقع ينقل لتقديمه قربانا.

ونظرا للمساحة الكبيرة لهذه الأيكة فإن ظلاما دامسا يكتنف هذا المبنى ليل نهار مع صمت قاتل. وحتى تصل إلى موقعه تواجهك الحراسات المشددة من جنود مدججين بالأسلحة عند حاجز بوابته الحديدية الضخمة. ومع هذا الصمت الرهيب للمكان فإن حراسه دائما يقظون لا تأخذهم سنة من النوم، ولا يسترخون على الإطلاق، بل كلهم حيوية ونشاط ليل نهار.

المبنى نفسه أشبه بالأطلال، ومن لا يعرفه يحسبه مدفن للموتى والأشباح، فحوائطه الخارجية مغطاه بلون الضباب، وليس معنى ذلك أنها تطلب دهانا ولا يهتمون، ولكنها متروكة هكذا عن قصد حتى تبدو مخيفة. إنه مبنى قديم مكون من طابق مبنى بالحجارة والطين. ويحتوى على غرف كثيرة. وهواؤه مشبع بالرطوبة من الداخل دائما لانعدام ضوء الشمس فيه وانعدام حرارة البشر فيه.

وقبل أن تبدأ الرحلة إلى الفندق أشار عليهما الحم بشرب صودا قبل المغادرة.

"هذا حسن لأننى ظمآن." قاله العقيد بونجو مؤيدا.

"وما رأيك يا حراميا فى أن تشرب صودا؟" سأله.

"أشرب" أجابه حراميا. إنه متعطش للصودا لأنه لم يشربها منذ فترة طويلة.

قام باستدعاء دودى وهمس له الحم بشىء ما ثم خرج. ولما عاد عاد بثلاث زجاجات من الصودا وثلاثة كئوس زجاجية. وقام بفتح الزجاجات وصبها للجميع فى الكئوس.

"فلنشرب نخبك يا حراميا." قالها العقيد بونجو رافعا كأسه.

"لنشرب" رفع الحم أيضا.

كانت الصودا باردة، مع فقاعات صغيرة تفور داخل الكأس. شرب حراميا جرعات كبيرة بملىء الفم حتى أنهى نصف كأسه. توقف فتجشأ بصوت مرتفع، واعتذر لهما: "سامحانى."

بعد الانتهاء من شرب الصودا وقفوا إعلانا ببدء الرحلة إلى فندق العسرة. خرجوا من المكتب، وكان دودى قد فتح البوابة الحديدية من فترة منتظرا إياهم عند الباب. فلما خرجوا دعا حراميا فى قلبه: "اللهم لا تردنى ثانية إلى هذا المبنى."

دخلوا عربة الحم وقادها الحم بنفسه، وركب فى المقعد الخلفى كل من العقيد بونجو وحراميا. تعجب حراميا إذ كيف يجلس فى المقعد الخلفي مع العقيد والعربة يقودها الحم! بعد مسافة قصيرة بدأ حراميا يشعر بزغللة فى عينيه كالسكران، وبثقل رأسه التى مالت على كتفه. فسأله العقيد بونجو: "هل تنعس؟"

لم يتمكن حراميا حتى من الإجابة، ورأى نفسه كأن غطاءً يغطيه بالكامل فلا يرى شيئا. وسقط على فخذى العقيد بونجو فاقدا للوعى وفى غيبوبة. لما أفاق وجد نفسه داخل غرفة كبيرة. بدأ يسترجع وعيه تدريجيا مع كونه فى حالة خمول شديد وكأنه يفيق من تخدير. تصور صورا خادعة تزاحمه داخل الغرفة من جن وشياطين ولا يستطيع رؤيتها، وكان رأسه ثقيلا للغاية كأنه يحمل الدنيا كلها، لا

يرى شيء أمامه إلا ضبابا رقيقا سائدا. جلس وفكر فلم يتذكر شيء سوى أنه كان مع الحم والعقيد بونجو فى المكتب عند الحم. والآن يتساءل: "أين أنا الآن؟" لا أحد يجيبه، بل كان هناك صمت قاتل. رفع رأسه ينظر إلى أعلى فلم ير إلا عروقًا خشبية أفقية متراصة من بداية الغرفة وحتى آخرها. صرخ وصاح: "يا هو!" فلا مجيب، وما سمعه هو صدى صوته يتردد قائلا: "يا هو! يا هو! يا هو."

عندئذ تذكر اسم فندق العسرة الذى ذكره العقيد بونجو فأدرك عندئذ أن هذا المكان هو فندق العسرة فعلا والذى قد نقل إليه ليُدفع له إحسانه. كان الآن قد أفاق من الهلوسة، ورجع عقله إلى طبيعته يفكر ويتأمل تلك الغرفة. كانت كبيرة كمخزن سقفه مرتفع للغاية. ولها باب كبير منقوش نقشا عربيا، وشباكان كبيران، وكلاهما مغلق ومسمران بقطعة خشب عرضية كى لا ينفتحان على الإطلاق. وفى كل شباك مصباح كبير، مع وجود لمبة مضيئة إضاءة خافتة على مدار أربع وعشرين ساعة. فكان من الصعب جدا التمييز بين الليل والنهار.

وكان سقفها مليئا بالعناكب، وحوائطها كلها حنونة مائية، وعلى أحد أركان السقف طحالب خضراء بسبب رطوبة السنوات الطوال.

أدرك تماما أنه وصل بالفعل إلى فندق العسرة، إلى دار الضيق والشدائد حقا. وأيقن فى الحال أن هذه الدار هى دار تعذيب

الذين صمدوا أمام التعذيب الذى تعرضوا له فى معتقل التعذيب ورفضوا الاستسلام أمام الجلادين الملاعين، وأن هو من بين هؤلاء الذين رفضوا الاستسلام والمثول أمام المحكمة لتوريط نفسه فى مصيبة الاعتراف بالخيانة.

"ولكن كيف عرفوا هذا؟ لم نتحدث عن هذه الأمور إلا مع أنفسنا فقط فى الزنزانة، فمن هو العميل لهم فى الزنزانة؟" سأل نفسه. اشتدت برودة أرضية الغرفة وشعر ببردها داخل عظامه، ألقى نظرة إلى الركن الآخر والأبعد من الغرفة فرأى شيء كالحزمة، ظن أنها قد تكون حزمة ملابس نُسيت هناك منذ فترة طويلة. لم يلق لها بالا بعد ذلك، واهتم بالكشف عن أى مظهر للحياة داخل المبنى، ولكن لم يكتشف شيء سوى الصمت الدائم المحيط به، فلا يعرف أين هو، ولا يعرف كم الساعة، ولا يعرف الوقت ليلا أم نهارا، فلا شروق للشمس نحو الغرفة ليعرف أن يوما جديدا قد بدأ، بل إنه الظلام الحالك الدائم، إذ إنها محاطة بتلك الأيكة التى تحجب اختراق ضوء الشمس تماما.

تأمل حراميا الغرفة خائفا خوفا شديدا، وتلاشت عنده حينئذ شجاعته التى كان يتحلى بها فى معتقل التعذيب ويتباهى بها أمام زملائه، وأخذ يندم ويرى أنه كان من الأفضل أن يلتزم الصمت وألا يبوح بسره لأحد عن موقفه أمام المحكمة فيما لو كان سيعترف أم لا،

فإنه لم يلزم الصمت مدعيا الشجاعة في إقناع زملائه على الرفض. فحلت عليه الآن النقمة، ولا يعرف هدف الذين أتوا به إلى هنا، وما هو نوع العذاب الذى يعدونه له. ما يعرفه هو أنه موجود داخل هذه الغرفة فحسب يتملكه الخوف والرعب. من هذا الخوف والرعب فكر جالسا فى ركن الغرفة بأن ما كان يجرى لهم فى معتقل التعذيب لم يك شيء على الإطلاق مقارنة بهذا المكان الذى يقومون فيه بإزهاق أرواح الناس وهم ينظرون ويضحكون.

نظر حراميا إلى باب الغرفة وكيف هو قائم كبوابة الدخول إلى الجحيم حيث العذاب الأليم لمن عصى رب العالمين: "أنت يا إلهى! أنا عبدك فانصرنى، ونجنى من العذاب الأليم." هكذا دعا الله. ما بيده حيلة يفعلها سوى ترك أمره إلى الله منتظرا مصيره.

ترك النظر إلى الباب، ونظر إلى مكان الحزمة، فرأى فيها اهتزازا وكأنها كائن يتنفس فأصيب بالذهول سائلا نفسه: "ماذا يمكن أن يكون؟" وقف وتوجه إليها بخفية وبطء. ولما اقترب منها رجع القهقرى مرعوبا بشدة. وعاد إلى حيث كان فى ركن الغرفة وهو يحملق إلى مكانها، وقلبه يخفق خفقانا سريعا، ويدق دق الطبول، فاتحا فاه، يريد أن يصرخ لكنه يخاف أن يفعل، والجسد يستشعر وخزا خفيفا من الخوف، وجلده مقشعر، وأعضاؤه كلها مشدوهة مصعوقة. جلس رويدا رويدا يحملق. أهو ثعبان ضخم التف حول

نفسه ويلمع لدهانه بزيت جوز الهند، وقد أصابته تخمة فنام نوم الشبعان! ظل حراميا ينظر إليه ولا يدرى متى يستيقظ من سباته العميق بعد ما يكون قد هضم فريسته التى ابتلعها وأصابه الجوع من جديد، عندئذ يكون المأزق الحقيقى. فإذا ما بدأ هذا الحنش يبحث عن فريسته فى الغرفة ولا يجد فيها سوى حراميا فهل هناك فريسة أكبر من حراميا نفسه؟ أخذ حراميا يسأل نفسه.

"يا للكارثة!" ارتعب حراميا. "يا للعجب، لقد نقلونى إلى هنا لتكون هى نهاية حياتى بأن أكون طعاما للثعبان المتوحش، فلا يعرف الناس مصيرى." خطر كل هذا ببال حراميا مرتعبا. ويفكر فى كيفية أن يكون العقيد بونجو قاسيا إلى حد نقل شخص مثله ليكون طعاما لثعبان متوحش. "اللهم العنه! اللهم اقتله بالصاعقة!" دعا عليه حراميا. أراد أن يصرخ لكنه خاف أن يوقظ الثعبان. فضل السكوت منتظرا نصر الله. بينما كان فى هذه الحالة من التفكير انفتح الباب. فارتاح باله بعض الشىء، وشعر باحتمال القدوم لإخراجه، فإن الباب فتح قليلا بما يسمح لإدخال شخص يده، واضعا له طبقا من عصيدة وفاصوليا وبعدها أحكم غلق الباب ثانية.

نظر إلى الطبق خلف عتبة الباب، وخاف من مجرد الوقوف لأخذه. كان جائعا بلا شهية، لا يمكن للطعام أن يُبلع فى مثل هذه الحالة، فإنه يرى الموت عيانا، ويرى عزرائيل واقفا أمامه يريد

قبض روحه، لا يرى فى هذه الغرفة أى شيء إلا الموت. والمطلوب منه الآن هو النطق بالشهادتين، إذ إنه ينتظر لحظة مهاجمة الثعبان المتوحش له فيلف الثعبان نفسه حوله ثم يبتلعه جاعلا بطنه قبرا له.

لم يعرف حراميا كم من الأيام مضت منذ أن زج به داخل هذه الغرفة نائما ومستيقظا مع هذا الثعبان. هو فى ركن والثعبان فى ركن آخر. هو ينتظر الموت والثعبان ينتظر الإماتة، إن الثعبان بدأ يتحرك تحركات تتمثل فى تقلبات وتنهدات وانتفاخات توحى ببداية الانتهاء من هضم ما فى بطنه وكأنه يتعمد إثارة خوف حراميا الخائف أصلا من عتمة المكان، ومن ذلك الشخص الذى يأتى مادّا ذراعه واضعا له طبق الطعام دون أن يرى حتى وجهه. عقد حراميا العزم بأنه سيقوم بسحب يد ذلك الشخص حينما يأتيه بطعام مرة أخرى ليدخله الغرفة حتى يعرف هو الآخر معنى الخوف الذى يتملك الإنسان عندما يوضع فى حجرة واحدة مع مثل هذا الكائن المتوحش الذى تم تدريبه خصيصا لابتلاع البشر.

جلس حراميا عند الباب ينصت إلى أى صوت قادم نحو الغرفة. لم يعد مكترثا بالثعبان لعلمه أن خطره متمثل فى جوعه بعد هضم ما فى بطنه، ولكن مازال فى بطنه شيء من الطعام، أى مازال هناك بعض الوقت وإن كان ليس بالوقت الطويل. أخذ يخطط فى

كيفية القيام بالهجوم على ذلك الشخص حتى وإن كان ضخم الجسد فسيتصارع معه ليدخله إلى الغرفة ويجره إلى حيث يوجد الثعبان ويدفعه إليه، حتى وإن أدى ذلك إلى استفزاز الثعبان. ولكن هل لديه القوة لفعل ذلك؟

كان حراميا منهكا، جائعا نوما ولا ينام للأرق المستمر الناجم عن مراقبة للثعبان خوفا من الهجوم عليه، ناهيك عن فقدانه للتوقيت فأصبح لا يميز بين ليل ونهار، إضافة إلى الخوف والقلق المتلازمين له. كان إنهاكه شديدا أرهق جسده وشل عقله. يا للعذاب الذى أصابه. إنه فى قلق دائم وخطر كبير داخل هذه الغرفة التى لا إشارة فيها ولا دليل على الحياة أو على أى شىء يعطيه أملا فى النجاة. إن كل جذور الأمل تقطعت، لأن االمسافة الباقية بينه وبين الموت قصيرة للغاية، وطالت أو قصرت فإنه ينظر إلى الدنيا على أنها خوف ويأس وقبر، وما ذلك إلا بسبب شجاعته فى قول الحق.

لم يقترب أحد من الباب كما كان يتوقع. نظر إلى الثعبان فرآه يمتط ويتمدد ويرفع رأسه كأنه انتبه من نومه. إن وجبته جاهزة ومتواجدة داخل الغرفة، لذلك فإنه مطمئن لا حاجة له فى العجلة.

"هيهات له!" قال حراميا. "إن هذا الثعبان لن يأكلنى البتة فأنا الذى سآكله."

آثار حبسه داخل هذه الغرفة بدأت تنعكس عليه، وكأن اختلالا فى عقله ظهر، لأنه يفكر فى المستحيلات، إذ كيف يمكنه أن يسحب إلى الداخل من يأتى له بالطعام بينما هو ضعيف منهك؟ وكيف يمكنه أن يأكل ثعبانا متوحشا؟ كل هذه دلائل كافية تشير إلى اختلال عقل حراميا. جلس فى ركن ناحية الباب منزويا كأنه بردان، وعين له شاخصة صوب الباب والأخرى صوب الثعبان. جلس منتظرا عند الباب لمن يأتيه فيمسك بيده، وناظرا إلى الثعبان كيف يتمدد تدريجيا متربصا به وما عساه أن يفعل. أخذ الثعبان المتوحش الملتف يفرد نفسه فى أحد أركان الغرفة.

شعر الثعبان بحرارة جسم إنسان أدفأت الغرفة، وبعرق غيّر من حالة الرطوبة فى الغرفة، فبدأ ينشط، خاصة وأنه تنبه من نوم كان فيه شبعانا وقد هضم. إن رائحة عرق الإنسان بالنسبة له إشارة إلى وجبة أخرى له، فقام بلعق نفسه ينشط فاه. نظر إليه حراميا وهو يلتوى ليلعق لهزميته، وقال له: "إذا لمستنى فأنا وإياك إما قاتل أو مقتول." كأنه يتحدث إلى إنسان مثله. كان يحدق بعينيه إليه دون أن يرمش وكأنه مصارع ثيران يقف أمام ثوره.

بدا الثعبان وكأنه استمع لما قاله حراميا فأراد هو الآخر أن يستعرض عضلاته، ليبرهن لحراميا أن هذا المكان هو مكانه وحده. فأخذ يلتوى ويستعرض نفسه برفع رأسه مرة وبسط نفسه مرة أخرى

رأسيا وأفقيا تحت الجدار، ومرة أسفل الشباك وأخذ يتمطى فى الغرفة كلها بلا قلق. كل هذا وحراميا ينظر إليه وهو يتحرك متغطرسا، زاحفا، متجولا فى كل أركان الغرفة. فمر بأسفل الباب حيث كان حراميا منزويا فرفع له رأسه ينظر إليه، ثم انصرف ورجع إلى ركنه حيث كان يلتف حول نفسه. عندئذ رفع رأسه ساحبا نفسه إلى الخلف وكأنه يستعد للهجوم. انتفض حراميا ووقف فى مكانه ثابتا مستعدا لمواجهة شر ذلك الحيوان.

علم حراميا أن غريزة التوحش قد تملكت من الثعبان، وإذا ما تهاون فإنه سيبتلعه، لذلك عليه أن يدافع عن نفسه وحياته بكل وسيلة ممكنة. تبخر ما كان ينتابه من جبن، وتحلى بروح الشجاعة، وقرر أن يواجه الثعبان فيكون أو لا يكون. تذكر المقولة المأثورة القائلة: "ما يلجأ إليه الجبان الضحك"، وهز للمقولة هذه رأسه رافضًا إياها وقائلاً فى نفسه: "بل الموت هو ما يذهب إليه الجبان، وإنه الموت السيئ للغاية".

امتلأ قلبه شجاعة فشعر بقوة كقوة الأسد وأنه مستعد للمواجهة والتلاحم مع الثعبان بكلتا يديه. والثعبان هو الآخر يقف رافعًا رأسه يلعق لهزيمته بلسانه الخارج الداخل، وعندما يخرجه تحسبه قد أخرج من فيه شررا. إنهما فى وضع المواجهة، ينظر كل منهما إلى الآخر: "من ذا الذى سيبدأ الهجوم؟ سأل حراميا نفسه.

فرد الثعبان نفسه فجأة منقضا على حراميا، وإذا به يلف نفسه حول جسم حراميا ويشد نفسه ضاغطًا بكل قوة على أضلاع حراميا. لم يك حراميا قويا بما فيه الكفاية كما كان يظن. فسقط أرضًا بسهولة، ولكن لما رأى رأس الثعبان ستنهشه أمسك به بكل ما تبقى لديه من قوة وبدأ يعض رقبته. كان الثعبان قد أحكم التضييق على ضلوعه حتى عجز حراميا عن التنفس، ولكنه هو الآخر تحكم فى قضم رقبته بأسنانه قاطعًا إياها قضمة قضمة ولافظًا إياها. امتلأ فمه بالدم الذى سال على الأرض، بينما الثعبان يلتوى فى صراع شديد. كان حراميا أسنانه حادة كالسكين. وكلما قضم قضمة كلما اقتطع شريحة من لحم رقبته، دون أن يتقزز من ملء فيه بهذه الشرائح الطازجة بينما جسده غطاه الدم. لم يترك الثعبان حتى تأكد أنه قد فصل رأسه عن جسده بأسنانه. فانفك الثعبان عن جسده وسقط على الأرض ميتًا، وسقط معه حراميا هو الآخر أسفل الباب منهكًا للغاية، يجد صعوبة شديدة فى التنفس، وقد أسكره دم الثعبان، ففقد وعيه.

لما أفاق شعر أنه كان فى نوم عميق يحلم أحلامًا مزعجة ومرعبة. اندهش لما رأى زملاءه ملتفين حوله وهو فى معتقل التعذيب، واضعين عصابة من القماش مبلولة بالماء على رأسه. رأى نفسه كمن مات ورجع إلى الحياة من جديد. وذلك لما فتح عينيه ورأى نور شمس الظهيرة. فلقد كان يعيش فى ظلام دامس لمدة

أسبوع كامل. وها هو اليوم يرى ضوء الشمس ساطعًا داخل الغرفة. "الحمد لله" حمد الله بصوت شخصى منهك للغاية وهو راقد على الحصير. كان مقدم موجودًا على جانبه الأيمن يدعو له، وزاريكانى على الجانب الأيسر يدلك له رأسه بالعصابة المبلولة. إنه رجع إلى المعتقل نفسه ولم يُستجب دعاؤه الذى دعا الله به ألا يعود ثانية إلى هذا المعتقل.

طوال اليوم وهو يتنفس بصعوبة، وليس له كلام، كأنه مسحور. وزملاؤه مندهشون لا يعرفون ماذا جرى له منذ خروجه وحتى عودته إلى الزنزانة يغطى الدم كل جسده، ولا كلام له، وفى حالة سيئة للغاية. اختفى لمدة أسبوع، ولا أحد من زملائه فى المعتقل أو فى سجن كومبا كومبا يعرف مكانه. واستمر حراميا على هذه الحالة لمدة ثلاثة أيام، لا كلام، لا إجابة على أسئلة زملائه، ينظر إليهم فقط كالمعتوه.

وفى تلك الليلة، غشيه نوم عميق قد يكون تعويضا لهُ عما فاته من نوم طوال أسبوع بسبب الخوف والقلق من الثعبان المتوحش الذى كان يعايشه فى تلك الغرفة. ولما كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل والناس كلهم نيام، والهدوء يسود والسكون يعم بدأ حراميا يهذى بكلمات بصوت هامس آخذ فى الارتفاع تدريجيًا حتى أصبح صراخًا كصراخ المجنون: "الثعبان! الثعبان! الثعبان!"

استيقظ كل من فى الزنزانة يصرخون هم الآخرون: "الثعبان! الثعبان! الثعبان!" وكأن الهلوسة أصابتهم. وقف الجميع فى أركان الزنزانة منهم الواقف فوق دلو الفضلات، ومنهم المتعلق بحديد الشباك دون أن يرى أحدهم الآخر بسبب الظلام الدامس.

وساعتها كان العجوز ماتشالى نائمًا والحراس تأخذهم سنة من النوم ومعهم بنادقهم، فنهضوا جميعًا على الصراخ وهرولوا إلى الزنزانة مصوبين بنادقهم، ومع العجوز ماتشالى مشعل. فقام بفتح الباب بقوة وأضاء الزنزانة بمشعله لتفقد الأمر. والمعتقلون واقفون فى حالة ذعر. "ماذا؟" سألهم ماتشالى وهو يعبث بشاربه.

"الثعبان" أجابه الجميع بصوت واحد.

"أين هو؟" سألهم ماتشالى.

صمت الجميع، فأمرهم ماتشالى: "هيا ارفعوا الحصائر نبحث عنه."

تم رفع الحصائر، الواحدة تلو الأخرى، وفتشوا فى كل الأركان وعند رفع حصيرة حراميا وجدوا صرصارًا مختبئًا جرى واختفى تماما فى فتحة ماسورة الصرف الصحى.

صوب ماتشالى المشعل إلى وجوههم فردًا فردًا موبخًا وشاتمًا إياهم: "أغبياء! أغبياء!" وأغلق الباب بقوة وانصرف ومعه الحراس الذين أعادوا بنادقهم المصوبة إلى أكتافهم، ورجعوا من حيث أتوا ليواصلوا النوم. أصيب كل من فى الزنزانة بالأرق طوال الليل متوترين دون أن يعرف أحد من الذى أحدثه. إنه سر حراميا فقط الذى كان ينام مع الثعبان المتوحش.

سمع حراميا صوت العقيد بونجو من على بعد يتحدث فى مكتب الحم. انتابه الخوف، وبدأ يخفق قلبه بسرعة لأنه لا يعرف أى بلاء أتى به مرة أخرى. كان الوقت يشير إلى العاشرة صباحًا، وانقشع الخوف الذى تملكه ليلة أمس. وتأكدوا أن الغرفة ما كان بها ثعبان ولا سحلية وإنما هو الخوف اللاشعورى الذى أتت به أحلام حراميا المزعجة والمرعبة.

كان ماتشالى قد انتهى من نوبته واستلم مكانه دودى للفترة الصباحية. فأخبره عما جرى فى الليلة الماضية، ومن ثم فقد استهزأ بهم عند فتحه للزنزانة: "هل ذلك الثعبان مازال موجودًا؟"

لم يجبه أحد مكتفين بالنظر إليه، وجامله البعض متظاهرين بالضحك نفاقًا.

"أنت!" نادى دودى على حراميا.

"أنا؟" سأله حراميا.

"نعم"، أنت، اخرج!"

خرج حراميا فى حالة قلق شديد ومشى فى المقدمة وخلفه دودى حتى مكتب الحم. وكان حراميا قد خلع ملابسه الملطخة بالدم وأعطى ملابس أخرى من الكاكى بعد أن اغتسل وتنظف وحلق لحيته جيدًا. يبدو على وجهه الهدوء، لكن القلب يمتلئ خوفًا وقلقًا، لأنه لا يدرى ماذا ينتظره من عذاب أعدوه له يفوق هذه المرة ما تعرض له فى فندق العسرة. ربما يقررون نقله هذه المرة إلى فندق الجحيم. كان الحم والعقيد بونجو يجلسان فى المكتب فى هدوء يشربان الشاى. لما رأياه واقفا على الباب رحب به العقيد بونجو ترحابًا حارًا "أهلاً يا حراميا! ادخل!، ادخل!" وكأنه فرح فرحًا شديدًا لرؤياه. ظل حراميا واقفًا عند الباب وكأنه يخاف الدخول إلى المكتب.

"ادخل، ادخل واجلس." رحب به الحم كذلك.

دخل حراميا وجلس على آخر كرسى من الكراسى المتراصة على أطراف المنضدة الطويلة الموجودة داخل الغرفة. وكان جلوسه يتوسطه ثلاثة كراسى بينه وبين العقيد. نظر إليه الحم نظرة جادة وسأله: "هل نطلب لك صودا؟"

انزعج حراميا ورأى أن ما حدث له سابقًا ربما يتكرر له اليوم حيث أعطوه صودا افقدته وعيه، ولما أفاق وجد نفسه مع الثعبان المتوحش فى غرفة واحدة، وأنهم اليوم ربما يضعونه مع أسد. خطر كل هذا بباله: "لا أحتاج إلى صودا" قال هذا فى نفسه، ثم قال لهما: "شكرًا، لا أريد صودا."

انخرط العقيد والحم فى الضحك، ولما انتهيا من الضحك قال العقيد لحراميا: "إذا كنت لا تريد صودا اليوم فلا بأس يا سيد حراميا."

التزم حراميا الصمت، وهو ينظر إليهما معتبرًا إياهما شخصين بلا إنسانية ولا آدمية، وما لديهما من خبث يفوق خبث الحيوانات الوحشية. وليس فى قلبهما مثقال ذرة من رحمة أو عطف. إنهما قساة القلوب، قاتلون، خبثاء، بربريون. ولا يتفوق أحد عليهم فى هذا.

"إننى أراك يا سيد حراميا قد حطمت الرقم القياسى" أخبره الحم منافقًا إياه بإعطائه لقب السيد.

اكتفى حراميا بالنظر إليه دون أن ينطق بكلمة. "إنك قتلت الثعبان المتوحش بيديك، الأمر الذى لم يحدث من قبل" قاله الحم مستطردًا.

اقشعر جلد حراميا فجأة حيث تهيأ له عندئذ منظر ذلك الثعبان أمامه ماسكًا برأسه قاضمًا له بأسنانه. ولم ينطق بكلمة، وارتعش جسده، ثم هدأ.

"قل لنا يا حراميا" بدأ العقيد بونجو يتحدث وقد تغير وجهه وارتسمت عليه ملامح الشؤم واللؤم: "سمعنا أنك ستتكر كل شيء وأنك أيضًا تذكر الكبار، وتدعى أنهم متورطون، فهل هذا صحيح يا حراميا؟" سأله العقيد بونجو وهو ينظر إليه مستندًا على الكرسى ومحتقرًا إياه.

"ليس صحيحًا. إننى لم أقل هذا."

"ليس صحيحًا؟ ألم تقل ذلك؟ اعتدل العقيد بونجو بعينيه الحمراوين كالفلفل: "وإذا أتينا لك بشخص سمع ما قلته، فماذا نفعل بك؟"

"آتونى به" أجابه حراميا، ورأى أنها فرصة مناسبة لمعرفة عميلهم فى الزنزانة.

"اسمع يا حراميا!" تدخل الحم، "إن الحكومة لها آذان كبيرة أكبر من آذان الفيل وتسمع ما لا يمكن للإنسان العادى أن يسمع."

"اسمعا" قالها حراميا وكله ثقة وثبات، "إننى أسير لكما، وقد استسلمت لكما، فأى شيء تريدان منى فعله سأفعله، وأى شيء تريدان منى قوله سأقوله. فإذا أردتما التصديق فصدقانى أنا، وإذا كان هناك آخرون تصدقانهم فالأمر يرجع إليكما."

نظر العقيد بونجو والحم إلى بعضهما البعض دون أن ينطق أحدهما بكلمة. استدعيا دودى وأمراه أن يعيد حراميا إلى الزنزانة، واعتبرا نفسيهما منتصرين عندما وقعا العقاب على حراميا وأنه ارتدع وسيغلق فاه.

لما أعيد إلى الزنزانة تلهف زملاؤه لمعرفة ما يجرى له. لماذا يؤخذ حراميا فقط ويعاد، وعندما يعود لا ينطق بشيء. حاولوا الاستفسار منه واستجوابه لكنه صام عن الكلام كالأخرس. كان يخاف من العميل أن ينتزع منه معلومة جديدة. إنه الوحيد الذى أصبح يعرف أن فى زنزانتهم عميلاً. ولكن من هو هذا العميل؟ إنه لغز، أفضل له أن يسكت.

الفصل الثامن عشر

اليوم يوم الأربعاء، يوم العائلة. إنه اليوم الذى تمنح فيه الحكومة التموين لرعاياها فى الجمعيات الاستهلاكية والتى تسمى أيضًا بالجمعيات العائلية. يحرص الناس فى هذا اليوم على الاستيقاظ مبكرًا للحاق بطابور هذه الجمعيات آخذين معهم بطاقات التموين. وبدون هذه البطاقة لا تحصل على حصتك فى الجمعية وتموت جوعًا. وهذا هو يوم صرف المواد التموينية من أرز ودقيق وسكر، وتقدر هذه المواد على حسب أعداد أفراد كل أسرة.

استيقظت خديجة قبل صلاة الفجر، فى هذا الوقت يكون السيد مفتاح قد ذهب إلى المسجد. قامت خديجة بغسل ملابس طفلتها بسرعة لكى تلحق بطابور الجمعية الواقعة فى كيكواجونى. فى ذلك الأسبوع كانت الأمور سائرة على ما يرام للسيد مفتاح إذ أتى إليه زبائن كثيرون، منهم من طلب إجراء عملية زار، ومنهم من طلب الدعاء له، ومنهم من طلب ختمة قرآن له. خرجت خديجة ومعها خمسون شلنًا. وهذا مبلغ يكفى لشراء حصة التموين لذلك الأسبوع وزيادة. وما تبقى تشترى به علبتين من السجائر ماركة النجمة لحمزة إذا وجدت فى الجمعية، ثم تبحث عن شخص يمكنه الوصول إلى السجن لتوصيلهما إليه.

كانت تسير بسرعة وترتدى عباءتها وهى فى الطريق. فى ذلك اليوم كان لديها أعمال كثيرة لإنجازها فى أكثر من مكان، مع متابعة أخبار زوجها الذى تفكر فيه وتراه فى المنام. إنها لا ترى راحة ولا سعادة لأنها فى مصيبة لا نهاية لها. وفى كل يوم يزاحم حزن جديد حزنًا قديمًا ليحل محله. لا تفكر فى شىء سوى التفكير فى زوجها، وتتألم آلامًا رهيبة، حتى الطفلة التى توقعت أن تسليها وتخفف عنها آلامها وأحزانها كانت هى الأخرى مصدر تعب لها لأنها دائمًا مريضة، وكل يوم تذهب بها إلى المستشفى. إما بسبب الحمى، وإما بسبب السل، وإما بسبب الحصبة. والناس يقومون بإعطائها روح الأمل ويحاولون تهدئة روعها، طالبين منها التحلى بالصبر، لكنها سئمت من الصبر وقد نفذ صبرها. والآن ستبحث عن الحقيقة لتعرف بنفسها أين زوجها؟ أهو حى أم ميت؟ وما جريمته؟ لأن الصمت قد طال. وقد حان الوقت أن تعرف الحقيقة. إنها سئمت الدردشة وكلام الناس فى الشوارع. ولكن قبل كل شىء عليها أن تذهب إلى الجمعية أولاً.

سارت فى الشارع شاردة الذهن، كل أفكارها فى حمزة، وإذا بها وصلت إلى الجمعية، وكلها أمل فى أن تكون من أوائل الواصلين لتقف فى مقدمة الطابور. لم يتحقق أملها لأنها وجدت أناسًا كثيرين وبعضهم قضى ليلته هناك، فوقفت حيث انتهى بها الطابور، ووقف

خلفها كل من أتى بعدها، وازداد الطابور طولاً. فى طابور الجمعية هذا لا توجد فوضى ولا تدافع مقارنة بطابور الخبز الذى يتوقف على الحظ، لأنك قد تحصل على الرغيف وقد تفقده، ولذلك يتدافع الناس ويتصارعون ويتخانقون. ولكن الأمر هنا يختلف، فطالما أن البطاقة معك فستحصل لا محالة على المواد التموينية.

كانت الشمس قد ارتفعت تدريجيًا، وتخترق بأضوائها السماء وتنتشر على الأرض، لكن رياحًا لطيفة قادمة مباشرة من ميفينجينى مرورًا بوسط ساحة منازى موجا لطفت من حرارتها. والأشجار التى ترفرف أوراقها فى الهواء ترسل إليهم رياحًا لطيفة تلطف الجو، ويسمعون صوتها بوضوح. كانت هذه الرياح تحمل برودة نسمات الفجر من البرْد الذى تقطر طوال الليل على ساحة منازى موجا. كان الناس فى هذا الطابور البشرى يشكون من البرد على الرغم من سطوع الشمس التى كانت تتحدى برد الفجر.

فى تمام الثامنة والنصف فتحت الجمعية، ووقف من كان فى مقدمة الطابور بأرواح متفتحة كما يتفتح الياسمين عند غروب الشمس. إنهم يفرحون بالرزق الذى سيحصلون عليه هذا اليوم. تهامس الذين يعرفون خديجة فيما بينهم واغتابوها: "هذه هى زوجة الخائن."

إنها لم تهتم بغيبة الناس لها بل ركزت على الطابور وهو يتحرك بطيئًا، شبهت هذا الطابور بأم أربعة وأربعين حيث يحتوى على كثير من الأرجل ولا يتحرك بسرعة، بل يجر نفسه متقدمًا خطوة خطوة كالطفل الذى يتعلم المشى.

كانت تشعر بأن الطابور لا يتحرك والوقت يمضى، وهى تواعدت مع النقيب بركة Baraka أن تقابله فى تمام الساعة الثانية. كان النقيب بركة وحمزة تربطهما علاقة وطيدة قبل أن تحل هذه الكارثة. إنه يعرف كبار المسئولين وقد يساعدها فى التحدث معهم كى يفرج عن زوجها. كما أن لديها موعدًا فى الرابعة مع أحد العرافين فى كيدونجو تشيكوندو Kidongo Chekundu. ومطلوب منها أن تأخذ معها إلى الدجال بثمرة جوز الهند غير الناضجة وثلاث بيضات سحالى كى يصنع منها حرزًا يعطى لحمزة فى السجن بأى طريقة.

فتحت الجمعية وتزاحم الناس كالنحل فى خلاياه. تحسب الجمعية أنها ليست ذلك المبنى الضخم الذى ما كان أحد يتجرأ للاقتراب منه قبل الاستقلال إذ إنه ليل نهار كان محاطًا بالحراس حيث كان مقرًا "للقائد" مدير قوات الشرطة الاستعمارية، ولا يدخله إلا من كان أوربيًا مثله.

بعد أن تحرر الشعب تم تحويل المبنى إلى مقر لنقابة اتحادات العمال، إلى أن قرر الزعيم حل جميع اتحادات العمال على مستوى الجمهورية. وأصبح الآن مبنى للجمعية الاستهلاكية، ويكتظ بالناس واقفين أمامه يريدون التموين فى جو من الجلبة والفوضى. وصل الطابور حتى كشك كريكيت. والجميع يملأ الصبر قلوبهم، فالطابور لا يتحرك إلا خطوة خطوة.

الأشجار الكبيرة المحيطة بالساحة تبسط أغصانها فوقهم مظلةً يستظلون بها مع شمس هادئة ترتفع الآن بسرعة وتسقط حرارتها المتوهجة على الأرض، ولكنها لا تجد منفذًا لتسخين الهواء العليل المنتشر تحت ذلك الظل.

إنهم واقفون ينظرون إلى السيارات وهى تصعد باتجاه ميمبينى Miembeni وتنحدر باتجاه سينما ماجستك، وراكبوا الدرجات يمرون ذهابًا وإيابًا فى يوم كله حركة، يسعى فيه الجميع على رزقه. وفجأة حدث هرج ومرج فى مقدمة الطابور فتشابك الناس، وانزعج من بالخلف متسائلين "ما الذى حدث؟" حدث أن رجلاً عسكريًا قدم إلى الجمعية وأراد أن يستغل رتبته ذات الثلاث نجوم على كتفيه كى يساعد صديقًا له يأخذ دوره فى الطابور. فلم تساعده رتبته ولا عجرفته، فأخذ يتباهى بنفسه: "أتعرفون من أنا؟" فجاءه الرد من

الناس السائمين من كبرياء أمثال هؤلاء: "بغض النظر عمن تكون!" وأخرجوا من الطابور ذلك الرجل المندس فيه، وهو بدوره ذهب ووقف حيث انتهى به الطابور البطيء بطء القواقع.

وفى حوالى الواحدة إلا ربع، وصلت خديجة إلى دورها فى الصرف فتنهدت لوصولها، ومن تقوم بصرف التموين امرأة متقدمة فى السن منشغلة تمامًا بالميزان الذى أمامها فى وضع وحدات الوزن المختلفة بكفة الميزان، فمرة تضع وحدة الكيلو، ومرة تضع الاثنين، ومرة النصف كيلو وهكذا هى دائمًا منشغلة للغاية بالوزن للناس. وكانت ترتدى إزارها من الدبلان على خاصرتها وتضع طرفى ردائها على ذراعيها الأيمن والأيسر، وجهها عابس يعلوه الدقيق، لا تعرف الهزل، وعلى الرغم من أن الجو بديع فإن وجهها عليه عرق خفيف، كلما مسحته لوثته بالدقيق، فأصبحت كالراقصة فى فرقة رقص شعبى.

لم تكترث بعدم نظافة وجهها ولا بجمالها فقد تخطت سن الاهتمام بالجمال، وكانت التجاعيد بدأت تظهر على وجهها. أما صدرها فكان ثدياها ساقطين تمامًا مما جعل صدرها مسطحًا كالخشب.

"أعطنى بطاقتك بسرعة، فالوقت يجرى" قالت ذلك لخديجة بجدية. فوضعت خديجة البطاقة وهى بيدها على الطاولة أمامها

بسرعة، وبدأت المرأة تغرف لخديجة أرزًا من الجوال ثم دقيقًا ثم سكرًا، وكلما أدخلت مغرفتها المعدنية فى جوال السكر كلما طار منها نحل داخل وخارج المحل، نحل يبحث عن مادة السكر لخلاياه.

"هل لديكم سجائر؟" سألتها خديجة

"اليوم ليس يوم السجائر، يومها غدًا، مَنْ بعدها!" وجهتها المرأة بعد أن وزنت لها، ودون أن تنظر إليها لتدفع نقودها. كانت هناك طاولة أخرى فى ركن من المحل يجلس عندها شاب متغطرسًا متكبرًا وكأن لا أحد مثله، إنه المدير العام للجمعية، والمحصل لجميع المدفوعات. دفعت خديجة نقودها وانصرفت بشنطتها المصنوعة من جريد جوز الهند والتى تحوى بداخلها أكياس الأرز والسكر والدقيق.

ما إن غادرت المكان إلا وشعرت خديجة بقطع صلتها بالجمعية ولا صالح لها بها، فلقد حصلت منها على ما تريد من تموين لها، وانصرفت مع حقيبتها، وتركت الآخرين يعانون. لم تود حتى مجرد الالتفات إلى الخلف، لأن فعل ذلك يذكرها بمأساة الطابور طوال النهار من أجل ثلاثة كيلو جرام من الأرز. تركز الآن على التوجه للبيت حيث تركت أمها وحدها وقد ذهبت زالحاتا إلى المدرسة، فلا أحد يساعد أمها السيدة فاراشو إذا ما بدأت طفلتها فى البكاء.

الظل الذى كان يحميها من حرارة الشمس المتوهجة فى ذلك الوقت قد تركته، وتركت معه الهواء العليل الذى كان يأتيها من تحت ظل الأشجار لتواجه الآن حرارة الشمس الملتهبة فى كل مكان، ومعها غليان حرارة جسدها، مع ما تحمله من حمل ثقيل عليها يضايقها. هذا الحمل الثقيل الذى مرة تحمله بيمينها ومرة بيسراها وهكذا دواليك حتي وصلت إلى مسيلليم Msellem حيث وضعت حملها على الأرض لتستريح قليلاً منه، ذلك الحمل الثقيل الذى ترك فى كفيها آثارًا لخطوط تجلط الدم فيها.

"دعينى أساعدك يا سيدتى" سمعت رجلاً يقول لها ذلك من خلفها.

"شكرًا! شكرًا! سأحمله بنفسي" ردت عليه من غير ما تلتفت لتعرف من هو.

"دعينى أساعدك، يبدو عليك مجهدة يا خديجة"

وقبل أن ترد عليه، حمل الرجل الشنطة من مكانها، وهنا رفعت خديجة رأسها تنظر إليه فأصابتها الدهشة والذهول، واستمرت تنظر إليه دون أن تعرف ماذا تفعل، هل تنزع منه الشنطة أم تتركه يحملها وبذلك تصحب رجلاً يترجل معها طوال الطريق وأمام الناس حتى تصل إلى بيتها؟

"شكرًا! شكرًا! سأحملها بنفسى" شكرته خديجة محاولة أخذها منه بقوة. إنها لا تعرف من أين أتى عزيز وظهر لها فجأة هكذا كالعفريت. لقد رآها منذ أن كانت واقفة فى الطابور عندما كان يمر بسيارته متجهًا إلى عمله. فترك السيارة فى العمل عمدًا، وعاد إلى الجمعية مترجلاً كى تتسنى له الفرصة الملائمة لمتابعتها خفية عندما تدخل الحارات والأزقة فى حى كيكواجونى Kikwajuni.

وذلك لأنها إذا كانت قد فرت منه ومن بين يديه المرة السابقة لما فرت من سيارته كما تفر الفأرة عندما تنجو بأعجوبة من الدخول فى مصيدة نصبت لها. فإنه هذه المرة لن يسمح لها بذلك، وسيستخدم كل الحيل التى عنده لتليينها حتى تتجاوب معه وتنصاع له.

"لا تكونى هكذا يا خديجة، هيا اهدئى أولاً، لماذا أنت قلقة؟"

أخذ عزيز يهدئها ويزيل عنها ارتباكها.

"إننى تركت أمى وحدها مع رضيعتى" قالتها خديجة وهى تحاول أن تزيل يدى عزيز بالقوة لتأخذ منه الشنطة.

" هيا تريثى أولاً، اسمعينى أولاً" قالها عزيز.

رأت خديجة أنها ليست فى حاجة إلى مجاراة عزيز فى الحديث وهى فى الطريق، لأن الناس عندئذ يتجمعون لجلب العار

لها. هدأت خديجة بعض الشيء لتنصت إليه شاخصة عيناها الغاصبتان إليه، سائلة إياه:" ماذا عندك؟" سألته بانفعال وانتفاخ مثلما تفعل الدجاجة المستنفرة خوفًا على كتاكيتها.

"قلت لك ذات يوم إننى أحمل رسالة لك، لكنك لم تريدى حتى الإنصات إلى. وانتفضت ورميت بنفسك خارج السيارة دون أن تعرفى فحوى الرسالة ولا مصدرها! وكان يمكن أن تقعى وتموتى يا بنت الناس!"

" أما كان الأفضل لى أن أموت؟ وتموت الرسالة نفسها عن أن تقابلنى فى الشارع؟" سألته خديجة.

"أليس الشارع بمكان يتقابل فيه الناس؟" سألها عزيز.

"أنا لست امرأة تتحدث مع الرجال فى الشارع، احترم نفسك وتأدب، وإذا كنت تريد هذه الشنطة خذها!" وانطلقت خديجة بسرعة من مكانها وتركت عزيز ومعه الشنطة فى يده.

رأى عزيز أن خديجة ليست سهلة المنال،فجرى وراءها، واستوقفها، "سامحينى، سامحينى فأنا لم أقصد هذا" اعتذر لها كى لا تستمر فى إحراجه فى الشارع وتكون العاقبة وخيمة.

وقفت خديجة وأعاد عزيز لها الشنطة، وقال لها مستعطفًا:" اسمعى يا خديجة، الرسالة التى أحملها إليك كلها خير، فلماذا لا تمنحينى الفرصة للجلوس معك فى أى مكان ولو لنصف ساعة فقط لأسلمها إليك؟"

" ليس عندى وقت"

" ليس ضروريًا أن يكون اليوم أو غدًا، أى يوم ترينه مناسبًا يمكننا أن نتقابل ونتحدث فى هدوء؟.

" ليس عندى الوقت اليوم، ولا الغد، ولا فى أى يوم".

" الوقت يا خديجة هو شيء يتم تنظيمه فقط، أرجوك، وأقبل يديك أن تفعلى المستحيل لنتقابل يوم السبت الساعة السابعة مساءً فى فوروضانى تحت شجرة الهندوس. وتذكرى يا خديجة أن الإنسان ليس له رفض الدعوة ولكن له رفض ما دعى له، فأرجوك ألا ترفضى دعوتى".

نظرت خديجة إلى عزيز ورأت كيف أن وجهه ترتسم عليه علامات الخداع والخبث، بينما هى عابسة الوجه، حرارتها مرتفعة داخل جسدها، يسيل منها العرق وتشعر به فى قناة عمودها الفقرى ينزل حتى فلقتى مقعدها. إنها تنظر إلى عزيز بعين الغضب والكراهية، وتتمنى أن تنقض عليه لإزهاق روحه، وحملت شنطتها ولم تتوقف فى أى مكان حتى بيتها.

لم تتمكن حتى من أن تستريح، فقامت بإرضاع طفلتها في عجلة، ولكن الطفلة لا يخصها استعجال الأم، فهي ترضع الثدى ببطء وهدوء تام. كلما أرادت خديجة إخراج الثدى من فم الطفلة كانت الطفلة تشفطه وتمص الحلمة بقوة وهى سعيدة ومستمتعة ومتلذذة من ثدى أمها. لم تجرؤ خديجة أن تقطع عن طفلتها هذه المتعة فاستمرت فى إرضاعها حتى شبعت وغلبها النوم فى الحال.

خرجت خديجة مسرعة قاصدة الكابتن بركة فى ميكونجونى Mikunguni . إنه صديق حميم لحمزة. عندما وصلت إلى باب بيته كان البيت هادئًا، فقرعت الباب مرة ثم ثانية، وفى المرة الثالثة دخلت مستأذنة وهى تقول" يا أهل البيت!".

" تفضلى!" أجابها صوت صارم لسيدة من على بعد.

تنبه العقيد بركة بانزعاج وكان فى سريره مسترخيًا.

" إنها زوجة حمزة، وقالت لى إنها ستأتى لمتابعة أخبار زوجها"

"من حمزة هذا؟" سألته زوجته.

" حمزة هو حمزة" أجابها الكابتن بركة.

"حمزة هذا هو حمزة الخائن؟" سألت زوجة الكابتن بركة ثانية.

" إنه هو، أخبريها أننى غير موجود، وفى سفر، ولا أتوقع العودة قريبًا" أمرها الكابتن بركة بذلك.

فتحت زوجة الكابتن بركة الباب بقدر ما يسمح بإخراج رأسها فقط وقالت" تفضلى" قالتها وهى مطلة برأسها فقط من الباب.

"هل الكابتن بركة موجود؟" سألتها خديجة.

"الكابتن بركة؟" سألتها زوجته.

"نعم الكابتن بركة. أليس هذا منزله؟"

"نعم، إنه منزله تمامًا، ولم تضلى الطريق، ولكن الكابتن بركة فى سفر."

" فى سفر؟" سألتها خديجة وهى مندهشة لأنهما تقابلا بالأمس ووعدها أنه سيكون بالمنزل. فأصابها الذهول.

"ثم إنه قال لن يعود اليوم ولا الغد" أخبرتها زوجة الكابتن بركة.

"آه وهو كذلك." قالتها خديجة بخيبة أمل.

"ماذا أقول له إذا رجع؟" سألتها زوجة الكابتن بركة.

"قولى له أن خديجة زوجة حمزة جاءته."

"هذا ما أقوله له فقط؟"

"إذا قلت له ذلك فإنه سيفهم."

"إذًا سأقوله له."

"هيا، إلى اللقاء." ودعتها خديجة.

"إلى اللقاء" ردت عليها تلك المرأة هى الأخرى مودعة إياها وهى واقفة على الباب تراقبها بعينيها قائلة لها فى نفسها: "إنك خائبة يا صاحبتى، فلن يمكنك توريط زوجى مع الخونة إطلاقًا." وأغلقت الباب ودخلت. عندما دخلت غرفتها وجدت الكابتن بركة ممتدًا فى نفس مكانه على السرير يتصفح جريدة. ترك الجريدة وسأل زوجته: "هل انصرفت؟"

"لقد انصرفت تلك المشئومة، ثم أقول لك يا زوجى!،إياك وملاحقة زوجات الخونة هؤلاء خوفًا من توريطك فى مصيبة بلا طائل. إذا كانوا أصدقاء لك فليعلموا أن الصداقة قد انتهت، لا أريد أن أدخل فى العدة وزوجى على قيد الحياة. آه ! فليبتعدن عنك."

ومن مكونجونى سلكت خديجة طريق بيجاموجا Bega Moja فطلعت إلى كيدونجو بحثًا عن بيت الدجال. كانت ذهبت إليه مرة واحدة دون التعرف على الشوارع جيدًا، حيث إن الشوارع نفسها متعرجة وضيقة وتحيطها الأحراش وأشجار الشوك، ثم إن أكواخ هذا الحى مدهوكة بالطين، معرشة بالقش، متلاصقة، حوائطها مائلة، تكاد تقرأ الواقعة، تسندها أوتاد من شجر المانجروف كى لا تقع، لها سياج

من السعف المجدول مع بعضه للسترة، وهى سياج بلى سعفها وتهالك فأصبح كشباك صيد الأسماك لدرجة أنك فى الخارج ترى من فى داخل المرحاض. لا ساتر ولا حاجب. إنها فعلاً عار. ثم إن رائحة البراز منتشرة انتشارًا مقززًا لضحالة عمق حفرة المرحاض فى تلك الأكواخ. والأدهى من ذلك اشمئزازًا وقرفًا هو أن بعض أصحاب هذه الأكواخ ليس لديهم هذه المراحيض، فيقومون بقضاء حوائجهم فى الأحراش المجاورة.

عندما دخلت خديجة بيت الدجال وجدت دخانًا كثيفًا من البخور يملأ صالة البيت فدخلت رائحة الدخان حلقها فجاءتها كحة. كانت الصالة مفروشة بالحصير القديم الذى علاه العفن بسبب رطوبة الأرضية الطينية. وهنا بؤرة الشعوذة. وجدت خديجة ثلاثة زبائن قبلها، وهى الرابعة، والدجال جالس مع أحدهم، وهى امرأة فى مقتبل عمرها، منشغلاً بتبخيرها وهى مغطاة تمامًا بقماش أحمر. كان فى يده مبخرة مليئة باللبان، والدخان يملأ الصالة كلها، ويخرج بعضه من شباك خشبى صغير على شكل مربع موجود فى الصالة.

لما تمكن الدخان من جهاز المرأة التنفسى بدأت تتشنج وتصرخ قائلة: "م م م م م م! إيه! إيه! إيه! أنا! أنا!" تقول ذلك وهى تحرك رأسها يمينًا ويسارًا. فقد احتل رأسها عفريت احتلالاً كاملاً، وهو الآن يسيطر على المكان ويريد المحاورة.

"اهدأ أيها السيد الكبير! اهدأ أيها السيد الكبير! قل لنا أولاً من أنت؟ وماذا تريد؟" قال الدجال.

"م م م م م م! م م م م م! ها! ها! ها! أنا! ها أنذا سوبيانى Subiani!" قالت المرأة صارخة، وهى تطيح بيدها هنا وهناك: "إننى حقًا سوبيانى، ملك الملوك!" صاحت بذلك.

"لقد سمعناك يا ملك الملوك! سمعناك! أخبرنا الآن عما تريده" قال الدجال.

"م م م م ! م م م م! أنا! أنا! أريد صينية خشبية! صينية! صينية!" صاحت المرأة، وعندئذ أزالت عن نفسها غطاءها من القماش الأحمر، وأخذت تطوح كلتا يديها وتقفز وتنط وكأنها أصيبت بالجنون، إلى أن قفزت عاليًا ثم ألقت بنفسها على الأرض، وأخذت تركل برجليها ويديها كالمريض بالصرع، حتى ارتفعت ملابسها وانكشفت أوراكها وأفخاذها، وفجأة هدأت وهى مسترخية على الحصير، ثم ركلت برجليها كأنها تحتضر، ثم نهضت وجلست فجأة وهى مندهشة كالمستيقظ من النوم وتنظر إلى الدجال بعينين رخويتين.

اندهشت خديجة بدورها حيث ما سبق لها أن شاهدت إنسانًا لبسه الشيطان. جلست على الحصيرة منزوية بينما الدخان يغطى الصالة كلها. كل من كانت هناك كانت جالسة فى هدوء منتظرة دورها.

أخذ الدجال حينذاك ينظر إلى تلك المرأة الجالسة أمامه، شعرها أشعث، عيناها مرخيتان، شفتاها مفتوحتان، الناظر إليها يعتقد أنها كانت فى عملية جماع، وقبل إتمام رغبتها الجنسية وإنزال شهوتها حيل بينها وبين ذلك. فهى منهكة وفى حالة فتور. والدجال يحرك شفتيه ويقرأ لها. الدجال نفسه رجل كبير، اشتعل رأسه شيبًا، لحيته كلحية ذكر الماعز بيضاء بياض الصوف، عيناه صغيرتان غائرتان، يرتدى إزارًا وفانلة بلا أكمام، نحيف، عظام كتفيه بارزة وكذلك ترقوته.

بعد أن انتهى من قراءته لها نهض وأمسك برأسها وقال لها: "تعالى غدًا فى مثل هذا الوقت."

لملمت المرأة نفسها، وأخذت عباءتها المبعثرة على الأرض، وخرجت والدخان قليل، وما ينبعث من المبخرة يتصاعد مع الهواء ببطء ويخترق فتحات النوافذ. رفع الدجال مبخرته، وأشعلها بالنفخ فى الفحم، فتطاير الرماد وانتشر على الأرض. وبعدما أوقد الفحم أخذ حفنة من اللبان وألقاها داخل المبخرة، فانبعث الدخان بقوة وملأ الصالة، فوضع المبخرة على الأرض.

رفع رأسه ونظر إلى خديجة وقال لها: "هل أحضرت المطلوب؟"

"أحضرته" أجابته خديجة، وأدخلت يدها فى كيس من ورق أحضرته معها وأخرجت ما فيه وأعطته للدجال.

"تعالى غدًا في مثل هذا الوقت."

خرجت خديجة هى الأخرى والشمس تغرب فى الأفق الغربى سريعًا، حيث كانت السماء شديدة الحمرة، والحرارة الشديدة لشمس النهار آخذة في الزوال أيضًا، فالهواء كان لطيفًا يستهوى خديجة وهى تمر تحت الأشجار الكثيفة. كانت مشيتها بطيئة لتعبها فى المشاوير طوال النهار، وتشعر بالجوع كذلك حيث لم تأكل شيء منذ الصباح. ولما بدأ الظلام يحل كانت قد وصلت البيت، لتجد أن السيدة فاراشو قد أعدت لها أرزًا بجوز الهند المركز وسمكًا مقليًا وسلطة فجل. اغتسلت خديجة ودخلت غرفتها وأخرجت رداءها الجميل المنقوش عليه نقشًا للرقية، والمكتوب عليه المثل القائل "الصبر مفتاح الفرج" فوضعت طرفًا منه على صدرها، والطرف الآخر على بقية جسدها. كانت زالحاتا والسيدة فاراشو فى انتظارها داخل الصالة لتذهب ويجلسن معًا للطعام. جلسن جميعًا ووضعت خديجة طفلتها فى حجرها لتملأ فاها بثدى أمها.

إن حرارة الشمس التى ألهبت جسدها طوال النهار قد زالت الآن وهدأت لتحل محلها حرارة الحب بين الأم وأطفالها، تلك الحرارة

التى ملأت المكان. لقد تفجرت مشاعر الحب فى الأم تجاه ابنتها ومشاعر الابنتين تجاه أمهما كما يتفجر الينبوع، فامتلأت الصالة بهجة وآمالاً طيبة، أبعدت ولو لحين الحزن السائد داخل البيت. انشرح قلب خديجة المكلوم طوال النهار فامتلأ وجهها إشراقًا. وجلسن جميعًا يأكلن مبتهجات ضاحكات، والأم تذكرهما بطفولتها وبالعادات والتقاليد الطيبة لجيل الآباء وبالجزاء الحسن لمن تحمل وصبر.

عند عودة السيد مفتاح من المسجد، كن قد انتهين من الأكل ويجلسن فى الساحة الخارجية للمنزل فى الهواء العليل ونور البدر المنتشر فى كل مكان، مما جعل أطفال الحى يلعبون ويغنون أغنية: "قارب من شجر القطن! قارب من شجر القطن!" ويردد آخرون "يحمل أحجارًا! يحمل أحجارًا!" والكل سعيد، والسيدة فاراشو تضع حفيدتها فى حجرها تحادثها وكأنها تفهم ما تقوله لها: "هيا اكبرى لتلعبى أنت الأخرى لعبة قارب شجرة القطن."

دخل السيد مفتاح البيت فقمن ودخلن وراءه، حيث خديجة مرهقة وتريد النوم، وزالحاتا عليها أن تنام مبكرًا لذهابها إلى المدرسة فى الصباح، والسيدة فاراشو لتقديم الطعام لزوجها.

اعتلت خديجة سريرها، ولم تستطع النوم لتفكيرها المستمر فى عزيز. إنه يريدها أن تقابله يوم السبت فى فوروضانى تحت شجرة

الهندوس فى السابعة مساء. "ماذا لدى عزيز بالضبط؟ ماذا يريد؟ إنه يعلم أنى فى مشكلة، ويريدنى أن أستسلم بسبب مشكلتى!" أخذت خديجة تتساءل. تنام على بطنها وتتقلب هنا وهناك وهى تتساءل كذلك: "إنه مسئول كبير، ودائمًا ما يركب السيارات الحكومية لزنجبار، إنه يعرف كل أصحاب السمو، فهل يساعدنى فى إخراج حمزة من السجن؟"

وطوال الخميس والجمعة وهى تفكر هل تذهب أم لا. وجاء السبت، ويمضى الوقت وجاءت الساعة الثانية والثالثة، والكابتن بركة الذى كانت قد عقدت عليه الآمال فى أن يذهب لمقابلة أولئك الكبار ليساعدوه فى إخراج زوجها من السجن غائب فى سفر، ودخلت الساعة الرابعة. "عسى يساعدنى عزيز". وفى السابعة تمامًا كانت خديجة جالسة فى المكان المعهود فى فوروضانى تحت شجرة الهندوس.

كان عزيز مختبئًا فى مكان ضيق تحت سور القلعة القديمة ينظر إلى خديجة منذ أن ظهرت قادمة من الشارع المخترق لوسط بيوت أولاد بيتى صومائيل Biti Sumaili وأضواء فوروضانى تظهرها. إنه لا يصدق لأنه لم يتوقع البتة أن خديجة ستأتى فى مثل هذا الوقت. فشعر أنه المنتصر.

الهواء العليل لفوروضانى والذى لا موسم له، ولا فصل ولا اتجاه له، شمالاً شرقيًا أم جنوبًا شرقيًا، والذى إذا جلست فى إحدى الحدائق الجميلة بهذا المكان فإنه أى الهواء العليل القادم من المحيط الهندى سيستهويك. هذا الهواء استهوى خديجة وهى جالسة فى مكانها متجهة صوب المحيط تتأمل الحياة المتلألئة تحت النور الساطع للبدر. كان البحر هادئًا، وقوارب الصيد تغادر الشاطئ الواحد تلو الآخر لصيد الأسماك.

كما كان فوروضانى يسوده الهدوء حيث خفت حركة المترددين على المكان فى المساء من الناس الذين عادة ما يتواجدون للمرح وتغيير الجو والاستمتاع بشراء الآيس كريم، والطعمية، وجوز الهند المفلفل، والكباب.

ها هى خديجة تفكر: "ما هى الرسالة التى يحملها عزيز؟ إنه لا يحمل شيئًا، بل الشقاوة هى التى تحرك هذا الرجل العجوز" كانت متسترة داخل عباءتها حتى رأسها، ولا يظهر منها إلا وجهها فقط. إنها تنتظر عزيز وهى قلقة لأنها ليس من عادتها أن تتواجد خارج المنزل فى مثل هذا الوقت. طلع عزيز عليها من خلفها، ووضع كفيه على عينيها مداعبًا. قفزت خديجة من مكانها كأن سهمًا طعنها وأزالت كفى عزيز ملتفتة إلى الخلف "ما هذا! ماذا دهاك؟ لماذا تفزعنى هكذا؟"

هدأ عزيز من روع خديجة وأعادها مكانها لتجلس، وجلس بجوارها، ليس فى المكان أحد سواهما مع صمت سائد، وأمواج خفيفة تتلاطم على الشاطئ، وعندما تنساب على رمل الشاطئ تصدر شخشخة ممزوجة بألحان هادئة.

لا كلام بينهما، كلاهما ينظر إلى البحر الممتد أمامهما حتى الأفق الذى ينيره القمر بقوة راسمًا خطًا فاصلاً بين الماء والسماء، خطًا لامعًا كالفضة، مع ظهور ثلاث جزر صغيرة للغاية وسط البحر أمامهما ينظران إليها، وكذلك ينظران إلى سفينتين، إحداهما راسية فى الميناء والثانية فى انتظار دورها لتدخل الميناء لترسو. كل منهما يفكر فيما سيقوله.

"لم أتوق....." لما أراد عزيز أن يقول شىء أرادت خديجة هى الأخرى فى نفس الوقت أن تقول شىء فتصادم الكلام ببعضه فسكت الاثنان، وعاد الصمت مرة أخرى.

"لم أتوقع أنك ستأتين" بادر عزيز بالحديث ناظرًا إلى خديجة التى تبدو بوضوح أنها ليست مرتاحة بوجودها فى المكان.

"أعطنى تلك الرسالة التى استدعيتنى من أجلها." طلبت منه خديجة ذلك ناظرة إلى الأرض.

"أظن من الأفضل أن نغادر من هنا ونذهب إلى مكان أكثر خلوة." اقترح عليها عزيز.

"ما هى الخلوة التى تريدها أكثر من هذه التى هنا؟" سألته خديجة ناظرة إلى وجهه.

"خلوة داخلية" أجابها عزيز "فى مكان نستطيع أن نجلس فيه نتحادث ونضحك ونمرح" أضاف عزيز.

"إذا كنت تريد أن تفرح وتمرح فليس لدى ما يضحك ويُفرح." أخبرته خديجة.

"لا يمكن يا خديجة أن تجلسى هكذا منطوية على نفسك طوال الوقت. عليك أن تنشطى وتفرحى، فالفتاة الجميلة مثلك لا يجوز لها أن تكتئب هكذا، وإلاّ أصابتك الشيخوخة قبل الأوان." قالها عزيز متظاهرًا بابتسامة.

"استمعى، علينا ألا نتجادل هنا، هيا نذهب خلفًا، عندى، منزلى، ليس بعيدًا عن هنا."

"أين؟" سألته خديجة.

أخذ عزيز يشرح لها أنه ليس ببعيد عن مكان جلوسها: "فإذا ما وصلت إلى الكنيسة ذات البرجين فانعطفي يمينًا، واتركي أول منزل وهو الثاني." وجهها عزيز.

"تقدم" طلبت منه ذلك، غير راغبة في أن تصطحبه.

وطوال الطريق وهي تفكر فيما لو كان الذهاب إلى حيث يريد عزيز يليق بها وبشرفها كزوجة لرجل صانت معه شرفها، وتحملت المعاناة الكثيرة والمشاكل الثقيلة المحيطة. لذلك والحال كذلك فإنها تخشى أن تجرفها هذه المشاكل إلى ارتكاب المعصية، خاصة وأن عزيز يحاول إغراءها ومراودتها في طريق الشيطان، كل هذا يدور في خيالها وهي في الطريق.

لما وصلت وجدت عزيز ينتظرها عند الباب.

البيت نفسه محشور في زقاق ضيق متفرع من إحدى حارات مدينة زنجبار العتيقة. الحارة كلها ظلام إلا من ضوء خافت قادم من إضاءة دكان مقابل للحارة. هذه الإضاءة ممتدة في الحارة وقد اعتلت سورًا تابعًا للمنزل المقابل لمنزل عزيز مما أعطى نورًا خافتًا على عتبة المنزل. وقف عزيز على الباب كأنه البواب. دخلت خديجة من الباب كما يدخل اللص، وفي الداخل لم تر شيئًا، حيث الظلام الدامس الذي وجدت نفسها وسطه. فالبيت قديم وضخم مثل كل البيوت في

هذه المدينة. وسكانها ليسوا أولئك الذين كانوا يعيشون فيها عندما كانت المدينة يستعمرها أولئك الذين ألبسوا أنفسهم شرف التسييد والتعظيم تبعًا لقبائلهم وأنسابهم. فى ذلك الزمن كانت هذه البيوت تزهو بالنهار وتتلألأ بالليل. وها هى الآن قد هجروها وغادروا البلاد هاربين خوفًا من تبعات الثورة.

والآن دخل القرويون المدينة قادمين من مناطق فقيرة حيث البيوت الطينية المعرشة بسعف جوز الهند. دخلوا هنا حيث هذه البيوت الضخمة المشيدة بالأحجار، ولها شرفاتها وأضواؤها. فالسابقون كانوا يخافون من الظلام خوفهم من الموت، وأما المعاصرون فلا يخافونه لأنهم عاشوا فيه لسنوات عديدة. وكان السابقون يستخدمون مصابيح الزيت الصغيرة حيثما ذهبوا وخرجوا، فكانت الإضاءة قوية فى تلك البيوت سابقًا، أما الآن فإن الظلام الدامس هو السائد.

وخديجة واقفة وسط هذا الظلام الدامس منتظرة عزيز أن يقودها إلى حيث يريد.

البيت مكون من طابقين، وغرفة عزيز فى الطابق الأرضى. لذلك لم يكونا فى حاجة إلى صعود السلم القائم فى الظلام الدامس. فتح عزيز باب غرفته، ومفتاح الكهرباء فأضاء الغرفة وجزءًا من

مدخل البيت فخفف من حدة الظلام قليلاً. رحب عزيز بخديجة فى الغرفة لكن خديجة ظلت واقفة على الباب مترددة، أتدخل أم لا، فأمسك عزيز بيدها، ودخل معها الغرفة. وما إن دخلت حتى أغلق الباب، وخديجة واقفة فى ذهول تتأمل الغرفة.

إنها غرفة واسعة، إضاءتها قوية، إنها لامعة الجدران، ورائحة دهانات الجدران مازالت موجودة. ربما تم دهانها بالأمس أو أول أمس، تعتقد أن عزيز أعدها خصيصًا لاستقبال خديجة. فيها سرير من الطراز الزنجبارى فى ركن قريب من شباك كبير، عليه ستارة زهرية خضراء، وعلى الجدران مرآة كبيرة بمستوى قامة الإنسان، ومنضدة صغيرة بجانب المرآة. نظرت خديجة إلى نفسها، إنها مازالت جميلة، لم تشأ أن تنظر إلى نفسها طويلاً. التفتت ونظرت إلى عزيز. والآن تراه بوضوح. إنه إنسان بدين، بكرش كبير كالسيدة الحامل فى شهرها الثامن. شعره قصير بدأ يشتعل شيبًا، وجهه طويل رفيع، أنفه صغيرة كأنه ملصق فوق شفتيه الرفيعتين. كان حالقًا من توه فلا لحية له على الإطلاق، وليس لشاربه أى أثر تحت أنفه، ما زال كريم الحلاقة تفوح منه رائحته على ذقنه. كان يرتدى قميصًا برسومات دائرية وقد أدخله فى سرواله الأزرق الداكن. إنه واقف ينظر إلى خديجة التى أعطت الآن ظهرها للمرآة.

"اجلسى، إلى متى ستظلين واقفة؟" سألها عزيز.

"هل واجب على الجلوس؟ قل أنت ما تريد أن تقوله فحسب" أخبرته خديجة.

كان هناك كرسيان مصنوعان من شجر الساج فى مقابلة بعضهما، على كل منهما وسادة غطاؤها أزرق اللون. جلست خديجة وجلس عزيز ينظر إليها. طأطأت خديجة رأسها تعبث فى أظافرها، وفجأة رفعت رأسها ونظرت إلى عزيز: "هل هذا هو بيتك؟" سألته.

"لا، هذا ليس بيتى. آتى إلى هنا أحيانًا للاستراحة."

"هل هو وكر تأتى إليه بعشيقاتك؟"

"لا، لا، ليس وكرًا، إنه غرفة لضيوفى الذين يأتون من دار السلام وأوروبا لزيارتى، فأنا لى أصدقاء كثيرون كما تعرفين،ها-ها-ها" أضحك عزيز نفسه تكلفًا.

"هذه هى الخلوة التى أخبرتنى بها؟" سألته خديجة.

"ها-ها-ها" أضحك عزيز نفسه ثانية، "ألا تلاحظين بنفسك الهدوء، أنا وأنت فقط. هذه هى الخلوة" قالها عزيز واضعًا يديه على مسند الكرسى.

"هيا قل ما عندك، أعطنى تلك الرسالة التى تحملها"

"اسمعي يا خديجة! إنك إنسانة ناضجة، هناك من الأمور مالا يصرح به، بل أنت بنفسك تفهمينها." قالها عزيز فاركًا يديه كأنه يشعر ببرد.

"كيف أفهم أمرًا لم يخبرني به صاحبه؟" سألته خديجة شاخصة ببصرها إليه.

"اسمعي يا خديجة، ها-ها-ها" أضحك عزيز نفسه، وتوقف عن الكلام خجلاً من نفسه، "إنني أريدك أن تكوني لي عشيقة، فما رأيك؟"

"وهل هذه هي الرسالة التي استدعيتني من أجلها؟" سألته خديجة،

"اسمع يا سيدي، أنا زوجة، ولي زوج تعرض لمشاكل وموجود داخل السجن لفترة طويلة حتى الآن، ولست متأكدة فيما لو كان ما زال على قيد الحياة أم لا، تركني ورضيعتي. فإذا كنت إنسانًا حقًا فساعدني في حل هذه المشكلة، ساعدني في الإفراج عن زوجي." أخبرته خديجة، وقد تغير الآن وجهها، فقد ملأه الحزن.

"هذا فقط! إنه لأمر بسيط للغاية." قالها عزيز ونهض من على الكرسي وجلس فوق مسند الكرسي الذي تجلس عليه خديجة، وأمسك بكتفها وأخذ ينظر إلى وجهها:"تعرفين أني مدير عام، مدير عام شركة تصدير الأسماك، الكبار كلهم تحت أمري، وأصحاب السمو

كلهم فى يدى. هذا بالنسبة لى أمر بسيط للغاية، ولكن...." لم يكمل عزيز كلامه ناظرًا إلى خديجة متلمسًا ظهرها.

"لكن ماذا؟ سألته خديجة وقد ارتخى جسدها إذ لم يلمسها رجل من فترة طويلة، وهاج جسدها وارتفعت حرارة الشوق فيه واشتعلت فيه الرغبة الجنسية من طريقة تلمس عزيز لظهرها.

"لكن ماذا عنى فيما قلته لك بأن تكونى عشيقتى، وأنا سأقوم بمراعاتك أنت وطفلتك." قالها عزيز وهو يسحب خيط العباءة من على وجهها ليفك عقدتها، فانسابت العباءة ونزلت على فخذيها، انحنى عليها عزيز يقبل خديها.

كانت خديجة هادئة وتشعر بحرارة عزيز تحرقها وتمنحها لمسة عاطفية تهيج رغبتها. أخذ يقبلها ويتلمسها برفق، ومسك برأس سوستة فستانها وأنزلها إلى أسفل فانكشف ظهر خديجة تماما إلاّ من رباط صدريتها.

"أنا لا أريد هذا يا عزيز! يا عزيز لا أريد هذا إطلاقًا"، تذمرت خديجة وتفلتت بنفسها هنا وهناك هربًا من قبضته، لكنه عانقها وتشبث بها، فقد غلبته رغبته الجنسية، وأخذ يمرر شفتيه على خدى خديجة لاعقًا لهما.

"أنا لا أريد هذا" تذمرت خديجة ثانية، ونهضت فجأة من على الكرسى هربًا من عزيز الذى أمسك بها بكل قواه وسحبها إلى السرير وأرقدها على ظهرها واعتلاها ممسكًا بكلتا يديها لتكف عن مقاومته، عزيز فوقها بكل كرشه، وقد انكرش نفسه وتصبب عرقه، فأخذت خديجة تقاومه بيديها ورجليها محاولة الإفلات من تحته فإنه فوقها كالفيل وزنًا فلم تستطع أن تفلت.

لما جاء عزيز يقبل شفتيها، منكبًا عليها بوجه متغير تعلوه سيطرة الرغبة فى المرأة، انتقل تفكيره عندئذ من الرأس الأعلى للرأس الأسفل، واستمر محاولاً تقبيلها، فبصقت فى وجهه، وامتلأ وجهه ببصاقها، فترك يدًا واحدة لها حتى يمسح البصاق من على وجهه. وهنا مسكت خديجة بيده هذه وعضتها فتألم عزيز ألمًا شديدًا وصل إلى رأسه. أراد أن يرفع نفسه بعض الشىء لإنقاذ يده من قبضة أسنانها الحادة، عندئذ قامت خديجة بضربه بركبتها فى خصيته. قفز عزيز إلى الجانب الآخر من السرير ماسكًا خصيته باكيًا من الألم . نهضت خديجة بسرعة من على السرير آخذة عباءتها، وأغلقت الباب وخرجت مسرعة تاركة عزيز يعالج نفسه.

خروج خديجة هذا كان كخروج شخص من فم النمر. أخذت تسير فى الأزقة تكلم نفسها، وتزرف دمعها، وتسرع فى خطاها، وترتدى عباءتها، تطلع على سوق، وتدخل فى زقاق، وتنعطف يمينًا

عند مسجد ميمان Meman، وتهرول يسارًا، دون أن تلتفت خلفها، وكأن شخصًا يطاردها. لم تتوقف إلى أن وصلت إلى مدرسة كيسيو اندوئي.

توقفت، وتنهدت، فقلبها يدق بسرعة، والعرق عليها وهى تنهج، وتفكر فيما حل بها من مصائب. مسحت دموعها بعباءتها وهى واقفة تحت شجرة، والدموع تتساب، وكلما مسحت انسابت. ترى نفسها كالعبد المظلوم الذى سيقت إليه مشاكل الحياة كلها وسقطت عليه بكل أثقالها ليتحملها وحده.

نور البدر الساطع فى كل الأرجاء تلك الليلة لم يضىء لها شيئًا، بل ما حل بها ورأته هو الظلام الدامس أمامها وخلفها وحولها.

لما هدأ روعها انصرفت ببطء حتى وصلت منزلها، فوجدت زالحاتا والسيدة فاراشو جالستين بساحة المنزل قلقتين عليها لأن من عادتها عدم التأخير حتى مثل هذا الوقت. لم تسألاها عن التأخير بل شكرتا الله على عودتها سالمة. لم تتلفظ خديجة إلا بالتحية لأمها.

دخلت غرفتها، ارتمت على السرير متسائلة فى نفسها، إلى متى ستظل فى هذا الحال من الحزن الذى لا ينتهى، وفى قلبها فراغ كبير لا يستطيع أحد أن يملأه إلا حمزة. فكرت وقالت: "تعال يا حمزة، تعال انقذنى من بحر الشدائد هذا." وهنا غلبها النوم فنامت.

الفصل التاسع عشر

كل الدعاء الذى دعته خديجة لحمزة لم يستجب بعد. والكفارات التى قدمتها لم تؤثر فى شىء. وجميع ترردداتها على المشعوذين لم تجد نفعًا، والنذور التى نذرتها لا تعرف متى تؤديها. إنها تتحرك مجهدة ليل ونهار. إنها فى عناء وضيق ولا تجنى من هذا إلا الآلام الحادة التى حلت محل حبها لزوجها. يحتال عليها المشعوذون والدجالون كل يوم، وحمزة مازال قابعًا فى السجن، وهى تتحرك هنا وهناك فى ذل ومهانة.

فى الزنزانة انتبه حمزة من نومه، وفى أيامه اعتاد أن ينام بمجرد الانتهاء من تناول الشوربة الصباحية لأنه مل من الحكايات المتكررة يوميًا. فأحيانًا يشجع بعضهم بعضًا، وأحيانًا أخرى يخيب بعضهم آمال بعض. وهكذا دواليك يوميًا، وكله تخمين فى تخمين، ولا أحد يعرف المستقبل. ما مضى فقد رأوه، رأوه مرعبًا مخيفًا، والآن يتجادلون فيما هو آت "هل سنخرج أم لا؟ هل سنمثل أمام المحكمة أم لا؟" لقد سئم حمزة من هذا الجدل، لهذا ينام الآن.

كان نائمًا وانتبه فجأة شاخصًا عينيه. إنه مفزوع وينظر إلى عنبر، إنه كان فى أحلام النهار، يحلم أن رضيعته انتقلت إلى معتقل

التعذيب أثناء استجوابه. والعقيد بونجو يمسك رضيعته متدلية الرأس بإحدى يديه، وبيده الأخرى ساطور ويسأل حمزة. "هل توافق أم لا؟" سأله بصوت مدو كالرعد.

أصيب حمزة بذهول، لا يعرف بم يجيب، والرضيعة تبكي "تجاااا! نجاااا!" كان العقيد بونجو يحملق بعينيه الحمراوين، ويسيل لعابه كالساخر المبتهج بضحيته، وتتحول صورة العقيد بونجو إلى حمار. وهنا يوجه ضربة واحدة بالساطور إلى الرضيعة فيقطع رأسها ويطير الرأس ويسيل الدم سيلانًا يقع على وجه حمزة.

نهض حمزة جالسًا القرفصاء منفزعًا فسأله عنبر "عما يجرى". وكان خلفان جالسا فى ركنه يفلى القمل من لباسه ويفعصه، فاندهش هو الآخر لأنه ليس من المعتاد لحمزة أن يفزع بسهولة، وكان كوندو يتمشى من ركن إلى آخر مترجلاً داخل الزنزانة لممارسة الرياضة. نظم لنفسه هذا النوع من الرياضة بعدما يشرب الشوربة يوميًا. ويغنى عندما يتمشى أغانيه المفضلة لمبارك موينشيخ، فتوقف كوندو ينظر إلى حمزة سائلاً إياه: "ما دهاك يا رجل؟"

"إننى قد حلمت حلمًا مزعجًا للغاية" أجاب حمزة وهو يتنهد ويتصبب عرقًا.

"ما هو الحلم؟" سأله عنبر وهو المتخصص فى تفسير الأحلام فى الزنزانة.

فحكى له حمزة ما رأى والجميع ينظر إليه ويستمع بتركيز. فحل بهم اليأس جميعًا لأنهم يربطون كل حادثة تحدث بمعتقدات خرافية.

كان عنبر ينظر إليه وهو يهز رأسه ويشد لحيته بلطف كأنه شخصية علمية فذة ومشعوذ بارع من جزيرة بيمبا.

انتهى حمزة من قص حوادثه المفزعة فى حلمه وهو شاخص عينيه إلى عنبر، عنبر بدوره ينظر إليه، فأصبحا ينظران إلى بعضهما نظر الديكة، دون أن يتفوه عنبر بشيء، وهو الذى قام بتفسير الأحلام الكثيرة منذ أن دخل هذه الزنزانة. وكل تفاسيره كانت مجرد تسلية لم يتحقق منها شيء. فكل يوم يحلمون، وعنبر يفسر أحلامهم. فيأتى تفسيره أحيانًا "بأن الخير قد اقترب" وأحيانًا "بأن يوم الخروج قد أوشك". كل يوم يعطيهم أملاً لكن "الأمر ما زال فى بدايته" إنهم دفنوا داخل الزنزانة، والأيام تمر، وهم فى رحلة بلا نهاية.

إذا كان هناك من يتعود ويتكيف مع الحياة فى السجن ويمكث فيه مرتاحًا كأنه فى بيته فإنه ليس من هؤلاء. إنهم يرون أن الزنزانة تضيق عليهم يوميًا وتضيق وقد أصبحوا كالعصافير فى قفص. فهم لا يخرجون، وفى الداخل متعثرون، وليس لهم من خروج إلا من خلال الأحلام فقط. فينامون ويحلمون إنهم ذهبوا شرقًا وغربًا، ولكن إذا ما استيقظوا يجدون أنفسهم دخل الزنزانة، فيفكروا ويسأل بعضهم بعضًا: "هل سيتم تنفيذ العدالة؟" ولا يجيب عليهم أحد.

فجأة انفتحت بوابة دخول كومبا كومبا فاندهش الجميع. كانت الساعة العاشرة، وليس الوقت وقت فتح البوابة. فحركة الدخول والخروج والفتح والإغلاق للبوابة والتى كانت معتادة عند اقتياد المعتقلين داخلا وخارجا قد انتهت الآن، وأصبحت هذه البوابة لا تفتح إلا فى أوقات معينة، فى وقت الفجر عند إخراج المسجونين لأعمالهم الشاقة، وعند ذهاب الخونة لتفريغ الفضلات، وفى الساعة السابعة عند إحضار الشوربة للمسجونين، وفى الظهيرة عند إحضار وجبة الغداء، وفى المساء عند رجوع المسجونين من أعمالهم الشاقة. وفى غير هذه التوقيتات فإن بوابة كومبا كومبا تكون مغلقة بإحكام التزامًا بتعليمات السجن.

واليوم انفتحت البوابة فى العاشرة، فلما سمع عنبر فتح البوابة نظر إلى حمزة وأشار إليه بالسبابة وقال: "إنه حلمك..." وقبل أن ينتهى من كلامه انفتح باب الزنزانة ليروا أربعة أشخاص واقفين على الباب، مدير السجن كيسودا وبطل المعتقل كيفوبى وجنديان يحملان بندقيتهما فى وضع الاستعداد منتظرين أوامر إزهاق الروح.

كانت طاقية كيفوبى واصلة إلى جبينه وعابس الوجه، مؤكدًا قسوته مبرزًا شفتيه إلى الأمام، واضعًا ملفًا تحت إبطه، ينظر إلى من فى الزنزانة بعين الكراهية. وكان القائد كيسودا واقفًا على جانب الباب، ماسكًا مجموعة من المفاتيح وينظر إلى كيفوبى منتظرًا أن يصدر أمره.

"هل هؤلاء هم الباقون هنا؟" سأل كيفوبى.

"نعم" أجاب كيسودا

"أخرج كيفوبى الملف الموضوع تحت إبطه وفتحه ومرر إصبعه على الأسماء بالقائمة الطويلة فى ورقة زرقاء بالملف وقال كيسودا: "تمام، تمام."

بتصويب الجنديين بندقيتيهما إلى من فى الزنزانة ارتعش الجميع وشعروا أن حياتهم وصلت إلى نهايتها وأشرفوا على دخول القبر. امتلأت الزنزانة بالخوف، ولم يعد لهم أى أمل، والكل ينطق بالشهادتين فى انتظار أن يطلق الجنديين عليهم النار لتكون نهاية الحياة.

أغلق كيفوبى الملف، ووضعه ثانية تحت إبطه ناظرًا إليهم وإلى ما انتابهم من خوف، حال كون كل واحد منهم يدعو ربه فى قلبه "يا رب انصرنى!"

"البسوا ملابسكم" أمرهم كيفوبى.

ما كان لأحد منهم ملابس، ما لديهم إلا خريقات مطوية وموضوعة تحت وسائدهم. وكانوا بلا قمصان، لا يرتدون إلا الشورتات الخاصة بالسجن. فقاموا وارتدى كل منهم خرقته الممزقة. وأخرجوا من الزنزانة، وأغلق الباب بإحكام، وأخرجوا من كومبا

كومبا يتقدمهم كيفوبى وكيسودا وفى خلفهم الجنديان ببندقيتيهما. اتجهوا دون توقف إلى الاستقبال. وبمجرد وصولهم إليه أمرهم كيفوبى بصوت حاد "ارفعوا أيديكم!"

رفع الجميع يديه معًا، ولا يعرفون إلى أين هم ذاهبون. انفتح الباب الصغير للبوابة الرئيسية وتم إخراجهم منه فوجدوا فى انتظارهم ثلاثة جنود آخرين حاملاً كل منهم بندقيته فى يده.

ما إن خرجوا وجاء ضوء الشمس على وجوههم فجأة حتى انغلقت جفونهم سريعًا لعدم قدرتها على تحمل هذا الضوء الشديد الذى افتقدوه لفترة طويلة. كانوا يتمنون أن يقفوا فى المكان لفترة طويلة لينعموا بالشمس المحرومين منها بمكوثهم طويلاً فى الزنزانة، ولكن هيهات هيهات فالجنود يقتادونهم تحت تهديد السلاح، وهم رافعون أيديهم كأسرى حرب فى طابور خطوته عسكرية بمحاذاة سور السجن.

كان كيفوبى يتقدمهم واضعًا الملف تحت إبطه، وكان فعلاً قزمًا مقارنة بارتفاع سور السجن ارتفاعًا شاهقًا.

فهموا الآن أن هذا الانتقال إنما هو إلى معتقل التعذيب، والتخويف والتهديد والإذلال، إلى مبنى الحياة المليئة بالخوف والقلق، إلى المبنى الذى تواجدوا فيه سابقًا فعذبوا وأهينوا وذاقوا فيه كل

أنواع المصائب، ثم أعيدوا بعدها إلى كومبا كومبا. وها هم الآن متوجهون إلى نفس المكان. وهنالك سيتقابلون ويجتمعون بزملائهم الذين نقلوا إلى هناك وبقوا حتى اليوم دون معرفة لما هو فى انتظارهم داخل ذلك المبنى المشئوم.

انفتحت بوابة الدخول إلى معتقل التعذيب، ودخلوا مباشرة مصطفين كما هم، وتم إيقافهم فى الساحة. ذكرهم المكان بالضرب المبرح الذى تلقوه فى نفس المكان وبالسحق والسحل الذى تعرضوا له فكان هذا المكان منصة لتعذيبهم.

وقفوا فى صف واحد رافعين أياديهم طبقًا للأوامر، وأمامهم الجنود مصوبين إليهم بنادقهم.

الشمس التى كانوا يتمنون الاستدفاء بها خارج السجن أصبحت الآن متوهجة توهج النار وتحرقهم بلا رحمة. صدرت إليهم الأوامر بالوقوف فى مكانهم هذا منذ دخولهم وحتى وصلت الساعة الثانية والنصف، والشمس تضربهم مثل ضربها لجوز الهند المنشور فى الشمس ليجف. وما زالت أيديهم مرفوعة وقد أجهدوا ويتمنون إنزال أيديهم لكنهم كلما نظروا إلى أفواه البنادق المصوبة إليهم من الجنود الذين ترتسم على وجوههم علامات الوحشية فضلوا وقوفهم هكذا مع رفع أيديهم.

في السادسة مساء أمروا بإنزال أيديهم بعد أن أحرقتهم الشمس طوال النهار ليجد كل منهم إبطه يؤلمه والظمأ يوجعه ورجلاه تخذله ارتعاشا، والتأدب ألزمه. فكان هذا هو الترحاب بهم فى معتقل التعذيب للمرة الثانية. تم توزيعهم فى زنزانات مختلفة، التقوا فيها مع أولئك الذين هم فى المعتقل قابعين فيه، وها هم قد ذهبوا الآن ليقبعوا فيه كذلك دون أن يعرف أحد إلى متى سيظل فيه.

كل من دخل الزنزانة تنهد أولاً وحمد الله قائلاً "الحمد لله"

إنهم يشكرون الله أن أبعدهم عن شر وجوه أولئك الجنود الذين يصوبون إليهم بنادقهم. فكانوا فى مواجهة الموت. أما الآن فقد تجنبوه بقدرة الله فقط. ودعوا الله "اللهم جنبنا هذا وغيره."

الشمس التى أحرقتهم طوال النهار فى الساحة قد غربت الآن واختفى ضوؤها مخلفة وراءها ظلامًا دامسًا فى كل مكان، مبتلعًا كل من فى الزنزانات حيث لا يرى أحدهم الآخر. رحب الموجودون السابقون بالضيوف اللاحقين من كومبا كومبا فى مثل هذا الجو من الظلام الدامس.

"من أنت؟" سمع حمزة شخصًا يسأله بصوت هامس ولا يراه بسبب الظلام الدامس. ولكن الصوت ليس بغريب عنه. إنه صوت مفاومي Mfaume ويعرفه جيدًا " من؟ مفاومى؟" سأله حمزة هو الآخر مندهشا.

"نعم، أنا مفاومى، ومن أنت؟"

"حمزة"

"إنك كنت هنا، أليس كذلك، فمن أين أتيت الآن؟" سأله مفاومى.

"نعم كنت هنا، وتم نقلى إلى كومبا كومبا."

"ما أخبار كومبا كومبا؟" سأله مفاومى.

"لا أحد موجود فى كومبا كومبا الآن، لم يبق فيه إلا السجناء فقط، أما نحن جميعًا فقد نقلنا إلى هنا. وأنت يا مفاومى منذ متى وأنت هنا؟"

"أنا من أوائل الذين نقلوا إلى هنا وما زلت هنا من يومها."

"أشيع أنك مت" قال حمزة

"لم أمت، وما زلت حيًا، وأتمتع بصحة جيدة." قال مفاومى.

التزم الرجل الثالث الموجود فى الزنزانة الصمت، ولم يشترك فى الحوار بين حمزة ومفاومى. إنهما يعرفان بعضهما البعض منذ أيام طوال. فعندما كان حمزة صحفيًا كان مفاومى شخصية بارزة حيث كان وزيرًا بلا حقيبة. كان من أصحاب السيادة ويخاف منه صغار المسئولين، ويحظى باحترام كبير، لكن الآن بلا منصب ويتقلب يمينًا ويسارًا على الحصير فى معتقل التعذيب. تحادثا طوال الليل، ولم يناما إلا مع دخول الفجر.

تم إيقاظهما عندما فتح العجوز مانشالى الباب، وخرج الجميع ليأخذوا الشوربة والفاصوليا. عندئذ رأى حمزة الزميل الثالث. إنه صبى ما زال فى المدرسة. "ما الذى أدخله فى أمور الخيانة هذه؟" سأل حمزة نفسه.

التقى عنبر بسرور. لم يتحدثا طوال الليل، ولكن ما إن أشرقت الشمس حتى بدأ سرور يوبخ عنبر قائلاً: "ألم أقل لك يا عنبر هيا نهرب، فجعلت من نفسك فيلسوفًا! أترى الآن؟ فما زلنا نعانى ولا نعرف إلى متى: "

"وأنت أيها الهارب إلى أين وصلت؟" سأله عنبر.

"هل تظن أن اليأس حل بى؟" تباهى سرور، "انتظرونى فقط، فبمجرد أن أرى ثغرة فلن ترانى هنا."

"وهنا لا دليل للحصول على تلك الثغرة التى تنتظرها" قالها عنبر، "وحتى إذا حصلت عليها فهل أنت قادر على تنفيذها؟ أنت فى حالتك هذه سببت لنفسك عاهة مستديمة فى رجلك العرجاء"

أوقعه عنبر فى اليأس. "كما أن فمك كثرت فجواته" استمر عنبر مازحًا ومبتسمًا.

"إن الرجل العرجاء والأسنان المكسورة فى فمى لا تمنعنى من الهروب إذا سنحت لى الفرصة" قالها سرور.

كان مقامى Makame يجلس مستمعًا إلى عنبر وسرور وهما يتجادلان. وحكايات سرور ومخططاته للهروب ليست أمرًا جديدًا له لأنه مكث معه فى الزنزانة منذ اليوم الذى ألقى فيه القبض عليه بعد هروبه من كومبا كومبا وأحضر إلى الزنزانة فى حالة حرجة من جراء الضرب المبرح.

"اسمع يا سرور، إنك تسمع دائمًا بأناس هربوا من كومبا كومبا فهل سبق لك أن سمعت أن أحدًا هرب من معتقل التعذيب هذا؟" سأله عنبر.

"سبق أن سمعت أن مصورًا يسمى ميستا مو Mista Mo قبض عليه وهو يلتقط صورًا لثكنات عسكرية، ونقل إلى هنا، فهرب ولم يعثر عليه حتى يومنا هذا."

"وأنت تريد أن تكون ميستا مو الثانى؟"

"نعم"

"إنك لن تكون ميستا مو، بل ستكون دوكتا نو Dokta No الذى يقوم بالأدوار العجيبة فى الأفلام" تدخل مقامى فى الحوار، مسندًا ظهره إلى الحائط ناظرًا إلى سرور بعين الازدراء.

"لكن الهروب من هذا السجن ليس مشهدًا سينمائيًا" قاله عنبر.

"فالهروب من هذا السجن هو اللعب بالموت." أضاف عنبر.

"سواء لعبت به أم لم تلعب فإنك ستواجهه حتمًا يوميًا" قال سرور.

"نعم، أوافقك، ولكن لا تواجهه على يد خبثاء هذا السجن" قال عنبر.

ظل سرور لا يتحدث عن شيء فى الزنزانة إلا عن خططه للهروب، وفى النهاية تجاهله عنبر، واعتبره مجنونًا.

أما كوندو فتم إدخاله بالزنزانة التى فيها دوتو، ففرح دوتو كثيرًا بسبب الإقامة مع نظيره العسكرى فى زنزانة واحدة، خاصة وأنه لم يحصل على أى أخبار من الجيش منذ فترة طويلة. فمنذ أن هاجر حمزة تلك الزنزانة أصبح دوتو مع قاسم فى زنزانة واحدة طوال الوقت، وقد مل أحاديثه التى لا تخرج عن دوائر الزنا. فقاسم من ساعة استيقاظه فى الصباح وهو لا يتذكر إلا الفسوق والرذائل، فلا يكف عن التحدث عن النسوة اللائى زنى بهن "فعلت كذا مع هذه، وكذا مع تلك" لدرجة أنه أحيانًا ما يقلد أصوات هؤلاء النسوة عندما يبلغن قمة المتعة الجنسية.

ويتناسى ويتجاهل أنهم فى مكان كئيب يتطلب الدعاء والتوبة.

إنه الناطق بلسان قذر، وكل كلمة تخرج من فيه مستقذرة ونابية، حتى إنه يتباهى بأنه فى اليوم الذى ذهبوا فيه للقبض عليه كان مع امرأة على سريره فى الساعة الثانية عشرة ظهرًا. فدوتو يعتبر قاسمًا عبدًا ملعونًا مطرودًا. ولكن ماذا بوسعه أن يفعل؟ كان مضطرًا أن يسمعه رغم أنفه فى كل ما يتعلق بالفواحش والرذائل. فلما جاء كوندو شعر دوتو بأنه وجد صاحبًا يتحدث معه فى الأمور المهمة وليست تلك الأخرى، وإن كان لا يوجد بين الاثنين على وجه التحديد أمر مهم يتحدثان فيه.

إن تجميعهم فى معتقل واحد زادهم قلقًا، فهو زحام فوق الزحام كالسردين المضغوط فى الشباك. لقد تأكد أنهم هم الفرز المتبقى، والأرز النقى المأكول، أى هم الخونة. وكل منهم يفكر بطريقته الخاصة دون أن يعرف أحد ما يحمله المستقبل. لكنهم يدعون بالنصر. إنهم حاملون حملاً ثقيلاً دون أن يجدوا من يحط عنهم حملهم. ويحدوهم الأمل قائلين "عسى أن يكون خيرًا"

تلبد الأفق لديهم بسحابة جديدة من الرعب فى المعتقل. ليس رعبًا نابعًا من الكرابيج والسياط والتعذيب الوحشى، بل من مستقبل مصيرهم. فليس أمامهم بارقة خير يطلبونها ولكن كل الدلائل تشير إلى وجود كارثة تودى بحياتهم. إنهم خائفون ويحاولون التماسك. وفى كل مرة يحاول مفاومى تسليتهم قائلاً لهم "الحق دائمًا يعلو والكذب لا يمكن أن يعلو عليه"

وهناك صبى دائما ما يتعاطف معه حمزة حيث زج به فى السجن فيما لا علاقة له به على الإطلاق، ليس هو وحده كذلك وإنما بقية أفراد أسرته من أب وأم وأخوة. يعنى كل أفراد أسرته، لا لشىء إلا لمجرد أنهم جيران لحمدون. ففى اليوم الذى اقتحم فيه الضباط والجنود بيت حمدون ولم يجدوا فيه أحدًا صبوا نار غضبهم على جيرانه وألقوا بالقبض عليهم جميعًا، واقتادوهم إلى معتقل التعذيب، وهم فيه حتى اليوم. إنه صبى فى الصف الرابع الثانوى، وقد حنكته حياة السجن. وعندما تتحدث إليه تظن أنك تتحدث مع رجل كبير.

إن الرعب فى معتقل التعذيب يزداد اشتعالاً نتيجة الصمت المحيط بالمبنى كله، حيث يتحدث الناس همسًا، ولا يجرؤ أحد أن يرفع صوته.

فى صباح ذلك اليوم كانت هناك أمطار خفيفة مصحوبة بدرجة من البرودة. مفاومى غلبه النوم فنام مغطيًا نفسه من الرأس وحتى أخمص قدميه، بينما حمزة وعيد Edi مستيقظان ينظر أحدهما للآخر فى ركنى الزنزانة. كان عيد مغطيًا نفسه هو الآخر بملاءة سرير. نظر إليه حمزة وسأله: "ماذا تدرس فى المدرسة؟"

"أدرس العلوم" أجابه عيد منزويًا وملفوفًا داخل الملاءة وينظر إلى حمزة بعينيه الواسعتين السوداوين برموشهما المستديرة الكثيفة تحت جبينه، وبرأسه الكبير ذى الشعر المسترسل كشعر الماعز.

"ما هى هذه المواد؟"

"كيمياء و فيزياء"

"ما موقفك مع مدرستك وأنت هنا؟"

"لا أعرف حتى الآن، سأعرف عندما أخرج. إذا خرجت"

تأثر حمزة فى الحال، وامتلأ قلبه شفقة عليه، وكاد أن يبكى. شعر بأن حياة هذا الصبى بدأت تتفتح له، والشمس تشرق عليه، وضوؤها ينير له طريق الأمل، حتى وإن كان قد وقع فى اليأس وأصبح كالوردة البادئة فى التفتح فى بستان وجاءها حاسد واقتطفها. "سوف تخرج"، "ستخرج لتكمل دراستك".

"هل تعتقد أنهم سيفرجون عنا؟" سأله عيد وعيناه الواسعتان أصلاً ازدادت اتساعًا بحملقته إلى حمزة

"حتمًا سيخرجوننا يومًا ما."

"متى: "

"قريبًا، هذا اليوم ليس ببعيد"" شجعه حمزة.

"الآن يا عيد" قال حمزة مغيرًا الموضوع "أنت تدرس الكيمياء والفيزياء، وأنا لم أدرس هذه المواد عندما كنت فى المدرسة. فما رأيك لو أنشأنا درسًا للفيزياء هنا فى الزنزانة؟"

ابتسم عيد بصورة طفولية لكنها تحمل ملامح الذكاء.

"أنا أدرس لك؟" سأله.

"نعم"

"ألم تدرس أنت حتى وصلت إلى أوربا، وتحمل الشهادات والدبلومات؟"

"نعم، لكننى لم أدرس الفيزياء. وإن سألتنى عن شىء فيها تجدنى أجهله." نظر حمزة إلى عيد مبتسمًا، فماذا تقول، هل تدَرِّس لى؟"

"نعم سأدرس".

بدأ درس الفيزياء فى اليوم التالى، وانضم مفاومى هو الآخر إلى الدرس. وجمعوا كل ما يمكن جمعه من قطع ورق من خارج الزنزانة خلسةً أو سرقةً عند خروجهم للاستحمام وأدخلوها عندهم. وأخذوا فى تجميع دم البعوض كل يوم لاستخدامه فى الكتابة، وتم برى عيدان المكنسة جيدًا لتكون أقلامًا.

أزالت هذه الحماسة الجديدة لدراسة الفيزياء الملل الذى يعانون منه، تلك الحماسة التى نبتت ونمت داخل قلوبهم. حمزة ومفاومى مع كبرهما فى السن وخبرتهما الواسعة فى الحياة سيتتلمذان على يد عيد، ناصتين إليه مطيعين إياه طاعة التلاميذ لأستاذهم عندما يجلس يعلمهما. "ما هى المادة؟ ما هى الذرة؟ ما هو البروتون؟"

ويقوم التلميذان بكتابة دروسهما كلها بدم البعوض الذى يجمعانه يوميًا وعلى الوريقات التى يدخلونها للزنزانة. وبعد الكتابة عليها يقومان بالاحتفاظ بها بحرص شديد.

أما فرج ورونجو Ronjo فكانا كالقط والفأر فى زنزانتهما فهما دائمًا متخاصمان، ويبدأ النزاع بينهما عند لعبهما لعبة الداما التى قاما بصنعها بنفسيهما. فرج وهو خبير فى القانون، ورونجو وهو مفتش الشرطة كلاهما عنيد، وكلاهما عارف بكل شىء، وكل منهما لا يستجيب للآخر.

أما ماشاكا Mashaka وسيف Saifu فكانا مشاهدين فقط لنزاعهما، ومشجعين لهما عندما تبلغ لعبة الداما ذروتها.

ودائمًا ما يبدأ فرج بتشجيع الآخرين على لعبة الداما. فبعدما يشربون الشوربة ويسود الصمت فى المعتقل ويصاب بالاكتئاب من فيه، تسمع فرج يقول رونجو "اليوم ثلاثة".

"من الذى تهزمه ثلاثة يا أخينا؟"

ومن هنا تبدأ لعبة الداما. وهى عبارة عن خرقة ملتقاة من الخارج ورسموا عليها نقاطًا سوداء وأخرى بيضاء، ومكعباتها من قطع خشب ملتقاة كذلك من خارج الزنزانة.

والمهزوم يكون حديث الجميع استهزاءً به وهتافًا ضده طوال النهار، بأنه لا غبى أكثر منه، ولا بليد أكثر منه، فيستفز بعضهم بعضًا حتى يقتربوا من التشابك بالأيدى، وهذه هى متعتهم فى الزنزانة، وهى المتعة التى تذيل عنهم الهموم والمخاوف السائدة فى الزنزانة.

كل الموجودين هناك ينظرون إلى أنفسهم كالأبقار الموجودة فى المذبح، فى انتظار ذبحها لأكل لحومها، الكل فى حيرة، والقلوب تمكن منها الرعب فلا مكان لفرج يدخلها يخفف عنها رعبها. كلما حاولوا النأى بأفكارهم بعيدًا، وتثليج صدورهم وجدوا أنفسهم فى نفس مكانهم ينتابهم الرعب والخوف، داعين الله أن يفرج عنهم.

الفصل العشرون

"والله لن أعترف حتى لو ذبحونى" يقسم حراميا ويحلف "كيف أعرّض زملائى للخطر وأروطهم فى قضية عن أمر لا يعرفونه؟" امتلأ قلبه تمامًا بهذه الكلمات ودوت فيه كالنار فى الهشيم. ولكن لا أحد يسمعه غيره، إنه صوت يتأجج فى أعماق قلبه ولكن لا يجرؤ على تخطى قفصه الصدرى ويخرج من فمه ليصل إلى أذن شخص آخر. إنه يخاف عميلاً بالزنزانة ينقل عنه ما يقول، لأن ما أصابه من جراء ذلك ليس هينًا. ولذلك عليه الالتزام بالصمت تاركًا هذه الكلمات تلتهمه وحده. كان جالسًا يفكر فى ركن من الزنزانة متوجمًا، مكشوف البطن، ملفوفًا بملاءة سرير كطفل قادم على الختان.

كان مقدم جالسًا على الحصيرة يتلو الأذكار. امتلأ وجهه انكسارًا والآن أطلق لحيته، وشعره كثيف مما جعل وجهه يبدو محاطًا بإطار من الشعر الأشعث ومن اللحية الكثيفة. وفى جلوسه هذا كان يعد أذكاره على عُقل أصابع يده لضبط أعدادها. وفى نفس اللحظة يسترجع فى ذهنه ما قاله حراميا فى ذلك اليوم المعهود قبل أن ينقل إلى فندق العسرة، كان لقوله دوى كدوى النحل "إذا اعترفنا فإننا نعرض أنفسنا للخطر، إننا نلقى بأيدينا إلى التهلكة"

إنه لم يكن فى ريب من صحة هذا القول، ولكن الاعتراف قد يكون هو الطريق الوحيد للنجاة بحياته. إن التعذيب الذى تعرض له شديد، والأهوال التى مر بها تفوق الوصف. لقد اعترف بكل شىء عندما أحاطوا به تعذيبًا واستجوابًا، فكيف يأتى الآن وينكر؟ لقد سجل كل شىء وما يسجله هؤلاء لا يمكن محوه.

"لكننى لا أعترف ! وليحدث ما يحدث! حتى لو انطبقت السماء على الأرض لا أعترف!" ثم قال مغيّرًا رأيه فى الحال "إنهم كذابون أفاكون، فسواء اعترفنا أم أنكرنا فإنهم سيعدموننا لا محالة." قال فى نفسه.

إن هؤلاء التسعة وقع جميعهم فى فخ، مثلهم مثل سمكة دخلت شبكة ليس لها من مخرج. فالأرز المطهى بلبن جوز الهند مع الفاصوليا الحمراء المتبلة، والشاى باللبن، والعيش بالزبد والمربى، وكل الوجبات الدسمة التى يقدمونها لهم تحولت الآن إلى عذاب. لقد كانوا كالمسحورين فاعترفوا بكل شىء. وقد بطل الآن مفعول السحر فراحوا يسألون أنفسهم "كيف حدث هذا؟"

إنهم بدأوا ينتبهون إلى المخاطر التى تواجههم، إنهم يرون أنه كان من الأفضل لهم أن يتحملوا كل أصناف العذاب الذى تعرضوا له وكل أنواع التهديدات التى مروا بها عن أن يستسلموا لهؤلاء المحتالين الذين احتالوا عليهم تحت تهديد السياط وفوهات البنادق لاعبين بأرواحهم وحياتهم.

وزاريكانى كان يلعب الكوتشينة دون التركيز فيها لأنه يفكر فيما قاله حراميا سابقًا. "إننا إذا رفضنا معًا وقلنا أننا لا نعرف شيئًا، وأن كل ما كتبناه ووقعنا عليه إنما كان تحت تهديد السلاح، فماذا سيفعلون بنا؟" سأل نفسه.

إنه شارد الذهن وفى يده أوراق الكوتشينة يلعب بها مع كوتشى.

"هيا العب!" نبهه كوتشى.

تنبه زاريكانى وكأنه يستيقظ من نوم. "هيه"

"العب يا سيدى! لماذا أنت شارد الذهن وأوراق الكوتشينة فى يديك؟"

رمى زاريكانى ورقة واحدة على الأرض بازدراء، وكأنه لا يرغب فى اللعب. يفكر كيف يبدأ. كيف يبدأ فى إقناع زملائه ليرفضوا معًا فى اليوم الذى سيمثلون فيه أمام المحكمة؟ إن حراميا قال هذا، ولما قاله أخذوه، ولما رجع رجع مكممًا لا يريد أن ينطق بأية كلمة حتى اليوم وأصبح كالمعتوه.

"إن جزءًا من الشر خير من الشر كله" حدث زاريكانى نفسه.

"دعنا نذهب إلى المحكمة وهناك أرفض بمفردى، ومن يعترف فالأمر يرجع إليه." هكذا هو موقف زاريكانى فيما بينه وبين نفسه ولن يتلفظ لأحد.

كانت هناك موجة من الشك وعدم الثقة عصفت بالزنزانة، فأصبح كل منهم يشك فى الآخر، ويتساءلون: "من الذى خان حراميا وأفشى ما قاله فى الزنزانة وكأنها مخترقة من إبليس، فعكر جو الثقة والمودة السائدة بينهم. وأصبح الآن كل فرد يقاتل لنفسه، لا أحد يشفق على الآخر، تغيرت القلوب، وأصبح الجميع أعداء فيما بينهم.

كان بواتشا جالسًا على الحصير مسندًا ظهره إلى الحائط، يغطى خاصرته بملاءة السرير بينما كرشه مكشوف ومترهل تحت سرته ويربت عليه. وينظر بعينيه الضيقتين إلى السقف دون أن يرى إلا الذل الذى أصابهم وإلا الخوف السائد داخل الزنزانة وإلا الآلام التى تنخر عظامهم.

ساد الزنزانة الصمت الرهيب، ولم يعد زاريكانى يرغب فى لعب الكوتشينة، ويواصل مقدم تلاوة أذكاره، وحراميا متوجم لا يعرف سببًا للتوجم. إن الزنزانة دخلت فى جو من الكآبة والحزن والشؤم. ولكن مع كل هذا الصمت الرهيب السائد كان بواتشا يسمع أصواتًا تصرخ فيه وتلعنه: "منافق! منافق! زنديق!"

وهو في نفسه يرد على ذلك: "كيف أكون منافقًا، ليس عندى أى نفاق، فلا نفاق ولا زندقة فى سبيل إنقاذ حياتى."

مع كل ما كانوا يتمتعون به فى الزنزانة لم يحدث لأحدهم أن زاد وزنه بل ظل كل منهم نحيفًا وهزيلاً وكأنه هيكل عظمى، فكانت متعة لا تسمن ولا تغنى من جوع، فمثل هذه المتعة هى متعة لكلب يجلس على ذيله. بواتشا وحده هو المتمتع بجسم ممتلئ بلا خوف ولا قلق، وكل شيء بالنسبة له على ما يرام والأصوات التى كانت تصرخ فيه وتلعنه لم تسبب له إلا إحراجًا فقط، فإنه لم يبال بها، ولم تجعله يندم، بل كان أحيانًا يأخذها على محمل الهراء المزعج، ومن ثم يسمعها وكأنها صادرة عن معتوه يصرخ فى الشارع. ولكن مهما حاول عدم التفكير فيها فإنها كانت تلاحقه فى النوم واليقظة وهى تلعنه وتصرخ فيه "منافق! زنديق!"

لقد ازدادوا خوفًا وخفقت قلوبهم وشخصت أبصارهم لما سمعوا أن من كان فى كومبا كومبا قد تم نقله عندهم. تيقنوا أنهم الآن قد اقتربوا من نهايتهم، وأن المكان الذى خرجوا منه أصبح أبعد من المكان الذاهبين إليه، وأن الضيق الذى يعتصر قلوبهم إنما هو مصيرهم المجهول. إنهم يعرفون ما تعرضوا له فى المكان الذى خرجوا منه من تعذيب شديد وتهديدات مرعبة، ولكن ماذا عما هم مقبلون عليه؟ وماذا فيه؟

إن فيه مصيدة منصوبة لهم هنالك، مصيدة خطيرة فى ذاتها. فعليهم أن يدخلوها أولاً ويستقروا فيها. أما الخروج منها فإنه مسألة حظ، وليس هناك من هو متأكد من ذلك الخروج. فأصبحوا مثل من يطلب الجنة ولا يستطيع الوصول إليها حتى الموت. وهم يطلبون العون للخروج من المصيدة المنصوبة لهم ولا يستطيعون الخروج حتى يقعوا فيها أولاً بالاعتراف بالخيانة وبالإدلاء بالشهادة. وبعدها يتم إخراجهم من المصيدة. فهل سيتم الإخراج؟ وهل سينصرون؟

عسعس الليل، وغشيت ظلمته كل شيء فى كل مكان، وعلى كل من فى الزنزانة حتى أن الواحد فيهم لا يرى من بجواره. فلم ينم أحد منهم. أصيبوا بالأرق، وكل واحد يفكر فيما يخصه. ساد الصمت، ولا يسمع إلا صوت البعوض الطائر هنا وهناك بحثًا عن الناس ليمتص دماءهم. كان زاريكانى مستلقيًا محملقًا دون أن يرى شيء غير الظلام الدامس الذى يحيطه من كل جانب. صدرت كحة قوية من حراميا كأن بلغمًا فى حلقه فناداه زاريكانى بصوت هامس: "حراميا." فأجابه حراميا "أيوه".

"هل أنت نائم؟"

إننى متيقظ."

شعر زاريكانى أنه يلزمه أن يفشى سره الذى يخنق قلبه.

"يا حراميا" ناداه زاريكانى ثانية.

"أيوه" استجاب له حراميا.

"إننى أعتقد أن كلماتك صحيحة مائة فى المائة"

"ما هى تلك الكلمات؟" سأله حراميا بصوت بين النوم واليقظة

"إننى أظن أنه لا سبيل إلى النجاة إلا أن نقوم بالرفض الجماعى"

"هل أنت مندوب؟" سأله حراميا.

"دعك من الهراء يا حراميا. من تظن أن يكون قد أرسلنى؟ سأله زاريكانى. كل آذان من فى الزنزانة مطأطأة الآن لاستماع الحوار بين حراميا وزاريكانى. وفشل مقدم فى التحكم فى نفسه حيث تخنق قلبه كلمتان: "لنرفض جميعًا" قالهما مداخلاً.

"إذا رفضنا نكون قد انتهينا! يقتلوننا." قالها مباكانى مداخلاً وناهضًا من مرقده.

"لا يستطيعون، لا يستطيعون إعدامنا لأنه لا قضية بدوننا" قالها كوتشى معارضًا مباكانى.

وهكذا صرح كل منهم الآن بما يسره في نفسه إذ إن الوقت قد حان، وأوشكت ساعة اتخاذ القرار أن تدق، وكل واحد منهم يرى روحه هي الأغلى، ولا يريد أن يفقدها. فاتفق الجميع على الرفض.

وهنا تطايرت حالة الشك وعدم الثقة فيما بينهم والتي كانت سائدة في الزنزانة تطاير الغبار بالرياح، وهرب الإبليس الذي اخترقهم كأنما ألقيت عليه جذوة من نار. ذهب الليل وتنفس الصبح، والزنزانة التي كانت مضطربة كالبحر الهائج بالعواصف هدأت الآن وسكنت واستقرت. والنور الذي بدأ يدخل تدريجيًا لم يطرد الظلام الدامس الذي ساد ليلة أمس فحسب بل طرد معه الضيق والنحس والخباثة التي كانت في زنزانتهم.

ظل بواتشا مذهولاً محتارًا لا يعرف أين يقف. وإنه لم ينطق بكلمة في الحوار الذي دار ليلة أمس، والآن يتساءل ويفكر. إلى أين؟ هنا أم هنا؟ هل يرفض كما اتفق الجميع أم يعترف؟ فزملاؤه قد قرروا وليحدث ما يحدث.

ولكن المنافق يصعب عليه ترك نفاقه، لأن النفاق مرض ولا يمكن السيطرة عليه. وفي الحال جاءه نفاقه ليقول في نفسه: "لا شيء اسمه النفاق والزندقة أمام الموت." فانصاع لنفاقه الذي أذاب ما ورد إلى نفسه من عزيمة خفيفة جعلته يفكر للحظات في صف زملائه. وسرعان ما أثار كارثة أخرى.

لقد طارت قلوبهم عندما وجدوا جنودًا مسلحين اقتحموا عليهم الزنزانة فى وضح النهار وأخرجوهم بقوة السلاح خروجًا سريعًا إطاعة للأوامر. والجنود على الباب واقفون ترتسم على وجوههم علامات الخبث.

لم تمض إلا ثلاثة أيام فقط بعد أن تصالحوا وظنوا أن النحس الذى كان يطاردهم قد ولى من الزنزانة.

أخرجوهم بجلبة وقوة، شبه عرايا، فالبعض يستر نفسه بملاءات سرير، والبعض بالشورتات دون قميص. لما خرجوا وجدوا شاحنة للشرطة فى انتظارهم، وأبوابها مفتوحة مسبقًا فى انتظار بلعهم لنقلهم إلى حيث المجهول. كان كيفوبى مع خمسة من زملائه فى انتظارهم عند الشاحنة، وكيفوبى عابس الوجه ينظر إليهم بازدراء وكبرياء لأنهم شىء مقزز بالنسبة له، وكان العرق يتصبب منه لأن دماء الشر تجرى فى عروقه. أخرج منديلاً أبيض من جيب سرواله ومسح به وجهه. ذهب إلى حيث وقفوا منتظرين شحنهم فى الشاحنة. توجه إلى حراميا ووقف أمامه وجهًا لوجه كالأفعى يريد لدغه فى وجهه. سلك زوره وأخرج لغمًا ثقيلاً بصقه على وجه حراميا وشتمه "يا كلب"

تناثر البلغم على الوجه كله وأخذ يسيل على الوجه كالصديد. مسح حراميا وجهه بملاءة السرير التى على خاصرته. كان البلغم لزجًا نتنًا. نظر حراميا إلى كيفوبى نظرة ذل تنم عن إحساس بالاحتقار والإهانة.

أدار السائق محرك الشاحنة الذى أصدر صوتًا كأزير الأسد فدقت قلوبهم كدق الطبول. وضع صندوق فارغ تحت الباب الخلفى للشاحنة ليكون سلمًا يصعدون عليه داخل الشاحنة.

ارتفعت حرارة الخوف عندهم، وأصبحت تلتهب داخل أجسادهم متألمين قلقين. فالدلع الذى تمتعوا به فى صورة تزويدهم بأشهى المأكولات انقلب عليهم فجأة، ولم تعد هناك صداقة وإنما جفوة وقسوة.

شُحنوا داخل الشاحنة كالأبقار المقتادة للمذبح. وجلس معهم ستة جنود فى الخلف مصوبين بنادقهم إليهم. الجميع يجلس منكمشًا بلا حركة ولا اهتزاز إلا إذا اهتزت بهم الشاحنة. كان كيفوبى جالسًا عند السائق فى مقعد أمامى واضعًا ذراعه الأيسر على الباب. إنه السيد الكبير.

كان السائق يقود الشاحنة بسرعة فائقة، وكانوا لا يرون شىء إلا الأضواء الخافتة المتسربة من أربعة شبابيك صغيرة فى الشاحنة عليها بارات حديد. كان صوت محرك الشاحنة كالنفخ فى الصور يوم القيامة، وفى ذلك إشارة إلى أن اليوم آخر يوم فى حياتهم، فهذه هى رحلتهم إلى العالم الآخر. إنهم يدعون ويتوبون إلى الله لأن عزرائيل يدق عليهم الباب.

أولئك الجنود الحراس ببنادقهم لا تطرف لهم عين ووجوههم عابسة، ويهتزون اهتزاز الشاحنة وكأنهم يتابعون بذلك إيقاعات لطبل من الطبول. والجو داخل الشاحنة حار للغاية لسطوع الشمس فى ذلك الوقت. فكانوا يتصببون عرقًا، ويتساقط العرق على صدورهم ويبلل زيهم العسكرى الأخضر الرمادى لكنهم لم يبالوا بالحرارة ولا بالعرق.

كان حراميا جالسًا منكمشًا فى ركن من الشاحنة محملقًا حملقة المخنوق ناظرًا إلى مباكانى. وكان مباكانى جالسًا القرفصاء واضعًا رأسه على ركبتيه، نادمًا، ليته رفض أن يعرف شىء عن هذه المؤامرة. كان بواتشا مسندًا ظهره إلى الشاحنة، ممدود الرجلين، موجهًا وجهه إلى سقف الشاحنة لكنه مغمض العينين ويلوم نفسه "إننى أنا السبب فى هذا كله" يقول ذلك فى نفسه، بينما مقدم ينطق بالشهادتين طوال الطريق، ويرى أن ساعة الموت قد حانت.

كان كوتشى جالسًا مربعًا كتلميذ الكتَّاب الذى وضع مصحفًا صغيرًا فى حجره ينظر إلى مباكانى، وكأنه يريد أن يقول له: "لقد عارضتك عبثًا! إن هؤلاء البرابرة فعلاً سيقتلوننا." وجميع التسعة كانوا يتمثلون الموت قادمًا إليهم عيانًا.

تجرى الشاحنة بأقصى درجات السرعة، مشيرًا عدادها إلى ثمانين ميلاً فى الساعة. كان كيفوبى صامتًا مركزًا على سير الشاحنة، وطاقيته التى عادة ما ينزلها على جبينه قد كبسها على رأسه كله مخافة أن تطيرها الرياح الشديدة الناجمة عن سرعة الشاحنة.

دخلت الشاحنة طريقًا كله حفر ومطبات فأصبحت تميل وتعتدل، وتنخفض وتصعد، وقد أثارت غبارًا كثيفًا انتشر فى الهواء، وغطى الجزء السفلى من الشاحنة، وقد اخترقت الشاحنة من خلال فتحاتها الصغيرة.

اختلط الغبار الكثيف بالحرارة المرتفعة فملأ الشاحنة وأصبح من فى الشاحنة لا يستنشقون إلا غبارًا ساخنًا وما استنشقوه بأنوفهم ابتلعوه مع ريقهم، ناهيك عن تغطية أجسامهم تغطية ثقيلة بالغبار.

أثير الغبار فى كل مكان داخل وخارج الشاحنة، وكلما واصلت سيرها كلما خلفت وراءها سحابة رمادية ثقيلة طويلة فى الهواء لمسافات بعيدة. وأخذت تثير الغبار مع ارتجاج من فيها كلما هبطت أو صعدت بين الوديان والمطبات والحفر.

لما وصلوا إلى المكان المقرر لها فرمل السائق شاحنته فجأة فتوقفت بقوة مما جعلهم يندفعون أمامًا ويرتدون خلفًا. كان العقيد بونجو قد وصل قبلهم فى أبهته، منتظرًا إياهم بفارغ الصبر، كانت سيارته مركونة بعيدًا بعض الشىء، وهو واقف مع سائقه وبعض الجنود الآخرين، مرتديًا زيه النظيف المكوى بشكل جيد، المكون من قميص أخضر وبنطلون وقد وضع قبعته العسكرية على رأسه مائلة إلى اليمين، بينما يتدلى مسدسه على فخذه الأيسر، ويتمشى فى كبرياء هنا وهناك.

هبط كيفوبي من الشاحنة، وذهب إلى العقيد بونجو في مكانه وتصافحا. بوقوفهما بجوار بعضهما البعض ظهرا وكأنهما يتنافسان فيما بينهما من حيث قصر القامة. فأحدهما قصير قصر المطرقة والآخر بدين وقصير قصر البرميل. وهبط السائق هو الآخر وذهب إلى مؤخرة الشاحنة، وفتح بابها. وما إن فتحه حتى وجد الغبار الكثيف المحجوز بالداخل يندفع إلى الخارج اندفاع موجة البحر المضطرب.

كان أول من ينزل من الشاحنة هم الجنود، وتلاهم حراميا وزملاؤه. كان زي الجنود كله غبار، ووجوههم قد التصق عليها الغبار لامتزاجه بالعرق فأصبح كالسكر المطبوخ على وجوههم. أما بالنسبة لحراميا وزملائه فإنهم كانوا كمن اغتسلوا بالغبار.

وجدوا أنفسهم في ساحة كبيرة لا شيء فيها سوى الأحراش المتناثرة. ومن بعيد كانت هناك أشجار طويلة متراصة في صف واحد، ومن خلف الأشجار شريط رفيع من البحر الممتد بامتداد أفق هذه الساحة معطيًا لونًا فيروزيًا متلألئًا تحت شمس الظهيرة. وفي الساحة رأوا تسعة قبور تم حفرها على صف واحد، مما يعني أن الوضع الآن لا يتعلق بالإشراف على الموت بل الدخول في القبر ذاته. وطارت كل آمالهم في الحياة، طيرتها رياح النحس والشؤم. وظهر اليأس كله على وجوههم، إذ انتشرت أمامهم سحابة ظلماء أخفت ما لديهم بل ابتلعت كل ما لديهم من أمل في النجاة.

انخرط العقيد بونجو وكيفوبى فى الحديث، ثم أصدر العقيد بونجو توجيهاته "هيا، كل منهم يقف أمام قبره."

صفوهم صفًا واحدًا، واقتادوهم كأنهم فى تدريب عرض عسكرى متجهين صوب قبورهم، مطأطئى الرأس كأنهم يستحون من الموت الماثل أمامهم، ويتصببون عرقًا، وتخفق قلوبهم خفقان الفزع الأكبر، وترتعد أقدامهم، وتقشعر جلودهم، وكان فينجوشو تسيل دموعه ويدعو فى سره: "اللهم نجنا."

انطلق بواتشا مسرعًا من حيث كان فى الصف مع زملائه إلى العقيد بونجو وانكب على قدميه يقبلهما قائلاً: "أقبل نعليك، أقبل نعليك يا صاحب السمو" ثم انبطح أرضًا رافعًا رأسه، والرعب يملأ عينيه ناظرًا إلى العقيد بونجو.

ركله العقيد بونجو بكل قوة فى صدره، لكنه لم يتأثر بالركلة لضخامة جسده. لما رأى العقيد بونجو أن الركلة لم تؤثر فيه رفع قدمه وضربه على كتفه الأيمن فدفعه بعيدًا. وقع بواتشا على ظهره، وكرشه منتفخ، وقد انفكت الملاءة من على خاصرته فتبين أنه يتبول على نفسه. "خذوه واذهبوا به إلى هناك" أمر كيفوبى مشيرًا إلى حيث القبور. أخذ بواتشا يقلب نفسه على الأرض يمينًا ويسارًا باكيًا وملتمسًا: "صلوا على النبى! صلوا على النبى!" لكن لم يشأ أحد أن يصلى على النبى. فحملوه عشوائيًا وألقوا به على شفا حفرته.

"قف" صاح فيه كيفوبى، وقد أصبح شرسًا حارقا كالشطة عابس الوجه حتى أصبح وجهه أقبح من النسناس، بارزًا شفتيه إلى الأمام وكأن الكبرياء كله يجرى فى دمه.

كل واحد وقف أمام قبره. كان كوتشى يخرج منه ريح ويرتعش ارتعاش المحموم، رافعًا رأسه وكفيه إلى السماء متضرعًا. إن خوف الموت قد حل بهم فى الساحة.

رفع الجنود بنادقهم وكل جندى يصوب إلى شخص معين منتظرين صدور الأوامر. كان العقيد بونجو واقفًا واضعًا يديه على خاصرته، ماضغًا شفتيه، حياتهم بين يديه، وأرواحهم تتدلى داخل خيط عنكبوت. جميعهم فى حالة استسلام، مستعدين لرفع أيديهم قائلين "ارتدعنا" فالقبور أبوابها مفتوحة فى انتظار ابتلاعهم ليختفوا فى بطنها للأبد دون أن يعرف أحد عن مصيرهم. إنهم يبكون بكاء الوداع.

نظر العقيد بونجو إلى الجنود ورفع يده إلى أعلا فقام الجنود معًا بسحب الطلقة من خزينة البندقية إلى حجرة الإطلاق استعدادًا للرمى. وهنا أزال صوت إدخال الطلقات فى حجرات البنادق آخر بصيص من الأمل داخل قلب كل من هؤلاء التسعة. إنهم الآن فى انتظار آلام الموت الحادة رميًا بالرصاص. لكن قبل أن ينزل العقيد بونجو يده إيذانًا بإطلاق النار سألهم بصوت مرتفع: "أسألكم لآخر مرة، هل ستعترفون أم لا؟"

"سنعترف" أجابوا جميعًا. وسألهم مرة ثانية فأجابوا بنفس الإجابة وبصوت أعلى هذه المرة. فدوت أصواتهم فى الساحة وهم واقفون على ركبهم، وقد أمالوا رؤوسهم جانبًا، ورفعوا أكف الضراعة إلى الله يدعونه النجاة بأرواحهم. كانت أبواب السماء مفتحة فاستجيبت دعواتهم، ونزل عليهم النصر الذى كانوا يطلبونه فى الساحة. ولما أعيدوا إلى الشاحنة شعروا بأنهم قد نجوا بأعجوبة كنجاة صاحب الحوت عندما التقمه ثم لفظه.

لم يعادوا إلى معتقل التعذيب ثانية بل إلى فندق العسرة مباشرة، لا أحد يعرف شيء عن هذا الفندق سوى حراميا الذى تعرض لحوادث وأهوال فى هذا المبنى. لم ينم أحد منهم طوال الليل، فظلوا مستيقظين والمبنى يستوعبهم. لما تنفس الصبح أخرجوا من الغرف، وتم إيقافهم فى الساحة الكبيرة المحاطة بالسور. كانوا على نفس حالتهم مرتدين الشورتات والملاءات وعليهم غبارهم فإنه أضيف عليهم ظاهرة التبول اللا إرادى، فأصبحوا كالأطفال يتبولون على أنفسهم فى أسرتهم أثناء النوم. ستقام لهم رقصة الارتداع عن التبول علاجًا لهم. واليوم يحرسهم أفراد قوات مكافحة الشغب وليسوا الجنود. فأحاطت بهم فرقة كاملة من هذه القوات وما أن تحركوا من تلك الساحة حتى تم تقييد كل منهم بالكلبشات. فرأوا إن الشر ما زال قائمًا. ووجدوا أن الشاحنة فى الخارج تنتظرهم وبدأ محركها يعمل.

وهذه المرة ما كانت الشاحنة فحسب بل معها عربتان لاندروفر مكشوفتان، وتتوسطهما الشاحنة، وكلتاهما تحملان قوات مكافحة الشغب ببنادقهم المصوبة صوب الشاحنة.

ما كانت هذه رحلة عادية بل موكب متكامل تتقدمه اللاندروفر بلمبتها الحمراء المتوهجة مع إطلاق صفارة إنذارها التى تواصل تصفيرها لتنبيه المارة والسيارات بأن يتنحوا جانبى الطريق لإفساحه أمام الموكب. والقوات فى اللاندروفر هذه عيونهم على الشاحنة من ورائهم مصوبين بنادقهم إلى الشاحنة وراءهم، وكذلك اللاندروفر الثانية السائرة خلف الشاحنة، القوات فيها مصوبون بنادقهم تجاه الشاحنة أمامهم. وهكذا تكون الحراسة المناسبة للخونة الذين اغتالوا الزعيم.

دخل الموكب المدينة كالبرق الخاطف، وأفزع الناس فى الشوارع فى صباح ذلك اليوم، مما جعل الناس يتساءلون: "ما الذى يجرى؟" فالعربات تجرى بسرعة جنونية واللمبة الحمراء متوهجة، وصفارة الإنذار تصفر بجنون وجنود القوات من الأمام والخلف مسلحون.

مما جعل الناس فى كل مكان يمر فيه الموكب يخرجون يشاهدونه، خرج من كان بالداخل ليشاهده، ومن لم يستطع الخروج شاهده من خلال النوافذ.

عند مرور الموكب على الجسر قام بائعوا الكاسافا والبطاطس الذين كانوا يعدون بضاعتهم لزبائنهم فى السوق بترك عملهم واقفين على جانبى الطريق، ومر عليهم الموكب كالبرق مخلفًا وراءه الغبار، ثم انعطف الموكب عند مدرسة بن بلا مارًّا بسينما ماجستك. ولم يتوقف حتى وصل إلى المحكمة العليا. نزل الجنود من العربات بجلبة منتشرين فى كل مكان، وأغلقوا الطريق المؤدى إلى المحكمة كى لا يدخل ولا يخرج أحد. كان وضعًا مرعبًا.

نزل التسعة جميعهم من الشاحنة مكبلين. واقتادهم الجنود إلى قاعة المحكمة. صعدوا إلى قفص الاتهام مندهشين. امتلأ بهم القفص، ووجوههم كوجوه الدمى، إنهم مقززون مقرفون.

كانت قاعة المحكمة ممتلئة عن أخرها، وهادئة لا تسمع فيها سوى صوت المراوح. وهى عبارة عن غرفة كبيرة داخل مبنى ضخم طرازه المعمارى قديم، حوائطه ضخمة، سقوفه مرتفعة، لها شباك واحد كبير من خشب الساج. وما يدخل هذا الشباك من هواء ما كان كافيًا لتهوية الحرارة بالداخل. صفت المقاعد الخشبية فى صفوف ليجلس عليها الحضور. ولكن حضور اليوم الذين اكتظت بهم القاعة هم من كبار ضباط الجيش ومسئولى رجال الأمن على أعلى مستوى. وجميعهم يرتدى الزى العسكرى المهندم متسابقين فيما بينهم برتبهم على أكتافهم. كان كيفوبى والعقيد بونجو جالسين فى الصف الأمامى ينظران إلى من فى القفص بعين حمراء تذكرهم بما جرى لهم بالأمس.

ما إن دخل القاضى حتى وقف الجميع احترامًا له. فجلس أمام من أتوا للاستماع للقضية. مكتبه فوق منصة مرتفعة، جلس على كرسيه الكبير، بين مساعديه، مرتديًا طاقية جميلة مطرزة تطريزًا يدويًا على شكل ورق العنب، وأحكمها فى رأسه الكبير جدًا، وجلبابه جلباب عمانى أقفل أزراره حتى الرقبة، جسمه ممتلئ ملأ الكرسى تمامًا. لم يلق بالاً لمن هم أمامه من الضباط، ولا لمن هم فى القفص من الخونة بل انشغل بقراءة ملف أمامه. وقليلاً ما كان يتهامس مع مساعديه.

كان كاتب المحكمة جالسًا على يمين المنصة وعلى مكتبه الكثير من الملفات. كان يرتدى بدلة أنيقة من الحرير الخشن ورابطة عنق شدها شدًا أنيقًا، لونه أبيض خليط بين الأوربى والعربى، شعره مسترسل ممشط جيدًا إلى الخلف، ولونه بين الأبيض والأسود. والقاعة فى صمت رهيب.

عندئذ وقف كاتب المحكمة حاملاً مصحفًا فى يده، واتجه نحو المتهمين فى القفص، وجعلهم جميعًا يحلفون معًا: "نقسم بالله أننا سنقول الحق ولا شىء سوى الحق." ثم جلس فى مقعده، ورفع ملفًا وقرأ: "القضية الجنائية رقم (٢٥) أنتم الواقفون هنا فى القفص متهمون بمحاولة الإطاحة بالحكومة، الأمر الذى تسبب فى قيام اضطرابات أدت إلى مقتل الزعيم المفدى."

ثم نظر إليهم وبدأ يناديهم واحدًا واحدًا بأسمائهم. "حراميا حبيب. هل تعترف أم تنكر؟"

شخصت أبصار حراميا حبيب وتصبب عرقًا وأصيب بالذهول وهو ينظر إلى القاضى، استرجع الآن فى نفسه كل ما كان يقوله لزملائه فى معتقل التعذيب. "إذا اعترفنا فقد ألقينا بأيدينا إلى التهلكة" واسترجع كذلك القسم الذى أقسم به: "والله لا أعترف مهما فعلوا بى!" إنه مذهول لا يستطيع أن يرد، والجميع فى صمت رهيب ينتظرون رده. والعقيد بونجو وكيفوبى ينظران إليه بالعين الحمراء كالأسد الناظر إلى الغزال.

"أجب" صرخ فيه كاتب المحكمة .

نظر حراميا إلى القاضى مستشفعًا إياه، وتجاهله القاضى تمامًا وأخذ يتصفح ما أمامه من أوراق.

"بسرعة أجب ولا تضيع وقتنا." صرخ فيه الكاتب ثانية. عندئذ سمع حراميا دوى الصراخ، وتمثل أمامه شبح ذلك الجندى الذى وقف أمامه بالبندقية وهو واقف على شفا قبره، وجاءته أصواتهم جميعًا والتى كانت تدوى فى الرياح الشديدة لتلك الساحة وهى تقول: "سنعترف" فصرخ حراميا كالمجنون وقال فى المحكمة "أعترف".

فأصبح حراميا وكأنه المطرب وهم فرقة الكورال المرددين له: "نعترف" قالوها وكأنهم مسحورون لا إرادة لهم. عندئذ أعيد الجميع إلى معتقل التعذيب وعادوا إلى نفس الوضع من التدليل والتهدئة كأطفال تم نقلهم إلى هناك لتربيتهم.

الفصل الحادي والعشرون

انتشر خبر ذلك الموكب فى كل أرجاء مدينة زنجبار كما تنتشر السحابة الملبدة بالغيوم، ووصل كل الأسماع، وأصبح حديث المدينة وكل أفاك نسج إفكه وكل نمام نمى نميمته فأصبح موضوع الساعة لذلك الصباح.

بعد أن أدى السيد مفتاح صلاة الفجر وتلاوة الأذكار رأى من الأفضل أن يمر على عاشور Ashuru ليشرب فنجانًا من القهوة. كانت نسمات الفجر باردة فنفذت إلى عظامه فشعر بالبرد الشديد، فأخذ شالاً وغطى به كتفيه وصدره.

والناس فى بيوتهم يقظون يعدون لوجبة الإفطار، فمنهم من يخبز الفطائر ومنهم من يقلى القطائف، ورائحة القلى منتشرة مع نسمات الصباح.

وكان تلاميذ المدارس الذين ارتدوا زيهم من قمصان بيضاء وسراويل قصيرة من الكاكى، والتلميذات اللائى ارتدين البلوزات البيضاء والجيبات الزرقاء، الجميع فى هرولة ومعهم كتبهم مهرولين إلى المدارس.

عند عاشور مقاعد خشبية للجلوس تحت شجرة مانجو كبيرة على تل منحدر انحدارًا حادًا من كيسيماماجونجو وحتى مسجد ماباتى، وكان عاشور يحمل بيسراه إبريق القهوة المصنوع من النحاس اللامع، وبيمناه هرمًا من الفناجين يصب فيها قهوته لزبائنه الكثيرين الجالسين على المقاعد.وهناك نار الفحم شديدة الاشتعال داخل وابور لطهى القهوة.

فالجلوس عند عاشور هو جلوس بمجلس عام لشاربى القهوة فى الفترة الصباحية، يتبادلون فيه أخبار الصباح.

لما وصل السيد مفتاح هنالك وفى يده مسبحته، وجد حوارًا ساخنًا دائرًا: "لقد تم إعدام الجميع، ليس هذا فحسب بل تم بشكل فورى بعد خروجهم من المحكمة" قال رمضان وفى يده فنجان القهوة ينبعث منه الدخان.

فلما رأوا السيد مفتاح واقفًا أمامهم سكتوا، لأنهم يعرفون أن زوج ابنته من بين أولئك الذين يتحدثون عنهم. "صب القهوة للسيد مفتاح" أصدر على مابوجى طلبه لتغيير مسار الحديث.

فقام عاشور بصب القهوة، وملأ الفنجان، وأعطاه للسيد مفتاح مسلمًا عليه قائلاً: "صباح الخير يا سيد مفتاح"، وينظر عاشور إلى السيد مفتاح وهو يمسك فنجان القهوة فى يده، كابسًا طربوشًا فى

رأسه، حاملاً فناجين القهوة الممتلئة داخل جيب كبير بصدريته المصنوعة من قماش الكاكى، ويضع على خاصرته تنورة مزركشة تنزل حتى ركبتيه.

استلم السيد مفتاح فنجانه بأطراف أصابعه ناظرًا إلى عاشور، ومصدومًا مما سمعه. علم أن الخبر ليس عن شىء إلا عن الخونة.

انتهى من فنجان القهوة الذى طلبه له على مابوجى. فشعر باسترخاء فى جسمه، وانقباض فى قلبه، وازدياد فى حدة الضعف الذى عنده من فترة طولة. ولكن ما سانده وقواه أنه رجل تقى مؤمن بأن الخير والشر بقدر الله سبحانه وتعالى.

قدم الشكر إلى على مابوجى على إكرامه له بفنجان القهوة، وانصرف ببطء بمشيته المتثاقلة، وفى يده مسبحته، وتركهم من خلفه يتجادلون "إنه سمع" قال على مابوجى

"إنه لم يسمع" قاله عاشور مستهزئًا وهو رافع إبريق القهوة يصبها فى فنجان لرمضان.

"كيف أنه لم يسمع يا سيدى! وقد تغير بشكل مفاجئ" جادل على مابوجى.

سمع السيد مفتاح كل ما جرى فى الحوار، والآن وهو فى طريق عودته لبيته يتساءل "كيف أواجه خديجة بهذه الأخبار؟" فخديجة نفسها فى حالة من الهلع الدائم، والقلق المتمكن لدرجة أنها لم تعد تدرى ما تفعله، إنها موجودة وسط مصائب دنيوية فحسب.

"من الأفضل ألا أخبرها وأخبر أمها" خطر هذا ببال السيد مفتاح. إن الهدوء الطبيعى هو من طباع السيدة فاراشو مما يجعلها دائمًا تبدو واهنة، خاصة مع الحزن الذى يمتلكها من بعد اعتقال زوج ابنتها التى تركت معلقة، لا مطلقة ولا معتدة، ولا تعرف أين هى من بين الأمرين. ولكن السيدة فاراشو مع وهنها وهدوئها تتمتع بقلب صابر وتحمل قوى. وهى كما الحال مع زوجها السيد مفتاح تؤمن بأن كل ما يحدث إنما هو من أمر الله، ولا مبدل لكلمات الله.

ومع ذلك رأى السيد مفتاح أنه إذا أخبر السيدة فاراشو بما سمع فإنها لن تستطيع التحكم فى نفسها، فيدفن الخبر فى قلبه ويصبح سرًا بينه وبين نفسه فقط. ولكن كيف يمكنه أن يكتم هذا السر بينما الشائعات انتشرت فى المدينة كلها حتى وصلت لعاشور القهوجى! "إنها حتمًا ستعرف، إذا لم أخبرها أنا فإنها ستسمع الخبر من مصدر آخر" فكر السيد مفتاح فى كل هذا وقد اختلط عليه الأمر.

أصبح على وشك الوصول لبيته بعيد شروق الشمس وسطوعها وانقشاع شبورة الصباح، وبدأت حركة الصباح للناس، فأصحاب المحلات فتحوها، وأصحاب المطاعم منشغلون بتوزيع الشاى السادة مع قطع الكاسافا المسلوقة للزبائن، وهكذا الآن يقدم الشاى ولم يعد يقدم معه لقمة القاضى كما كان فى الماضى، والدراجات فى الشوارع تسير سريعة فى يوم جديد كله حيوية.

مر السيد مفتاح على دكان عوض Awadh ليشترى شيء للإفطار. كان الدكان مفتوحًا وتنتشر فيه رائحة جوز الهند، ولا شيء فيه، وكل الأرفف فيه فارغة، والصناديق المرصوصة أمام الدكان والمفترض فيها أن تكون ممتلئة بالأغذية فارغة وموضوعة كزينة فقط.

وكان هناك سباطتان من الموز متدليتان، ولا شيء للإفطار به، إلا من ثلاث قطع من المخبوزات متبقية فى صينية وكان عوض جالسًا على لوح خشبى داخل الدكان، ويوجد أمامه صندوق صغير لحفظ النقود وبه بعض النقود. كان الزبائن يأتون الواحد تلو الآخر، منهم من يريد شايًا أو سكرًا ولكن لا أحد يجد ما يريده.

اشترى السيد مفتاح ما وجده من قطع ثلاث من المخبوزات وقام عوض بوضعها فى قرطاس من صحيفة قديمة وربطها له. حملها السيد مفتاح واتجه ببطء إلى بيته.

كان يشعر وكأن الناس الذين يقابلهم فى الشارع ينظرون إليه متعاطفين معه للمصيبة التى حلت به

لما وصل لبيته قابل ابنته زالحاتا عند الباب مرتدية زيها المدرسى المكون من قميص أبيض وبلوزة زرقاء، زيًا نظيفًا مكويًا كوياً جيدًا، وتحمل كتبها المدرسية فى حقيبتها المصنوعة من اللوف. استقبلت زالحاتا والدها وأخذت منه ما يحمل وألقت عليه التحية.

"أهلاً يا ابنتى، لماذا تأخرت اليوم عن الذهاب للمدرسة" سألها السيد مفتاح.

طأطأت زالحاتا رأسها استحياءً وقالت بصوت منخفض:

"مصروف الجيب"

"عجبًا! أما تركت لك؟" وأدخل السيد مفتاح يده فى جيبه وأخرج خمسين سنتًا وأعطاها لها.

"شكرًا" شكرته زالحاتا، وأدخلت المخبوزات إلى المطبخ عند أمها ثم خرجت. وقبل أن تخرج من البيت سألها والدها: "هل تناولت طعام الإفطار؟"

"نعم" أجابته زالحاتا. وذهبت بحقيبتها المدرسية إلى حال سبيلها.

كانت السيدة فاراشو فى المطبخ تنظف الأطباق، بينما خديجة فى غرفة النوم ترضع ابنتها. والسيد مفتاح واقف فى آخر الطرقة يشكو من رائحة الزيت الذى يدلك به الرضيعة ناظرًا إلى زوجته.

"كيف أصبحت يا زوجتى العزيزة" صبح السيد مفتاح على السيدة فاراشو، فالتفتت إلى زوجها تنظر مبتسمة. "أنا بخير يا سيدى، ما الأخبار منذ خرجت، لماذا تأخرت؟"

"مررت على عاشور لاحتساء القهوة، ووجدت على مابوجى مع دردشته، وأنت تعرفينه عندما يبدأ الدردشة، ولما خرجت من هناك مررت على دكان عوض.

"هل أحضر لك شايًا؟" سألته السيدة فاراشو.

"ليس الآن، حتى ترتفع الشمس أكثر، سأشرب لاحقًا."

دخل السيد مفتاح حجرته، حجرة واسعة نظفتها السيدة فاراشو نظافة جيدة. سريرها زنجبارى بملاءة بيضاء نظيفة، يعلوه إطار واحد للناموسية، فيها كرسى واحد من شجر الخيرزان حيث يحب السيد مفتاح أن يجلس عليه لقراءة كتبه الدينية. وفى الحجرة رفان مثبتان فى الحائط مليئان بالكتب، والسيدة فاراشو دائمًا حريصة على مسح ما يأتى على هذه الكتب من غبار.

للحجرة شباكان صغيران، أحدهما شرقًا والآخر غربًا وقد اخترق ضوء الشمس المشرقة الحجرة من الشباكين. خلع السيد مفتاح جلبابه وصدريته وعلقهما على رف مثبت على الحائط بالقرب من الباب، وبقى بفانلة نصف كم وإزار.

جلس على كرسى الخيرزان، ورأسه التى بدأ شعرها ينبت كانت مليئةً بأفكار كثيرة، وعيناه الواسعتان تنظران إلى الباب وكأنه ينظر إلى إنسان. السكون الذى يسود الحجرة قطعته مناداة بائع السمك بالشارع يعلن عن بضاعتة "طازج، إنه طازج، طازج يا سمك طازج"

"يا خديجة!" نادت عليها السيدة فاراشو من المطبخ.

"نعم" ردت خديجة من الغرفة.

"نادى على بائع السمك"

لم تك عند السيد مفتاح الرغبة فى متابعة ما يجرى بين بائع السمك وزبائنه، فعاد إلى ما يفكر فيه، وهو جالس على كرسيه واضعًا خده على كفه. وهذه الحجرة التى عادة ما تكون مليئة يوميًا بالمترددين على السيد مفتاح للدعاء لهم بدوام الصحة الجيدة وبتحقيق طموحاتهم، وبتفريج الله عن ضيقهم وهمومهم، ها هى اليوم قد امتلأت بما أصاب السيد مفتاح نفسه من هموم واكتئاب، فلم ير بداخلها إلا الضيق والحزن العميق.

لما دخلت السيدة فاراشو الحجرة تذكره بتناول الإفطار لاحظت تغير وجهه ووجود همه.

"ماذا حدث لك؟ هل أنت مريض؟" سألته السيدة فاراشو. نظر إليها السيد مفتاح وشعر أنها ربما اكتشفت السر الذى كان يكتمه فى قلبه فأجابها: "لست مريضًا"

"إذًا فما الذى أصابك؟ لماذا تبدو ضعيفًا؟"

"أشعر بحمى بعض الشيء، أعتقد أنها جاءتنى من جراء نسمات الفجر الباردة" أجابها السيد مفتاح.

"انتظرنى حتى أحضر لك شايًا سادة بالليمون، وستختفى هذه الحمى فى الحال"

"شكرًا جزيلاً زوجتى. هيا احضريه لى."

لم يكن السيد مفتاح فى الحقيقة مريضًا. وقام بشرب الشاى الذى أحضرته له زوجته. وأكل قطعة واحدة من الخبز إفطارًا له. ما زال جالسًا على الكرسى الخيرزانى، وأمامه منضدة صغيرة وعليها فنجان الشاى الفارغ والطبق الذى كان فيه قطعة الخبز. دخلت السيدة فاراشو الحجرة وسألت السيد مفتاح "آتى لك بمزيد من الشاى؟"

"أحسنت، أحسنت يا زوجتى"

"كيف حالك الآن؟"

"تمام مثل الحديد" أجابها السيد مفتاح.

ابتسمت السيدة فاراشو وهى ترفع الأطباق من على المنضدة. فنظر إليها السيد مفتاح ليرى أن بسمتها قد أثلجت صدره وفتحت له باب الأمل المرجو. عندها شعر أن العقدة التى يحملها قلبه قد انفكت، متمنيًا أن تظل السيدة فاراشو واقفة مبتسمة أمامه وهو ناظر إليها هادىء القلب معافى من الحرارة التى كانت تؤذيه.

الشمس ارتفعت فى توهج شديد من جهة الشرق، والحرارة شديدة داخل حجرة السيد مفتاح ويشعر بغليان داخل مسام جسده. مسك بمروحة يدوية وأخذ يهوى على نفسه لتخفيف أذى الحرارة. ترك الكرسى الجالس عليه لفترة طويلة، وصعد على السرير فاردًا جسده ومروحًا على نفسه بمروحته اليدوية.

أخذته سنة من النوم فنام ولكنه نوم يصح أن يسمى بنوم اليقظة.

وكأنه كان فى حلم، سمع من على بعد صوتًا نسائيًا يستأذن بالدخول وقد ردت خديجة على الاستئذان. وهنا انتبه من نومه الخفيف هذا الذى كان يطارده على السرير.

سمع خديجة تتحدث بصوت مفاجئ مع الضيفة التى استأذنت بالدخول وتقول:

"يا لها من مفاجأة اليوم! أخيرًا أخطأت وجئت؟"

"لم أخطئ البتة ولكنها الخطوات المخصوصة إليك أنت" قالت عزيزة.

"يا لها من مفاجأة! ما أخبار الأيام الطوال؟" سألتها خديجة.

"يا! صمت! لا ترى إحدانا الأخرى: " استطردت خديجة.

"أين نتقابل يا صديقتى ونحن فى هذه المصيبة التى حلت بنا، ولكننى أعتقد أنها على وشك الانتهاء" قالت عزيزة.

"على وشك الانتهاء؟" سألتها خديجة شاخصة عينيها مندهشة.

"هل سيفرج عنهم؟ هل سيفرج عن حمزة؟" سألتها خديجة.

"هيا ندخل" رحبت بها خديجة إلى الداخل.

كانتا واقفتين فى الطرقة الوسطى، وينصت إليهما السيد مفتاح بانتباه شديد.

دخلتا غرفة خديجة والطفلة نائمة، جلست عزيزة على الكرسى وجلست خديجة على شباك السرير.

قامت عزيزة بسحب خيط عباءتها لفتحها وإنزالها حتى ركبتيها للتهوية عن نفسها من شدة حرارة الجو.

إن عزيزة هى الأخرى مثل خديجة لأن زوجها أيضًا معتقل مع المعتقلين فى السجن منذ أن قبض عليه فى منزله بعد منتصف الليل فاختفى نهائيًا، وهى مشغولة أيضًا ليل نهار بمتابعة أخبار زوجها.

عند دخول عزيزة المنزل كانت خديجة قد انتهت لتوّها من الاستحمام رابطة إزارها على صدرها، وقد انتهت من تضفير جانب من جانبى شعرها قبل قدوم عزيزة والآن تقوم بتضفير الجانب الآخر ناظرة إلى عزيزة.

"هيا احكى لى ما يجرى هناك فى الخارج" طالبتها خديجة مطأطئة رأسها جانبًا لتنتهى من التضفير سريعًا كى تتمكن من الإنصات بانتباه لما جاءت به عزيزة فى مثل هذا الوقت.

السيد مفتاح يعرف عزيزة لأنها سبق لها أن جاءت البيت مرتين بخصوص ما يتعلق بزوجيهما. كان قلب السيد مفتاح يخفق سريعًا حينذاك لشعوره أن خديجة ستعرف ما كان يريد أن يكتمه عنها. وكان يتوقع بكاءها فى أية لحظة حين إخبارها بأن زوجها قد مات.

انتهت خديجة من تضفير شعرها على مجموعتين، مجموعة فى جانب ومجموعة فى الجانب الآخر من الرأس. استيقظت الابنة فجأة وبكت. لما سمع السيد مفتاح بكاءها فزع وأحس بأن بكاء الأم آت بعد ثوان معدودة. رفعت خديجة الطفلة ووضعتها على فخذيها وأعطتها ثديها مهدئة إياها بلطف ثم قالت لعزيزة:

"أخبريني يا صديقتي أخير هو أم شر؟"

"لا أعرف ماذا أقول لك يا خديجة." قالت عزيزة ثم توقفت واستطردت "لا أعرف ما إذا كان خيرًا أم شرا،لكنهم سيمثلون أمام المحكمة غدًا وهذه هي آخر الأخبار الرسمية، ومسموح للناس بحضور الجلسة في المحكمة".

أصاب الذهول خديجة شاخصة عينيها ناظرة إلى عزيزة وكأنها لأول مرة تراها:"سيمثلون أمام المحكمة؟!!" سألت.

"نعم سيمثلون" أجابتها عزيزة.

"عسى أن يكون خيرًا" قالت خديجة.

"جهزي نفسك، سأمر عليك فجرًا لنمشي معًا إلى المحكمة ." قالت عزيزة

"سأكون في انتظارك، ولندع الله أن يكون خيرًا." قالت خديجة.

تودعتا، ولم تتركها خديجة إلا خارج المنزل.

وقف السيد مفتاح أمام باب حجرته منتظرًا عودة خديجة من توديعها لعزيزة. إنه لم يسمع بكاء آخر غير بكاء الطفلة التي سرعان ما سكتت بعد أن أخذت ثدي أمها. إنه يتساءل:"ماذا يجري؟". عندما عادت خديجة وجدت أباها واقفًا على الباب فسألته:"هل استيقظت يا أبي؟"

"ما كنت نائمًا، ولكنني كنت أرقد متكاسلاً، ماذا تقول صاحبتك؟" سألها السيد مفتاح بفارغ الصبر.

"قالت لي أن حمزة ورفقاءه سيمثلون أمام المحكمة." أجابت خديجة.

"سيمثلون أمام المحكمة؟" سألها مندهشًا، وهو يفكر فيما كان يتحدث فيه الناس في مجلس القهوة. وجاءت السيدة فاراشو التي كانت في المطبخ لتلحق هي الأخرى بهما عند الباب لما سمعت بمسألة المثول أمام المحكمة. فاجتمع الثلاثة معًا، الأب والأم وخديجة.

"سيكون خيرًا إن شاء الله، وسوف نتبرك جميعًا هذه الليلة بالدعاء" قال السيد مفتاح منشرحًا صدره.

وبمجرد انتهائه الليلة من صلاة العشاء عاد السيد مفتاح إلى البيت دون أن يقعد في المسجد لتلاوة أذكاره كعادته.

قامت السيدة فاراشو بتجهيز المكان من فرش لحصيرة جديدة في الحجرة، مع وضع مبخرة مملوءة بالفحم المتوقد في صينية فضية صغيرة، وبجوارها صندوق معدني مملوء بالبخور. دخل الجميع الحجرة، وجلسوا على شكل دائرة، مع منصة صغيرة في الوسط. جلست السيدة فاراشو، وخديجة، وزالحاتا في هدوء، وقام السيد مفتاح

واغترف غرفة من البخور ووضعه فى المبخرة، وأشعل الفحم فانبعث دخان البخور حتى ملأ أركان الغرفة، وانتشرت رائحة البخور خارج البيت محلقة فى كل الأركان. وقام السيد مفتاح بالدعاء بأن تكون الليلة ليلة مجلبة للآمال الطيبة وأن يبعد الله كل أنواع الشر. ثم قرأ سورة "يس" من أولها حتى آخرها. ثم قرأ "الفاتحة". ورفع الجميع أكف الضراعة إلى الله أن "ينصر عباده وأن يحفظ خلقه، وأن ينجيهم جميعًا" "آمين. آمين"

الفصل الثانى والعشرون

دخل زنزاناتهم رائحة الدخان الحادة للسجائر فعلموا أن السيد ماتشالى قد تسلم نوبته. كانوا قد انتهوا من تناول وجبة غدائهم من الأرز والفاصوليا الحمراء. وكانت أطباق الوجبة ممتلئة عن آخرها فى هذا اليوم مقارنة بالأيام الأخرى التى كانت فيها الأطباق ناقصة.

إنهم شبعوا شبع التخمة.

سمعوه يكح كحًا شديدًا ويسلك زوره ويلقى بنخامته. إن الوقت ليس وقت دراسة الفزياء أو لعب الدويمنو، وإنما هو وقت الجلوس والتفكير فى مصير كل واحد منهم. ولكن لم يستطع أحد أن يتكهن بمصيره.

حتى عنبر الذى ادعى بمهارته أنه مشعوذ وأنه خبير فى الكهانة والعرافة وتفسير الأحلام فإنه جالس هو الآخر بعد مرور الأيام لا يعرف إلى أين تتجه الأمور.

لقد أملوا كثيرًا حتى سئموا، والآن قد يئسوا، وينتظرون فرج الله. إن المياه قد وصلت إلى الحلقوم. كلهم مجهدون، منهكون، وقد نفذ صبرهم.

"إننى أقدم نذرًا بالحج إذا نجوت من هذه البلوى" قال مفاومى.

أسند حمزة ظهره إلى الحائط ونظر إلى مفاومى بازدراء وسأل عيدًا "أنت يا عيد، بم تنذر إذا تم الإفراج عنك؟"

"أنا؟" سأله عيد.

"نعم، أنت." أجابه حمزة.

"أول شىء أفعله بعد خروجى من هنا هو البحث عن أستاذ الفيزياء لأطلب منه أن يدرس لى كل الدروس الفائتة"

"علام البحث عن معلمك، ولم لا تعود إلى فصلك الدراسى الذى كنت فيه؟" سأله حمزة.

"أن أعود إلى فصلى، لا شىء أكرهه فى المدرسة أكثر من أعيد العام الدراسى" أخبره عيد.

"وأنت ماذا ستفعل إذا تم الإفراج عنك؟" سأله عيد.

"بعد خروجى من هنا لن أتوقف فى أى مكان بل سأتوجه مباشرة إلى نادى المتعة، وأطلب البيرة الباردة وأتجرعها جميعها"

نظر مفاومى إلى حمزة بعين الغضب وقال له: "أبدلا من أن تفكر فى الخيرات تفكر فى السيئات، ماذا جرى لك؟"

"لقد فكرت فى الخيرات حتى سئمت، وأرى الآن أنه من الأفضل أن أفكر فى السيئات" قال حمزة.

"إذا كنت أنت قد هممت بخير فليكن لنا جميعًا" علق حمزة بازدراء.

"هل تظن أن الخير سيأتى لشخص مثلك؟" سأله مفاومى شاخصًا عينيه غضبانًا وكأنه هو الذى سيأتيه بهذا الخير.

"الخير من الله، والشر من الله، واقعد أنت وانتظر خيرك، وأنا أنتظر خيرى" قال حمزة وهو يسند ظهره إلى الحائط فى هدوء تام.

أما سرور فكان يدردش فى الزنزانة تحفيزًا لخطة هروبه: "إنكم تعلمون أننا هنا بالداخل خائفون بلا داع"

"كيف نخاف بلا داع؟"سأله مفاومى. وهناك عنبر ينظر إلى مفاومى، وقد عرف مسبقًا ماذا يريد أن يقوله.

"أنتم تعلمون أن الحراسة هنا ليست مشددة، فمثلاً السيد ماتشالى هو الوحيد الموجود حاليًا، فما رأيكم لو خرجنا غدًا صباحًا أثناء توزيع الشوربة، بأن نمسكه ونقيده بحبل، ونأخذ المفاتيح منه عنوة، ثم نفتح كل أبواب السجن، ونهرب جميعًا." قال سرور.

"جميعًا أنت ومن؟" سأله عنبر.

"أنا وأنت وجميع من فى السجن" أجابه سرور.

"أظن أن السجن قد مسَّك بضرر يا سرور" قال عنبر

"كيف أضرَّ بي؟ هل أضرَّ بى حينما قلت بتقييد السيد ماتشالى؟" سأله سرور غاضبًا.

"أضرَّ بك لأنك أصبحت مجنونًا، ومعتوهًا، وقد انتهيت" أخبره عنبر.

"من المجنون؟ هل أنا مجنون؟" سأله سرور منفعلاً.

"وهل ترى أنت نفسك عاقلاً فى هذا الوضع الذى أنت فيه؟" سأله عنبر.

"سواء أكنت مجنونًا أم عاقلاً فإن الفرصة إذا سنحت لى فإننى أزج بالسيد ماتشالى داخل الزنزانة، وأقيده، وأنتزع منه المفاتيح، فهل تساعدونى؟" سألهم سرور مبتسمًا مع ظهور فجوات أسنانه.

"اذهب وجنونك فى ستين داهية" قال عنبر

أما فى زنزانة دوتو ورفقائه فقد كان قاسم يحكى عن فسوقه جالسًا على حصيرته مكشوف البطن، وجسده يتلصق نظرًا للحرارة الشديدة داخل الزنزانة. نظر إلى دوتو وقال له:

"ما رأيك فيما لو حصلت على شرطية فى هذا الجو الحار مرتدية زى الشرطة الخاص بها، وألقيت بها على السرير، وأخذت تتصارع معها وأنت تخلعها زيها قطعة قطعة، بادئًا بالكاب؟"

"أف، يا أخى" تزمر كوندو قائلاً: "لا تأت لنا بهذه الأمور الشيطانية، فى مثل هذا الوقت فى زنزانتنا"

"أى أمور شيطانية يا أخى؟" قال قاسم "إنها المتعة بذاتها"

"المتعة، المتعة، أى متعة نتمتع بها هنا، هذا بدلاً من أن ندعوا الله أن ينجينا من هذا البلاء الذى يواجهنا، ليس فى عقلك إلا الشيطانيات."

"إننا فى دعاء مستمر لله ليل نهار، ولقد استجاب لنا منذ أن دعوناه، فنحن سنخرج لا محالة، فلم هذا القلق؟" سأله قاسم.

"هل تظن أن الخروج من هنا أمر سهل يا قاسم؟" سأله كوندو "إنه أمر يتعلق باغتيال الزعيم"

"كيف يمكننى أن أغتال الزعيم يا كوندو؟" سأله قاسم، "إننى حتى لا أستطيع قتل جرادة ولو صغيرة فما بالك بزعيم!"

وفجأة يسمعون جلبة على البوابة، ويفتح الباب الحديدى، ويدخل أفراد يقومون بضرب الأرض بأقدامهم على نمط مشية

الاستعراض العسكرى، وواصلوا سيرهم حتى الساحة الواقعة أمام المكتب العسكرى، وإذا بهم ستة جنود من قوات الحرس مدججين بالأسلحة لحراسة الخونة.

انتشروا داخل السجن، كل منهم فى موقع محدد، وجوههم عابسة، وقلوبهم باغضة ساخطة لهؤلاء الذين تورطوا فى إزهاق روح الزعيم على غرة، وهو المنقذ لهم والمحقق لآمالهم.

نظر عنبر إلى سرور الذى كان فاتحًا فمه فوضح سقوط أسنانه كلها من تعذيب رجال المعتقل له، وامتلأ شعره الأشعث بياضًا وتوسط الصلع رأسه، وابيض شعر صدره الكثيف. كان يضع على خاصرته ملاءة سرير تصل إلى ركبتيه. وقف وكله أذن يتابع عن كثب جلبة أولئك الجنود. "إنهم جنود!" قال سرور شاخصًا عينيه.

"إذا كانوا قد أتوا لشر فلينجنا الله من شرهم" دعا مقامى.

كانت الشمس قد مالت عن كبد السماء متجهة نحو الغرب وبدأت الحرارة الملتهبة تنخفض، والظل الممتد يرطب أرضية الساحة، والنسيم العليل يلطف الجو، والسيد ماتشالى يفرد نفسه على الكرسى مكشوف البطن، يدخن سجائره متمتعًا بهذا النسيم العليل.

إذا كان وصول هؤلاء الجنود إلى السجن قد أفزع وأربك المعتقلين فيه فإنه بالنسبة للسيد ماتشالى تخفيفًا له فى نوبته الليلية

التى فيها السهر واليقظة، حيث سيزيد ذلك من استرخائه على الكرسى كسلاً بل سيزيده استغراقًا فى النوم والشخير.

نهض فجأة من على الكرسى وأخذ مجموعة مفاتيحه من تحت الكرسى واتجه صوب الزنزانات صارخًا: "هيا، هيا، لقد حان الوقت."

فتح الزنزانات زنزانة زنزانة وأخرج كل من فيها وجمّعهم كتجميعه للماعز، وصرخ فيهم وكأنه قد انجن قائلاً: "اغتسال! اغتسال! لقد حان الوقت."

كان هذا غريبًا بالنسبة لهم لأنه لم يسبق ولو لمرة واحدة أن فتحت كل الزنزانات فى وقت واحد ليغتسلوا معًا. إنهم عاشوا حياة الخدور طوال فترة سجنهم، تلك الحياة التى لا يعرف أحد أحدًا إلا من تواجد معه فى الزنزانة الواحدة. أما من يتواجد في زنزانة أخرى فلا تعارف بينهم. وكل شىء يسير على هذه الوتيرة فى هدوء تام.

تكدسوا فى الساحة فازدحمت ازدحامًا شديدًا، وأخذوا يتساءلون: "ماذا يجرى؟" وكان يومًا للكثيرين لأول مرة يرى بعضهم بعضًا، فالكل مندهش. أصيب عنبر بذهول عندما رأى مفاومى، لدرجة أن فمه استمر مفتوحًا لأنه كان قد سمع أن مفاومى فى عداد الموتى.

لم يتمالك عيد نفسه عندما رأى والده فى أحد أركان الساحة، فقام باختراق الحشود مترنحًا حتى وصل إلى والده، فعانقه وسالت دموعه وناداه "أبتاه!"

رفع عيد وجهه ونظر إلى والده أحمد. لم يعد ذلك الوالد الذى يعرفه. إنه لم يعد صاحب الجسد الضخم، والصدر الواسع، والملابس الأنيقة التى يحبها، فقد تحول أحمد الآن إلى مجرد هيكل عظمى، ضلوعه بارزة، والشيب الذى كان يحرص حرصًا شديدًا على القيام بصبغه باللون الأسود كل يوم رغبة فى الشباب قد امتلأ رأسه به، حتى حواجبه ورموشه اشتعل فيها الشيب، ولحيته الطويلة الواصلة إلى صدره ابيضت تمامًا، كأن وجهه صب عليه الجير. وكان رداؤه خرقة ممزقة يربطها عليه، مكشوف البطن، والبطن نفسه مترهل. وأخذ عيد يسأله ودموعه تسيل منه وتسقط على صدره نقطة نقطة: "أين أمى؟"

"أمك بخير فلا تقلق." أجابه أحمد وكأنه يعرف أين هى زوجته.

وكان كل جندى من الحراس واقفًا فى حيز ضيق من أركان الساحة مصوبًا بندقيته بشكل محكم نحو الحشد. وكان السيد ماتشالى وسط الحشد يوزع الأمواس والمقصات مصدرًا أمره "كل واحد يقص لزميله، لا نريد لحية ولا شاربًا."

نظر عنبر إلى سرور وهو جالس القرفصاء أدنى سور المراحيض. فأومأ السيد ماتشالى إلى عنبر وغمز له بالعين مشيرًا إلى سرور وكأنه يقول لعنبر: "ها هو ذا، امسكه وقيده بالحبال."

رفع سرور بصره إلى السماء فرأى طائرًا يحلق فوقه فى سلام باسطًا جناحيه فى جو الحرية، لا أحد يزعجه ولا أحد يبغضه، ولا أحد يهدد حياته للخطر.

هنا فكر سرور وتمنى لو كان له جناحان مثل ذلك الطائر ليطير بهما إلى حيث يريد بحرية. وأخذ سرور يتساءل: "ما قيمة آدمية الإنسان إذا كانت الآدمية نفسها تواجه الإهانة والإذلال؟"

خفض سرور بصره، ووقف، ونظر إلى السيد ماتشالى، وتمنى أن لو انقض عليه وخنقه وأحدث أحد أمرين. إما أن يحرر نفسه من هذه الإهانة والإذلال وإما أن يموت فتكون النهاية للحياة. "فلا قيمة للحياة إذا كانت الحياة نفسها فى عذاب ليس له نهاية وفى إذلال خال من الكرامة التى يستحقها الإنسان!"

ركز عنبر ببصره حينذاك على سرور ليرى كيف ينظر سرور إلى السيد ماتشالى، فرآه ينظر إليه بعين الكراهية والغضب. فاعترى عنبر خوف شديد مخافة أن ينفذ سرور خطته الجهنمية، فيمسك بالسيد ماتشالى على أساس أن يقوم الآخرون بمساعدته

ومؤازرته. وخطر بباله ما يمكن أن يحدث من كارثة عندما يطلق الجنود نيرانهم عشوائيًا على الحشد ليهلك من يهلك بسبب فعلة سرور، وتراق الدماء، ويعم البكاء فى الشوارع.

ازداد خوف عنبر، وكاد قلبه أن ينفطر، وأراد أن يصرخ فى سرور ويقول له "دعك من هذا الهراء"، ولكنه رأى أنه من الأفضل تركه ومراقبته لعله يقوم بضبط النفس، ويرى حقيقة الأمر، وأن تلك البنادق التى يحملها الجنود ليست للدعاية بل لإزهاق روح أى واحد يتجرأ ويجعل من نفسه بطلاً.

وفى تلك الساحة ما كان لدى البعض خبر عما يجرى بشأن غضب سرور من السيد مانتشالى، وبشأن الخوف الذى يعترى عنبر. فالكل مشغول بقص الشعر الأشعث لبعضهم البعض مع اللحى والشوارب بالمقصات والأمواس. وكلما احتدم النشاط فى ذلك كلما زاد فى الجو انتشار الغبار المتراكم فى الشعر الأشعث ليعم أركان الساحة.

لم يطمئن قلب عنبر إلا بعد أن رأى سرور جالسًا هو الآخر ليحلق له خلفان، بعد أن هدأت حميته ورغبته فى امتلاك جناحين ليطير بهما كالطائر ويخرج من ذلك السجن. تم قص الشعر واللحى والشوارب فى ذلك اليوم، ولم يبق فى السجن إلا شخص واحد فقط له شارب، وهو السيد مانتشالى. بعدها دخلوا الحمامات واغتسلوا

وتنظفوا، ثم أوقفهم السيد ماتشالى فى صفوف، ودخل المكتب وخرج بصرة من الملابس وكرتونة من الأحذية الكثيرة، وأمر كل واحد أن يجد مقاسه المناسب ليرتدى بنطلونًا وقميصًا وحذاء. وبعد الانتهاء من هذا أعيدوا إلى زنزاناتهم. دخل الليل وحل الظلام الدامس داخل الزنزانات، فانتابهم خوف من هذا الأمر الذى يصعب معه التكهن بمعرفة مصيرهم وكيف ينتهى بهم المطاف فى هذا.

فحمزة يتذكر جيدًا ذلك اليوم الذى أخرج فيه من الزنزانة لقص شعره وإلباسه الملابس الجميلة، وبعدها يفاجأ بمواجهة العقيد بونجو فى الصباح يوبخه ويسبه ويستعرض عليه عضلاته ويجبره على الاعتراف بالتورط فى الخيانة تحت تهديد السلاح. ولما يرفض يزج به إلى الغرفة الظلماء حتى يتحلل جسده.

كان فى ذلك اليوم وحيدًا، أما اليوم فهو مع حشد جامع فى الزنزانات. وقد أصبحت رؤوسهم خفيفة بعد قص شعرها الذى مثل الشعر لها حملاً ثقيلاً، إلا أنها مثقلة بالفكر العميق والقلق الشديد وغلبتهم على أمرهم، لا يعرفون كيف تنتهى بهم الليلة ويتساءلون عما هو آت.

الفصل الثالث والعشرون

لم يستطع أحد منهم أن يذق طعم النوم طوال الليل وحتى الفجر الصادق. كان الجو فى الخارج هادئًا، يسمعون من على بعد أصوات أولئك الذين يوقظون الناس لصلاة الفجر، والديكة لتى تصيح إيذانًا بقدوم يوم جديد، وبدأ الظلام ينقشع والصبح يتنفس تدريجيًا وينير زنزاناتهم.

ولما سمعوا المؤذن يؤذن قام مفاومى بوعظ زملائه أن يقوموا لتأدية الصلاة ودعاء الله بأن ينقذهم من الشر والبلاء.

كان حمزة على الحصيرة مستلقيًا يغطى نفسه بملاءة من رأسه وحتى أخمص قدميه، وقد بدأ النوم الذى لم يذقه طوال الليل يغلبه لوجود نسمات الفجر العليلة التى حفزت فيه رغبة الاستغراق فى النوم.

أما عيد فإنه كان فى حالة من الحزن والوهن الشديدين منذ أن قابل والده فى الساحة بالأمس، وبأفكاره الصبيانية كان دائم الاشتياق إلى بيته ووالديه.

فحبهما له، والدلال الذى يحظى به من والديه لكونه الابن الوحيد لهما، محروم الآن من كل ذلك، كما أنه محروم من سعادة

اللعب والمرح مع زملائه. وقد فقد مرحلته الصبيانية هذه بشكل مفاجئ عندما وجد نفسه يرى أشياء لا تخص إلا الكبار، ويسمع أشياء لا تليق به لأنها من خصوصيات الكبار.

نهض مفاومي لإقامة الصلاة، وعلى خاصرته ملاءة، وبعد إقامته للصلاة وجد نفسه وحيدًا إمامًا بلا مأمومين. بينما كان حمزة مستغرقًا في نومه، وعيدًا مستغرقًا في أفكاره الصبيانية. انتهى من أداء ركعتي صلاة الفجر، وظل جالسًا في مصلاه يدعو الله في خشوع تام أن ينقذهم وينجيهم من البلاء.

وما كان قد انتهى من دعائه بعد إلا وسمع باب الدخول إلى المعتقل يفتح ويدخل منه طهاة السجن الرئيسي في هدوء مع جرادل الشوربة والفاصوليا. فجلس كل منهم يتابع هذه الحركة الجارية بالخارج لأنه ليس من المعتاد إحضار وجبة الإفطار في مثل هذا الوقت من الفجر وحتى قبيل شروق الشمس.

وفات الوقت ودخل الليل فهدأ روعهم الذى انتابهم بعض الشيء منذ الأمس. والآن تجدد الروع ثانية ولكن بقوة كالنار المشتعلة التي تحرق القلوب وتدمرها بآلامها. في ذلك الغد الذي كانوا ينتظرونه بالأمس أن يأتي قد أتى الآن ولكن دون أن يعرفوا مصيرهم. إنهم في منتهى القلق وفي اكتئاب عميق. والشوربة التي يتلهفون عليها كل صباح لا رغبة لهم فيها ولا شهية لهم فيها الآن حيث يخيم عليهم الخوف والقلق.

أشرقت عليهم شمس اليوم بالشؤم. فمنذ أن زج بهم فى هذا المكان والخوف يطاردهم بصفة دائمة مع تنوع أشكاله، ولكن هذا الخوف الذى يعتريهم اليوم يشعرون معه بوجود أمر ما، وهذا الأمر ليس بالأمر اليسير.

أما فى الخارج فإن السيد ماتشالى كان قد استيقظ من النوم مسرورًا ويغنى بصوت جهورى:

كومبو ياكومبو

هات لى فلوس

فالذى أخرجنى من البيت

هو غيرة ضرتى

وقد انتقلت إلى كيئانجا مسيليمو Kianga Mselemu

ليس من المعتاد أن يفرح السيد ماتشالى لدرجة أن يغنى، ثم إن فرحته قلما تظهر. وإذا كان هناك شىء منحه الله إياه فإن هذا الشىء إنما هى الشقاوة الخالية من السعادة بشكل دائم. قلوب كل من فى الزنزانات تخفق من شدة الخوف الذى انتابهم بينما هو فى حالة من النشاط والسعادة، رأوه كالساحر الذى يفرح لضحيته. إنه يبتهج بالنقمة التى سيواجهونها اليوم، وهم لا يعرفون ماهيتها، ويدعون الله: "نجنا منها يا ألله."

أشرقت الشمس وانتشر ضوؤها الساطع. فتح السيد ماتشالى زنزاناتهم الواحدة تلو الأخرى ليغتسلوا أولاً، ثم صب لكل واحد منهم كوبًا من الشوربة ومغرفة من الفاصوليا الحمراء.

ثم قال لهم: "بعد الانتهاء من تناول الإفطار، ارتدوا ملابسكم."

لم يتلذذ أحد منهم بشرب الشوربة، وإذا كان لطعام السجون أصلاً لذة، فقد أجبروا أنفسهم أن يتجرعوها رغم أنوفهم. ثم قام كل منهم بارتداء ملابسه التى وزعت عليهم بالأمس، وهم منطوون فى زنزاناتهم كأنهم مصابون بالحمى الشديدة. كان فرج ينظر إلى كوندو الجالس فى أقصى ركن الزنزانة فى سكون مرتديًا قميصًا رماديًا وبنطلونًا لبنى اللون، إنها ملابس جديدة، وليست بالممزقة كالتى تعودوا عليها يوميًا. وكان قد حلق رأسه ولحيته بشعرهما المسترسل استرسال شعر الماعز تمامًا. وكان كوندو بدوره ينظر هو الآخر إلى فرج. وهنا قدم كوندو سؤالاً: "إلى أين سيذهبون بنا؟"

"ذاهبون لقتلنا" قال مقامى مستلقيًا على حصيرته فى وسط الزنزانة.

"لقتلنا!" اندهش كوندو.

"إنهم لا يستطيعون قتلنا." قال فرج.

"لا يستطيعون؟ إن هؤلاء الناس بإمكانهم أن يفعلوا أى شيء، فأنتم كنتم فى كومبا كومبا ولا تعرفون هؤلاء الناس، اسألونا نحن، فنحن الذين أقمنا هنا طوال هذه الأيام." قال مقامى.

"نعرفهم جيدًا، لكنهم لا يستطيعون قتلنا." قال فرج.

"لماذا لا نكون واقعيين، فلقد حان الموعد، هذا الموعد هو اليوم، فمهما كان سفرنا طويلاً فاليوم هو نهايته، علينا فقط أن ننتظر، واليوم اليوم سنعرف، إما إنه الموت أو الحياة." قال كوندو.

أما الوضع عند حمزة فكان هو الصمت من الجميع وكأنهم بكم، فلا أحد قد تحدث مع زميله، ولا أحد حرك شفتيه إلا مفاومى بالدعاء.

وهناك حمزة جالس مسندًا ظهره إلى الحائط، رافعًا بصره ينظر إلى السقف، مرتديًا قميصًا بكم وردى اللون وبنطلونًا لونه أزرق داكن، يفكر ويفكر فى اليوم الذى قابل فيه العقيد بونجو فى مكتبه، واستنتج أنه لا يمكن لكل هؤلاء الموجودين فى المعتقل والذين يصل عددهم إلى الخمسين أن يتم اقتيادهم بشكل جماعى إلى مكتب العقيد بونجو.

فهذا اليوم يعتبر لغزًا، الكل يحاول التفكير، وهم فى زنزاناتهم منتظرون مرتدين الملابس الجميلة كالعرسان الذين يزفون إلى بيت الزوجية.

وبعد طول صمت قال عيد بصوته الصبيانى سائلاً: "هل هذا هو يوم الخروج؟"

"إن شاء الله قولك هذا تفاؤل خير" رد عليه مفاومى ناظرًا إليه.

فجأة فتحت بوابة المعتقل وكأن قول عيد أصبح مستجابًا، فقد فتحت البوابة الآن، وليكن ذلك للخروج من هذا المعتقل. إنهم يشعرون أن المدة التى قضوها فيه هى طويلة للغاية، ولعل الساعة هى الساعة التى فكر فيها كل منهم بالخروج وبأن ما دعوا الله به قد تحقق الآن.

سمعوا بالخارج أصوات حركة عالية، من سيارات ودراجات بخارية، ودخول وخروج لأشخاص كثيرين شعروا معها بحالة من الفوضى تسود المعتقل، إضافة إلى الخوف الذى كان لديهم جميعًا فى كل الزنزانات. علموا أن كل التحركات الجارية إنما هى أخذ الاستعدادات لنقلهم إلى مكان ما لقتلهم وليس للإفراج عنهم. فتذمرت قلوبهم واكتأبت نفوسهم متساءلين: "أين العدالة؟"

إنهم يشعرون أنها بعيدة، وقد تم إبعادها بتشييد السور الضخم الذى يعلوه الأسلاك الشائكة وبالزنزانات ذات الأقفال الضخمة، فلن تصل العدالة أبدًا إلى حيث هم موجودون.

نظر كل منهم للآخر نظرة يأس تام أفقدتهم آخر بريق أمل، حيث إن هذه البارقة قد انطفأت تمامًا. وأخذوا يودعون بعضهم البعض الوداع الأخير: "الوداع، الوداع."

عندما فتحت أبواب الزنزانات انفطر قلب كل منهم ورأوا أن هذا هو يومهم حقًا. تم إخراجهم من الزنزانات وإيقافهم فى صف واحد وكأنهم قادمون على تدريب عسكرى. كان خلفان ترتعد فرائصه وكأن شللاً أصابه، فلا يقوى على الوقوف جيدًا فى هذا الطابور المصفوف.

أما عنبر فكان يتصبب عرقًا يتساقط من على وجهه ويبلل قميصه.

أما سرور فكان قد حلق شعره كله، وأصبحت رأسه وخاصة منطقة الصلع عنده تلمع وتغطيها بقاع العرق. أما مقاومى فكان واقفًا خلف فرج ويقوم بدفعه دفعًا خفيفًا ويهمس له: "الدعاء، الدعاء."

أما حمزة فكان واقفًا فى ثبات، رافعًا رأسه إلى أعلى، مغمضًا عينيه، ويفكر ويتساءل: "إلى أين هذه الرحلة؟" فلم يجد جوابًا.

بدأ إخراجهم فردًا فردًا، وكل من يصل منهم عند الباب يقابله جندى من وحدات مكافحة الشغب واقفًا معه مجموعة من الكلبشات وذلك قبل الخروج، فتم تقييدهم جميعًا واقتيادهم إلى حافلة كبيرة

كانت فى انتظارهم بالخارج. وعلى ظهر الحافلة وقف ستة جنود من مكافحة الشغب، ثلاثة فى الأمام وثلاثة فى الخلف، ومع كل منهم بندقيته.

اكتظوا داخل الحافلة التى بدأت التحرك فى موكب طويل يتقدمه ثمان دراجات بخارية ومعها عربة من طراز لاندروفر تطلق صفارة الإنذار مع ومضاتها الحمراء طوال الطريق.

ومعها فى مقدمة الركب ست عربات مكشوفة محملة بجنود مكافحة الشغب، وكلهم يحملون بنادقهم المصوبة صوب الحافلة التى تقل الخونة، وفى مؤخرة الركب ست عربات أخرى محملة بالجنود المصوبين بنادقهم نحو الحافلة.

وكل هذه العربات استخدمت إضاءاتها العالية والمبهرة إعلامًا بحالة الطوارئ.

كان الركب يتحرك بسرعة جنونية، وكانت الشوارع خالية تمامًا، وعند ملاعب الجولف صعدوا إلى ميفينجينى بسرعة جنونية وكأنهم فى سباق للوصول إلى آخر نقطة جغرافية فى الدنيا، ومروا بمستشفى لينين بجلبة تساءل معها من فى المستشفى: "ماذا يجرى؟"

أصيبوا بحيرة وذهول لقرب المستشفى من مقر الرئاسة. فظنوا أن هناك مصيبة أخرى وقعت. وأمام مبنى دار القضاء العالى

الزنجبارى توقف الركب. والمبنى يمتد حتى نهاية الشارع، فنزل كل الجنود المرافقين للركب وانتشروا فى المنطقة كلها، وأغلقوا جميع الطرق المؤدية للمحكمة دخولاً وخروجًا.

تم إنزال الخونة من الحافلة تحت تصويب فوهات البنادق إليهم، وعندها أدركوا أن عهد السياط قد ولى، وأن عهد المثول أمام المحكمة قد حان.

الفصل الرابع والعشرون

تابع كل الناس عن كثب قضية الخونة، لأن الناس ظلوا يتقولون الأكاذيب والافتراءات عن القضية لفترة طويلة. فلم يتعاطف أحد مع هؤلاء الخونة إلا الأهلون والأقرباء. تنبأ الكثيرون لهم حتى قبل أن تصدر المحكمة حكمها بأن الحكم سيكون بإعدامهم جميعًا. ولم يتوقعوا أن يستثنى أحد من هذا الحكم، حيث سيق الناس بوسائل الإعلام إلى كراهيتهم فامتلأت قلوبهم بكراهيتهم، واعتبروا أى إشارة للتعاطف معهم إنما هى خيانة عظمى.

لم يتمكن أولئك الذين كانوا يرغبون حضور جلسة المحكمة من الدخول، بل انتهى بهم المطاف إلى خارج مبنى المحكمة لأن قاعة المحكمة ما كانت لتسع كل من يرغب مشاهدة القضية مشاهدة عيانية، فتكدست الجموع خارج مبنى المحكمة.

المتهمون أنفسهم شغلوا نصف القاعة وقد خصصت لهم خمسة صفوف من المقاعد. ولقد وصلوا إلى المحكمة فى حافلة كبيرة تابعة للشرطة تحت حراسة مشددة لم يسبق لها مثيل من قبل جنود مدججين بالبنادق والقنابل المسيلة للدموع على خواصرهم مستعدين لمواجهة أى موقف. وكان أول من دخل القاعة هم المتهمون مكبلين بالسلاسل.

لما وصلوا إلى قاعة المحكمة هدأ روعهم وارتاحت قلوبهم وزال قلقهم وتبخر خوفهم وشكروا الله أنهم الآن أمام العدالة.

وحيثما جلسوا وجدوا أمامهم منصة مرتفعة عليها طاولة كبيرة من شجر الساج وثلاثة كراسى كبيرة خلف الطاولة مع كرسى صغير بجانبها. وفى جهتهم اليمنى صفان من المقاعد وفى جهتهم اليسرى قفص الاتهام. وتتدلى من السقف أربع مراوح تدور بسرعة لتلطيف الحرارة الشديدة داخل القاعة. وضباط الجيش والشرطة وجبابرة معتقل التعذيب يدخلون الواحد تلو الآخر، ويجلسون على المقاعد حتى اكتمل كل من الصفين.

دخل المدعى الحكومى تشوبرا Chopra القاعة وحده حاملاً الملفات تحت إبطه، وجلس على الكرسى القريب من قفص الاتهام. إنه رجل القانون الموهوب الذى يدير أعماله القانونية ببراعة كبيرة.

وبسبب هذه البراعة كان موضع الثقة من كل الفرقاء الثلاثة الذين حكموا زنجبار.

ففى عهد الملكة إليزابيث الثانية ائتمنه الحكام الإنجليز ائتمانًا كبيرًا، وكان يضرب بولائه لهم المثل.

وعندما تمكن السلطان وأنصاره من الإطاحة بحكومة إليزابيث الثانية، ائتمنوه هم الآخرون، وجعلوه كبير المستشارين للشئون

القانونية. وهو كالحرباءة يتلون سريعًا، فأصبح رجلاً قانونيًا مخلصًا لحكم السلطان والموالين له.

ولما انتفض الفلاحون والعاملون فى قطاع جوز الهند وقاموا بسيوفهم وفؤوسهم بطرد السلطان، وتولى الزعيم السلطة فى البلاد لم يجد أمامه رجلاً قانونيًا موهوبًا أكثر من تشوبرا هذا فجعله المدعى العام لحكومته، وائتمنه على سن القوانين للبلاد كما يشاء. فتحلل تشوبرا فجأة من تاريخه القديم وأصبح مدافعًا للفلاحين والعاملين بقطاع جوز الهند دفاعًا لا يفوقه أحد فيه.

ولذلك فإنه بالإضافة إلى ما يمتلكه من موهبة عجيبة فى أعماله القانونية فإنه امتلك كذلك موهبة عجيبة فى القدرة على تغيير سلوكياته وميوله للدفاع عن مصالحه. وأصبح نجمًا فى التملق والتألق ويجيدهما.

كان رجلاً قصير القامة، يرتدى بدلة أنيقة، لونها بنى، ورابطة عنق حمراء اللون، وجهه رفيع بأنف طويل، يمتد بشكل مستقيم بين عينيه، شعره أسود مسترسل، له فلقة على الجهة اليسرى منه، عيناه صغيرتان تبدو منهما صفة المكر بوضوح.

وضع ملفاته على مسند خشبى أمامه وقد أعد بياناته المفصلة لإدانة المتهمين، منتظرًا دوره ليحكى قصصهم ومؤامراتهم. كان

مصممًا على إهلاكهم، ناظرًا إليهم من مجلسه بعين الكراهية، مبديًا غضبه لأعداء الزعيم.

وفى تمام الساعة العاشرة دخل كاتب المحكمة حاملاً رزمة من الأوراق تحت إبطه. دخل من خلال باب المنصة. وبعد أن جلس على كرسيه بجوار المنضدة الكبيرة انهمك فى تصفح الأوراق أمامه، ولم يرغب فى النظر إلى أحد، وهو متخصص أصلاً فى تسلق أشجار جوز الهند وإسقاط ثمارها.

هذه القضية ليست جديدة بالنسبة له، فقد سبق له أن أشرف على جزء منها يوم مثول حراميا ورفقائه للمحاكمة، وتم إرعاب الجميع وانتزعوا منهم اعترافاتهم. وها هو اليوم فى انتظار حمزة ورفقائه الجالسين أمامه ينظر إليهم نظرات خاطفة.

لقد امتلأت القاعة عن آخرها، ولم يعد فيها موضع قدم، وفى خارجها يدفع الجنود بالناس بعيدًا عن باب الدخول، أولئك الناس المتزاحمون الذين يريدون الدخول عنوة داخل القاعة، وفى مقدمتهم خديجة متزعمة مجموعة كبيرة من النساء يتدافعن مع الجنود ويصرخن: "أفسحوا لنا الطريق لنرى أزواجنا". لم تتمكن إحداهن من اختراق الدرع البشرى للجنود المتكدسين الغاضبين المتوجمين الذين اعتبروا زوجات الخائنين خائنات.

اختفى هدوء قاعة المحكمة بعض الشيء عندما دخل جنديان لفك قيود المتهمين، بعدها عاد الهدوء مجددًا حين دخل ثلاثة قضاة من الباب الخلفى إلى المنصة، فوقف كل من بالقاعة احترامًا.

جلس القضاة الثلاثة على الكراسى الكبيرة، وعلى الجانب الأيمن للمتهمين جلس باندو Pandu. وهو إنسان لم يلتحق بالتعليم قط، فهو أمي جاهل يبيع السمك فى سوق هاجيتومبو Hajitumbo. يرتدى معطفًا أزرق فوق جلبابه المطرز الجميل، وطاقية مطرزة تطريزًا يدويًا مستقيمة فوق رأسه كالبرج.

وعلى الجانب الأيسر للمتهمين جلس جونجو Jongo المشهور ببيع اللبن على دراجة يسير بها سريعًا فى شبابه، فكان طوال اليوم يدور فى أزقة الأحياء بدراجته حاملاً قسط اللبن خلفه على الدراجة. وكان لجرس الدراجة رنين خاص به، عندما يسمعه الناس يعلمون بوصوله إلى الحى، كان يرتدى معطفًا أبيض اللون وجلبابًا مطرزًا وطاقية مطرزة تطريزًا يدويًا كبسها حتى وصلت إلى أذنيه، ناظرًا إلى المتهمين بعين الانتقام وكأنه يقول لهم: "سوف تتأدبون"

كان مصدق Musadiq جالسًا على الكرسى الأوسط، ويبدو جليًا أنه رئيس طاقم القضاة. وهو مدرس فى المدرسة الإسلامية يدرس فيها القرآن نهارًا، وله حلقة دراسية فى الليل. عالم فى العلوم

الدينية ويحفظ الشريعة الإسلامية جيدًا، ويحفظ القرآن عن ظهر قلب ويجيد تفسيره.

مصدق يرتدى معطفًا أخضر اللون زيتيًا وجلبابًا شفافًا مطرزًا بخيوط حريرية، وطاقية مطرزة تطريزًا يدويًا مائلة من أعلاها. ممتلئ البنية، وجهه عريض، خداه منتفخان.

كانت أعمارهم متقاربة، تتروح فيما بين الخامسة والخمسين والستين. والزعيم نفسه هو الذى منحهم وظيفة القضاء عندما قام بحل كل المحاكم التى يرأسها قضاة يرتدون العباءات والشعر المستعار، وألغى النظام المتبع فى المحاكم الخاصة بما فيها من محامين ذوى معطف أسود ورابطة عنق، ولقد أطلق حينها على القضاة والمحامين التابعين لهذه المحاكم اسم المحتالين المتخصصين فى قلب الحقيقة لتكون كذبًا، وليكون الكذب حقيقة. وقام بإنشاء محاكم خاصة تتبعه وسماها محاكم الشعب، وعين بنفسه القضاة لهذه المحاكم. وهؤلاء الثلاثة الموجودون بالقاعة هم من هؤلاء: بائع سمك، وبائع لبن، ومدرس فى مدرسة إسلامية. هؤلاء الذين يحكمون فى قضية الخونة الذين اغتالوا الزعيم، ذلك الزعيم الذى أحسن إلى هؤلاء القضاة بإخراجهم من سوق السمك واللبن ومن خشونة حصائر المدرسة الإسلامية وأجلسهم على هذه الكراسى الفخمة ومنحهم صلاحية إصدار ما يشاءون من أحكام فى أى قضية كانت.

كاتب المحكمة وأمامه رزمة من الأوراق جمعها وينظر فيها بتركيز، وقاعة المحكمة الممتلئة عن آخرها فى صمت، والكل فى انتظار الكاتب يتلو مذكرة الاتهام.

وها هو يتلوها: "القضية الجنائية رقم ٢٢٥، كل المتهمين الموجودين أمام هذه المحكمة: موجه إليكم تهمة الخيانة المتعلقة بمحاولة الإطاحة بالحكومة والتى أدت إلى مقتل السيد الزعيم" انتهى الكاتب من تلاوة المذكرة.

"كذب! نفاق! افتراء!" دبت الفوضى والضوضاء من جانب المتهمين.

"سكوت" أمرهم باندو بوجه عابس "أين أنتم فيما تظنون؟" سألهم.

"انتظروا، فإنه سينادى عليكم فردًا فردًا، فمن ينكر ينكر عن نفسه، ومن يعترف يعترف عن نفسه" أخبرهم مصدق بهدوء.

"لا أحد يعترف" قالها سرور فجأة.

"انتظر حتى يأتى دورك. إذا أنكرت فأنكر عن نفسك" هدأ مصدق من انفعال سرور.

عندئذ أمسك الكاتب بقائمة طويلة من الأسماء تحوى خمسين اسمًا، وذكر اسمًا اسمًا. وكل من ذكر اسمه جاءت إجابته "أنكر" وبعضهم أضاف كلمة مؤكدة قائلاً "أنكر بشدة"

وبعد أن انتهى الكاتب من قائمته وأنكر الجميع التهمة، جا دور تشوبرا. فقام فى خيلاء وشد رابطة عنقه جيدًا، وانحنى قليلاً كأنه على وشك أن يركع احترامًا للقضاة، ناظرًا إليهم. وبدأ يدلى ببياناته.

"السادة القضاة، بالاحترام الشديد الذى أكنه لكم أود أن أقدم إلى حضراتكم دعوى الحكومة ضد أولئك الأشخاص الجالسين أمامكم" وأشار بإصبعه إلى حيث يجلس المتهمون، والتفت ونظر إليهم بكبرياء.

"السادة القضاة، إن بلدنا لم يسبق أن شاهد حدثًا وحشيًا وحيوانيًا وبربريًا كالحدث الذى ارتكبه هؤلاء الأشخاص الجالسون أمامكم" واستطرد تشوبرا قائلاً: "إن الفعلة التى ارتكبها هؤلاء الأشخاص لا يمكن على الإطلاق نسيانها فى تاريخ بلدنا. وإذا كان الكثير من الإنجازات الطيبة والمفيدة لا تنسى فى تاريخ أى بلد فإن هذه الفعلة التى ارتكبها هؤلاء الأشخاص لا تنسى بسبب بشاعتها، ولا يوجد أحد يجهل أن الشعب فى هذا البلد عاش مضطهدًا ومظلومًا لمدة طويلة، ولكنه اليوم وبفضل جهود وشجاعة الزعيم يحيا المواطن مرفوع الرأس حرًا فى بلده. ثم يأتى أولئك المفسدون ويقضون على حياة هذا الزعيم وهو فى كفاح لبناء حياة كريمة لكل فرد من أفراد هذا البلد"

وأخذ يشرح تشوبرا كيف تم وضع خطة هذه المؤامرة وكيف تم تنفيذها، وذكر المتورطين واحدًا واحدًا والمهام المنوطة بكل منهم فى المراحل المختلفة لتنفيذ مؤامرة الخيانة.

كان يتحدث بحماس، وكلما واصل الحديث كلما ازداد انفعاله، وارتفع صوته الذى عصف بالقاعة كلها. ثم توقف قليلاً ليجفف عرقه بمنديل أخرجه من جيبه، واستمر قائلاً: "السادة القضاة: كل هؤلاء المتهمين الموجودين هنا لا يؤمنون بالله ولا دين لهم، وكل هدفهم أن يجعلوا أبناء هذا البلد بلا دين مثلهم. فهم يريدون إقامة حكم وثنى ودولة بلا مساجد ولا كنائس. إنهم يؤمنون بأن الدين تعصب. السادة القضاة: إن الله قد أنقذنا مما يؤمنون به."

خيم الهدوء على كل من فى القاعة منصتين إلى تشوبرا الذى يتمتع بلباقة وكياسة تجعلك تستمع إليه شئت أم أبيت.

توقف تشوبرا قليلاً وابتلع ريقه، ثم التفت إلى حيث يجلس المتهون، ثم نظر إلى القضاة، واستمر فى الإدلاء ببيانه قائلاً:

"السادة القضاة: إن أية عقوبة ستوقع على هؤلاء المشئومين لا تساوى شىء مقارنة بالخسائر التى جلبوها لهذا البلد. فكلهم يستحقون عقوبة الإعدام. ليس هذا فحسب وإنما يجب أن يكون الإعدام عن طريق الزج بهم فى طائرة مروحية تطير بهم حتى وسط البحر ثم يتم إسقاطهم فردًا فردًا وإغراقهم."

تنهد تشوبرا وتنفس مرهقًا، وأخرج منديلاً ثانية ليمسح وجهه. ثم استمر فى الإدلاء ببيانه ولكن بصوت خاشع هذه المرة:

"السادة القضاة: أتوسل إلى حضراتكم أن تستمعوا إلى هذه القضية آخذين فى الحسبان الحقيقة التى قدمتها لسيادتكم من خلال بيانى هذا. وعندى ثمانية وخمسون شاهدًا أدعوهم أمام محكمتكم الموقرة للتأكد من صحة بيانى هذا. السادة القضاة: إن الرأفة هى لمن يستحقها، والله يعاقب المخلوق الذى خلقه بنفسه عقابًا شديدًا إذا أخطأ هذا المخلوق فى حق الله، وهؤلاء الموجودون هنا أخطأوا فى حق الله وفى حق هذا البلد وفى حق هذا الشعب. وإذا كان الله يعاقب أمثال هؤلاء عقابًا شديدًا فإن أمركم بتوقيع عقوبة عليهم يكون لكم ثوابًا"

وانتهى تشوبرا من إدلاء بيانه، وجمع أوراقه فى يده، وجلس.

وكان باندو طوال فترة إدلاء تشوبرا ببيانه التابع للنيابة يهز رأسه وكأنه يؤيد ويؤكد صحة ما جاء به فى البيان.

أما جونجو فكان واضعًا خده على يده شارد الذهن أحيانًا ومركزًا أحيانًا أخرى فيما يقوله تشوبرا، ولكن سرعان ما كانت تأخذه سنة من النوم، يتنبه بعدها فجأة ليواصل الاستماع إلى تشوبرا ثانية.

أما مصدق فكان مركزًا بعينيه على تشوبرا دون أن يغمض له طرف، ينظر إليه كيف يتحدث بحماس وانفعال لإبداء مشاعره

الغاضبة المتألمة بسبب هذه الفعلة الشنعاء التى ارتكبها هؤلاء المتهمون. أظهر تشوبرا كل مشاعر الكراهية والأسى ولم يبق إلا الدموع أمام كل الحضور فى المحكمة.

استغرق تشوبرا ساعتين فى إلقاء كلمته أمام الحشد الغفير. ولقد انهار كل المتهمين منذهلين ومندهشين لأن ما أدلى به تشوبرا لم يسمعوا به قط، وخاصة عقوبة التغطيس فى البحر للإغراق من المروحيات فدعوا عليه قائلين: "لعن الله هذا الهندى" ولكن لعنتهم هذه لا تصل إلى أى مكان إذ إنها مثل أن تلعن دجاجة صقرًا.

نظر القضاة إلى بعضهم البعض، وتشاوروا، فأجلوا القضية لمدة أسبوع. ثم كبل المتهمون لإخراجهم. ولما خرجوا وجدوا حراسة أمنية مشددة فى انتظارهم. كان الناس محتشدين فى آخر الشارع وممنوعين من الاقتراب من المتهمين. فكانوا يتدافعون مع الجنود لأن كل أسرة لها متهم كانت ترغب فى مجرد رؤيته للتأكد من أنه مازال على قيد الحياة.

فزادت حدة الفوضى فى ذلك الوقت خاصة وأن تلاميذ المدارس حينذاك كانوا خارجين من مدارسهم ومحتشدين فى الشوارع يريدون رؤية الخونة، ليس للتعاطف معهم ولكن للهتاف ضدهم بأغنية: "هؤلاء هؤلاء، ابن الثعبان هو الثعبان"

اكتظت الحافلة بالمتهمين مكبلين ومعهم ستة جنود ببنادقهم المجهزة، وجوههم عابسة، وقلوبهم تمتلئ بغضًا، وتحركت الحافلة يتقدمها عربة بصفارة الإنذار مع دراجات بخارية لم تتوقف حتى معتقل التعذيب.

وفى اليوم التالى تم نشر صحيفة الدعوى التى أدلى بها بالصحف فى كل أنحاء البلاد، وعن طريق الإذاعة والتلفاز على مدرا اليوم. وكلها تحمل عناوين مثيرة بأن قضية الخيانة قد بدأت.

الفصل الخامس والعشرون

في تمام الثامنة صباحًا فتحت بوابة المحكمة العليا، وهناك في نهاية الشارع احتشدت الحشود من الناس متكدسين يمنعهم الجنود الواقفون ببنادقهم من أن يقتربوا من باب الدخول إلى قاعة المحكمة. وكانت زوجات المتهمين قد تقدمن بشكوى إلى مديرى الأمن فوعدوهن بالسماح لهم بالدخول إلى قاعة المحكمة هذه المرة لرؤية أزواجهن على الأقل. ولذلك وصلن إلى المحكمة فجرًا. ولكن عندما وصلن وجدن جنودًا متقدمين في السن قد أغلقوا الطريق، وليس لأحد أن يدخل أو يخرج، فأخذن في الصراخ والتذمر قائلات:

"لقد وعدنا، لقد وعدنا" ولكن لم ينتبه لهن أحد.

وصل ركب المتهمين في زخم ورعب، فقفز الجنود من داخل العربات المرافقة وفي أيديهم بنادقهم وانتشروا في المنطقة كأنهم على أهبة اقتحام لموقع من مواقع العدو.

كانت حراسة اليوم أشد من سابقتها لأنها علاوة على حراسة المتهمين فإن عليها أيضًا أن تشدد الحراسة تشديدًا خاصًا على الشاهد الأول لتشوبرا لأهميته. لذلك يجب أن تكون الحراسة عليه أكثر دقة وتخويفًا.

أخذت الزوجات اللائى منعهن الجنود من الدخول فى التلويح لأزواجهن من مكان وقوفهن على أمل أن يروهن أزواجهن، ولكن لم يجرؤ أحد من الأزواج على مجرد الالتفات إليهن بعد نزولهم من الحافلة بسبب غلظة الجنود، وكانوا أول من دخلوا إلى قاعة المحكمة مثلما حدث لهم فى المرة الأولى.

لما دخل القضاة كانت القاعة قد امتلأت عن آخرها بضباط الجيش والشرطة وجبابرة معتقل التعذيب جالسين على المقاعد. وكان تشوبرا هو الآخر جالسًا على كرسيه يتفحص الملفات، والجو يسوده الهدوء، وكل المتهمين ينظرون إلى تشوبرا بقلق لعدم علمهم بماهية البلاء المميت الذى سيأتيهم به اليوم!

وفجأة جاء صوت كاتب المحكمة مدويًا داخل القاعة:

"القضية الجنائية رقم ٢٢٥" ثم سكت. عندها رفع مصدق الذى كان منهمكًا فى قراءة ما أمامه من أوراق رأسه ونظر إلى تشوبرا وقال له: "يمكنك أيها المدعى العام أن تكمل بيانك"

نهض تشوبرا وأحكم رابطة عنقه ناظرًا هنا وهناك وقال: "السادة القضاة: لقد أدليت بكل ما عندى من بيانات فى الأسبوع الماضى، وقلت فيها واعدًا أننى سأحضر أمام محكمتكم الموقرة ثمانية وخمسين شاهدًا ليشهدوا بصحة بياناتى" ثم توقف ونظر إلى المتهمين الذين كانوا بدورهم ينظرون إليه وقال: "اليوم أحضر لكم شاهدى الأول وهو مقدم بكارى"

تم إحضار مقدم إلى قاعة المحكمة والجميع ينظر إليه وقد اقتاده جنديان يرافقانه من الخارج واصطحباه إلى قفص الاتهام. وقف في القفص مطأطئ الرأس لا يستطيع النظر إلى الناس المحتشدين داخل القاعة. وعلى الرغم من أنه كان يبدو نحيفًا فإن حالته لا تقول أنه خرج من مكان كئيب. كان يرتدى ملابس جميلة: قميصًا مزركشًا خارجيًا وبنطلونًا أسود، كان في غاية الهدوء داخل القفص، وترتسم على وجهه علامات الحياء المفرط.

وقف كاتب المحكمة وأعطى لمقدم مصحفًا صغيرًا في يده اليمنى وجعله يحلف: "أقسم أن ما سأقوله هو الحق والحق الخالص، ولا شيء إلا الحق"

فردد مقدم كلمات القسم. ثم نهض تشوبرا وتحرك حتى وصل أسفل القفص ووقف هناك ينظر إلى مقدم.

"ما اسمك؟" سأله تشوبرا بهدوء.

"مقدم" أجابه.

"مقدم من؟"

"مقدم بكارى"

"مقدم بكارى" ناداه تشوبرا، ونظر إلى عينيه دون أن يغمض طرفًا وقال: "إن الأسئلة التى سأسألك إياها تتعلق بالأمور التى حدثت من عهد قريب، لذلك يجب عليك أن تفكر بتؤدة قبل أن تجيب عليها."

"سأفعل ذلك" أجابه مقدم.

"حسنًا" هنأه تشوبرا واستطرد قائلاً:

"أريد أن تسترجع ذاكرتك إلى الوراء بعام تقريبًا حيث اليوم الذى تم فيه اغتيال الزعيم."

"حسنًا." أجاب مقدم.

"أين كنت فى ذلك اليوم وفى الساعة الرابعة مساءً؟"

"كنت فى بيتى."

"ماذا كنت تفعل فى بيتك؟"

"كنت أنتظر شخصًا ما."

"من هو؟"

"مباكانى"

"لم كنت تنتظره؟"

"كان سيأتى ليخبرنى بأمر مهم للغاية."

"ما هو هذا الخبر؟"

"عن خطتنا للإطاحة بحكومة الزعيم"

من هنا بدأ تشوبرا يطارد مقدم ويلاحقه بأسئلة عن هذه الخطة بشأن الإطاحة بحكومة الزعيم وأصبح مقدم يجيب مباشرة وبلا تردد. شرح كيف بدأت هذه الخطة فى الإعداد لها من قبل كوبوالاؤ Kubwalao فى درا السلام، وكيف أنه تورط في هذه المؤامرة، وذكر المسئولين عن تنفيذ هذه المؤامرة واحدًا واحدًا، وأخذ يتحدث بشكل ثرثارى كالمسحور، مع ذكره لأسماء أولئك الجالسين هناك من المتهمين بالخيانة، فرأوا أن فى ذلك نهايتهم، وأن مقدم قد أوردهم مورد الهلاك. إنهم لا يصدقون، لا يصدقون على الإطلاق أن شخصًا مثل مقدم يمكن أن يتحدث بهذا الشكل.

كان تشوبرا فى حراك فى مكانه الواقف فيه يلاحقه عرق بسيط كما يلاحق مقدم بالأسئلة:

"أجل، هل يمكنك أن تشرح للمحكمة عن مؤامرتكم خطوة خطوة."

أخذ مقدم يشرح كيف دبروا كيفية إلقاء القبض على الزعيم، وأخذه إلى محطة الإذاعة وإجباره على أن يعلن استقالته. ثم ذكر

الذين كلفوا بهذه المهمة، وهم حاضرون بين المتهمين الذى كانوا يلعنونه سرًا قائلين: "كذاب! منافق! اللهم خذه بالجذام"

كان اليوم كله يومًا لتشوبرا يستجوب مقدم كمنكر ونكير يستجوبان الميت فى لحده. وبعد أن انتهى من استجوابه أجلت القضية لليوم التالى. فانصرف المتهمون فى حالة من الانهيار إذ إن الأمر أدهى وأمر.

استمرت القضية يومًا بعد يوم، وشهود تشوبرا يصعدون ويهبطون من القفص. ولما نزل مقدم صعد بواتشا، ولما نزل بواتشا صعد كوتشى، ولما نزل كوتشى صعد مرزوق. ولما نزل مرزوق صعد حراميا. ولما نزل حراميا صعد فينجوشو. ولما نزل فينجوشو صعد زاريكانى. ولما نزل زاريكانى صعد مباكانى. ولما نزل مباكانى صعد سومبو، وانتهت به الجولة.

كل واحد من هؤلاء الشهود التسعة شرح تفصيليًا مالديهم، ولما انتهوا اتضحت الصورة الكاملة للمؤامرة من الألف للياء.

ولما أتيحت الفرصة لاستجواب المتهمين قاموا بإظهار كذب الشهود عليهم وفضحوهم. ولكن الشهود بوقاحتهم وبلا استحياء قالوا لهم: "إنها مؤامرتنا جميعًا، شئتم أم أبيتم." ففرح تشوبرا بهذا القول والأداء الجميل الذى قام به الشهود.

وبذلك أصبحت قضية الخيانة هى الموضوع الرئيسى لنشرات الأخبار، والمحادثات بين الناس ليلاً حيث يجتمعون حول شاشات التلفزة لمشاهدة تشوبرا، وكيف أنه مغرور فى المحكمة وكيف أن الخائنين مكتئبون محاولين دحض الشهادة ضدهم.

وقد وعد تشوبرا المحكمة بأنه سيأتى بالثمانية والخمسين شاهدًا الواحد تلو الآخر، وأن الشهود الذين يأتون الآن هم عبارة عن همزة الوصل التى تربط الحوادث ببعضها. وأن من بين هؤلاء الشهود جنود جيش وشرطة ومسئولو أمن ومواطنون عاديون وكذلك الطبيب الذى قام بفحص جثة الزعيم وأثبت وفاته للإدلاء بشهادته.

كان كل شاهد صعد إلى القفص يزيد من تأييد وتأكيد صحة دعوى تشوبرا، ولم يجرؤ أحد منهم على الإدلاء بأية بيانات تخالف تشوبرا. وكانت أجهزة الدولة تتابع عن كثب كل ما يقال داخل أو خارج المحكمة. أما الذين يحملون فى صدورهم الشك فيما يقال داخل المحكمة فإن شكهم ظل سرًا لهم وحدهم يحملونه فى صدورهم.

أحضر تشوبرا كل الشهود الثمانية والخمسين، واستجوبهم كما يشاء، وأتيحت فرصة للمتهمين لاستجواب الشهود، وكلما استجوبوهم كلما ازداد الوضع سوءًا. ولما انتهى تشوبرا من استجواب الشهود التابعين له قدم أمام المحكمة دلائل حية تؤيد شهادته، فقدم البنادق

التى استخدمت يوم الاغتيال، والبنادق التى سرقت من مخزن الأسلحة، والمسدسات التى كانت فى حوزة القتلة.

ولما انتهى من استجواب شهوده وتقديم كل الدلائل كانت القضية قد اكتمل شهرها السادس. وأصبحت الشهادة ضد المتهمين عندئذ واضحة، وكل متهم فيهم يعرف كيف تم توريطه فى الخيانة، فلم يكن الشهود الرئيسيون فى القضية أشخاصًا غرباء وإنما زملاءهم المقربون. وكان من المفترض أن يكون هؤلاء الشهود متهمين مثلهم، ولكنهم الآن انقلبوا عليهم، وكل من استمع إليهم لم يشك فى صحة ما نطقوا به.

انتهى عندئذ وقت الظن والتخمين لأن كل شىء أصبح واضحًا جليًا، لم يتكتم هؤلاء الشهود الذين أحضرهم تشوبرا على شىء، بل قالوا كل شىء تفصيليًا وبوضوح أمام الحضور المتكدسين أمام المحكمة.

لما كانت القضية فى شهرها السابع استمعت المحكمة إلى تقارير المتهمين، فتم تقديم رزمة كبيرة من الملفات أمام المحكمة وقامت النيابة بإحضار شخص معين من كبار ضباط الشرطة تكون مهمته قراءة هذه التقارير.

كان القضاة الثلاثة الجالسون على المنصة كالتماثيل، لا يتكلمون ولا يبتسمون ولا يتوجمون، بل يشخصون ويندهشون كلما

قام تشوبرا بالضغط على الشاهد ومحاصرته بالأسئلة حتى ينتزع منه ما يريده هو. فما كانوا متعودين على مجرد الجلوس والاستماع إلى أناس آخرين يتحدثون. كان باندو متعود على التصارخ والتشاتم مع الناس فى سوق السمك.

أما جونجو فكان متعودًا على التجول بدراجته هنا وهناك فى أيام بيعه للبن، فما كان متعودًا على مجرد الجلوس طوال النهار على كرسى. أما مصدق فكان متعودًا على تجميع الناس والتدريس لهم أى أنه يتحدث وهم يستمعون. لم يتعود على مجرد الجلوس كمستمع بدلاً من كونه متحدثًا. كان جلوسهم هنالك طوال النهار كمستمعين بمثابة المهانة والأذى لهم، إلا أنهم جلسوا واستمعوا.

كان هرم الملفات ماثلاً أمامه وبسبب ارتفاعه لم يستطع حتى القضاة رؤيته جيدًا وهو جالس، وكانت منضدته تتوسط القضاة والمتهمين. كان المتهمون ينظرون إلى هذا الهرم من الملفات بخوف كبير لمعرفتهم بخطورة محتوياتها.

ومنذ اليوم الذى بدأت فيه قضية الخونة وقاعة المحكمة مكتظة بالحضور، وحتى خارج المحكمة يحتشد الناس.

أما اليوم فإن قاعة المحكمة لم تتسع حتى للمصرح لهم بالدخول فتكدسوا عند الباب. والقضاة جالسون فى زهو ينتظرون تشوبرا أن

يقدم كل ما لديه للقضية. أما المتهمون فكانوا فى حالة من الارتباك الشديد لأنهم سمعوا الشهادات التى أدلى بها شهود تشوبرا فى القفص، والآن فى انتظار ما قالوه هم أنفسهم مسجلاً فى تلك الملفات.

ذكر كاتب المحكمة رقم القضية كعادته: "القضية الجنائية رقم ٢٢٥"

فنهض تشوبرا وشد رابطة عنقه ونظر هنا وهناك. نظر أولاً إلى المتهمين باستهزاء، ثم التفت إلى القضاة وقال: "السادة القضاة: إننى قد قمت بتقديم الثمانية والخمسين شاهدًا إلى محكمتكم الموقرة كما وعدتكم، كما قمت بتقديم كل الأدلة المطلوبة أمام محكمتكم الموقرة."

توقف تشوبراء وسلك زوره قليلاً معتذرًا "اعذرونى" ثم واصل تقديم بياناته وكل من فى القاعة يستمع إليه: "اليوم يا أيها السادة أود أن أقدم إلى محكمتكم الموقرة تصريحات المتهمين التى أدلوا بها بأنفسهم وبإرادتهم." فصاح المتهمون معًا صيحة دوت فى المحكمة كلها قائلين: "لم نصرح بها بإرادتنا"

"اسكتوا" وبخهمباندو وأضاف: "هل تظنون أنكم هنا فى سوق؟"

"اصبروا" هدأهم مصدق بهدوء. "ستتاح لكم الفرصة للدفاع عن أنفسكم" قالها وسكت. وكعادتهم فإن الثلاثة ظلوا ساكتين.

"السادة القضاة. سأكرر ثانية ما قلته" قال تشوبرا ثم التفت إلى المتهمين، ثم نظر إلى القضاة وقال: "إنى أريد أن أقدم إلى محكمتكم الموقرة تصريحات المتهمين التى صرحوا بها هم بأنفسهم بمحض إرادتهم."

"ياللعار!" قال سرور، ولكنه وحده هذه المرة. أما بقية المتهمين فإنهم أبدوا استياءهم بإصدار الأصوات. فنظر كل من كانوا داخل القاعة إلى سرور، ونظر تشوبرا أيضًا إليه بعين الغضب.

"السادة القضاة!" استمر تشوبرا مع هدوء يسود المحكمة عندئذ. "هذه التصريحات الصادرة عن المتهمين تثبت بطريقة مباشرة صحة الشهادة التى قمت بتقديمها إلى حضراتكم. وتبين بطريقة واضحة كيف تآمر المتهمون بهدف تدمير هذا البلد وإيقاعه فى كارثة وفاجعة كبيرة. إن تصريحاتهم المنسوبة إليهم تثبت صحة أقوالى، وأنه إذا كان هناك من يستحق الرأفة فإن هؤلاء الناس الجالسين هناك لا يستحقونها" وأشار بإصبعه إلى حيث يجلس المتهمون دون حتى أن ينظر إليهم.

بعد أن انتهى تشوبرا من التحدث جلس، ووقف ضابط الشرطة الذى أُحضر خصيصًا لقراءة التصريحات الموجودة داخل الملفات.

لما وقف كانت قامته أطول من هرم الملفات على المنضدة، والتى كانت تحجبه عن الرؤية أثناء جلوسه، فرآه القضاة بوضوح. إنه شاب أنيق فى زيه الرسمى من أجل هذه المهمة. يرتدى بدلة من قماش التيرلين لونها رمادى ورابطة عنقه خضراء، متوسط القامة. ويبدو مرتبكًا بعض الشىء حيث لم يتعود تقريبًا التحدث أمام مثل هذا الحضور.

فتح الملف الأول وبدأ يقرأ محتوياته. إنه يشرح كيف دبر ونسق مع المتهم الكابتن مابوبو Mapupu خطة كاملة لسرقة أسلحة من المستودع الرئيسى للأسلحة. "قابلت الكابتن مابوبو شريف مسا وجلسنا على مصطبة منزل الشريف مسا، كانت الساعة حوالى العاشرة مساء. وتقابلنا هناك لما يسود المكان من هدوء وخلوة فى مثل هذا الوقت. ومن هنا أخذ يشرح الكابتن مابوبو كيفية الحصول على البنادق من المستودع الرئيسى للأسلحة." ذكر المتهم هذا فى تصريحاته المقروءة فى المحكمة.

"وشرح لى الكابتن مابوبو أنه أثناء تنفيذ خطتنا فإن كل الجنود الزنجباريين الذين نقلوا إلى متوارا Mtawara لمواجهة المعتدى البرتغالى على جنوب تنزانيا سيكونون عندئذ فى أجازة. ولكونهم فى أجازة فسيتعين عليهم وضع أسلحتهم فى المستودع الرئيسى. وهذه هى الأسلحة التى يمكن سرقتها بدون علم أحد لأن أصحابها سيكونون غائبين." واستطرد:

" والشيء المهم بعد هذا هو الاتصال بمراقب المستودع العريف شازيا Shazia. وقد قال لى الكابتن مابوبو بأنه ليس صعبًا الاتصال بالعريف شازيا لأنه فى تفاهم جيد معه ويعرف موقفه."

وكان هذا الضابط الذى يقرأ التصريحات يتصبب عرقًا وترتعش يداه وكأنه هو الذى سينفذ خطة السرقة لهذه الأسلحة.

واستمر فى قراءة تصريحات المتهم، تلك التصريحات التى ذكرت أسماء لأشخاص مختلفين ذكرهم له الكابتن مابوبو بأنهم مشتركون فى هذه الخطة لسرقة الأسلحة.

وذكر مهمة كل شخص من هؤلاء الأشخاص ودوره. وكل هؤلاء الذين ذكرهم كانوا بين الموجودين فى المحكمة جالسين ينظرون إليه وكلهم دهشة.

"ولقد أفهمنى الكابتن مابوبو بأنه سيتم إخراج البنادق بشكل تدريجى من المستودع الرئيسى، وسيتم تخبئتها فى بيت حمدون." أضاف المتهم ذلك فى تصريحاته.

وكانت تصريحات ذلك المتهم طويلة ومثيرة، حتى انتهى الضابط من قراءتها مع التأكيد على أن المتهم نفسه هو الذى وقع عليها.

ثم سحب الضابط الملف الثانى وفتحه، والكل صامت فى القاعة وبدأ فى قراءة تصريحات المتهم الثانى:

"كانت الساعة حوالى الخامسة مساء عندما كنا نتناول مشروبًا فى فندق زنجبار." وأخذ يقرأ تصريحات ذاك المتهم.

"فجأة ظهر مقدم وحذرنا ألا نشرب كثيرًا لأن زملاءنا على وشك الوصول من دار السلام فى ذلك المساء" استمر المتهم. وقام المتهم المنسوب إليه هذه التصريحات بذكر أولئك القادمين من دار السلام والذى أرسلهم ودور كل منهم فى هذه الخطة. وذكر مشاركين آخرين متورطين فى المؤامرة، وكلهم كانوا من بين المتهمين الجالسين فى المحكمة.

بعدما انتهى من قراءة التصريحات الموجودة فى هذا الملف الثانى فعل كما فعل مع الملف الأول من التأكيد على أن المتهم نفسه هو الذى وقع عليها.

وبعد الانتهاء من قراءة كل التصريحات الموجودة فى جميع الملفات كانت القضية قد دخلت شهرها الثامن وأكملته. وتصريحات المتهمين كما هى على هيئتها فى ملفات ترسم صورة مكتملة للمؤامرة من بدايتها وحتى نهايتها، وكل متهم مذكور فيها موجود داخل المحكمة، حيث ذكر كل منهم اسم الآخر فى تصريحاتهم وكأن

عدة أهل بدر قرئت عليهم(*) حتى الذين أبوا الاعتراف بالكذب تحت أدوات التعذيب جاء ذكر أسمائهم على ألسنة زملائهم بأنهم متورطون فى مؤامرة الخيانة، الأمر الذى أسعد تشوبرا إذ إنه بذلك أوقعهم فى شباكه كما يدخل السمك مصيدة ليس لها من باب للخروج.

(*) الشعب السواحيلى يتبرك بقراءة قصة أهل بدر كما يتبرك المسلمون بقراءة سورة يس للاستجابة لدعائهم، وخاصة دعاء المظلوم ضد الظالم. وهنا يسخر ويرمز الكاتب إلى مدى دقة الأجهزة الأمنية فى فبركة هذه القضية ضد المتهمين لدرجة جعلتهم وكأنهم مستجابو الدعوة فأصبحوا مظلومين لا ظالمين (المترجم).

الفصل السادس والعشرون

على الرغم من أن قانون المحاكم الشعبية لا يسمح للمحامين بالدفاع عن المتهمين بذريعة قدرة المحامين على تحويل الزور حقًا والحق زورًا، وبراعتهم أيضًا عند المرافعة أمام المحكمة فى قلب الحقائق فيجعلون من الملح سكرًا ومن السكر ملحًا، فإن المتهمين لديهم الحرية كاملة فى الوقوف أمام المحكمة للدفاع عن أنفسهم بقدر استطاعتهم.

ولذلك، فبعد أن انتهى ذلك الضابط من قراءة التصريحات الموجودة فى خمسين ملفًا والتى تحتوى على كل التصريحات والاعترافات التى أدلى بها المتهمون وشرحت تفصيليًا أبعاد المؤامرة بالكامل من أولها حتى آخرها، جاء دور المتهمين للدفاع عن أنفسهم والقضية تدخل شهرها التاسع.

كان تشوبرا ينتظرهم بفارغ الصبر ليصعدوا إلى القفص ويدلوا بتصريحاتهم، ثم يبدأ فى استجوابهم ليحط من قدرهم ويضعهم فى موقف محرج أمام الحضور المحتشدين فى المحكمة. إنه ينتظر صعودهم للقفص، وفى حالة إنكارهم لتصريحاتهم فإن فى جعبته الكثير من الأسئلة الاستهزائية والهزلية التى تجعل من يصعد منهم للقفص مرفوع الرأس ينزل مطأطئ الرأس خائبًا نادمًا على ما قاله.

أما المتهمون فقد كان كل منهم يجهز نفسه بالحفظ عن ظهر قلب لكل التصريحات التى ورد فيها ذكر اسمه، وكيف ذكر وسياق الذكر فى المؤامرة. ولقد أقسم كل المعترفين بالمؤامرة فى تصريحاتهم التى قرئت أمام المحكمة بأنهم سينكرون هذه التصريحات لأنهم أجبروا بالتعذيب على الاستنطاق بها. والويل كل الويل لمن جاء اسمه على لسان الشهود التسعة التابعين لتشوبرا. أما الذين جاء ذكر أسمائهم على لسان بعضهم البعض فإنهم سيتبرءون من تصريحاتهم وينكرونها. لا أحد يعرف كيف يكون سبيل النجاة لمن جاء اسمه على لسان أولئك الشهود التابعين لتشوبرا، وكيف يجدون نجاة وتشوبرا مصمم على حتمية إغراقهم فى البحر من الجو.

وليس مسموحًا لهم أثناء الدفاع أن يكون معهم أى شىء حتى الورقة. فكل ما يدافع به المتهم عن نفسه إنما يأتى من رأسه مباشرة وليس من قراءة لأى شىء مكتوب. ومن هنا فإن كلا منهم وهم فى زنزاناتهم يقوم باستذكار ما سوف يقوله فى المحكمة ويدرب نفسه على ذلك ارتجالاً.

لقد انتهت أيام لعب الدومينو والجدل واللغو وهم فى زنزاناتهم لأن حبل المشنقة ازداد اقترابًا، ويرونه عيانًا متدليًا أمامهم أى أن عزرائيل ليس ببعيد عنهم. إنهم يدعون الله ليل نهار أن ينجيهم من هذا الهلاك ومن هذه الكارثة.

أما الوضع الحالى فى معتقل التعذيب فقد تغير تمامًا منذ أن بدأت القضية، فلم يعد هناك تهديدات ولا مفاجآت. ووجوه الحراس العابسة دائمًا بالكراهية انبسطت وأصبحت بشوشة، والزنزانات التى كانت أبوابها تغلق بإحكام شديد، وبأقفال كبيرة حال كونهم محبوسين فيها كالفتيات فى خدورهن أصبحت أبوابها مفتوحة على الدوام يدخلون ويخرجون منها كما يشاءون. والوجبة التى كانت ما تكفيهم أصبحت الآن تكفيهم وتفيض. وحتى أندر أنواع السجائر أصبحت أحيانًا فى متناولهم. أى أن كل شىء فى معتقل التعذيب أصبح لهم على ما يرام.

ولكن مع كل هذا فإن قلوبهم لم تطمئن، ولم ينخدعوا بهذه التغيرات الإيجابية من جلوس خارج الزنزانات، ومن وفرة فى الوجبات، وذلك لأن ما يدور داخل المحكمة أفزعهم، وأضحى كل منهم يسعى لإيجاد حجة تنقذه وتنتشله من الشر الذى يحيكه لهم تشوبرا. فكل واحد يبكى على نفسه.

فى ذلك اليوم تحرك ركبهم من المعتقل فى ساعة مبكرة عن المعتاد، كانت السابعة صباحًا، والعربات والدراجات البخارية فى طريقها إلى المحكمة. كانت صفارات الإنذار تدوى طوال الطريق، والعربات متتابعة ونورها مفتوح وسريعة للغاية، وجميع من فيها من الجنود مصوبون بنادقهم صوب الحافلة المقلة للمتهمين، والمتهمون

أنفسهم داخل الحافلة مكبلين مشلولى الحركة، فمن أمامهم ومن خلفهم فوهات البنادق.

ومنذ اليوم الأول من المحاكمة فى قضية الخيانة والهرج والمرج خارج المحكمة هما السمة المعتادة. ولذلك فإن الحافلة بمجرد أن تصل تجد الناس قد احتشدوا خارج المحكمة فى انتظار المتهمين.

وكل قريب كان يطمئن قلبه عندما يرى قريبه المتهم ولو من بعد. وكانت زوجات المتهمين مع أطفالهم يحتشدون ومعهم الإخوة والأقارب كل يوم من أيام المحاكمة. كما يحتشد ناقلو الأخبار ومروجو الشائعات وعشاق الاطلاع على ما لا يعنيهم.

وعلى خلاف المعتاد، فإن المتهمين لم يكونوا هم أول من دخل قاعة المحكمة، فلقد وجدوا القاعة ممتلئة عن آخرها ولم يتبق من أماكن فارغة سوى مقاعدهم. وكان تشوبرا قد وصل ويتفحص أوراقه. والجميع فى القاعة فى انتظار وصول القضاة الثلاثة.

لما وصلوا قام كل من بالقاعة احترامًا لهم فوجد الغرور طريقه إلى باندو. فرأى أنه لا أحد مثله بعدما كان متعودًا على أن كل من هب ودب يشتمه فى السوق يوميًا، وها هو اليوم يقوم له كل الناس كالملك. فليس هناك أكثر من ذلك ليمنحه الله إياه. هكذا قال لنفسه. جلس القضاة واستوى كل منهم على كرسيه.

أخفقت قلوب المتهمين بسرعة لأنهم لا يعرفون من منهم سيكون الأول فى الصعود إلى القفص، ليرتجل ما يشاء وليقول ما يشاء. فكل منهم يرتب كلماته فى ذهنه كى لا يتلعثم ويبحث عن الكلمات بعد الصعود إلى القفص.

فجأة دوى صوت الكاتب كالرعد الصاعق داخل القاعة ففزع الجميع بقوله:

"القضية الجنائية رقم ٢٢٥" وانتبه الناعسون مندهشين كأن شيطانًا مسهم. وأصبح الجميع يقظًا منتبهًا يستمع إلى ما سيقوله الكاتب بعد أن عرّف بالقضية:

"المتهم رقم (١٥) عقيدة ماريجانى Akida Marijani ليصعد للقفص."

نهض عقيدة متثاقلاً من مقعده. كان جالسًا فى منتصف الصف الثانى، ومن ثم كان عليه الدفع بنفسه ليمر من منتصف الصف الثانى والصف الأول. ولما وصل لآخر الصفين توجه ببطء إلى القفص والكل ينظر إليه. كان يبدو ضعيفًا لكنه لم تظهر عليه علامات قلق. وكان تشوبرا ينظر إليه نظرة القطة المطاردة للفأر، فتابعه بعيونه حتى وصل إلى القفص.

نهض الكاتب وسلم عقيدة مصحفًا. استلمه عقيدة بيمينه وأحلفه الكاتب: "والله سأقول الحق ولا شيء إلا الحق" ثم جلس الكاتب تاركًا الساحة لعقيدة.

نظر مصدق لعقيدة بهدوء كبير وسأله:

"هل سمعت تصريحات النيابة؟"

"سمعتها" أجاب

"هل سمعت جيدًا تصريحات الشهود التابعين للنيابة؟"

"سمعتها جيدًا" أجابه عقيدة.

"هل سمعت تصريحاتك واعترافاتك وتصريحات زملائك المتهمين كما قرئت هنا فى المحكمة؟"

"سمعتها."

"الآن المحكمة تسمع لك فى الدفاع عن نفسك والإدلاء بحججك بلا خوف ولا قلق. ثم سيقوم المدعى باستجوابك بعد ذلك."

كان عقيدة واقفًا فى القفص ماسكًا بالخشبة العليا من القفص بكلتا يديه ناظرًا إلى مصدق بعينيه الصغيرتين ذات الحاجبين الكثيفين السوداوين. وتحت أنفه شارب كثيف يمتد بطول زاويتى فمه. وكان يعضعض فى شفته السفلى وكأنه يفكر فى شىء مهم للغاية.

"السادة القضاة" بدأ عقيدة فى الإدلاء بتصريحاته، وأخذ يتحدث بهدوء وبلا خوف ولا قلق: "أنا ليس عندى تصريحات أكثر من تلك التى قرئت هنا أمام محكمتكم الموقرة. فقد شرحت بوضوح فى تصريحاتى بأننى لا أعرف شيئًا، ولست متورطًا بأى شكل من الأشكال فى مؤامرة الخيانة. وإننى متمسك بهذا الموقف بعد أن تم استجوابى ست مرات تحت التهديدات والتعذيب الشديد لإجبارى على الاعتراف بالتورط فى الخيانة، وذلك بجلدى بالسياط وركلى بالأحذية العسكرية الثقيلة، مع تعليقى فى حبل المشنقة حتى خرج منى براز لم يتم هضمه.

تحملت كل هذا ليس لأننى قوى صلب، وإنما لثقتى الكاملة فى أن ما صرحت به هو الحق فتمسكت بهذا الحق."

لقد أنكر عقيدة كل تصريحات الشهود التسعة التابعين للمدعى ضده. ووصف عقيدة الشهود التسعة بأنهم أشخاص يجب الإشفاق عليهم "لأنهم لما جيء بهم هنا ما كانوا يشعرون بأنفسهم وما كانوا يحسون بشيء."

هذا المتهم شرح ثقته الكبيرة بالزعيم وكيف كان يتخذ الزعيم قدوة له. وبين مدى ثقة الزعيم به حتى جعله عضوًا فى مجلس الدولة عنده: "فكيف يمكننى أن أنقلب على إنسان منحنى كل هذه الثقة؟!" تساءل عقيدة.

وأخيرًا التمس عقيدة من القضاة تصديقه لأن ما صرح به هو الصدق وأن ما جاء فى تصريحات الآخرين لتوريطه فى الخيانة إنما يستهدف تشويه سمعته.

بعد أن انتهى عقيدة من الدفاع عن نفسه، وقف تشوبرا فجأة من مقعده، وقد نزل شعره الممشوط جيدًا على جبينه، فأرجعه إلى الخلف ليستقر. ثم نظر إلى عقيدة وكأنه لم يره فى حياته. ثم نظر إلى القضاة، وبعدها إلى عقيدة ثانية وسأله: "أين كنت يوم أن حدث الاغتيال؟"

"كنت فى البحر."

"تفعل ماذا؟"

"أصطاد"

"كذاب، لم تذهب هناك للصيد" صرخ تشوبرا فيه ناظرًا إليه بعينين حمراوين وبانفعال: "إنما ذهبت للبحر لانتظار زملائك القادمين من دار السلام."

"ما كنت مع أى زميل لى من دار السلام فى ذلك اليوم"

"ما كنت مع أى زميل لك من دار السلام فى ذلك اليوم؟" سأله تشوبرا واضعًا يده فى جيب بنطلونه ناظرًا إلى عقيدة باحتقار: "ألم تسمع تصريحات مقدم حين ذكر أن زملاءكم كانوا سيصلون بالمركب من دار السلام؟"

"ربما زملاؤه هو وليسوا زملائى."

"أنت تقول أنهم ليسوا زملاءك، بينما سيارتك شوهدت فى مسرح الجريمة يوم الاغتيال؟"

"ما شوهد هو سيارتى ولست أنا."

"كيف وصلت سيارتك إلى هناك؟"

"لا أعرف."

"كيف لا تعرف؟ مع من كانت سيارتك فى ذلك اليوم؟"

"غالبًا ما تكون مع السائق."

"إذًا أنت الذى أرسلت السائق ليأخذ زملاءك ثم يذهب بهم إلى مسرح الجريمة؟"

"إننى أقول لك ما كان معى زميل من دار السلام. ألا تفهمنى يا سيد تشوبرا؟" سأله عقيدة بصوت هادئ.

نظر تشوبرا إليه نظرة شاخصة وسأله:

"هل أنت شيوعى؟"

"إن تهمتى ليست تهمة كونى شيوعيًا."

"أجب حسب السؤال. هل أنت شيوعى؟" سأله تشوبرا بغلظة وكبرياء.

"أنا لست شيوعيًا."

"أنت شيوعى، وأنا أعلم ذلك. وأنتم الشيوعيون لا دين لكم ولا تؤمنون بالله."

"ألم ترنى أمسك مصحفًا وأحلف به؟ كيف أكون إذًا بلا دين وبلا إيمان بالله؟"

"زعيم الشيوعيين كارل ماركوس قال أن الدين تعصب بشرى. هل توافقه على ذلك؟"

"أقول لك أننى لست شيوعيًا! فلماذا لا تريد أن تفهمنى يا سيد تشوبرا؟" سأله مشتاطًا غضبًا وانفعالاً.

"سواء أكنت شيوعيًا أم لا فهل توافقه فى هذا؟"

"عندما قال كارل ماركوس إن الدين تعصب بشرى كان رجال الدين حينذاك يتعاونون مع البرجوازيين والرأسماليين فى اضطهاد العمال والفلاحين" أجابه عقيدة.

"ألم أقل لك أنك شيوعى؟" قال تشوبرا ثم رجع وجلس فى كرسيه.

أخذ المتهمون يصعدون وينزلون من القفص، وتشوبرا يلاحقهم بالأسئلة المزعجة، وشرح المتهمون كيف تم تعذيبهم وإهانتهم. وكذلك شرحوا من اعترف بتورطه فى المؤامرة كذبًا بأنه ما اعترف كذبًا إلا بالتعذيب فذكر أسماء لا يعرف أصحابها.

كان تشوبرا يستجوبهم بفظاظة أحيانًا وأحيانًا بلطف وأحيانًا أخرى محاولاً إرباكهم بأسئلة ثقافية. وهم بدورهم كانوا حريصين فى الرد عليه.

كان خيرى هو المتهم رقم (٣٢) وكان تشوبرا فى انتظار مجىء يوم استجوابه بفارغ الصبر لعلاقته الوثيقة بالخائن الكبير القاتل حمدون. فلما صعد إلى القفص ابتهج تشوبرا، ورأى أن خيرى سيعرف من هو وسيتأدب.

خيرى شاب فى الثانية والعشرين من عمره برتبة عريف فى الجيش. قصير القامة أبيض اللون. عيناه دائمًا حمراوان لدرجة أن زملاءه أطلقوا عليه "خيرى الحشاش" نظرًا لحمرة عينيه. وقف فى القفص باحترام وثبات كأن أمرًا عسكريًا صدر له بهذا. وبعد أن أقسم شرح خيرى كيف تم إلقاء القبض عليه، وتقييده، ووضعه فى حبس انفرادى بقيده لمدة شهر كامل. ثم شرح كيف عذب حتى تم استنطاقه بما جاء فى تصريحاته. وأنكر خيرى كل هذه التصريحات موضحًا

أنها كلمات أجبره عليها المستجوبون وهم يضربونه بالسياط. وبعد أن انتهى من الإدلاء بأقواله هاجمه تشوبرا بأسئلته:

"هل أنت جندى؟" سأله تشوبرا.

"ألا تعرف يا سيد تشوبرا بأننى جندى؟" سأله خيرى هو الآخر.

"دعك من العجرفة والغطرسة، وأجب حسب سؤالى؟"

"نعم أنا جندى."

"أين كنت يوم الاغتيال؟"

"كنت فى مسقط رأسى."

"ذهبت إلى مسقط رأسك لتفعل ماذا؟"

"عجبًا! تسألنى سبب الذهاب إلى مسقط رأسى؟ قل لى لم يذهب الإنسان إلى مسقط رأسه؟" سأله خيرى هو الآخر.

"أسألك هكذا لأنك جندى، وكان من المفروض أن تكون فى وحدتك العسكرية آنذاك."

"كنت قد استأذنت بالخروج من المعسكر مبكرًا منذ الصباح ومن ثم تصادف وجودى فى البيت أثناء حدوث الاغتيال."

"كذاب" صرخ فيه تشوبرا.

"عجبًا! لا تصرخ فى يا سيد تشوبرا، فأنا لست أصمًا، إننى سأسمعك إذا تحدثت بهدوء" ضحك الجميع فى المحكمة.

"سكوت، أتضحكون؟ هل تظنون أنكم هنا فى السوق؟" أسكتهم باندو الذى لا يعرف أى مكان آخر يضحك فيه الناس ويصرخون إلا السوق.

"أقول لك إنك كذاب" كرر تشوبرا قوله ولكن بصوت منخفض هذه المرة.

"غادرت المعسكر مبكرًا، وأنت تعرف جيدًا أن الاغتيال سيحدث وذهبت لتنضم إلى القتلة."

"لو كنت أردت أن أنضم إلى القتلة لكنت فعلت ذلك دون خوف أى شىء يا سيد تشوبرا. ليس هذا فحسب وإنما ما كنت موجودًا هنا فى المحكمة الآن، بل كنت فى عداد القتلى حيث إن كل من قام بالقتل تم قتله." أجابه خيرى فى القفص بهدوء وثبات.

"هيا، لنفترض أنك فعلاً لم تغادر المعسكر لمساعدة القتلة، فهل لو كانوا قد نجحوا فى الإطاحة بحكومة الزعيم كنت ستؤيد حكومتهم؟" سأله تشوبرا ناظرًا إليه.

"ولماذا لا أؤيدها يا سيد تشوبرا. كنت سوف أؤيدها مقتديًا بك أنت. فأنت يا سيد تشوبرا كنت تؤيد حكومة الملكة إليزابيث الثانية. ولما تمكن السلطان وأنصاره من الإطاحة بحكومة إليزابيث الثانية انقلبت لتؤيد على وجه السرعة حكومة السلطان. ولما طرد السلطان وأنصاره انقلبت فجأة لتؤيد حكومة الزعيم، وأصبحت ثوريًا.

وأعتقد كذلك أنه لو حتى نجح أولئك الذين أرادوا الإطاحة بحكومة الزعيم فكنت ستنقلب مؤيدًا حكومتهم. أليس الأمر كذلك يا سيد تشوبرا؟"

نظر تشوبرا إلى خيرى بعين الغضب متمنيًا أن ينقض عليه فى القفص يخنقه. تغير لونه واحمر وجهه احمرار الباباى. وتصبب عرقًا عاجزًا عن الرد.

"إنك خائن فحسب!" قال تشوبرا لخيرى.

"أنت لست القاضى يا سيد تشوبرا، فالقضاة هم أولئك." وأشار بإصبعه إلى المنصة. "إنهم هم الذين سيصدرون الحكم فيما لو كنت خائنًا أم لا." قال خيرى بصوت هادئ.

عاد تشوبرا إلى كرسيه وقعد. فلم يعد لديه المزيد من الأسئلة. نظر مصدق إلى خيرى وقال له: "يمكنك النزول أيها المتهم."

المتهم رقم (٤٠) كان الأبرز عندما صعد إلى القفص. إنه مبروك. ما كان عنده الكثير ليقوله. بل صاح فى القفص كالمؤذن يؤذن فى المسجد قائلاً: "أدعو كل الناس فى الدنيا المحببين للعدالة" صرخ مبروك بهذه الكلمات صراخًا عصف بكل القاعة كالإعصار. "أدعو الأمم المتحدة، أدعو البابا، أدعو كل علماء المسلمين أدعوكم أنتم جميعًا أن تستخدموا سلطتكم الممكنة لإنقاذنا من قبضة الظالمين."

إننا نتعذب، إننا نهلك فى أيدى الظالمين الذين ما عندهم رأفة، ارفعوا أصواتكم لتنقذونا من هذه الغمة."

وقف تشوبرا بجلبة، وذهب أسفل القفص ونظر إلى مبروك:

"هل أنت من كل هؤلاء. ولماذا لم تطلب من الله؟ أم أنك أيضًا لا تؤمن بالله؟"

"إننى أدعو الله كل يوم ليل نهار فى اليقظة وفى النوم" أجابه مبروك.

اعتبر الموجودون فى المحكمة أن مبروك أصابه جنون. ولكن من فى الخارج قاموا بنشر دعوته فى الصحف اليومية والإذاعات المحلية والدولية تحت عناوين: "يطالب المتهم الأمم المتحدة والبابا وجميع المشايخ بإنقاذهم"

لم يبق إلا شهران فقط وتكمل قضية محاكمة الخائنين عامها الكامل. المحكمة ممتلئة عن آخرها. القضاة جالسون فى أماكنهم، وبعد أن ذكر كاتب المحكمة رقم القضية، نهض تشوبرا مرتديًا بدلة مختلفة عن ذى قبل. إنها من الحرير الخشن، مكوية كيًا دقيقًا ظاهرًا. كان يعبث برابطة عنقه ناظرًا إلى المتهمين. ثم نظر إلى القضاة وقال بصوت هادئ مختلف عن صوته المعتاد الملىء بالغطرسة والعجرفة:

"السادة القضاة" ثم توقف قليلاً والكل ينصت إليه:

"لقد كشفت التحريات التى أجراها المحققون أن هناك بعض المتهمين الماثلين أمام محكمتكم الموقرة ألقى القبض عليهم عن طريق الخطأ."

أصيب كل المتهمين بالذهول، وظن كل منهم أنه ربما من بين هؤلاء المقبوض عليهم عن طريق الخطأ، فشعروا أن الفرج الذى كانوا يدعون الله به ليل نهار فى طريق القدوم. ونظر الجميع إلى تشوبرا:

"ألقى القبض على هؤلاء بسبب ظروف سكنهم مجاورين لحمدون" واستطرد تشوبرا:

"فى يوم اقتحام بيت حمدون لم يجدوا أحدًا فى بيته، فظنوا أن جيرانه يعرفون حتمًا مكان زوجته وأولاده، وظنوا أن هؤلاء الجيران

ربما يعرفون شيء عن مؤامرة اغتيال الزعيم" توقف تشوبرا ونظر إلى السيدة زليخا أم عيد، وهى المرأة الوحيدة بين كل المتهمين فى هذه القضية.

"حدث هذا عن طريق الخطأ، وهو خطأ من قبل النيابة تعترف به." استطرد تشوبرا وقال:

"من أجل هذا قررت النيابة براءة ستة من المتهمين فى القضية وهم جميعًا سكان البيت المجاور لحمدون، وذلك بعد تحقيقات وتحريات دقيقة أثبتت براءتهم."

انهار عندئذ كل المتهمين لأنهم علموا من هم فتبخرت آمالهم حيث كل واحد فيهم كان يحدوه الأمل أن يكون من بين من قبض عليه بطريق الخطأ.

وذكر تشوبرا الستة بأسمائهم واحدًا واحدًا: عيد، وأبوه، وأمه، وخاله، وأخوه، وخادمهم.

وعلى الرغم من ذلك رأى المتهمون فى ذلك بوادر خير ظهرت. فاليوم عيد ورفقاؤه، والبقية تأتى غدًا، لكن استمرت القضية بلا بوادر خير أخرى.

الشهادة ضد حمزة ما قام عليها دليل ملموس، كما أن حمزة رفض رفضًا قاطعًا الاعتراف كذبًا بتورطه فى مؤامرة الخيانة. جاء ذكر اسمه على لسان خمسة من زملائه المتهمين ذكرًا تخمينيًا فقط، ولم يذكره أحد من بين الشهود التسعة التابعين للنيابة. ومثل هذا الذكر التخمينى لاسمه على ألسنة بعض المتهمين لا يخدم تشوبرا. فما يخدمه ويريده هو ألا تكون الشهادة مهزوزة، بل شهادة تجعل المتهم واقعًا فى الفخ مثلما تقع الذبابة فى فخ بيت العنكبوت دون مخرج لها. فقال تشوبرا فى نفسه "فلأتركه، إذا لم أنل منه من خلال الشهود أو تصريحاته الخاصة فسأنال منه عندما يصعد للقفص." ولذلك عندما صعد حمزة إلى القفص حرص تشوبرا على محاصرته كى لا يجد له مخرجًا.

وحمزة بدوره أقسم بأنه لن يقول إلا الحق ولا شىء سوى الحق. والناس جميعًا فى قاعة المحكمة يحملقون إليه منتظرين ما سيقوله هذا الصحفى الذى تعود على التجوال فى أحياء المدينة بحثًا عن الأخبار. وقد حضر اليوم زملاؤه من الصحفيين بحثًا عن أخباره هو. سئم جونجو من الجلوس مستمعًا إلى المتهمين الواحد تلو الآخر، كل منهم يشكو حاله بأنه عومل بكذا وكذا وفعل به كذا وكذا. أما باندو فما كان من جلوسه إلا التوبيخ للحضور، عندما يضحكون أو عندما يتذمر المتهمون بصوت مرتفع، مذكرًا إياهم بأنهم ليسوا فى سوق.

أما مصدق فكان جلوسه جلوس المنتبهين، يستمع إلى كل متحدث كما يستمع إلى تلاميذه فى المدرسة عند قراءتهم أمامه.

كان حمزة يجول بنظره إلى كل ركن متفقدًا الحشد الكبير فى القاعة ثم ألقى ببصره ناظرًا إلى القضاة. كان يبدو مرهقًا ضعيفًا، بدت رأسه صغيرة بعد أن حلق ما عليه من شعر وبدأ:

"السادة القضاة" بدأ حمزة بصوت هادئ مدليًا بأقواله. "من مكان جلوسكم تتحكمون فى حياة الأشخاص الذين أمامكم. هؤلاء الأشخاص لا يعولون أنفسهم فحسب بل منهم من يعول أولاده وزوجته ووالديه وإخوته وأقاربه. لذلك أيها السادة القضاة ليس فقط حياة هؤلاء الخمسين فى أيديكم بل حياة كل من يعولون كذلك وهم كثير."

"السادة القضاة!" نهض تشوبرا فجأة صارخًا ناظرًا إلى القضاة: "المطلوب من المتهم هو الدفاع عن نفسه بتفنيد ما جاء فى الشهادة ضده، وليس له أن يتقمص مهمة المدافع عن الآخرين."

تظاهر مصدق أنه لم يسمع ما قاله تشوبرا، ونظر إلى حمزة قائلاً له: "أكمل يا حمزة"

"السادة القضاة! إن الجريمة التى وقعت لهى نكراء حقًا، فهى جريمة تتعلق باغتيال زعيم البلاد، إنها جريمة الخيانة. ولأن الجريمة نكراء فإن عقوبتها توزن بوزنها. من هنا فإن عدالتكم أيها السادة القضاة مطلوبة بإلحاح.

فبرجاء ألا تسمحوا بتعريض حياة الكثيرين الأبرياء للخطر بسبب جريمة اقترفها فرد أو مجموعة من الناس. عليكم أن تنظروا فى الأمر بحكمة وبصيرة وتدقيق فى الشهادة وتمحيص دقيق لها ولكل ما قيل أمامكم.

فلا أحد على الإطلاق يمكنه أن يكون غبيًا لدرجة أن يعترف بنفسه وبإرادته الحرة أنه اشترك فى جريمة يعرف أن عقوبتها الإعدام لا محالة. وإذا وجد مثل هذا الشخص فإنه يكون مجنونًا ينبغى عليكم توجيهه إلى مستشفى الأمراض العقلية لاختبار قواه العقلية." استمر حمزة متوقفًا قليلاً.

"إن السيد تشوبرا يظن أنه هو الوحيد الذى من حقه أن يتمتع بحق الحياة الحلوة، وأن حياتنا نحن لا قيمة لها فيتم إغراقنا فى البحر. ليس هذا فحسب، وإنما يكون الإغراق عن طريق الإسقاط من المروحيات. نجانا الله من ذلك!" استمر حمزة.

وأمَّن على دعائه كل المتهمين قائلين "آمين".

فنظر إليهم باندو بعين حمراء، ونهض تشوبرا شاخص العينين، مسود الوجه، قائلاً: "السادة القضاة" قالها صارخًا "إن هؤلاء يجب عليهم شكر الله أنهم على الأقل قد حظوا بالمثول أمام المحكمة، فلو كان ذلك الذى حدث حدث فى بلد آخر لأطلقت عليهم النيران من زمن" وجلس تشوبرا غاضبًا.

نظر مصدق إلى تشوبرا كيف كان غاضبًا، ثم نظر إلى حمزة وقال: "أكمل يا حمزة".

"السادة القضاة" استمر حمزة. "إننى أمثل أمام محكمتكم الموقرة بتهمة الخيانة، تهمة الاشتراك فى قتل الزعيم. وهى جريمة شنعاء. إننى لست متورطًا على الإطلاق فى هذه الجريمة، بل أجد نفسى معتقلاً اعتقالاً جماعيًا فقط. حتى الشهادة ضدى أثبتت بوضوح أننى ما كنت مسئولاً عن هذه الجريمة الشنعاء، فجاء اسمى فى الشهادة مجيئًا تصادفيًا فقط. أيها السادة القضاة. استطرد حمزة.

"على سبيل المثال يقول موهانديني Muhandeni فى تصريحاته التى قرئت أمام المحكمة بأن جاها Jaha أخبره أننى اشتركت فى المؤامرة، بينما لا توجد فى تصريحات جاها أية أقوال تقول أنه أخبر موهانديني باشتراكى فى هذه المؤامرة." توقف حمزة ناظرًا إلى القضاة.

"أكمل يا حمزة، إننا منصتون إليك" أمره مصدق.

"فمثل هذه الشهادة أيها السادة القضاة لا يمكن اعتبارها شهادة فى مثل قضية خطيرة كهذه، قضية يستحق المذنب فيها أن يعدم إغراقًا فى البحر بالإسقاط من الجو."

نظر تشوبرا إلى حمزة شاعرًا أن حمزة يستهزأ به باقتباس كلماته. فنظر حمزة بدوره إلى تشوبرا، عندئذ التقت عيونهما معًا. كانت عينا تشوبرا كلها غضب وعينا حمزة كلها حكمة.

ترك حمزة النظر إلى تشوبرا، ونظر أمامه إلى القضاة وأنهى كلمته بمطالبة القضاة باتباع الحق لا الكراهية، ولا بالتأثر بالأجواء المسموعة ضد المتهمين فى كل مكان.

أصبحت الكرة الآن فى ملعب تشوبرا ليحاصر حمزة بالأسئلة، خاصة وأنه كان يستعجل مواجهته، ناهيك عن استهزاء حمزة به مما جعله أمام الحضور فى المحكمة كالدمية.

قام تشوبرا بمحاصرة حمزة بالأسئلة، فمرة يلج به فى طريق ومرة يخرجه منه، ومرة يدخله فى متاهات، ومرة يخرجه إلى التيه وهكذا، ولكن حمزة كان حذرًا على النحو التالى:

"هل تعرف حمدون؟" سأله تشوبرا.

"أعرفه"

"كيف تعرفه؟"

"أعرفه مثلما أعرفك"

"كيف تعرفنى؟"

"أعرف أنك أنت السيد تشوبرا رجل القانون"

"وكيف تعرف حمدون؟"

"أعرفه كرجل عسكرى"

"كذاب، إنك تعرفه أكثر من ذلك! إنه صديقك الحميم، والكل يعلم ذلك." صرخ تشوبرا فى حمزة.

"لقد أقسمت على المصحف يا سيد تشوبرا بأننى سأقول الحق ولا شىء إلا الحق. وإننى لم أنكر معرفتى به ولم أنكر صداقتى له."

"هل تقدس المصحف؟"

"جدًا"

"تقدسه وأنا أراك يومًا تسكر فى نادى المتعة!"

"وأنت يا سيد تشوبرا عندما تذهب إلى نفس النادى، هل تذهب لتصلى؟"

فبهت تشوبرا، ولكنه بدلاً من أن يغضب فقد ضحك هذه المرة. وعاد إلى كرسيه وقعد.

بعد أن نزل حمزة من القفص صعد متهمون ثلاثة آخرون، ودافعوا عن أنفسهم. وكالعادة استجوبهم تشوبرا بكل تظاهراته واستعراضاته وارتجالاته.

لم يبق إلا متهم واحد فقط، وهو آخر عنقود المتهمين. فرأى الكاتب أن يناديه لإنهاء العمل: "أمهس أحمد Amhasi Ahmed"

"قد قتل" صاح المتهمون معًا فدوت أصواتهم فى كل أركان القاعة. ظل القضاة ينظر بعضهم إلى بعض، وأصيب الكاتب بالذهول، وملفه فى يده، فنهض تشوبرا وقال: السادة القضاة: أود أن أحيط محكمتكم الموقرة علمًا وبصفة رسمية بأن أمهس أحمد توفى أول أمس بعد إصابته بإسهال شديد، وسوف يتم تقديم تقرير طبى عن وفاته أمام المحكمة" ذكر تشوبرا ذلك للمحكمة.

"لقد رفضوا عن عمد نقله إلى المستشفى" قاله مبروك بتهور.

نظر تشوبرا إليه بغضب شديد، ونكس وجهه، وهز رأسه، ثم قرأ على المحكمة تقرير الطبيب عن وفاة أمهس موضحًا أنه مات نتيجة إصابته بإسهال شديد.

الفصل السابع والعشرون

طال الصمت حيث مضى شهران منذ أن انتهى المتهم الأخير من الدفاع عن نفسه، وتم تأجيل الجلسة. ومنذ ذلك والمتهمون قابعون فى الحبس كتلاميذ المدارس ينتظرون نتائج الامتحان، ولكن امتحاناتهم ليس امتحان نجاح ورسوب وإنما امتحان حياة أو موت.

كانوا يسترجعون صور الأحداث فى المحكمة فيرونها رأى العين وكأنهم فى حلم، ويسترجعونها سمعًا كذلك فيسمعون الاستجوابات والمداخلات وهى تدوى فى آذانهم، وخاصة صوت تشوبرا الذى كان دائمًا ما يكرر ويحرص على وجوب إزهاق أرواحهم، وكانوا يدعون بقدوم يوم إصدار الحكم، كى يعرفوا مصيرهم فيما إذا كانت أرواحهم ستزهق أم سيبقون أحياء. ومع ذلك فإنهم كانوا يخشون ذلك اليوم خشية أن يكون هو القاطع لآخر جذر فى جذور آمالهم.

ولكن سواء عليهم أدعوه أم لم يدعوه فإنه آت لا محالة، وسواء أهابوه أم لم يهابوه فإن تشوبرا يجهز نفسه فحسب لهذا اليوم، حيث سيتم تجميعهم فى قاعة المحكمة، ويقوم تشوبرا أولاً بتوبيخهم توبيخًا وسبهم سبًا عند إلقاء بياناته الختامية بغلق ملف القضية.

كان المتهمون فى معتقل التعذيب هذا وكأنهم فى نزهة إذ حولوا هذا المبنى الذى كانت تقشعر منه الجلود خوفًا ورعبًا بمجرد ذكر اسمه لك إلى نادى يلعبون فيه طوال النهار الدومينو والكوتشينا والشطرنج كذلك.

ويتعجب كيفوبى ويهز رأسه عندما يجدهم، كلما يذهب إلى مكتبه، يلعبون ويمرحون فى الساحة، إذ إن هذا لم يحدث من قبل فى هذا المبنى، فلقد قام النزلاء هذه المرة بتجاوز كل الحدود، وهتك كل المحظورات. فلقد جمعوا كل قطع الملابس الممزقة وأوصلوها ببعضها وجعلوا منها كرة للقدم يلعبون بها.

وأخذ حمزة خرطوم رش المياه فى الحديقة وقطعه إلى أجزاء. ثم خرم كل جزء ثمانية ثقوب، فأصبح نايًا جميلاً عندما يعزفه، ويقوم مفاومى بالغناء "يا ليلى يا ليلى يا ليلى" فأدركوا فعلاً من ذلك أن هذه الأيام هى أيامهم الأخيرة فى معتقل التعذيب.

كل هذا يجرى بالنهار فقط، أما عندما يحل الليل يتم حبسهم فى زنزاناتهم، فيعود الجميع إلى حياة الحزن والاكتئاب مفكرين طوال الليل فى مصيرهم أهو خير أم شر. إنهم يدعون أن يكون خيرًا. وكانوا يرون الشر عندما ينامون ويحلمون ويتشنجون برؤية تشوبرا واقفًا على رؤوسهم كعفريت يطلب أرواحهم. إنهم يفكرون فى اليوم الذى سيشربون فيه آخر كوب من الشوربة فى هذا المعتقل.

والأيام هى الأخرى لا تتوقف بل تنصرم اليوم بعد اليوم حتى جاء اليوم المنتظر وكانت الساعة فيه التاسعة صباحًا. تم تجميعهم أمام مصدق، وجونجو، وباندو، وأخذ باندو ينظر إليهم كالثور فى وضع الاستعداد للهجوم.

كانت قاعة المحكمة ممتلئة عن آخرها مع ازدياد هذه المرة فى عدد ضباط الجيش والشرطة حتى اضطر بعضهم إلى الجلوس فى قاعة أخرى مجاورة داخل المحكمة. إنهم لن يسمعوا جيدًا ولكن لا ضير فالأهم أنهم موجودون.

كان المتهمون فى خوف وقلق كاملين وكأنهم فى انتظار المرور على الصراط، لا يعرف أحدهم من سيقع فى الجنة ومن سيقع فى النار، داعين الله النجاة: "اللهم أنقذ عبادك."

اليوم ارتدى تشوبرا بدلة سوداء ورابطة عنق سوداء ليس لأنه الزى الذى يرتديه المحامون فى المحكمة بل لإعطاء إشارة إلى أن الطامة الكبرى تنتظرهم وجميع ذويهم. كان الجميع ينتظره ليدلى بأقواله الأخيرة. وكان يرى من نفسه وهو فى مقعده شخص إله، إذ إنه يعرف جيدًا مدى أهمية ما سيقوله اليوم بالذات، ذلك اليوم الذى ينتظره الجميع، فيجلس فى خيلاء وتكبر عالمًا أن حياة جميع هؤلاء المتهمين فى يديه.

أما فى خارج المحكمة فكان الناس محتشدين فى كل أنحاء مبنى المحكمة فى جلبة وضوضاء. ما كانوا مثل كل مرة محتشدين فى نهاية المبنى فقط بل محتشدين فى كل ركن يحوى زاوية وثغرة يستطيع معها الإنسان أن يخترق ليقترب من بوابة المحكمة. فاخترقوا الأزقة وملأوها، وإذا ما اعترضهم الجنود فى نهاية المبنى فينسحبون حتى يصلوا أوله، وإذا اعترضوهم فى أوله ينسحبون إلى الأزقة، وهكذا دواليك. فأصبح الجمهور والجنود بهذا وكأنهم يلعبون مع بعضهم لعبة القط والفأر.

لقد زال منهم كل الخوف الذى كان ينتابهم عندما يرون الجنود مسلحين بالبنادق هاتفين "سحقًا سحقًا! ليحدث ما يحدث! دعك من البنادق حتى وإن أتوا بالمدافع والدبابات." فاكتظوا أمام بوابة المحكمة وتكاثروا كالنمل مما أصعق الجنود ببنادقهم، فلم يعد أحد يطيع أوامرهم ولا أحد يخاف من بنادقهم. كانت البوابة مغلقة وهم يتدافعون أمامها متزاحمين. وأصبح الحاجز فيما بينهم وبين من ينتظرون مصيرهم فى الداخل إنما هى البوابة الحديدية الضخمة المغلقة بإحكام شديد من الداخل والخارج، والتى لا يمكن اقتحامها، وليس هم الجنود المدججون بالسلاح. وهنا كانت نهاية المطاف. واعتبر من تمكن من الوصول أمام هذه البوابة أنه قد وصل إلى داخل قاعة المحكمة نفسها، بينما الآخرون استمروا محتشدين على

طول الطريق، من أول مبنى المحكمة وحتى نهايته، منتظرين جميعًا سماع ما سيقوله تشوپرا. فلا خروج لمن بالداخل، ولا دخول لمن بالخارج وبعدئذ. كانت خديجة بين هذا الحشد فى الخارج منزوية فى زاوية ضيقة للمبنى المقابل للمحكمة، حاملة طفلتها فى جنبها بطريقة تحميها بعناية فائقة من تدافع وازدحام المحتشدين. كان قلبها ومشاعرها بين الخوف والرجاء. فعلى الرغم من أنها ترى أن دلائل الأمل بعيدة المنال فإن تصريحات حمزة يوم أن صعد القفص تعطى دلائل خير، وصدقت أن حمزة ليس متورطًا بالفعل. ولكن كيف يكون حمزة غير متورط بالفعل وهو مع حمدون فى صداقة حميمة! هكذا كانت تتساءل خديجة وهذا هو الذى يثير خوفها.

نظرت إلى طفلتها التى تحملها فلاحظت عليها حالة من الوهن الملازم لها منذ أن كانت رضيعة وحتى اليوم، وشعرت أن هذا الوهن عله يزول اليوم عندما تجرب متعة العيش مع الأب يداعبها ويسعدها. نظرت إليها بعين تملؤها شفقة الأم وقالت لها: "اليوم سيعود بابا إلى البيت." فرحت صابرة Subira وضحكت وأحست أنها سترى والدها رأى العين الذى لم تره إلا فى الصورة دون أن تعرف أين هو، ولا تعرف المصائب التى حلت به فى سجنه، وحتى هى لا تعرف ماذا تفعل وسط هذا الحشد الكبير، ما تراه أمامها مجرد فوضى. لاحظت

خديجة كيف أنها سعيدة، عندئذ تفاءلت خديجة بأن هذه قد تكون الإشارة إلى السعادة الدائمة، لأن صابرة فى العادة لا تبسط وجهها وتضحك. فمنذ أن كانت رضيعة وحتى الآن فى الثانية من عمرها لم تتوقف عن البكاء والإزعاج والضعف. فعسى أن تكون ضحكتها اليوم هى البشرى السارة. وبذلك تدعو خديجة ويحدوها الأمل.

جلس كاتب المحكمة على كرسيه، ونظارته تتدلى أسفل ظهر أنفه متصفحًا الأوراق الكثيرة على مكتبه، والقاعة يسودها الصمت الرهيب إلى حد أنه لو سقطت على الأرض إبرة فإنك تسمع صوتها، فلا كلام لأحد، ولكن بدلاً من أن يسمعوا صوت الإبرة جاءهم صوت الكاتب مدويًا:" القضية الجنائية رقم ٢٢٥."

نظر مصدق إلى المتهمين فى مقاعدهم، راجين أن تكون هذه النظرة نظرة رحمة وشفقة. أما باندو فكان متوجمًا عابسًا كأنه ابتلع قرصًا مرًّا، فلقد حان وقت إظهار غضبه وكراهيته التى ادّخرها منذ بدء القضية إلى اليوم. وإنه ينتظر كذلك ما سيقوله تشوبرا. أما جونجو فكان فى المحكمة كالغائب، جالسًا على كرسيه سرحانًا. وهؤلاء هم المنوط بهم إصدار الحكم بعد قيام تشوبرا بإدلاء بيانه عن غلق ملفات القضية.

كانت هناك حالة من التضارب فى التوقعات داخل المحكمة.

كان المتهمون آمالهم معقودة على الأدعية التى دعوها على مدار سنتين علها تستجاب من الله، وكان المتعصبون ومحبو الإبادة للخونة ينتظرون أن يأتى الحكم من القضاة مناسبًا لهؤلاء الخونة، فهؤلاء رغبتهم الشر، وأولئك يدعون الله بالنجاة.

نهض تشوبرا والكل ينظر إليه بعيون مختلفة، منهم من ينظر إليه مبتهجًا، ومنهم من ينظر إليه لاعنًا وداعيًا عليه بالبكم، لكن الدعاء لن يجدى لهم نفعًا لأنهم فى موقع الضعف بينما تشوبرا فى موقع القوة.

"السادة القضاة" بدأ تشوبرا مدليًا بأقواله:" علاوة على تصريحاتى التى أدليت بها سابقًا وعلى الإتيان بالشهود الثمانية والخمسين أمام المحكمة الموقرة..

"كل شهودك كاذبون" صرخ المتهمون. وبدأت الفوضى.

"سكوت! هدوء! هدوء! فنحن الذين نعرف من الصادق ومن الكاذب" هدأهم مصدق، وباندو ينظر إليهم منتفخًا، وقد تنبه جونجو بشكل مفاجئ وكأنه أوقظ من نوم، وبدأ ينظر إلى المتهمين.

"السادة القضاة!" استأنف تشوبرا تصريحاته بعد أن ساد الهدوء، ولم يكن فى حاجة إلى النظر إلى المتهمين عندما أثاروا هذه الفوضى لأنه اعتبرهم مجانين.

"فالشهود الذين أتيت بهم أمامكم أيدوا تصريحاتى عن كيفية تورط هؤلاء المتهمين بطريقة أو بأخرى فى المؤامرة التى كانت تستهدف الإطاحة بالحكومة، واغتيال الزعيم.

"ولقد أعطى كل المتهمين الفرصة لاستجواب أولئك الشهود، ولم يوجه أى من المتهمين سؤالاً وجيهًا. كانت كل أسئلتهم مجرد هراء" نظر تشوبرا إلى المتهمين نظرة الإنسان إلى الغبى الجاهل. "ثم قدمت إلى المحكمة كل الأدلة المطابقة للشهادة التى أدلى بها شهودى.

"وأخيرًا أيها السادة القضاة! قدمت تصريحات كل المتهمين بأنفسهم وهم خمسون"

"أى تصريحات؟ كلها كاذبة، ونحن جميعًا أنكرناها." صرخ مبروك وأيده المتهمون:" أنكرناها! أنكرناها!"

لم تعد صرخات المتهمين تشغل بال تشوبرا لأنه اعتبرهم غارقين لا محالة. لما هدأوا استطرد تشوبرا قائلاً:" فى التصريحات الخاصة بهم كل واحد منهم اعترف بأنه متورط فى هذه المؤامرة النكراء.

" لا ضير، لقد تظاهروا بالدفاع عن أنفسهم متذرعين بأنهم عذبوا، ولكنى أؤكد لكم أيها السادة القضاة أن هؤلاء لم يعذبوا بل لدغوا فقط."

" لدغنا؟ هل هذا هو اللدغ؟" نهض سرور وخلع قميصه ووجه ظهره إلى القضاة ليروا آثار السياط والرضوض العميقة الظاهرة عليه قائلاً:" هل هذا هو اللدغ؟" سأل سرور.

لم يكترث تشوبرا بشكوى سرور وواصل تقديم تصريحاته:

" السادة القضاة إن الحمار لا يسير إلا بالسياط. وكان لزامًا أن يضرب المتهمون بالسياط ليعترفوا بالحقيقة. فكل ما صرحوا به حق خالص، فلا وجه للتذرع بأنهم عذبوا، حيث هناك من لم يعترف بشىء، فهل نقول أنهم لم يعذبوا؟" سأل تشوبرا.

"فهؤلاء الذين يدعون أنهم عذبوا هم الذين ذكروا زملاءهم الذين لم يعترفوا بشىء حتى بعد تعذيبهم.

" السادة القضاة! هؤلاء المتهمون كالسمك، إذا فسدت واحدة فسد الجميع. كلهم فى سلة واحدة مشتركين فى الخطة وبشكل كامل، ويستحقون جميعًا عقوبة مشددة بلا هوادة"

" نعم" أيده باندو وهو يهز رأسه موافقًا مع تشوبرا.

" وأخيرًا، أيها السادة القضاة!" استطرد تشوبرا" فلقد جاءوا ودافعوا عن أنفسهم واحدًا واحدًا من القفص، بمنحهم وقتًا كافيًا لهذا الدفاع، فلم يأت أحد منهم بحجة قوية تدحض الشهادة ضده، وكل ما أتوا به أنهم أخذوا يتذمرون ويقولون عوملنا بكذا وفعل بنا كذا وكأنهم أطفال، ولما قمت باستجوابهم استمروا فى عجرفتهم متفوهين بكلمات نابية، وذلك بدلاً من أن يردوا على أسئلتى.

" إن الشهادة التى أدليت بها ضد المتهمين ليست مختلقة ولا مفتراة بل هى مستقاة من أقوالهم بأنفسهم، فهذا ذكر هذا وذاك ذكر ذلك.

" هناك متهم قال هنا أنه لا يوجد فرد يتمتع بقواه العقلية يمكن أن يعترف بالتورط فى مؤامرة تكون عقوبتها الإعدام فى حالة ما إذا أدين فيها.

والآن أسألكم أيها السادة القضاة! هل يوجد مجنون بين هؤلاء المتهمين الجالسين أمامكم؟ هل لدى أى منهم أعراض للجنون؟ إنهم جميعًا يتمتعون بقواهم العقلية، ولما كانوا يدلون بأقوالهم كانوا يعرفون جيدًا ما يقولون."

" حسنًا" علق باندو مؤيدًا.

كان ضباط الشرطة والجيش ومسئولو الأمن المتكدسون داخل القاعة فى منتهى السعادة لما يسمعونه، ولو كان مسموحًا بالتصفيق لصفقوا إعجابًا بتشوبرا.

إن الخوف الذى لازم المتهمين طوال هذه الفترة كلها ازداد الآن وهم ينظرون إلى تشوبرا كيف يسعى جاهدًا بكل ما أوتى من قوة لإبادتهم.

"السادة القضاة!" استطرد تشوبرا خافضًا صوته، مسندًا بجسده على المكتب أمامه وواضعًا يديه عليه، وناظرًا إلى القضاة:" وعلى مدار سنة كاملة هى عمر القضية قدمت أمامكم كل دليل يثبت أن المتهمين مذنبون ويستحقون عقوبة مشددة لا رأفة فيها. فعليكم الآن المقارنة بين الأدلة التى قدمتها هنا، والدفاع عن النفس من قبل المتهمين، ووضع ذلك فى الميزان لإصدار حكمكم."

جلس تشوبرا وقد أنهى المهمة الموكلة إليه بكل جهد له وبكل نشاط له وبكل قوة له.

تهامس القضاة، ولما انتهوا قال مصدق للحضور داخل القاعة:" نؤجل القضية بعض الوقت للتشاور فيما بيننا سرًا وسنعود إليكم بعد نصف ساعة."

وعلى مدى نصف الساعة كانت المحكمة في صمت تام لم يجرؤ أحد على فتح فمه ليكلم صاحبه، وظهرت بوضوح حالة من الخوف الشديد على وجوه المتهمين. فقد تيقنوا أنهم من الآن لم يعودوا يتبعون معتقل التعذيب، وأن استضافة السيد ماتشالى لهم قد انتهت، وأنهم عند خروجهم من المحكمة سيتوجهون مباشرة إلى "كونديم" حيث المكان الذى يترك فيه المحكوم عليه بالإعدام مع حبل المشنقة، فإذا ما نام وإذا ما استيقظ لا يرى أمامه سوى حبل المشنقة، حتى يأتى يوم تنفيذ الحكم.

وبعد نصف الساعة تمامًا دخل مصدق يترأس فريقه فى المقدمة، وباندو فى الوسط، وجونجو فى المؤخرة. وقف جميع من فى المحكمة احترامًا لهم. جلسوا على مقاعدهم مرتاحى البال مطمئنى النفس، بينما المتهمون قلوبهم بلغت الحناجر ولم يعودوا يروا أى دليل للنجاة بحياتهم.

أخرج مصدق ورقة من جيب معطفه، وانكب عليها ليقرأها بانتباه شديد، والكل فى صمت رهيب حيث حانت اللحظة التى ينتظرها الجميع على مدى سنتين، فالمتهمون أبصارهم شاخصة ينظرون إلى تلك الورقة التى يعلمون عنها أنها تحمل مصيرهم، ومنها سيعرف كل منهم نهايته، وما إذا كان من أهل الدنيا أم الآخرة.

"قمنا بعناية فائقة بدراسة كل ما تقدمت به النيابة من شهادة" بدأ مصدق فى إصدار الحكم، وعيناه مركزتان على الورقة لا ينظر إلى غيرها، وكأنه يعمل بالحكمة القائلة: إذا أردت أن تقتل شخصًا فلا تنظر إلى وجهه.

"قمنا بعناية فائقة بالمداولة لكل ما تقدم به الشهود واحدًا واحدًا، ولكل التصريحات الصادرة من قبل النيابة

"كما تدبرنا جيدًا كل تصريحات المتهمين كما قرئت أمام المحكمة، وأولينا اهتمامًا كبيرًا لتصريحات المتهمين أنفسهم عند دفاعهم عن أنفسهم" وهنا رفع رأسه ونظر إلى المتهمين، ثم استطرد قائلاً:

"وبعد أن تدبرنا كل هذا تيقنا بشكل قاطع أنه كانت هناك فعلاً مؤامرة للإطاحة بالحكومة، تلك المؤامرة التى بفشلها أدت إلى اغتيال الزعيم المحترم.

"آ...آ...آ... آ...آ...آ" تذمر المتهمون معًا، واستمر مصدق ينظر إليهم حتى انتهوا من التذمر، فاستطرد قائلاً:" ومن أجل هذا فلقد اقتنعت المحكمة أنكم مدانون، ولقد حكمت عليكم جميعًا بالإعدام فيما عدا..

"ظلم! ظلم! تظلموننا" صاح جميع المتهمين قبل أن ينتهى مصدق من إصدار حكمه، وسادت فوضى فى المحكمة حتى اضطرت قوات مكافحة الشغب إلى الوقوف على الباب مخافة أن يصيب المتهمون أحدًا بسوء.

"شينتقم الله لنا" استمروا فى صراخهم.

وظل مصدق ينظر إليهم وهم يتأوهون ويصرخون حتى سكتوا فاستطرد قائلاً:

"ما عدا الآتى أسماؤهم"

لما سمعوا هذا القول سكتوا جميعًا وأحسوا مذهولين أن هناك من سينجو منهم.

"وقد حكم عليهم بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا لكل منهم لعدم إبلاغهم الشرطة بالمؤامرة التى علموا عنها دون أن يشتركوا فيها. عندئذ ذكر مصدق قائمة الأسماء الخمسة عشر. فكان اسم سرور أول من ذكر. ولما سمع سرور اسمه يذكر وقف وكأنه يريد أن يقول شيء ولكن الكلمات تعثرت ولم تخرج من فيه، وتغير وجهه، ثم رفع يديه إلى السماء حامدًا الله وجلس.

ثم ذكر مصدق الاسم الثانى وهو خلفان سالم، فصعق وذهل كالمسحور. وتلاه باسم كوندو الذى لم يتحرك كأنه كان يتوقع ذلك الحكم.

وعندما ذكر مصدق اسم عنبر، نهض عنبر ويداه مع ذقنه ترتعش لأن ضرب الودع الذى كان يمارسه فى كومبا كومبا كان ينبئه أنه سيتم الإفراج عنه ولكن ذلك باء بالفشل فصرخ قائلاً:" والله إنكم تظلموننى."

"اجلس" أمره باندو، فجلس منهارًا.

واصل مصدق ذكر أسماء المحكوم عليهم بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا حتى انتهت قائمتهم.

"وأما الآتى أسماؤهم" استطرد مصدق" فقد حكمت المحكمة ببراءتهم حيث لم يثبت تورطهم فى المؤامرة، ويتم إطلاق سراحهم، ولهم أن يخرجوا إلى حال سبيلهم فورًا"

انتبه كل المتهمين الذين لم يسمعوا أسماءهم بين المحكوم عليهم بالسجن خمسة عشر عامًا انتباهًا شديدًا داعين الله أن يكونوا من بين هؤلاء:" يارب اجعلنى واحدًا منهم"

نظر مصدق إلى المتهمين ماسكًا بقائمة الأسماء أصحاب البراءة، وهم بدورهم يحملقون إليه داعين الله سرًّا.

ذكر مصدق الاسم الأول" مبروك عيسى"

"الحمد لله" نهض مبروك باسطًا يديه شاكرًا الله فى العلن. ثم ذكر مصدق اسم "فرج ماجاليوا". كان فرج هادئًا ينظر إلى عنبر بجواره فى المقعد بعين العطف، فنظر عنبر هو الآخر إليه وقال له:"لا تنس أن تمر على بيتى بين الحين والآخر لتطمئن على أولادى."

ولما ذكر مصدق اسم حمزة اندهش الجميع فى المحكمة متسائلين:"كيف هذا؟ كيف يمكن لحمزة أن يكون غير متورط وهو الصديق الحميم لحمدون؟"

وعندما ذكر مصدق اسم حمزة عقّب قائلاً:"لا يوجد من لا يعلم بصداقتك الحميمة مع حمدون، ولطبيعة علاقتك القوية مع حمدون فإن أحدًا لن يصدق أن يكون حمدون هو القاتل وأنت غير متورط معه في القتل. توقف مصدق ونظر إلى حمزة وقال:" حتى أنا شخصيًا لم أصدق إطلاقًا أنك برىء، ولكن التحقيقات أثبتت هكذا، ومن ثم حكمت المحكمة بإطلاق سراحك" انتهى مصدق.

نظر حمزة إلى تشوبرا والأخير نظر إليه كذلك فالتقت عيونهما وقال حمزة فى نفسه:" لن تنال منى أبدًا"

واستمر مصدق فى قراءة القائمة بأسماء المبرئين حتى آخرها.

بقى الآن من حكم عليهم بالإعدام وقائمتهم فى يد مصدق ينظر إليها وكأنه يراها لأول مرة. تغير وجهه وانتابه قلق:" لقد رأت المحكمة أن الآتية أسماؤهم مدانون ومتورطون بصفة كاملة فى مؤامرة الخيانة ككل. ومن ثم قضت بمعاقبتهم بالإعدام."

توقف مصدق قليلاً مخرجًا منديلاً من جيب معطفه ليمسح به عرق جبينه. ثم ذكر الأسماء التالية:

مقدم، وحراميا، ومباكانى، وسومبو، ومرزوق، وفينجوشو، وزاريكانى، وبوانشا، وكوتشى.

وهؤلاء هم التسعة الذين اعترفوا بجريمة الخيانة، وشهدوا على زملائهم. وهم جميعًا غير موجودين بالمحكمة فقد تم نقلهم إلى "كونديم".

رأى المتواجدون هناك أنهم يستحقون العقوبة لأنهم هم السبب. ودارت عليهم الدائرة بعد أن خدعوا بأنهم سيفرج عنهم.

عندئذ جاء دور المتهمين الموجودين فى المحكمة، ومصدق ينظر إليهم. فبدأ باسم مفاومى، وتبعه باسم دونو، واستمر فى قراءة القائمة حتى وصل إلى اسم خيرى محمود. وبمجرد ذكر اسمه وقف وقال:" ياحضرة القاضى! أنا لى طلب" قال وهو شاخص العينين شديدتى الحمرة.

"انتظر أولاً وسوف أعطيك الفرصة لطلبك" أمره مصدق مواصلاً ذكر أسماء المحكوم عليهم بالإعدام حتى النهاية.

بدأ الناس يتهامسون فى المحكمة بأن اليوم الذى كان الجميع فى انتظاره قد حل، والأحكام قد صدرت لإنهاء الشائعات من كل شكل ونوع، والتى كانت تتردد على ألسنة الناس فى جميع أنحاء البلاد على مدار سنتين.

لم يتباطأ حمزة ورفقاؤه المفرج عنهم فى الخروج من المحكمة، وما زالت الحشود الغفيرة متكدسة بالخارج، والكل فى حالة قلق لوجود حراس البوابة واقفين فى حالة من التأهب القصوى. خرج حمزة ورفقاؤه، وأغلقت البوابة بعد خروجهم. بعد أن خرجوا عانقهم ذووهم فى سعادة بالغة، ومن لم يروا أقاربهم من بين المفرج عنهم انخرطوا في البكاء.

دخلت خديجة وسط الحشد حاملة طفلتها صابرة على جنبها، وهى ترى حمزة محشورًا عند البوابة، وهى تتقدم إليه. هنالك انسل حمزة بصعوبة من وسط الحشد، والتقى بخديجة وسط الزحام فأخذها والطفلة فى أحضانه، ودموع الفرح تترقرق فى عينيه من شدة الفرحة التى غابت عن قلبه منذ زمن، وإذا بهذه الفرحة تعود ثانية فجأة ليمتلئ قلبه بها.

وهما فى حالة عناقهما، وكل منهما متشبث بالآخر فى حالة من قمة الفرحة، إذا بحمزة يجد من يخبطه على كتفه، فالتفت إليه، وإذا به كيفوبى يقف خلفه ويقول له:" لنذهب هناك" أمره.

شعر حمزة أن الأمور لم تنته بعد، وأن القضاة إذا كانوا قد أنهوا دورهم فإن المسئولين فى معتقل التعذيب لم ينهوا دورهم بعد. نظر حمزة إلى خديجة وصابرة، وأخذ صابرة من بين يدى أمها، وحملها، وقبلها، وأرجعها إلى أمها، وقال لها:" لا تيأسى."

اندهشت خديجة، والدموع تسيل منها متسائلة:" ماذا يجرى بالضبط؟"

لما دخل حمزة السيارة وجد رفقاءه المفرج عنهم معه فى انتظاره هو فقط، فسألهم:" إلى أين ثانية؟"

" لا نعرف" أجابه فرج.

أحسوا وكأنهم فلتوا من فم الحوت ناجين سالمين ثم هاهم يبتلعهم سمك القرش مرة أخرى لاحقًا، وليسوا متأكدين فيما لو كانوا سيتمكنون من الإفلات من فم القرش أم لا. لم تتوقف السيارة إلا بعد الوصول إلى معتقل التعذيب، باتوا هناك، ولما أشرقت الشمس أخرجهم السيد ماتشالى ليشربوا الشوربة فى الخارج، ثم خلعوا ملابسهم المستعارة للمثول بها أمام المحكمة وارتدوا ملابسهم، دون أن يعرفوا ماذا بعد. فى تمام الساعة الثالثة والنصف عند شدة حرارة الشمس دخل كيفوبى، فوجدهم جالسين فى الساحة والسيد ماتشالى جالسًا على كرسيه والسيجارة فى يده، فأمرهم بصوته المتغطرس ووجهه العابس أن يتبعوه:" هيا لنذهب". خرجوا من معتقل التعذيب فى صحبة كيفوبى وجنديين، واتجهوا مباشرة إلى السجن المركزى. فانتابهم الخوف من جديد، وأحسوا أنهم ثانية سيعودون إلى كومبا كومبا دون أن يعرفوا إلى متى سيمكثون هناك.

وقبيل وصولهم إلى كومبا كومبا، وعند الساحة التى يجتمع فيها السجناء لتناول إفطارهم وعشائهم، وجدوا الساحة خالية، والسجن يبدو خاليًا، حيث كل السجناء بالخارج فى الخدمة. وكان هناك أربعة كراسى مصفوفة أمامهم إشارةً إلى احتمال قدوم أربعة مسئولين للتحدث معهم. ليسوا متأكدين فيما لو كانت هذه المحادثة تحمل خيرًا أم شرًا.

من على بعد سمعوا صوت المقدم كيسودا متحدثًا مع أشخاص فى فرح وسعادة، ففهموا أنهم قادمون عليهم، وقد خرجوا من ناحية مكتب المقدم كيسودا يتبع كل منهم الآخر. خفق قلب حمزة خفقانًا لما رأى العقيد بونجو، فأحس بأن شرًا آخر سيطاردهم وكان يرافقه كل من صاحب السعادة ماصابورى Masaburi وصاحب السمو بامفوا Bamvua . جلسوا على الكراسى.

العقيد بونجو فى زيه الرسمى ومسدسه على خاصرته يضحك. ولما رأى حمزة سأله:" هل مازلت على قيد الحياة يا حمزة؟" لم يجبه حمزة واكتفى بابتسامة عريضة.

وكان صاحب السعادة ماصابورى يرتدى قميصًا أبيض نصف كم دون إدخاله فى البنطلون البنى، وقبعة عريضة مشدودة إلى الأمام حتى جبهته. كان يبتسم مبديًا الفرحة.

أما صاحب السمو بامفوا فكان يرتدى قميصًا مزركشًا فضفاضًا بلا ياقة. له شعر كثيف ولحية.

: كيف حالكم؟" حياهم ماصابورى.

" نحن بخير" ردوا التحية.

نظر إليهم بعينين نافذتين قائلاً لهم:" جئنا اليوم لمقابلتكم بغرض أن نؤكد لكم أننا عند وعدنا الذى قطعناه لكم بأن المتورط لا يخرج وغير المتورط لا يدخل"

توقف عن الكلام ونظر إليهم ثانية، وحمزة ورفقاؤه فى ذهول منتظرين إياه أن يكمل حديثه.

" أنتم كلكم غير متور..." وقبل أن يكمل جملته نهض حمزة ورفقاؤه فى فرحة متعانقين. "انتظروا، انتظروا أولاً" أخبرهم.

"سيكون عندكم الوقت الطويل للغاية للفرحة، ولكن انتظروا أولاً" هدأهم.

"لقد جئنا نوصيكم بوصية. ليس هناك نار بدون دخان. هذه هى وصيتنا. وليأخذ الآن كل منكم أمتعته فى الاستقبال ولينصرف لمزاولة أعماله، فأنتم أحرار."

لم يكن لدى حمزة أى شيء يأخذه سوى حذائه الذى تركه يوم القبض عليه، أما ملابسه التى هى قميص فيروزى اللون وبنطلون رمادى اللون لامع فلم تعد تصلح ليطلق عليها ملابس، بل أصبحت مجرد قطع ممزقة. خرج من الباب الصغير للسجن بالبوابة. فلما خرج وقف ونظر إلى الشمس وهى محرقة، واستنشق هواء المكان الذى يقف فيه، هواءً نقيًا خاليًا من الروائح الكريهة ومن الروائح النتنة النابعة من قذارة الزنزانات. إنه طليق وإنه يتذكر كلمات عبده له" سنخرج لا محالة" وفعلاً خرج.

"وحتى من بقى بالسجن فإنه سيخرج لا محالة". قالها حمزة وهو بمفرده ثم نظر إلى الخلف وإلى بوابة السجن بغضب وكراهية، وقد امتلأ قلبه ألمًا، وفكر فيما تخبئ خلفها من عذاب ومهانة.

ولكن ماذا يفعل؟ ما باليد حيلة. وانصرف من مكانه بطيئًا متجهًا إلى بيته، إلى حبيبته خديجة وابنته صابرة. وهذه المرة يذهب بمفرده دون حاجة إلى جنود يصطحبونه ببنادقهم المصوبة إليه، قد خلت تلك الأيام. لم يشأ الالتفات إلى الخلف ثانية لينظر إلى تلك البوابة. تركها قائمة خلفه كما هى لتظل تبلع أناسًا كما ابتلعته وتلفظ آخرين كما لفظته.

المؤلف فى سطور :

● **شافى آدم شافى**

– من مواليد ١٩٤٠ فى زنجبار .

● بعد أن انتهى من المرحلة الابتدائية فى زنجبار التحق بمعهد السيد خليفة للتدريس من عام ١٩٥٧ وحتى عام ١٩٦٠ ، ذلك المعهد الذى أصبح يسمى الآن "معهد نكروما للتدريس" فى زنجبار.

● حصل على الدبلوم العالى فى السياسة الاقتصادية من معهد فريز هكارت بجمهورية ألمانيا الديمقراطية عام ١٩٦٠ .

اشترك فى الدورة التدريبية للكتابة الصحافية فى كل من :

– تشيكوسلوفاكيا من عام ١٩١٤ وحتى ١٩٦٥م.

– والسويد عام ١٩٨٢ .

– والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٣ .

● شغل منصب رئيس اتحاد الكتاب فى تنزانيا من عام ١٩٩٨ وحتى عام ٢٠٠٢ .

● انتخب رئيسا لمجلس تطوير الكتاب فى تنزانيا عام ٢٠٠٢.

كتب خمس روايات :

- روايته الأولى كانت بعنوان "الحمال" وهى الأكثر شهرة فى تنزانيا لأنها تدرس فى المدارس الثانوية فى مادة اللغة السواحيلية . وهى تتحدث عن الإضراب المشهور الذى قام به العمال المضطهدون بمدينة زنجبار عام ١٩٤٨ وتم طبعها عام ١٩٧٠ .

- روايته الثانية فهى بعنوان "قصر السيد فؤاد" وقد ترجمت إلى اللغة الألمانية والفرنسية والروسية .

- روايته الثالثة والتى جاءت بعنوان "الشد والجذب" حصلت على الجائزة فى مهرجان الكتاب فى دار السلام ١٩٩٨، وهى قصة حب ساخن بل ملتهب بين شاب إفريقى وفتاة هندية. وتتناول موضوعات السياسة والكفاح من أجل الاستقلال وما إلى ذلك .

- أما روايته الرابعة فهى التى بين أيدينا وهى "الخائن"

- وروايته الخامسة، فى طريقها، إلى النشر بعنوان "بعيدا عن الوطن" وهى تحكى قصة حقيقية عاشها المؤلف نفسه عندما كان يحاول اللجوء إلى أوربا عن طريق عبور حدود الدول المجاورة، ابتداء من تنزانيا ثم كينيا ثم السودان ثم مصر ومنها إلى أوربا وقد حدث هذا فى ستينيات القرن العشرين .

– وقد لوحظ أن روايات آدم شافى تتميز بما يعانيه المواطن الإفريقى من أحزان ومعاناة ومأساة، ذلك المواطن الذى لا يقف مكتوف اليدين بل يأتى فى النهاية ويكافح حتى ينتصر، إنه مواطن متفائل دائما عند آدم شافى .

– وأخيرا أقول إنه لايمكن لباحث أن يتحدث عن فن كتابة الرواية السواحيلية فى تنزانيا دون أن يذكر الروائى آدم شافى، وذلك لما عرف عنه فى رواياته أنه لا يترك شاردة ولا واردة تخص الزمان والمكان والحدث فى الرواية إلا وعالجها، بل ويضيف إلى ذلك الخلفية الدينية والتاريخية والثقافية والعرفية .

إنه روائى اكتملت فيه كل المقومات .

المترجمان فى سطور:

١- محمد إبراهيم محمد أبوعجل

ولد فى ١٧/٦/١٩٤٩م فى محافظة الغربية، جمهورية مصر العربية.

ويحمل من الشهادات العلمية:

١. ليسانس كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، قسم اللغات الإفريقية عام ١٩٨٥م بتقدير عام: ممتاز مع مرتبة الشرف.

٢. ليسانس كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر، بتقدير عام جيد جدًا ١٩٩٣م.

٣. الدكتوراه من كلية الدراسات الشرقية والإفريقية، جامعة لندن بإنجلترا، فى الأدب السواحيلى عام ١٩٨٤م.

التدرج الوظيفى:

معيدًا بقسم اللغات الإفريقية بكلية اللغات والترجمة منذ أكتوبر ١٩٧٥م، ثم مدرسًا بنفس القسم وذات الكلية منذ عام ١٩٨٤م، ثم أستاذًا مساعدًا منذ ١٩٩٠م، ثم أستاذًا منذ ١٩٩٧م بنفس الكلية وحتى الآن ٢٠٠٩م.

وترأس قسم اللغات الإفريقية بكلية اللغات والترجمة من الفترة ١٩٨٩م وحتى ١٩٩٣م، ومن الفترة ٢٠٠٣م وحتى ٢٠٠٧م.

وتقلد وكالة كلية اللغات والترجمة من ٢٠٠٧م وحتى الآن ٢٠٠٩م.

ومنذ عام ١٩٩٧م وحتى الآن ٢٠٠٩م عمل مقررًا لعدة لجان علمية بالكلية منها:

لجنة مكتبات، ولجنة خطط ومناهج، ولجنة دراسات عليا.

الأنشطة الأكاديمية:

- أشرف علميًا على ما لا يقل عن عشرين بحثًا بين ماجستير ودكتوراه فى موضوعات تتعلق باللغات والأدب الإفريقى فى مصر وكينيا.
- ناقش ما لا يقل عن ثلاث وعشرين رسالة ماجستير ودكتوراه فى مصر وخارج مصر.

ترجماته:

- لا تقل عن عشرة مؤلفات تعليمية فى الأدب السواحيلى ويجىء على رأسها كتاب "الأدب السواحيلى الإسلامى" الذى نشر نشرًا عالميًا ٢٠٠٣م.
- ترجم آلاف الصفحات من السواحيلية إلى العربية فى موضوعات متنوعة داخل مصر.
- ترجم مع آخرين "تفسير المنتخب للقرآن الكريم" من العربية إلى السواحيلية لوزارة الأوقاف المصرية.
- راجع للأزهر الشريف عدة ترجمات لمعانى القرآن الكريم من العربية إلى السواحيلية.
- على وشك الانتهاء هذا العام ٢٠٠٩م من ترجمة رواية سواحيلية سياسية مهمة للمجلس الأعلى للثقافة بمصر.

٢- عبد الله معاوية عبد الرحمن

– تنزانى الجنسية وهو من مواليد عام ١٩٦٣ بمدينة أروشا.

– تلقى تعليمه الابتدائى والثانوى فى المدارس الحكومية . ثم تعلم فى المعهد الأزهرى وحصل منه على الشهادة الإعدادية الأزهرية عام ١٩٨٣، وبعد ذلك جاء إلى مصر عام ١٩٨٥ ليلتحق بالمعهد الثانوى الأزهرى وحصل منه على الشهادة الثانوية الأزهرية سنة ١٩٨٨، ثم التحق بكلية أصول الدين جامعة الأزهر عام ١٩٨٨ وحصل على الإجازة العالية من نفس الكلية عام ١٩٩٢، بعد ذلك التحق بمعهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية وحصل منه على شهادة الدبلوم، ثم عمل مذيعا ومحررا ومترجما بالإذاعة المصرية (شبكة الإذاعات الموجهة) عام ١٩٩١ وكذلك عمل كخبير لغوى بقسم اللغات الإفريقية كلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر.

التصحيح اللغوى : طارق الشيمى
الإشراف الفنى : حسن كامل



إن هذه الرواية تعالج حدثًا تاريخيًا يتمثل فى قتل أحد الزعماء الأفارقة عام 1972، وتجعله الركن الركين فى بحث المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدول الإفريقية عامة، ولدولة تنزانيا خاصة، بعد الاستقلال، وذلك تحت قيادة تهتم فقط بمصلحة أقلية قليلة من شعوبها، تاركة الأغلبية الغالبة تقاسى الأمرّين فى مواجهة الفقر والجهل والمرض والظلم والظلام، وذلك بأسلوب أدبى رفيع لا يملكه سوى مؤلف الرواية آدم شافى رئيس اتحاد كتّاب تنزانيا.

لاف : نادية كشك
سى للسلسلة: عبد الحكيم صالح